

من خلال

السيرة الصحيحة

تأليف

أ.د. محمد أمحزون

دار السلام

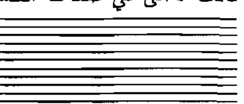
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منهج النبي ﷺ في الدعوة
من خلال
السيرة الصحيحة

الطبعة الخامسة

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

منهج النبي ﷺ في الدعوة

من خلال السيرة الصحيحة

تأليف

أ.د. محمد أمحزون

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار




بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

[هود : ١١٢] .




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن أعظم نعمة من الله - تبارك وتعالى - على العبد أن يهيئ له الأسباب ليكون من حملة هذا الدين ، وداعية إلى الله بإذنه ؛ إذ إن وظيفة الدعاة هي نفسها وظيفة الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - ومنزلتهم تلي منزلة المرسلين التي هي أشرف المنازل وأسمى المقامات ؛ لأن غايتهم هي : إعلاء كلمة الله ﷻ في الأرض ؛ التي بها صلاح الأنفس والمجتمعات وسعادتها في الدارين .

ولما كان الداعية إلى الله تعالى من صفوة الخلق وخيرهم وأحبهم إلى الله ﷻ ؛ كانت كلمته هي أحسن كلمة تقال في الأرض : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

على أن الدعوة إلى الله ﷻ هي سبب خيرية هذه الأمة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وبها استحقت القوامة على العالمين : ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وهي مناط الفلاح في الدنيا والآخرة : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

والدعوة قوامها : العلم النافع ، والعمل الصالح ، وسلامة القصد والغاية ، والفهم الصحيح ، والبصيرة في الدين ، ومعرفة حال المخاطبين والمدعوين ، والصلابة والجرأة في الحق ، والجدال بالتي هي أحسن .

إن وظيفة البلاغ المبين تقتضي الاستقامة على المنهج : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢] لأن مضمون الدعوة وجوهرها لايتغير ، وحقائقها ومبادئها لا تتبدل ؛ بل هي راسخة ثابتة على اختلاف الزمان والمكان والظروف والأشخاص .

لكن الخلط بين المنهج والطريقة ، وبين الجوهر والأسلوب ، وبين الموضوع والكيفية ؛ أوقع بعض الدعاة في نتائج خاطئة ؛ مما ترتب عليه تحريف وتمييع في مضمون وجوه الدعوة .

ولأجل ذلك ينبغي الفصل بين المنهج والوسيلة ؛ فتعدد طرق وأساليب البلاغ سنة ربانية ، لكن شرط الاتحاد في الأهداف والاتفاق على الأصول والثوابت التي تعدُّ مرجعية للمنهج .

ومن جهة أخرى : فإن وسائل الدعوة لا يحكم عليها إلا بعد عرضها على الشروط الشرعية ؛ هل المقصد المتوسل إليه مقصد شرعي صحيح ؟ وهل هو باقٍ لم يسقط ؟ وهل درجة الإفضاء كافية ؟ وهل يترتب على هذا التوسل مفسدة مساوية لمصلحته أو أعظم منها ؟ فمتى وجدت هذه الشروط جميعها في وسيلة ما ؛ حكم بصحة هذه الوسيلة ، ومتى تخلفت هذه الشروط أو بعضها ؛ حكم ببطلانها [١] .

ومن المعلوم أن وسائل الدعوة إما توقيفية ، أو اجتهادية .

فإن أريد بوسائل الدعوة : منهج الأنبياء الثابت في الدعوة إلى اللّٰه تعالى كضرورة البدء بالعقيدة ، ونبذ الشرك بمختلف صوره ، والبراءة من أعداء الدين ؛ فلا شك أن وسائل الدعوة بهذا المعنى توقيفية ، أي لا مجال فيها للاجتهاد .

وإن أريد بوسائل الدعوة : أساليب الدعوة إلى اللّٰه ﷻ ، وطرق تبليغ الدين ؛ كالبرامج الإعلامية المعتمدة على الصوت والصورة مثل : شريط الفيديو ، والحاسب الآلي ، وكإنشاء المدارس والمكتبات والجمعيات ، والمجلات والصحف ، واستعمال الآلات والمخترعات الحديثة المنتشرة في هذا العصر ؛ فلا شك أن وسائل الدعوة بهذا المعنى ليست توقيفية ، بل هي خاضعة للاجتهاد والنظر حسبما يحقق المصلحة ، شريطة إعمال الفكر وإطالة النظر في إطار الضوابط الشرعية [٢] .

(١) انظر : عبد اللّٰه التهامي : الوسائل وأحكامها في الشريعة الإسلامية ، ص ١٩ .
(٢) انظر : عبد اللّٰه التهامي ، الوسائل وأحكامها في الشريعة الإسلامية ، ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

أما بالنسبة لجوهر الدعوة : فإن غفلة بعض الدعاة عن حقيقة الإيمان وحدِّ الإسلام ، وعن مقتضى « لا إله إلا اللَّه » أدى إلى أن أشتبه عليهم الأمر ، حيث لبَّست عليهم الأنظمة التي تحكم بغير ما أنزل اللَّه ، أو تحكم ببعض الكتاب وتكفر ببعض ، وفي الوقت نفسه تدَّعي الإسلام ، وتظهر احترام العقيدة ، ولا تمانع في إقامة شعائر التعبد ، فصعب عليهم تبعًا لذلك التفريق بين أهل الإيمان والمنافقين .

كما أن دعاة آخرين لجأوا في ظل انتشار الفساد في المجتمعات الإسلامية ، وفي ظل سيطرة الحكومات العلمانية إلى الغلو ، وإلى تكفير الحكام وعامة المسلمين على السواء .

وهكذ فإن الشبهات من ناحية ، والأوضاع المزرية من ناحية ثانية ، وما عليه هؤلاء وأولئك من قلة العلم الشرعي والجهل بالضوابط الشرعية التي تحدد بها المسارات والمواقف ، أدى إلى إفراز مناهج مختلفة وتوجهات متباينة ، كرَّست الخلاف والفرقة في ساحة العمل الإسلامي .

فالمشَاهد اليوم [١] أن أصحاب الدعوة ينقسمون - في الغالب - إلى فرق وجماعات ، كل فريق تجتذبه آراء واجتهادات .

فمنها : فريق فطن إلى أصل القضية ومكمن الداء ، فأراد أن يصحح الأصول ، ويجلي بدهيات الدين ، ويربط ذلك بالعمل وضرورته ، لكنه سلك في ذلك حرفية عقيمة في الفهم ، ونبرة موغلة في التطرف ، ظانًّا ذلك هو منهج العزيمة والاستقامة ؛ فوقع في طامة تكفير عامة المسلمين من المخالفين لآرائه وطروحاته . فنفر بذلك من بدعة « الإرجاء » ليقع في بدعة شر منها وهي بدعة « الخروج » ، وسدَّ على نفسه منافذ الاتصال بالناس وإيصال الحق لقلوبهم ، [ووقع نتيجة لذلك في خطأ التلازم بين تكفير الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل اللَّه ، وبين تكفير أعيان عوام المسلمين ، كما نادى بوجوب الخروج على الحاكم فورًا ، وأن لا طريق إلى ذلك إلا الجهاد بالقوة والسلاح ، رغم عدم الإعداد والقدرة على ذلك] .

وفريق آخر : انطلق في دعوته بدون منهج واضح ، فلم يتناول القضية بالتأصيل العلمي بل بالتهويش العاطفي ، فكان أن وُوْجِهَ بأصول وقواعد لا يملك مثلها ، ولا

(١) نشير في الصفحات التالية - إلى نماذج من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ، مع بيان بعض الأخطاء التي وقعوا فيها .

يستطيع رَدَّها ، ففر من الابتلاء إلى الاحتواء ، ومن التغيير إلى التبرير ، وأخذ يسند هذا الواقع المنحرف ويأصله بنظريات بدعية ، ووجد في مذهب المرجئة بغيةً وسندًا فنسي مهمته الأساس ، وهي : تغيير هذا الواقع لا تبريره (١) .

وتحت ضغط الأعداء ماديًّا وإعلاميًّا ، أخذ هذا الفريق يتنازل شيئًا فشيئًا عن كثير من مبادئه ومنطلقاته العقائدية الرئيسة . فأصبح أمر العقيدة ليس أساسيًّا .

وقد كثر الحديث عند هؤلاء عن : « مصلحة الدعوة » و « الضرورة الشرعية » ، وصارت مثل هذه الأمور تقال كثيرًا وتبرر بها بعض المواقف . لكنها لم تقم على الدراسة الشرعية الأصولية التي تحدد ضوابطها وشروطها . وهذا النقص الكبير في الدراسة والتقعيد جعل مواقف هذا الفريق خاطئة ، وليست مبنية عل أسس واضحة ومدروسة (٢) .

وفريق ثالث : ينتسب إلى منهج السلف ، لكنه يطرح أطروحات ويأتي بحلول يعلم سلفًا أنها مخالفة لمنهج السلف الشمولي ، ولن تؤدي إلى تحقيق أهداف ومقاصد الدعوة الإسلامية مثل : حصر الإسلام ودعوته في طلب العلم - ويُقْصد بالعلم علمًا معينًا - والمنع من التكتل والاجتماع علىالأهداف والوسائل التي يرجى بها تحقيق غايات الدعوة الإسلامية ، ومعاداة تلك التكتلات والتحذير منها والتشكيك في أهدافها ، وتصوير الجماعات الإسلامية وكأنها العدو الأول والخطر الأكبر ، وجعل محاربتها أولى الأولويات . وبالمقابل يرفع شعار الولاء للأنظمة الفاسدة ، وتأصيل ذلك بأنه معتقد السلف - حاشاهم ذلك - .

على أن هذا الفريق لا يملك منهجًا واضحًا وشاملًا للتغيير وتطبيق شرع اللَّه ؛ فلا تبنَّى الدعوة بشمولها ، وخاطب الأمة وحركها بمنهج يستوعب جميع طاقتها ، ولا هو أفسح المجال لمن يسعى إلى ذلك ويعاون على البر والتقوى . فالأسس المهمة في عملية التغيير الشامل - وأهمها قيام جماعة الدعوة بنظامها الذي يحقق معنى الجماعة - يعتبر في نظره بدعة .

وعلى العموم : ظل هذا الفريق جامدًا على مسائل فرعية يتبناها ويرتب عليها

(١) سفر الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر : المقدمة (بتصرف) .

(٢) للاطلاع والتوسع في هذا الموضوع انظر كتاب : « الإسلاميون وسراب الديمقراطية » وهي دراسة شرعية أصولية لعبد الغني بن محمد الرحال .

الولاء والبراء والسنة والبدعة [١] .

إن الهدف الشرعي من وجود أي جماعة إسلامية ، والمبرر الوحيد لوجودها وبقائها : هو خضع ومغالبة الكفر بكل فصائله وأنواعه ؛ لتكون كلمة اللَّه هي العليا في الأرض . ولا يتأتى ذلك إلا بالمعرفة الصحيحة ، والتربية الطويلة ، وامتداد الإعداد والتخطيط ، والعمل المنظم .

ولا يمكن تحقيق ذلك الهدف إلَّا في إطار منهج واضح المعالم ، يحدد مسار الطريق بدقة ووضوح ، وبمنأى عن اضطراب التصورات وتداخل الأهداف بالوسائل ، واختلاط المراحل ، ونسيان الغاية الأهم في سبيل تحقيق مصالح جزئية ضيقة ، أو استعجال الثمرة باللجوء إلى القوة قبل الأوان ، أو اتباع الهوى والجمود على مسائل فرعية وجزئية بسبب ضيق الأفق وعقلية البعد الواحد .

إن غياب المنهج الإسلامي للتغيير بشكله الشمولي ، وافتقار معظم الحركات الإسلامية إلى البرامج التربوية الصارمة ، وإلى النظرة العلمية العميقة لطبيعة الصراع الذي تخوضه ، وانحصار همِّ بعضها في تحقيق مكاسب محدودة عن طريق المشاركة في الانتخابات والدخول في المجالس النيابية ، ودخول البعض الآخر في صراعات وصدامات غير محسوبة العواقب مع الأنظمة الحاكمة ؛ كل ذلك أدى إلى تخلخل البناء .

ومما لا ريب فيه أن حسم الخلاف بين المناهج المتباينة في ساحة العمل الإسلامي غير ممكن بدون العودة إلى المنهج النبوي في التغيير ؛ وهو المنهج الذي ارتضاه اللَّه ﷻ لرسوله ﷺ في دعوته منذ البعثة النبوية حتى التحاقه بالرفيق الأعلى .

وتتجلى خصائصه في أنه :

١ - منهج مسدد بالوحي في منطلقاته وأهدافه ، وثوابته وأصوله ، وأسسه ومرتكزاته .

٢ - منهج شامل ومتكامل يستقصي جميع قضايا الدعوة علمًا وعملًا وفكرًا وسلوكًا ، وعقيدة وشريعة . كما يضبط السلوك ويحكم الحركة أثناء التعامل مع واقع الأمور وحقائق الأشياء .

---

(١) انظر : حوار مع الشيخ عبد المجيد الريمي عن هموم الدعوة ، ص ٦٠ - ٦٧ .

٣ – منهج يُعلِّم الداعية كيف يتعامل مع الواقع بالمعرفة العميقة والفحص الدقيق لاستقراء المناط الحقيقي ليتنزل عليه حكمه الصحيح لإصابة الحكم الشرعي المطالب به إزاء هذا الواقع .

علمًا بأن هذا المنهج هو الإطار الوحيد الذي لا يملك أي داعية – يبتغي النجاة في الدنيا والآخرة – أن يخرج عليه ، لما يؤدي إليه هذا الإطار من تأصيل متابعة الرسول ﷺ التي هي صمام الأمن من الزيغ والانحراف ، وما يؤدي إليه من مقاصد شرعية ومصالح معتبرة تسدد خطوات الدعاة للوصول إلى هدفهم المنشود ، وهو التمكين لدين اللَّه في الأرض .

ولما كانت السيرة النبوية هي التطبيق الواقعي لمنهج النبي ﷺ في الدعوة إلى اللَّه ، فمن البديهي بلورة أسس ومعالم هذا المنهج من خلال وقائعها وأحداثها .

ومن ضروريات هذا المنهج : أن يُعلم أن رسول اللَّه ﷺ كان يتلقى الوحي من اللَّه تعالى ، ويسير في دعوته على منهج قدَّره اللَّه له ، وهيأ له سلوكه ، وأحكمَ أسبابه ، وفق حكمة بالغة قد لا يستطيع الدعاة اكتشاف بعضها ، فضلًا عن ادعاء موافقتها .

فتسلسل الأحداث من بداية الوحي إلى دار الأرقم ، إلى الصدع بالدعوة ، إلى الحصار في شعب أبي طالب ، إلى دعوة القبائل وطلب النصرة منها ، ثم الهجرة وما تلاها : من بدر ، إلى أُحد ، إلى يوم الأحزاب ، ثم من الحديبية والفتح إلى تبوك ، وما تخلل ذلك من أحداث ومواقف ؛ إنما كانت تسير في الأصل وفق تدبير رباني ولطف إلهي : الوحي ينزل آمرًا وموجهًا ، وأحيانًا معاتبًا ، وأحيانًا أخرى محذرًا ، والنبي ﷺ يسير واثقًا ومصممًا : « أنا عبد اللَّه ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني » [1] ، والصحابة ﷺ واثقون كل الثقة ، بل مؤمنون كل الإيمان بقيادته وتوجيهه ﷺ ، عالمون أن متابعته والاعتصام بهديه هي قضية إيمان أو كفر ونفاق .

فإذا وقعت حالة شاذة كيوم الحديبية ؛ إذ جرى من بعضهم شيء من التردد أو مراجعة النبي ﷺ ؛ فإن ذلك يبقى في ذاكرتهم الحية خطأً عظيمًا لا يُنسى ، حتى قال عمر بن الخطاب ﷺ : « فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ ، حتى رجوت أن يكون خيرًا » [2] .

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجزية والموادعة . (ح ٣١٨٢) ج ٤ ص ٧٠ . وأحمد : المسند ، ج ٤ص ٣٢٥ واللفظ له .

(٢) أحمد : المسند ، ج ٤ ص ٣٢٥ .

أما السائرون على الطريق بعده ﷺ : فهم مهما بلغوا من العلم والفهم وتجريد المتابعة إنما يترسمون الخُطى ، ويسددون ويقاربون وفق الأصول الكلية والقواعد التأصيلية .

وإذا كان الوحي قد انقطع ، والدعاة لا يستطيعون تفسير بعض أحداث السيرة على حقيقته وحكمته ؛ فإن هذا يحتم السير على أصولها الواضحة وقواعدها القطعية ، وأن نحذر كل الحذر من مزالق الانحراف عن الخط الصحيح الذي رسمه رسول اللَّه ﷺ ؛ فلقد حلت العقوبة الرادعة محل العتاب الرباني بالنسبة للجيل الأول ، وأصبحت الأحداث والنكبات هي وحدها التي تربي الأمة وتصحح مسارها .

ثم إذا كان اللَّه تعالى ربَّى الجيل الأول أيضًا بالأحداث كما في أُحد : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] فما يتوقع الدعاة في هذا العصر ؟! .

إنه لا يصح بحال من الأحوال الأخذ بجزئية من جزئيات المنهج التربوي الحركي للسيرة دون معرفة ملابسات تلك الجزئية وما يحيط بها ضمن المنهج بكامله ، فيقع الشطط والزيغ عن الطريق من أصله .

فكما أنه من الإيمان رد المتشابه إلى المحكم من نصوص الشرع ، فكذلك يجب رد الملتبس إلى الواضح من وقائع السيرة ، ولا ينبغي قطعًا فصل التربية الحركية عن التربية الإيمانية .

فعلى سبيل المثال : لا يجوز الإعراض عن مواقف النبي ﷺ الواضحة القاطعة من الكفار والمشركين والاستدلال فقط أنه - في مرحلة من مراحل دعوته تختلف عما نحن فيه ولملابسات وأسباب خاصة ، وفي حدود لا تمس العقيدة والدعوة في شيء بل تخدمها - دخل في جوار مشرك ، أو حالف إحدى القبائل أو وادعها في مرحلة القوة ، ثم يتخذ بعضهم من هذه الجزئية نقطة البدء في خطٍّ لا نهاية له من التنازلات والركون إلى المرتدين والمنافقين تحالفًا وتناصرًا وعملًا وهدفًا ، أو أن نلجأ في مرحلة الاستضعاف تحت ضغط ردود الأفعال ، وعدم السيطرة على المشاعر والانفعالات واستدراج الأعداء إلى المواجهة والصدام قبل وجود القاعدة الإسلامية الصلبة الواعية بالشكل المطلوب .

والذين يفعلون ذلك ليسوا أبدًا سائرين على منهج رسول اللَّه ﷺ في دعوته ، ولا مقتدين بسيرته ، ومن ثم سيكلنا اللَّه ﷻ إلى أنفسنا ، ومن وُكل إلى نفسه فلن يتوقع نصرًا ولا مددًا .

ولنعلم أن منهج الدعوة إلى اللَّه تعالى كما سار فيه النبي ﷺ هو حلقات محكمة متناسقة ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، ابتداءً من بدء الدعوة ، وانتهاءً باكتمال نزول الشريعة ، ومرورًا بتلك الأحداث كلها .

ومن ضروريات سير الدعوة : أن نترسم تلك الخطى متابعين سيرها التدريجي المحكم ، مع مراعاة تغير وسائل وأدوات العصر من ناحية ، ومع البعد عن التفسير الحرفي أو المنحرف لمفهوم المرحلية من ناحية ثانية .

ومن اللافت للنظر أن هذه الدعوة تختلف عن كل دعوة وحركة ؛ فهي نبتة فريدة يجب أن تنشأ تنشئة حسنة ، فتنمو في تربة نقية ، وتسقى بماء المتابعة الدائمة والصبر الجميل ، وإن طريقها الشاق الطويل لا يقطع بالقفزات المهلكة ، ولا يمكن اختصاره بالانحرافات القاتلة [1] ،وإنما يلتمس عبر المنهاج الذي رسمه لنا رسول اللَّه ﷺ مسددًا بالوحي ، وقوامه الوسطية والاعتدال والتوازن الدقيق بين الإحجام والإقدام ، فلا نستسلم لوقع ردود الأفعال التي تدفع إلى اتخاذ المواقف المتسرعة غير المحسوبة ، ولا نميع مواقفنا ونستسلم في منتصف الطريق تحت ضغط العروض والإغراءات وأنصاف الحلول التي تعصف بالدعوة إلى غير رجعة .

إن قوة المنهج تتجلى في : الصمود أمام الإغراءات والعروض ، وأمام التحديات العاطفية والانفعالات . على أن الإصلاح لا يتم في ليلة واحدة ، والخير يسترسل مع بذل الجهد والصبر وفقًا لسنة اللَّه في التدرج والنماء ، ومعالم الحق لا بد لها من أطوار تمهد لها . وواجب الدعاة في هذا العصر أن يلتمسوا الهدى في سيرة الرسول ﷺ وفي منهجه الدعوى علمًا ، وتربية ، وتخطيطًا ، وتنظيمًا .

لأجل هذا رأيت الحاجة ماسة إلى إعداد دراسة عن منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال النظر في سيرته ﷺ فكان هذا الكتاب بعنوان :« **منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة** » .

---

(١) انظر : محمد سرور زين العابدين : دراسات في السيرة : مناقشة شبهات المتحالفين مع العلمانين والمرتدين، ص ٢١ - ٢٣ (بتصرف يسير) .

خطة البحث

وقد تم تقسيم البحث إلى المقدمة ، وبابين رئيسين ، وخاتمة .

فأما الباب الأول فعنوانه : الفترة المكية . وتحته أربعة فصول :

الفَصِلُ الأولُ : **خصائص الفترة المكية في مجال المعرفة :**

وقد جرى الكلام فيه في ثلاثة مباحث عن : العلم بالعقيدة ، والعلم بالسنن الربانية ، والعلم بمقاصد الهجرة وأهدافها .

الفَصِلُ الثَّانِي : **خصائص الفترة المكية في مجال التربية :**

جرى الكلام فيه في خمسة مباحث عن : التربية بالأحداث - التربية بأعمال القلوب - التربية بالأخلاق - تكوين القاعدة الصلبة نتيجة للتربية الشاملة - الثبات على المبدأ ورفض المساومة عليه .

الفَصِلُ الثَّالِثُ : **خصائص الفترة المكية في مجال التخطيط :**

والكلام فيه في ثلاثة مباحث عن : الخطة النبوية في المرحلة الأولى من الفترة المكية (الدعوة السرية) - الخطة النبوية في المرحلة الثانية من الفترة المكية (الدعوة الجهرية) - الخطة النبوية في المرحلة الثالثة من الفترة المكية .

الفَصِلُ الرَّابِعُ : **خصائص الفترة المكية في مجال التنظيم :**

والكلام فيه في ثلاثة مباحث أيضًا عن : الدعوة السرية - تربية الفرد في إطار الجماعة - إدارة الدعوة .

والباب الثاني بعنوان : الفترة المدنية . وتحته أيضًا أربعة فصول مثل فصول الباب الأول :

الفَصِلُ الأولُ : **خصائص الفترة المدنية في مجال المعرفة :**

وفيه ثلاثة مباحث : الحركة العلمية - العلوم التي عني بها المسلمون - فقه أحكام الشريعة .

الفَصِلُ الثَّانِي : **خصاص الفترة المدنية في مجال التربية :**

وفيه ثلاثة مباحث : التربية بالأحداث - التربية باعمال القلوب - التربية بالأخلاق .

الفَصۡلُ الثَّالِثُ : خصائص الفترة المدنية في مجال التخطيط :

وفيه أربعة مباحث : خطة مراحل تشريع الجهاد - خطة إدارة الصراع في مواجهة المشركين - البعد الإستراتيجي لخطة النبي ﷺ في مواجهة الروم البيزنطيين والتمهيد لفتح بلاد الشام - مراعاة الظروف المتغيرة في رسم الخطط الأمنية والاقتصادية .

الفَصۡلُ الرَّابِعُ : خصائص الفترة المدنية في مجال التنظيم :

وفيه خمسة مباحث : التنظيمات الاجتماعية - التنظيمات الإدارية والسياسية - التنظيمات الحربية - التنظيمات المالية - التنظيمات العمرانية .

- ثم خاتمة البحث وفيها خلاصته وزبدته .

- وألحقت بالبحث فهرسًا للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات .

منهج البحث

وقد كان من منهج البحث ما يأتي :

- تم اعتماد الروايات الصحيحة والحسنة وتقديمها على غيرها فيما يتعلق بقضايا العقيدة والشريعة وهو الغالب في هذه الدراسة .

- النظر إلى تعدد الطرق بإدراج الروايات التي لها أصول في الصحيح ، أو التي تتعدد مخارجها فتعتضد وتقوى بذلك .

- عدم التشدد في الروايات المتعلقة بالعمران : كالخطط ، ووصف الصناعات والحرف وما شاكل ذلك ، أو المتعلقة بتعيين الولاة وعمال الصدقات ، أو المتعلقة بوصف ميادين القتال والطرق المسلوكة في الغزوات والرايات ونحو ذلك ..

وهذا المنهج اتبعه علماء الحديث ، حيث روي عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قوله : « إذا روينا عن رسول اللَّه ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد ، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا أو يرفعه تساهلنا في الأسانيد » [(١)] .

---

(١) الخطيب : الكفاية في علم الرواية ، ص ٢١٢ . وانظر تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة : (شروط الرواية المقبولة) ج ١ ، ص ٩٤ - ١٠٠ .






منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة



الفترة المكية

الفصل الأول

خصائص الفترة المكية في مجال المعرفة

المبحث الأول : العلم بالعقيدة .

المبحث الثاني : العلم بالسنن الربانية .

المبحث الثالث : العلم بمقاصد الهجرة وأهدافها .




تمهيد

لقد كان أول ما نزل من آي القرآن الكريم خمس آيات كانت استهلالًا للرسالة الخاتمة الخالدة ، وهي الآيات التي افتتُحت بها سورة العلق : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١: ٥] .

وبهذه الآيات وضع اللَّه تعالى معالم الرسالة الإسلامية الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم ، مبينًا أنها رسالة العلم والمعرفة والعقل ، وهي أعظم نعم اللَّه تعالى على الإنسان (١) .

وبهذه الآيات البينات ، وما تضمنته من الإشادة بالقراءة والكتابة والعلم ، أبان اللَّه ﷻ لنبيه ﷺ ولأمة الإسلام أن المعرفة بوسائلها : من قراءة وكتابة وتعلُّم ؛ هي الأسلوب الأمثل لتبليغ الرسالة .

وبهذه الآيات أُعطيت الأمة مفاتيح الإصلاح والتقدم والرقي ؛ لتعلم أنه لا إصلاح ولا مدنية ولا حضارة بغير علم ومعرفة ؛ فالجهل - وهو نقيض العلم - لا يأتي إلا بالشر والفساد والتخلف ، كما أن الهداية إلى معرفة الحق واعتناقه والحرص على إقامة معالمه والدعوة إليه لا يكون إلا مع العلم ، ولا يكتب للعلم النمو والانتشار إلا إذا سجله القلم ونشره وأعلن عنه (٢) .

على أن العلم لا يسلك إلى القلوب سليقة وطبعًا ، أو يتلقاه الناس غريزة وفطرةً ، وإنما يخضع للقوانين التي أودعها اللَّه ﷻ في الوجود ، ولسنن اللَّه في نظام الحياة .

والكشف عن هذه السنن يقوم على : التعلم ، والبحث ، والتدبر ، وإعمال الفكر ، واستقراء الظواهر ، مما يقود إلى إماطة اللثام عن قوانين المادة وسنن الاجتماع ، للإفادة من ذلك في بناء صرح الحضارة الإنسانية ضمن التوجيهات

---

(١) محمد الصادق عرجون : محمد رسول اللَّه ﷺ ج ١ ص ٥٤٢ .
(٢) محمد الصادق عرجون : محمد رسول اللَّه ﷺ ج ١ ص ٥٤٣ .

والضوابط والحدود الإلهية .

ومن اللافت للنظر أن استفتاح الوحي بهذه الآيات البينات فيه دلالة واضحة أن العلم في دائرة سنن اللَّه في الحياة يعد من أهداف الأمة الإسلامية في تبليغها رسالة الإسلام ؛ « لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة ، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة ، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها ﷺ » (١) .

ولا شك أن هذه المنزلة الرفيعة التي منحها الإسلام للعلم ، حفزت المسلمين بأمر وتشجيع من رسول اللَّه ﷺ على طلب العلم طلبًا موصولًا دائمًا .

ولهذا الغرض كان النبي ﷺ يجتمع بأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين (٢) .

كما كان يقوم بعضهم بإقراء بعض مثلما كان يفعل خبّاب بن الأرت حيث كان يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد رضي الله عنهما يقرئهما القرآن من الرقاع (٣) .

بل كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ حريصين أشد الحرص على معرفة كتاب اللَّه مثلما يفعل ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه ؛ حيث كان يأتي إلى الرسول ﷺ يستقرئه القرآن ويلح عليه في ذلك . وهو الذي نزلت بسببه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (٤) [عبس : ١، ٢] .

---

(١) محمد الصادق عرجون : محمد رسول اللَّه ﷺ ج ١ ص ٥٤٥ .

(٢) انظر ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ج ١ ص ٣٦٧ . وابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

(٣) انظر ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٤) انظر الترمذي : السنن ، ج ٥ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وقال : حديث حسن .

المبحث الأول العلم بالعقيدة

في الفترة الأولى التي قضاها رسول اللَّه ﷺ في مكة منذ بعثته إلى أن هاجر إلى المدينة ، عني القرآن المكي أولًا بإصلاح العقيدة وتخليصها من شوائب الوثنية وتهذيب النفوس بتجريدها من رذائل الصفات ، حتى تجتمع القلوب على توحيد اللَّه ﷻ ، وتمحي من النفوس آثار الجاهلية .

كما عني القرآن المكي في هذه الفترة بتعميق الإيمان في النفوس وبيان أبعاده القلبية والقولية والعملية ، والتركيز على مقتضيات لا إله إلا اللَّه ، التي تعني بنقل الإنسان من تقاليد وأعراف الجاهلية إلى أصول الإسلام وأحكامه في نواحي الحياة المختلفة .

وكان من حكمة اللَّه تعالى أن جعل لترسيخ هذه العقيدة - على أهميتها وخطورتها - المدة الكافية ، وهي الفترة المكية ؛ حيث ظل الوحي ينزل بمكة ثلاثة عشر عامًا ليوضح معاني ومقاصد هذه العقيدة ضمن التطبيق العملي في واقع الحياة .

ولم يعرض التشريع القرآني ولا النبوي في هذه الفترة لشيء من التشريعات العملية إلا ما له ارتباط بالعقيدة ؛ كتحريم ما لم يذكر اسم اللَّه عليه من الذبائح : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، أو كان عبادة تربطهم باللَّه ﷻ وتوجههم إلى الخير : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٢] .

توحيد اللَّه ﷻ في ربوبيته

جاء القرآن المكي موضحًا لنوع آخر من التوحيد هو توحيد الربوبية ، ومن مقتضياته : أن الإحياء والإماتة ، والرزق ، والنفع ، والضر وتدبير شؤون الخلق ، والتشريع من تحليل وتحريم ، من خصائص رب العالمين . وقد أفصح القرآن المكي عن ذلك في مواضع كثيرة ؛ من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان : ٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر : ٨] ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٣] .

وقد بيَّن القرآن الكريم أن العلَّة في اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه ، هي بما أعطوهم من حق التشريع في التحليل والتحريم وأطاعوهم فيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وقد علَّم رسول اللَّه ﷺ أصحابه تجريد هذا النوع من التوحيد ، فنفوا حسًّا وواقعًا كل ما يضاد توحيد الربوبية من اعتقاد متصرف مع اللَّه ﷻ في أي شيء من تدبير الكون ؛ حيث استقر في قلوبهم إلى درجة اليقين أن اللَّه ﷻ هو المحيي المميت ، وأنه هو الضار النافع ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه هو المدبر المشرع بيده كل شيء .

كما رسخ في قلوبهم بفعل التوجيهات القرآنية والنبوية أن المخلوقات البشرية إن هي إلا أدوات لقدر اللَّه ، وأنها حين تضرهم فهي تضرهم بشيء قدَّره اللَّه عليهم ؛ وحين تنفعهم فإنما تنفعهم بشيء قد كتبه اللَّه لهم ، فلا ملجأ ولا منجا من اللَّه إلا إليه .

وحين كان رسول اللَّه ﷺ يعلم أصحابه هذه العقيدة ويربيهم عليها ، إنما كان ينشئ بقدر اللَّه ذلك اليقين القلبي الذي ينبثق منه السلوك العملي ؛ فليست العقيدة مفهومًا معرفيًّا ذهنيًّا تستوعبه الأذهان وكفى ، إنها على هذ النحو لا تصنع شيئًا في عالم الواقع ، كالفلسفة في الأبراج العاجية لا تغير شيئًا في واقع الناس ، إنما هي عقيدة ترسخ وترسخ حتى تصبح يقينًا قلبيًّا تنطلق على هداه مشاعر القلب ، ويجري بمقتضاه السلوك العملي للإنسان (١) .

وبهذه الصورة الناصعة آتت العقيدة ثمارها المباركة في مواقف الصحابة وهديهم ؛ فلم يخشوا إلا اللَّه ، ولم يتوكلوا إلَّا عليه ، ولم يلتجئوا إلا إليه ،

(١) انظر : محمد قطب : واقعنا المعاصر : ص ٤٨٨ .

وصدعوا بالحق في وجه الباطل لا يخافون لومة لائم ؛ لأنهم علموا حق العلم أن كلمة الحق لا تقدم أجلًا ولا تأخر رزقًا .

تُرى : كم يحتاج الشاب المسلم الذي يعمل في حقل الدعوة من جلسة علمية ودرس وموعظة وتوجيه ليرسخ في قلبه إلى درجة اليقين أن الأرزاق والآجال بيد اللَّه وحده ؟ فهو المحيي المميت ، وهو الضار النافع ، وهو المعطي المانع ، وهو الذي بيده مقاليد كل شيء ، ذلك أن كثيرًا من المسلَّمات العقدية تبقى بدهيات ذهنية تستقر في وقت السلم والأمن في الشعور ، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة ومحك الاختبار ؛ لأنها ليست عميقة الجذور ، ولم تعد يقينًا قلبيًّا بمفعول التربية .

توحيد اللَّه ﷻ في ألوهيته

ولأن المعركة من نوح إلى محمد صلوات اللَّه عليهما ، واحدة ، وقضيتها واحدة ، فقد جاء التعبير عن الرسالات جميعًا في القرآن الكريم بأنها كتاب واحد : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

فطبيعة دعوة الرسل جميعًا أنها دعوة واحدة إلى منهج التوحيد بكل فروعه وأنواعه ، وما يستلزمه ذلك من نبذ الشرك بكل صوره وألوانه : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف : ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] .

وجاء في حديث علي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « أفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا اللَّه » [1] .

وبناءً على ذلك : فإن الصراع بين الأنبياء الذين يحملون لواء لا إله إلا اللَّه وبين الجاهلين ، أو الملأ - كما يسميهم القرآن الكريم - لا يرجع إلى البعثة النبوية فحسب ، وإنما تمتد جذوره إلى فجر البشرية . وقد أكَّد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهو يتنزَّل بقصص الأنبياء وقصص المكذِّبين من قبل في الفترة المكية : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥] .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم ٤٠٧٢ ج ٣ ، ص ٤٦٢ . وقال الألباني : إسناده مرسل صحيح ، والحديث ثابت بمجموع شواهده . السلسلة الصحيحة ، ج ٤ ، ص ٧ - ٨ .

أصلان يقوم عليهما الدين

لقد دَلَّ استقراء نصوص الكتاب والسنة أن هذا الدين يقوم على أصلين :

الأول : ألا يُعبد إلا اللَّه ، بالمعنى الشرعي للعبادة ، « وهي اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة » [(١)] .

الثاني : ألا يعُبد إلا بما شُرِّع على لسان رسوله ﷺ ؛ (فلا إله إلا اللَّه) لا تعني مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا اللَّه ، وأن اللَّه رب كل شيء ، كما كان المشركون عبّاد الأصنام مقرين بذلك : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥، والزمر : ٣٨] لكنهم اتخذوا في واقع الأمر شركاء مع اللَّه ﷻ يتقربون إليهم بالطاعات ، فلم ينفعهم هذا الإقرار ؛ ذلك أن التوحيد الحق يتضمن محبة اللَّه ﷻ ، وتعظيمه ، وإجلاله ، والخضوع له ، والتسليم لأمره ، والانقياد لطاعته في جميع شئون الحياة ، بدءًا بالعقيدة ، ثم العبادات وسائر المعاملات التي يتعرض لها الإنسان في حياته ؛ لأن تحقيق شهادة أن لا إله إلا اللَّه « تنفي عن قلبه إلاهية ما سوى الحق ، وتثبت في قلبه إلاهية الحق ... بحيث يكون محبًّا للَّه ، معظمًا له ، عابدًا له ، راجيًا له ، خائفًا منه ، محبًّا فيه ، مواليًا فيه ، معاديًا فيه ، مستعينًا به ، متوكلًا عليه ... وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلاهية اللَّه ﷻ ... » [(٢)]

وعلى ذلك فإن هذا يعني : الإذعان للإسلام ، والخضوع له في التصور والفكر والسلوك ، في جميع نواحي الحياة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

ولا شك أن العرب – وهم أدرى وأعلم بلغتهم – يدركون بداهةً أنَّ لا إله إلا اللَّه تعني طاعة اللَّه وعبادته وحده لا شريك له .

ومعنى ذلك : نزع السلطان الذي يزاوله الأمراء والحكام وزعماء القبائل بمقتضى أهوائهم ومصالحهم ورده كلّه إلى اللَّه ﷻ : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

يقول صاحب الظلال رحمه الله في تفسير هذه الآية : « ولا نفهم هذ التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حيث ندرك معنى العبادة التي يخص بها اللَّه وحده .

(١) ابن تيمية : العبودية ، ص ٤ .
(٢) ابن تيمية : العبودية ، ص ٤٨ .

إن معنى : عَبَد في اللغة : دان وخضع . ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر ، إنما كان هو معناه اللغوي نفسه . فعندما نزل هذا النص أول مرة (في الفترة المكية) لم يكن شيء من الشعائر قد فُرض حتى ينطلق اللفظ إليه ، إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي ؛ كان المقصود به هو الدينونة للَّه وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده ، سواءً تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية ؛ فالدينونة للَّه وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص اللَّه سبحانه بها نفسه ولم يجعلها لأحد من خلقه .

وحين نفهم معنى العبادة على هذ النحو ؛ نفهم لماذا جعل يوسف ﷺ اختصاص اللَّه بالعبادة تعليلًا لاختصاصه بالحكم ؟

فالعبادة - أي الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره ، وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة » [1] .

وبهذا المعنى كان العرب يدركون أنَّ (لا إله إلا اللَّه) رفض للسلطان الوضعي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية وهي العبادة والطاعة ، وخروج على كل من يحكم بشريعة أو قوانين لم يأذن بها اللَّه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

ولذلك لم يكن يغيب عن المشركين - وهم يعرفون المدلول الحقيقي لدعوة لا إله إلا اللَّه - ماذا تعني هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ومصالحهم وسلطانهم ، وإلى ذلك نَّبه ورقة بن نوفل بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة فقال : « ليتني أكون حيًّا إذا يخرجك قومك » ، فيسأله النبي ﷺ في استغراب : « أو مخرجي هم ؟! » فيقول ورقة : « لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي » [2] .

وأخرج الحاكم والبيهقي وأبو نعيم من حديث علي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ لما خرج في موسم الحج يدعو قبائل العرب إلى الإسلام ، عرض نفسه على بني شيبان ابن ثعلبة ، فدعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأنه عبده ورسوله ، وأن يؤووه وينصروه ليبلغ رسالة ربه ، فقال له المثنى بن حارثة الشيباني :

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٩٠ .

(٢) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا يحيى بن بكير ، (ج ٤) ، ج ١ ، ص ٣ - ٤ .

وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك ، فرد عليه النبي ﷺ بقوله : « وإن دين اللّٰه ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه » (١) .

التوحيد قول وعمل

إن شهادة أن لا إله إلا اللّٰه لم تكن مجرد كلمة تقال باللسان ، ولا يمكن أن تكون كذلك في مرحلة من مراحل الدعوة ، فضلًا عن مرحلة التأسيس التي هي أشق المراحل وأهمها ؛ وإلا فما معنى تلك المعاناة القاسية التي لقيها المسلمون من المشركين وما موجبها ؟! وإنما كانت هذه الشهادة نقلةً بعيدة ومعلمًا فاصلًا بين حياتين لا رابطة بينهما : حياة الكفر ، وحياة الإيمان ، وما يستلزمه ذلك من فرائض وتعبدات ومشقات أعظم وأكبر من فريضة الصلاة والزكاة ونحوها .

– **ومن ذلك** : فريضة التلقي الكامل في التشريع والحكم وكل ميادين الحياة عن اللّٰه ورسوله ، ونبذ موازين الجاهلية وقيمها وأخلاقها وأعرافها وتشريعاتها .

– **ومن ذلك** : الولاء المطلق للّٰه ورسوله ، والعداء الصارم للكفار ولو كانوا آباءً وإخوانًا وأزواجًا وعشيرةً .

– **ومن ذلك** : فريضة الصبر على الأذى في اللّٰه الذي لا تطيقه إلا نفوس سمت إلى القمة ، تحمل الفرائض والواجبات حتى إن الواحد ليكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُلقى في النار (٢) .

وهذا ما كان يعانيه بلال ﷺ وهو يُلبس أدرع الحديد ويُسحب في رمضاء مكة وقت الظهيرة (٣) ، وما كان آل ياسر يلقونه وهم يتعرضون لأشد بلاء شهدته أسرة مضطهدة (٤) ، وغير ذلك كثير مما سجلته كتب السيرة والحديث .

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ، رقم ٢١٤ ، ج ١ ، ص ٣٧١ – ٣٨٠ . وقال ابن كثير في تاريخه : رواه الحاكم والبيهقي ، ج ٣ ، ص ١٤٤ . وقال الحافظ في الفتح : إسناده حسن ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .

(٢) انظر : سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٢٥ .

(٣) أخرج ذلك ابن ماجه في المقدمة ، رقم ١٥٠ . وقال المحقق : قال البوصيري في زوائد ابن ماجه : إسناده ثقات ، ج ١ ، ص ٥٣ . وقال الحاكم في المستدرك : صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي : ج ٣ ، ص ٣٨٤ .

(٤) انظر أحمد : المسند ، ج ١ ، ص ٦٢ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ج ٩ ، ص ٢٩٣ . والحاكم في المستدرك على الصحيحين ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ – ٣٨٩ ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ ، وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

إنَّ في إمكان أي إنسان أن يصلي ما شاء اللَّه له ، وينفق ما شاء اللَّه له ، دون أن يناله كبير مشقة ، ولكن أي إنسان هذا الذي يستطيع أن يخالف عادات وأعرافًا اجتماعية درج عليها المجتمع أجيالًا ويتحداه بمخالفتها ؟ .

فما بالك إذا كان الأمر ليس مجرد مخالفة عادة أو عرف ، وإنما هو مفاصلة كاملة ، ومنابذة تامة لكل عبادة جاهلية ، وقيمة جاهلية ، وعرف جاهلي ؟! ، ثم هو مع ذلك زجر قاطع للنفس عن شهواتها وملذاتها ومراقبة شديدة لها ؛ ولهذا كانت النماذج الكثيرة في الجيل الأول ممن يشهد ألَّا إله إلا اللَّه ، فيعود من فوره إلى بيته ليحطم الأصنام التي طالما عبدها ، وليقطع العلائق التي طالما وثقها [1] .

وهكذا فهم المسلمون دلالة هذه الكلمة المتميزة ، كما فهمها الكافرون على حدٍّ سواء ، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] ؛ فهمها المسلمون فالتزموا بما تفرضه عليهم من تبعات وتكاليف ، وقاومها الكافرون ؛ لأنهم فهموا مقتضاها وما يترتب عليها من ذهاب سلطانهم وتحطم كيانهم ، وتهافت أساطيرهم وأوهامهم .

إنه حتى على المنطق الجاهلي لا يصح للمرء أن يتصور شهادة بلا أثر في واقع الحياة، وإلا أفكان الجاهليون يقتلون مواليهم ، ويعذبون أبناءهم وإخوانهم ، ويقطعون أرحامهم ؛ لمجرد كلمة تقال باللسان ، أو نظرية ذهنية في المعرفة ؟! [2] .

كلَّا ، إن حقيقة العبادة لو كانت مجرد كلمة تقال باللسان ، أو هي الشعائر التعبدية فقط ؛ ما استحقت كل ذلك الموكب من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل تلك الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات اللَّه عليهم - وعلى رأسهم محمد ﷺ .

إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ : هو إخراج البشر جملةً من الخضوع للعباد ولأهوائهم إلى الإذعان لرب العباد ، في كل أمر وفي كل شأن .

ولأجل ذلك فإن كلمة التوحيد : لا إله إلا اللَّهُ إعلان إلهي عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية لغيره ولهواه ، وذلك بإعلان العبودية للَّه وحده المتمثلة في إفراده بالطاعة .

---

(١) انظر : سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء ، ص ٢٦ .

(٢) انظر : سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر : ص ٢٦ .

على أنَّ سيادة الشريعة الإلهية وحدها ، وإلغاء القوانين البشرية التي تخدم فئة من الناس وهم الملأ ، كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان ؛ لأن المتسلطين على رقاب العباد المغتصبين لسلطان اللَّه في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان (١) ، بل حتى الأفراد أنفسهم ، وهم الذين عبّدوا أنفسهم لغير اللَّه من الطواغيت والأنداد المختلفة والأصنام الفكرية ، ليس لدى أكثرهم استعداد لترك ما ألفته النفس ، وسار عليه الآباء والأجداد ، ويعيش عليه المجتمع كله ، لمجرد التبليغ والبيان ، بل إن ما في نفوسهم من حواجز الكبر والعناد والتمرد لايقل عن الحواجز الضخمة التي يضعها البشر المتألهون دون شعوبهم المستعبدة (٢) .

وإزاء هذه الاعتبارات ، فإن هذا الإعلان العام لتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان اللَّه بإعلان ألوهيته للعالمين : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٨٤] لم يكن إعلانًا نظريًّا فلسفيًّا سلبيًّا ، وإنما كان إعلانًا حركيًّا واقعيًّا وإيجابيًّا ، إعلانًا يراد به التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة اللَّه ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية للَّه وحده بلا شريك .

ومن ثَمَّ لم يكن بدٌّ أن يتخذ هذا الإعلان شكل الحركة - أي الجهاد (٣) - إلى جانب شكل البيان - أي التبليغ (٤) ، وهو ما جمعته آية سورة الحديد في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

هذا ، وقد رسَّخَ القرآن الكريم في قلوب الصحابة ﷺ العقيدة الصحيحة بهذا المفهوم ، وآتت تربية الرسول ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة في هذا الجانب ، فلم يحتكموا إلا للَّه ، ولم يطيعوا ويتبعوا أحدًا على غير مرضاة اللَّه ، ولم يوالوا ويعادوا إلا في اللَّه ، ولم يستغيثوا ويستعينوا إلا باللَّه ، إلى غير ذلك من حقائق ومعاني هذا

(١) انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٤٣٣ - ١٤٣٤ .
(٢) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر : ص ٣١ - ٣٢ .
(٣) أي الجهاد الشرعي الذي لا يستهدف الأبرياء العزل ، وإنما يواجه الطغم الحاكمة بغير شرع اللَّه بعد الإعداد على المدى الطويل وامتلاك القدرة على المواجهة .
(٤) انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن : ج ٣ ص ١٤٣٤ .

الأصل العظيم التي قررها القرآن الكريم والسنة النبوية في الفترة المكية .

توحيد الله ﷻ في أسمائه وصفاته

وكذلك جاء القرآن المكي مقررًا لتوحيد الأسماء والصفات ؛ فغالب الآيات تختم بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، لتأكيدها وترسيخها في النفوس ، كي يُعبدَ الله ﷻ بمقتضاها . مثل ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وقوله تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] .

ولما كان لتوحيد الأسماء والصفات شأن عظيم وأثر كبير في النفوس والقلوب ، ولا يصح إيمان عبد إلا بإيمانه بأسماء الله وصفاته ؛ فقد أمر الله ﷻ عباده أن يدعوه بها : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

كما أمرهم أن ينزهوه عن مشابهة المخلوقين وعن تأويل صفاته وتحريفها ، وأن يؤمنوا بصفات جلاله ونعوت كماله كما جاءت في كتابه الكريم بلا كيف ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] .

وهنالك بُعْدٌ آخر في فهم الأسماء والصفات ، وهو فقهها والشعور بآثارها القلبية والتعبد لله ﷻ بها ، وتحقيق ما تقتضيه من فعل المأمورات وترك المنهيات ؛ اقتداء برسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ الذين تعلموا منه الإيمان والعمل ؛ فعن جندب ابن عبد الله ﷺ قال : « كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة [١] ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا » [٢] .

فنظروا إلى كل اسم من أسماء الله بأن فيه حق من العبودية لله ﷻ على العباد يتعبدون لله ﷻ به ، وهذا جَلِيٌّ وواضح من سيرهم ومواقفهم وأعمالهم [٣] .

ويذكر ابن القيم رحمه الله مقتضيات وآثار هذه العبودية بقوله : « لكل صفة عبودية

---

(١) غلام حزور : إذا قوي واشتد . أبو البقاء العكبري : المشوف المعلم ، ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن ، رقم ٦١ ، وقال المحقق في الزوائد : إسناده صحيح ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الحلية لأبي نعيم ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، والإصابة لابن حجر العسقلاني .

خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها ، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها . وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ؛ فعلم العبد بتفرد اللَّه ﷻ بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، يثمر له : عبودية التوكل عليه باطنًا ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا .

وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة ، وأنه يعلم السِّرَّ ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يثمر له : حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي اللَّه ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه اللَّه ويرضاه ، فيثمر له ذلك : الحياء باطنًا ، ويثمر له الحياء : اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته ؛ توجب سعة الرجاء ، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

وكذلك معرفته بجلال اللَّه وعظمته وعزه ، يثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات .. » [1] .

ويقول ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ عن طريقة العمل بالأسماء والصفات : « فَليُمَرِّنِ العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها » [2] .

ومن هذا يتبيَّنُ أن المقصود من توحيد الأسماء والصفات ليس مجرد المعرفة الذهنية فحسب ، وإنما الغاية منها : أَنْ نحققها علمًا وعملًا ، ونفهمها كما فهمها رسول اللَّه ﷺ وصحابته الكرام لفظًا ومعنى ، وتعبدوا اللَّه تعالى بها وعملوا بمدلولها في واقع الحياة [3] .

وهكذا تربى الجيل الأول - رضوان اللَّه عليهم - على تعلم وفهم صفات اللَّه وأسمائه الحسنى ، فعبدوه بمقتضاها ، وعرفوه حق معرفته ، وقدروه حق قدره ، فملئت قلوبهم بتعظيمه وإجلاله والخضوع له ، والتذلل لعظمته وكبريائه ، واستشعار مراقبته في كل الأوقات ، فأصبح رضاه سبحانه وتعالى غاية قصدهم ونهاية آمالهم .

---

(١) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٢) ابن حجر : الفتح ، ج ١١ ، ص ٢٢٩ .

(٣) انظر : عبد العزيز الجليل : إن ربك حكيم عليم ، ص ١١ .

الإيمان باليوم الآخر

ركز القرآن المكي على عرض قضايا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، عرضًا مفصلًا ومجملًا ؛ يتناول الملائكة وأعمالهم وصفاتهم ، والكتب وما فيها ، والنبيين ودعوتهم وقصصهم ، ومقادير الخلق ، وأحوال البرزخ ، ويوم القيامة ، وأحوال المنعمين والمعذبين ، وكيفية البعث وحشر الناس ومحاسبتهم ؛ بأسلوب معجز حتى لكأن الإنسان ينظر إلى يوم القيامة رأي عين : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٦٨- ٧٥] .

على أن قضية الإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء من قضايا العقيدة الرئيسة التي جاء بها الإسلام ، والتي يقوم عليها بناء العقيدة بعد توحيد الله ؛ لما لها من أهمية في تهيئة النفوس وإعدادها للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه مناط العوض والجزاء في اليوم الآخر .

ولأجل ذلك لم يناقش القرآن المكي قضية من القضايا بالتفصيل مثل عرضه لأمر الإيمان باليوم الآخر .

ولا شك أن الاهتمام الشديد بذكر اليوم الآخر في كتاب الله وتقريره في كل موضع ومناسبة ، وورود ذكره في القرآن بأسماء كثيرة – مع العلم أنه كلما كان للمسمى شأن عظيم كلما كثرت أسماؤه – يعطي الانطباع ويوحي بخطورة هذا

الأصل في تقويم حياة الإنسان وتوجيهه لعمارة الدنيا بالعلم النافع والعمل الصالح .

ولذلك ركز النبي ﷺ على ربط أصحابه بعقيدة اليوم الآخر ، وعلَّمهم بقوله وفعله كيفية الاستعداد للقاء اللَّه ﷻ ؛ فأثمر لهم هذا العلم واليقين بالنبأ العظيم عدَّة ثمرات منها : الإخلاص للَّه تعالى والصدق معه ، والحذر من الدنيا والزهد فيها ، والصبر على شدائدها ، والتزود بالأعمال الصالحة ، والاستعداد للجهاد في سبيل اللَّه ، وتحمل الأذى والمشقة في سبيل ذلك (١) .

مع العلم بأن الجهاد من حيث هو قمة العمل في الإسلام وذروة سنامه ، ووسيلة هذا الدين لتحقيق مهمته في الأرض وأهدافه العليا التي أراد اللَّه ﷻ تحقيقها في عالم الإنس ، يحتاج إلى عقيدة إيمانية تعد بمثابة الوقود الذي يمدُّ النفوس بالصبر والصمود في معركتها مع الباطل والطغيان في واقع الحياة .

وقد كان الجيل الأول يدرك هذه الحقيقة إدراك من تعلمها وتربَّى عليها ، ورأى رسول اللَّه ﷺ يدعو إليها ويغرسها في النفوس تمهيدًا للمرحلة التالية وهي مرحلة إقامة الدولة الإسلامية .

وخلاصة القول : إن التوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون ؛ فالخالق تعالى واحد ، والكون بسننه ونواميسه واحد ، والإنسان في جوهره وغايته ووجوده واحد ، والكون بكامله يتجه إلى اللَّه ﷻ اتجاهًا واحدًا بالعبادة والطاعة : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [آل عمران : ٨٣] . وكذلك ينبغي للإنسان أن يتجه إلى نفس الغاية والهدف ، وإلا حصل التصادم والتمزق والضياع في مسيرة حياته .

ولذلك نص القرآن المكي على قاعدة الوجود الكبرى وغاية الوجود الإنساني : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وهي ترسم الإطار العام للعقيدة والدائرة الشاملة للحياة البشرية .

ولهذا لم يكن صدفة أن يقضي رسول اللَّه ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا يحدث الناس عن قضية العقيدة ، ويربي أصحابه على تجريد التوحيد بأنواعه السالفة الذكر ، حيث رسخ في قلوبهم المعرفة الحقة باللَّه تعالى التي تقتضي الاستسلام التام

---

(١) انظر : عبد العزيز الجليل : قل هو نبأ عظيم ، ص ٩٩ ، ١١٣ .

له ، والطاعة المطلقة له ، وعدم التقديم بين يديه ، والرضا والتسليم بقضائه .

وكان ﷺ مثالًا حيًا للمؤمن الموحد الذي يُقتدى به في هذا الشأن .

ولأهمية العلم بالعقيدة على هذا النحو ؛ وجب ربط المسلمين وخاصة الدعاة إلى اللَّه بهذا العلم الذي يعد من أولويات البناء في حقل الدعوة ؛ لأن المفاهيم الرئيسة في العقيدة إذا لم تكن صحيحة وأصابها الانحراف ، فكل ما يستند إليها سيلحق بها ؛ إذ على فهمها يترتب فهم سائر الأحكام ، وانطلاقًا منها توزن الأقوال والمواقف والأحداث .

فمثلًا : لايمكن للداعية عرض الانحرافات الجوهرية التي تعيش اليوم بين المسلمين - مما له تعلق بجوانب الاعتقاد ، مع بيان خطرها وتأثيرها والتحذير منها - حتى يكون ملمًا بأركان توحيد الألوهية الثلاثة وهي : إفراد اللَّه بالحكم ، وإفراد اللَّه بالولاء ، وإفراد اللَّه بالنسك .

على أن سورة الأنعام - وهي سورة مكية ويكاد موضوع التشريع يستغرقها - تستوعب هذه الأركان الثلاثة في قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وقوله تعالى ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام : ١٤] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

فالجاهل بتوحيد الحكم وإفراد اللَّه به يكون عاجزًا عن طرح قضية الحكم بغير ما أنزل اللَّه ، وحكمه الشرعي ، وأهمية ردِّ الأمور كلها إلى شرع اللَّه ؛ لأن هذا هو مقتضى الإسلام والتسليم ، وشرط الإيمان الذي لا يكون إلا به . وبذلك لا يكون مؤهلًا لتعليم الأفراد وتربيتهم على الولاء لشريعة الإسلام ، والحذر من تنقصها ، أو اعتقاد أفضلية غيرها ، أو مساواته لها ، أو جواز الحكم بغيرها ، بحيث يصبح الإيمان المطلق بشريعة اللَّه قناعة راسخة لدى المخاطبين ، حتى لو فرضت عليهم النظم الوضعية الجاهلية .

ومن لا يعرف معنى الولاء والبراء لا يمكنه الحديث عن موالاة الكافرين والمنافقين ، وحكمها وتأثيرها على النفوس ، والخطر الزاحف بسببها سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو المجتمع ، والتركيز على ضرورة استقلال الأمة المسلمة وتميزها ، واستعلائها بإيمانها وشريعتها على الأوضاع والعقائد والنظم والمناهج الجاهلية .

ومثل هذا وذاك التركيز على توحيد النسك في بعض البلاد والأماكن التي جهل فيها الناس معنى الألوهية ، وصرفوا العبادة للشيوخ والأولياء ، وقدَّسوا الأضرحة أكثر من تقديس المساجد [١] .

وعلى العموم ، فإن العلم بالعقيدة فريضة على كل مسلم ، فضلًا عن كل داعية ؛ لما لها من أهمية واعتبار في معرفة المنطلقات والثوابت وتحديد الأهداف والغايات ، والتمييز بين الواقع الشركي والواقع الإيماني ، وتأصيل المنهج الشرعي لئلا تنحرف الدعوة عن أهدافها المرسومة .

تلك هي الخطوط الكبرى لهذه العقيدة التي ركز عليها القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عامًا ، ووقف عندها لا يتجاوزها ، وكانت غايته تقريرها في النفوس ، بحيث تكون عقيدة إيجابية ثابتة مستقرة ، قائمة على العلم والعمل ، مبنية على الوعي والنظر والمعايشة .

* * *

(١) التجديد في الإسلام (التحرير) ، مجلة البيان ، عدد ٢ ص ١٨ - ١٩ .

المبحث الثاني العلم بالسنن الربانية

لقد وجّه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة ؛ فحثهم على النظر والتدبر والاستقراء ؛ للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع ، كما نبّه إلى بناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السنن ، فذكرها نصًا في بعض الأحيان (١) ، ولم يذكرها أحيانًا أخرى نصًّا ، وإنما فهمت من النص دلالة وفحوى (٢) .

وذكرها تارة مضافة إلى اللَّه تباركت وتقدست أسماؤه (٣) ، وذكرها تارة أخرى مضافةً إلى أقوام (٤) .

وللإشارة ، فإن هذه السنن تعمل مجتمعة ومتسلسلة ، فيكون في حصيلتها في الحياة البشرية ما هو كائن بقدر اللَّه ﷻ .

وقد نبه اللَّه جل ثناؤه المسلمين إلى أن هذه السنن صارمة ؛ تتسم بالاطراد والشمول والثبات ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] .

فينبغي إذن معرفتها وتدبرها واستيعابها والاستفادة منها ، لقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٦] .

ومن خلال السنن في كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ نفهم التاريخ على حقيقته ، ونعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم ، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف .

(١) في مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

(٢) في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

(٣) في مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٥] .

(٤) في مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الكهف : ٥٥] .

على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي ، والطاعة والمعصية ، والإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ؛ فالإنسان إذا أتى بالأمر واجتنب النهي ، ووقف عند حدود الله ؛ أصاب خير السنة الربانية ، وإذا أهمل الأمر وخالفه ، وارتكب المنهي عنه ، ووقع في حدود الله ؛ أصاب شر السنة الربانية (١) .

وقد انتبه إلى أثر السنن في المجتمعات والاعتبار بها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال : « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرةً لنا ، ولولا القياس واطراد فعله وسنته ؛ لم يصح الاعتبار بها ؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن » (٢) .

إن معرفة أثر السنن في الأنفس والمجتمعات ضروري لمعرفة طبيعة هذا الدين وطبيعة الجاهلية المقابلة . فمن سنن الاجتماع البشري التي يشهد بها الواقع المحسوس والتاريخ المسطور : « أنَّ الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام ، والتي واجهها الداعية العظيم محمد ﷺ بدعوته ، والتي يواجهها الدعاة في كل زمان وفي كل مكان ، هذه الجاهلية لم تكن قط متمثلة في نظرية مجردة ، بل كانت متمثلة في تجمع حركي مستقل عن غيره في مجتمع خاضع لتصورات وقيم ومفاهيم وتقاليد وعادات ، وهو مجتمع عضوي ، بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون الذي يجعل هذ المجتمع يتحرك بإرادة واعية أو غير واعية للمحافظة على وجوده والدفاع عن كيانه ، والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في صورة من صور التهديد » (٣) .

وهذه الطبيعة المتأصلة في الجاهلية جاء الحديث عنها في القرآن المكي ، في مواضع كثيرة ، وجاء تصويرها في مواقف كثيرة ؛ ليفهم المسلمون طبيعة الصراع بين الجاهلية والإسلام على حقيقته ، وليكونوا على بيّنة من مباينة السُّبل واختلاف المناهج والتوجيهات والأهداف بينهم وبين الكافرين ، ومن أمثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١٣- ١٤] .

---

(١) محمد بن صامل السلمي : كيف نفسر التاريخ ، ص ٩٨ .

(٢) ابن تيمية : جامع الرسائل ، ص ٥٥ .

(٣) سيد قطب : معالم في الطريق ، ص ٥٤ ، (بتصرف) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨، ٨٩] .

« ومن ثمَّ لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام - أي العقيدة - في تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي . وأن يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول اللّه ﷺ ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية اللّه وحده وربوبيته وسلطانه وشريعته ؛ لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا ، لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم ، لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق ومتعاون له وجود ذاتي مستقل يعمل أعضاؤه عملًا عضويًّا كأعضاء الكائن الحي على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي ، تنظم حركتهم وتنسقها ، وتوجههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامي ، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي ، وهكذا وجد الإسلام .. » (١) .

ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدعاة بالجهد والعمل وفق السنن التي لا تحابي فردًا على حساب فرد آخر ، أو مجتمعًا على حساب مجتمع آخر ؛ « لقد كتب اللّه على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته وأصحاب عقيدته .. ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم ، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وببذل الجهد الذي في وسعهم ؛ فهذه سنة اللّه ﷻ؛ وسنة اللّه لا تحابي أحدًا .. فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ؛ فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير ؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن وإبطال الناموس . فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن » (٢) .

ومرجع ذلك إلى أن السنن الربانية في الحياة البشرية دقيقة كل الدقة ، منتظمة أشد الانتظام ، لا تحيد ولا تميل ، ولا تجامل ولا تحابي ، ولا تتأثر بالأماني وإنما

(١) سيد قطب : معالم في الطريق ، ص ٥٧ .
(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٢ ص ٥١٣ .

بالأعمال . وهي في دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء [(١)] .

سنن : الابتلاء ، التمحيص ، التمكين

ومن أهم هذه السنن التي نبّه إليها القرآن الكريم : سنة الابتلاء ؛ فهي تضع المؤمن على محك الاختبار ، لقوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢، ٣] ، وقوله جل ثناؤه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، وقول عز من قائل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٠] .

ومن ثبات تلك السنة أنها قد بسطت في وحي اللَّه وعلمها أناس قبل أن تقرأ في القرآن الكريم ؛ فهذا « ورقة بن نوفل » - الذي كان لديه علم بما عند أهل الكتب - يقول للنبي ﷺ بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة : يا ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك ، فيسأله النبي في تعجب : « أو مخرجي هم ؟! » قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي (الحديث) [(٢)] .

وهذا قيصر الروم يقول في حديثه مع أبي سفيان : « سألتك كيف كان قتالكم إياه ، فزعمت أن الحرب سجال ودول ، فكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة » [(٣)] .

وجاء في الحديث الصحيح : « إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظان . وإن اللَّه أمرني أن أحرق قريشًا ، فقلت : ربي ، إذًا يثغلوا فيدعوه خبزة ، قال : اسْتَخْرِجْهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزِكَ ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » [(٤)] .

في هذا الحديث دلالة اعتبار ذلك الواقع الضخم ومراعاته ، وكذلك ضخامة التكليف وعبء الحمل ، كما يوضح مع ذلك كيف تلتقي السنن الربانية ، ومنها

---

(١) محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا يحيى بن بكير ج ١ ، ص ٣ قال في فتح الباري : « جذعًا » بالنصب على أنه خبر كان المقدرة قاله الخطابي ، وفي رواية الأصيلي : « يا ليتني فيها جذع » ج ١ ، ص ٢٦ .

(٣) أخرجه البخاري والسير ، باب : ﴿ قُلْ هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ والحرب سجال ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٤) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، كتاب الجنة ، ج ١٧ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

سُنَّة اشتراط الجهد البشري وابتلاء بعض الناس ببعض ، مع سنة العهد الرباني بنصر دينه وأوليائه وإن طال الابتلاء، فهما مقترنتان متضافرتان تعملان عملًا واحدًا في نهاية المطاف (١) .

ولعلم اللَّه ﷻ أن الابتلاء هو الوسيلة لتمييز الصفوف وتمحيص القلوب ، جعله سنة ماضية ؛ فحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس ، بل يحتاج إلى قوم مختارين ، وهم الصفوة الذين يُعَدُّون لهذا الأمر إعدادًا خاصًّا ليحسنوا القيام به .

ويضرب محمد قطب مثلًا لذلك قائلًا : « أرأيت لو أنَّ قائدًا أراد إعداد جنوده للفوز في معركة صعبة ضارية ، أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون لهم الإعداد ، أم تكون الرحمة الحقيقية بهم أن يشدد عليهم في التدريب ، على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدهم من أجلها ؟ .

والمؤمنون هم حزب اللَّه وجنوده - وللَّه المثل الأعلى - والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى : معركة الحق والباطل التي ينصر فيها اللَّه الحق على يد أولئك الجنود حسبما اقتضت مشيئته وجرت سنته » (٢) .

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقًا : سنة التمحيص : فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة ، فيصقل معدنه من أثرها ، وينضج بها كما ينضج الطعام بالنار . والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة ؛ فتخور قواه ، وتنحل عراه ، ويَنْكُصُ على عقبيه ؛ ولهذا جعل اللَّه تعالى التمحيص مَعْبَرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان ، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وعلى ضوء سنة التمحيص تتحقق سنة أخرى ، وهي سنة التمكين ؛ إذ يمكِّن اللَّه ﷻ للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة ، وتجردهم له وتطلعهم إليه في زمن الشدة ، مستيقنين من نزول نصره بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعًا من صبر وتقوى وإعداد .

---

(١) سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء ، ص ١٦ .

(٢) محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص ١١١ .

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة ؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى ؟ قال : (لا يمكَّنُ حتى يبتلى) [(١)] .

ومحصِّلة هذه السنن : أنَّ بعضها يمسك برقاب بعض كحلقات السلسلة يشد بعضها بعضًا ، فلا تمكين بلا تمحيص ، ولا تمحيص بلا ابتلاء، إذ متى تحققت أوائلها تحققت أواخرها . إنها سنن ساطعة وحقائق ثابتة .

وجدير بالإشارة أن الحكمة من صرامة وثبات السنن الربانية : هو أن تنضبط الموازين ، وتستقر معايير الحكم على الأشياء والمواقف والأحداث والرجال ، لكن من ناحية أخرى : لا ينبغي أن يغتر المؤمن بهذا الاطراد والاستمرار ؛ لأنه قد يورث الغفلة ، قال تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦، ١٩٧] .

فحين يشاهد المؤمن الكفار وهم يسعون في الأرض ويمكَّنون اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا ، وتفيض عليهم كنوز الأرض وخيراتها ، فيعلم أن ذلك يندرج ضمن « تمكين الاستدراج » أو « سنة الإملاء » ؛ فمن سنن اللّٰه الجارية أن يملي للكفار قبل أن يهلكهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٨] .

كما ينبغي أن لايغتر المؤمن بديمومة وامتداد النعم ؛ فدوامها ينسي - عادة - أنها قد تزول في الدنيا بسبب من الأسباب ، أو تضمحل وتذهب بموت الإنسان ، ولذلك نبَّه القرآن الكريم إلى الاعتبار بفنائها وزوالها : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥- ٢٠٧] .

سنن : التغيير ، التداول ، النصر

من أهم دلالات سنة التغيير : أن اللّٰه عَجَّلَ لا يغير حال قوم حتى يبدلوا ويغيروا ما بأنفسهم ؛ فالتغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى ، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ﴾ [الرعد : ١١] فإذا وجدت الأسباب فالنتائج تتبعها ؛ إذ إن حدوث التغيير

(١) ابن القيم : الفوائد ، ص ٢٢٧ .

من اللّه ﷻ مترتب على حدوثه من البشر سلبًا وإيجابًا (١) .

ونتيجة لذلك ، فالتغيير في واقع الدعوة ومحيط الدعاة يتوقف على بذلهم ما في الوسع لتتوجه الجهود إلى العمل الجاد في التغيير الذي يبدأ من داخل النفس ، ومن داخل الصف المسلم . ومن ثَمَّ تنفذ فيهم سنة اللّه تعالى في التغيير بناءً على تعرضهم لهذه السنة من خلال سلوكهم وأعمالهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه في مكة يمثلون الجماعة التي أخذت على عاتقها مسؤولية التغيير وحماية الحق الذي آمنت به ، وإن كان من وراء ذلك : جفوة الأهل ، وسخط العشيرة ، وعذاب ونكال الملأ من قريش .

فلم يصرفهم الاضطهاد والفتنة أن يضطلعوا بأعباء الدعوة ، ويسعوا جاهدين إلى تغيير ما بأنفسهم وتغيير واقعهم من واقع شركي إلى واقع إيماني . فنرى تغيير الأنفس في النماذج الكثيرة من الجيل الأول ممن يشهد أن لا إله إلا اللّه ، فيعود من فوره إلى بيته ليحطم الأصنام التي طالما عبدها ، ويقطع العلائق والوشائج التي طالما وثقها حتى مع أقرب الناس إليه (٢) .

وهذه العزلة الشعورية التامة التي تمت نتيجة المجاهدة للنفس والشيطان قد أثمرت بالفعل تغييرًا جذريًا وانفصالًا كليًا عن الحياة السابقة ، حيث انخلع المسلم من البيئة الجاهلية وعُرْفِها وتصورها وعاداتها وروابطها ، وانضم إلى عقيدة التوحيد والجماعة المؤمنة وقيادتها الجديدة ، مانحًا إياها ولاءه وحبه وطاعته .

وللتنبيه ؛ فإن الفترة السابقة لمبعث النبي ﷺ تعدُّ من أحلك الفترات في تاريخ البشرية وأكثرها ضلالًا وضياعًا . ولهذا استحقت المقت من اللّه تعالى كما أخبر بذلك النبي ﷺ : « إن اللّه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ؛ عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » (٣) .

---

(١) محمد بن صامل السلمي : منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، ص ٦٤ .

(٢) انظر : مسلم ، الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفضائل ، باب فضائل سعد ، ج ١٥ ، ص ١٨٥ ، وابن حجر : الإصابة ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ . ج ٣ ، ص ٤٠١ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة . من صحيحه (بشرح النووي) ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ، ج ١٧ ، ص ١٩٧ .

فالعالم الأرضي كله يتخبط في ظلمات الأديان المحرفة ، والوثنيات الكالحة ، والأنظمة المستبدة ، وحياة الناس في قسم كبير منه هي أقرب إلى حياة السوائم منها إلى حياة البشر في كل مناحي الحياة . والقسم المتمدن منه - وتمثله الدولتان العظميان « فارس والروم » - كان يخضع لنظام طاغوتي مستبد ويدين بدين باطل محرَّف ، والنظام الاجتماعي في كلتا الدولتين من أبشع النظم في التاريخ من حيث التمييز العنصري والتفاوت الطبقي [١] .

وأما عرب الجزيرة : فهم في حياتهم القبلية وعاداتهم الراسخة أقرب إلى حال الشعوب الهمجية [٢] ، لولا ما خصهم اللَّه ﷻ به من مميزات إرهاصًا لحمل الرسالة العظمى إلى أمم الأرض قاطبة [٣] .

والحاصل : أن العالم البشري كله كان يعيش حالة مزرية تحتاج إلى جهد ضخم وعمل هائل لتغيير أوضاعه وعقائده وأنظمته ، وانتشال الناس من هذا الواقع المؤلم الرهيب .

فكان الإعداد لتلك المهمة الضخمة يبدو ظاهرًا جليًّا في كل مرحلة من مراحل الدعوة ، بل في كل خطوة من خطواتها ؛ فالأمر كله جدٌّ ونصب وصبر وبلاء . فمنذ نزلت : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ٢] ، قام النبي ﷺ قيامًا جهاديًّا متواصلًا نازل به قومه من قريش والعرب قاطبة ، ثم اليهود والدولة البيزنطية ، فجاهد الناس أولًا بالقرآن : ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] ، كما جاهدهم في مرحلة تالية بالحديد - حين توفرت له شروط الجهاد - حتى يستقيموا على دين اللَّه : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

وهذا ما أعلنه - عليه الصلاة والسلام - بقوله : « بُعِثْتُ بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد اللَّه وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ،

---

(١) انظر تاريخ الطبري عن دولة فارس ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٢٣٤ . ومصطفى العبادي : الإمبراطورية الرومانية، ص ٦٣ وما بعدها ، وص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) انظر حديث جعفر بن أبي طالب مع النجاشي عن حال العرب قبل البعثة . مسند أحمد : ج ١ ، ص ٢٠٢ . وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٢٦ .

(٣) سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء ص ١٣ .

وجعل الذل والصغار عَلَى من خالف أمري » الحديث [(١)] .

ومن السنن الربانية : مداولة الأيام بين الناس ، من الشدة إلى الرخاء ، ومن الرخاء إلى الشدة ، ومن النصر إلى الهزيمة ، ومن الهزيمة إلى النصر ؛ قال تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وهذه السنة نافذة بحسب ما تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

وهنا يضع اللَّه ﷻ أيدينا على سر عظيم ؛ وهو ارتباط المداولة بين الأمم والدول والمجتمعات مع التغيير النفسي والذاتي في الأمة ؛ فسقوط الحضارات ونهوضها ، والأمم في ارتفاعها وهبوطها ، مرتبطة بهذا التغيير النفسي في مسارها عبر التاريخ والحاضر والمستقبل ، وهي سنة ماضية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل .

يقول رشيد رضا رحمه الله في « تفسير المنار » : « .. إن أنْعُمَ اللَّه تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودوامًا بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد ، وأعمال تقتضها ، فما دامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها ، كانت تلك النعم ثابتة بثباتها ، ولم يكن الرب الكريم ينتزعها منهم انتزاعًا بغير ظلم ولا ذنب ، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال ؛ غيَّر اللَّه عندئذٍ ما بأنفسهم وسلبَ نعمته منهم » [(٢)] .

وهذا السلب يكون بالإدالة عليهم ؛ بتسليط عدو عليهم يستأصل شأفتهم ، ويكون ذلك سببًا في انهيارهم وزوال ملكهم جزاء فسقهم وعصيانهم .

ومن أسباب الفتن وزوال النعم : أن يفشو فيهم الظلم وعدم إقامة العدل ، والجهر بالمعاصي ؛ فيأخذهم اللَّه ﷻ بالسنين ، ويبتليهم بالأمراض والفقر ، ويجعل

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد ، باب ما قيل في الرماح ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ . ولم يكن الجهاد إكراهًا للناس على الدخول في الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يعرف الإكراه على الدين ولا يقبله ، وفي ذلك يقول القرآن ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وقال للرسول ﷺ موضحًا ومبينًا : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] وإنما كان الجهاد بقصد الدفاع عنها ضد أعدائها المتربصين بها ، ثم كان بقصد إزالة العوائق التي تقف في وجه الدعوة حتى يتاح للناس أن يعرفوا الإسلام ، فإذا عرفوه كان لهم الخيار في اعتناقه أو البقاء على ما يعتقدون ، مع تطبيق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية في هذا المقام .

(٢) محمد رشد رضا : تفسري المنار ، ج ١٠ ، ص ٣٧ .

بأسهم بينهم ؛ أخرج ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ أقبل علينا بوجهه فقال : « يا معشر المهاجرين ! خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » (١) .

وقد تكون الإدالة على المسلمين بتخلف النصر عنهم حين يتركون طاعة الرسول ﷺ ، أو يطمعون في الغنيمة كما حدث في غزوة أحد ، أو حين يركنون لكثرة العدد ويعجبون بأنفسهم وينسون سندهم الأصيل كما وقع في غزوة حنين ، وحينئذٍ تكون الدُولة والغلبة بصفة مؤقتة ، لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضاه من الأعمال ، ومتى تحقق ذلك جاء النصر ؛ لأن « الهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس همودًا وكلالًا وقنوطًا ، فأمَّا إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصَّرت بالمزالق ، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة الطريق ؛ فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد » (٢) .

إن سنة النصر لا تتخلف متى استوفت الشروط وأهمها الاستقامة على منهج الله بطاعة أمره واتباع رسوله ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : ٧] وقال - جل ذكره - : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١- ١٧٣] .

وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٥، ٤٦] .

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب تخلف النصر بطبيعة الحال ، وربما حلت الهزيمة ؛ لأن سنن الله تعالى لا تحابي ولا تجامل أحدًا من الخلق ، ولا تجاري أهواء

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ، كتاب الفتن ، رقم ٤٠١٩ ، ج ٢ ، ص ١٣٣٢ ، والحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ج ٤ ، ص ٥٤٠ ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٤٧ .

البشر ، وإنما تساير أعمالهم ، وإنَّ الذين يرثون الكتاب وراثة بالاسم وشهادة الميلاد ، ولا يترجمون ما فيه من الأوامر والنواهي واقعًا سلوكيًّا ثم يقولون : سيغفر لنا ! لا يستجيب اللَّه ﷻ لهم حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم اللَّه في كتابه المنزل [١] : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] .

وبناءً على ذلك ؛ فإن السنن لا تحيد ولا تميل مع الأماني ، وإنما تتأثر بالأعمال الجيدة والجهود المنظمة والمخططات المحكمة للوصول إلى النتائج المحددة المطلوبة .

وفي هذا الصدد يقول رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ : « فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة اللَّه تعالى في خلقه ، إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة ؛ فمن سار على سننه في الحرب مثلًا ؛ ظفر بمشيئة اللَّه وإن كان ملحدًا أو وثنيًّا ، ومن تنكَّبها خسر وإن كان صِدِّيقًا أو نبيًّا ، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد » [٢] .

ومعنى ذلك : أنه لا يمكن أن يكون النصر بغير اتخاذ الأسباب سواءً تعلق الأمر بالمؤمنين أو بالكفار .

لكن قد يتبادر إلى الذهن سؤال وجيه وهو : ماذا يحدث لو وافق المسلمون السنن الإلهية في التغيير واستيفاء شروط النصر ، فأخذوا بالأسباب ، واستكملوا الإعداد للجهاد ، غير أن أعداءهم كانوا أكثر كفاءة منهم تخطيطًا وتنظيمًا وقوة ؟ .

إن المؤمنين حين يغيرون ما بأنفسهم ويستكملون أدوات النصر لا يضيرهم تفوق الأعداء عليهم ؛ لأن سنة أخرى تتدخل وهي وعد اللَّه بالتمكين والنصر لعباده المؤمنين : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] ، ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] ، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] .

وقد يتأخر ويبطئ نصر اللَّه لحكمة ما ، لكن في نهاية المطاف فهو آت لا محالة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ

---

(١) انظر : محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٠٢ .

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، ج ٤ ، ص ١٤١ .

مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

سنة : الإعداد

إن إعداد النفوس للجهاد في سبيل اللَّه هو ذروة سنام هذا الدين ؛ إذ من اليقين الجازم أنه لا يُرفع عن المسلمين ما هم فيه من ذل ومهانة إلا أن تحيا معاني الجهاد في نفوسهم لقول النبي ﷺ : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد في سبيل اللَّه ؛ سلَّط اللَّه عليكم ذلًّا ، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » [١] .

وهذا الإعداد هو ثمرة الفهم الصحيح والقصد السليم والصبر الطويل ، وهو مهمة ورثة الأنبياء .

وتتجلى سنة الإعداد في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ويجب أن يشمل هذا الإعداد الجوانب التالية :

– **الإعداد العلمي والتفقه في الدين والبصيرة فيه** : ليكون الجهاد على بصيرة ورويَّة ووضوح راية ، فيفقه المرء لماذا يجاهد ؟ وما هي غايته ؟ وكيف يجاهد ؟ ومن يجاهد ؟ ومتى يجاهد ؟ كل ذلك يقوم على العلم والفقه في دين اللَّه [٢] .

– **الإعداد التربوي والسلوكي** : حيث يتخلق المجاهدون بأخلاق رسول اللَّه ﷺ وصحبه ؛ فغاية جهادهم لتكون كلمة اللَّه هي العليا ، ولا يتطلعون من وراء جهادهم إلى زعامة أو جاه أو منصب أو مكسب من مكاسب الدنيا .

ويتضمن هذا الإعداد : تقوية الصلة باللَّه ﷻ ، وإخلاص النية له ، والتقرب له بالطاعات ، كما كان النبي ﷺ يربي عليه أصحابه في مكة من صلاة الليل وذكر اللَّه وتلاوة القرآن ، والتربية على الزهد في الدنيا والتخفف منها ، والتطلع إلى ما عند اللَّه ﷻ من الجنة والرضوان .

كما يشمل : التربية الجادة للنفوس بإحياء السلوك الإسلامي وأخلاق السلف

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب البيوع ، رقم ٣٤٦٢ ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ، وأحمد في المسند ، ج ٢ ، ص ٨٤ . وقال الألباني : حديث صحيح لمجموع طرقه ، السلسلة الصحيحة ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) انظر : عبد العزيز الجليل : متى نصر اللَّه ص ١٠٢ .

الفاضلة ، والقضاء على رواسب الأخلاق السيئة ، مما يحتاج إلى جهد كبير وصبر ونَفَس طويل ، وذلك حتى يتم صقل النفوس وتمحيصها ، وأن تربى على الانطلاق من الشريعة وقواعدها لا من ردود الأفعال العاجلة والعواطف الملتهبة ، كما هو الحال في العهد المكي الذي ظهرت فيه هذه المعاني بوضوح وجلاء [1] .

- **الإعداد المالي** : إن القوة المادية - كما قيل - عصب الحياة الدنيا وقوامها ، والضعيف فيها على مرِّ العصور مقهور مسحوق لا يحسب له حساب إلا في ظل شرع اللَّه حين يُحَكم .

وليس معنى هذا جعل الدعوة شركة تجارية ؛ لكنه ينبغي الاعتماد على الذات بمواردٍ ثابتة ؛ وهذا من النفرة التي أمرنا اللَّه ﷻ بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين ، والاستغناء عن مدِّ يد الاستجداء ، مما يوفر للدعوة حرية التحرك ، واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط من أي جهة كانت ، إضافة إلى ما توفره القوة المادية من ثقل إعلامي واجتماعي هي بأمس الحاجة إليه .

وهذا يقوم ابتداءً على ترويض النفوس بالتربية على الإنفاق ، وبذل الغالي والنفيس في سبيل اللَّه ، وتخليص النفوس من الشح والحظوظ العاجلة أسوة بسلفنا الصالح ؛ فهذا أبو بكر ﷺ كان يعتق المستضعفين من الرقيق المسلم بماله ؛ فنزلت الآيات الكريمة من سورة الليل : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٧- ٢١] [2] .

ولما خرج مع رسول اللَّه ﷺ في هجرته إلى المدينة احتمل ماله كله ، وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم لإنفاقه في سبيل اللَّه [3] .

- **الإعداد الإعلامي** : وذلك بالتعريف بأهداف الدعوة ومقاصدها ليعلم الناس أن قضية الإسلام قضية عادلة ، لا كما يصورها الأعداء بنعوت وأسماء زائفة

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ .

(٢) روى ذلك الحاكم في المستدرك ، ج ٢ ص ٥٢٥ - ٥٢٦ . وقال أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة : إسناده حسن ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٣) روى ذلك أحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٢ ، والحاكم في المستدرك ، ج ٣ ، ص ٥ - ٦ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ص ٥٩ .

تخالف الحقيقة .

ففي العهد المكي : كان الشعر والخطابة هي الوسائل المتاحة لنشر الدعوة والردِّ على خصومها (١) .

أما في عصرنا فيمكن توظيف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية للقيام بوظيفة البلاغ المبين وإيصال رسالة الإسلام إلى كافة الفئات الاجتماعية ، حيث يستفيد الدعاة من التطور التقني الهائل في مجالات الاتصال لتبليغ دعوتهم ونشر أفكارهم .

- **الإعداد البدني** : لتحمل الجهاد ومشاق الطريق ، وذلك بممارسة الرياضة البدنية ، وركوب الخيل ، والسباحة ، وتعلم الرماية ، لكن قد يقول قائل : ما الدليل على أنه ﷺ كان يدرب أصحابه على الرماية والرياضة في مكة ؟ .

والجواب : أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك ؛ فطبيعة نشأتهم وبيئتهم وحياتهم كانت في الأصل طبيعة قتالية مدربة جاهزة لا يحتاجون معها إلا إلى مجيء الوقت المناسب والأمر بالجهاد (٢) .

سنة : التدافع

ومن السنن الجارية التي أوضحها القرآن الكريم : سنة التدافع ، أو سنة الصراع بين الحق والباطل : وهي سنة مترتبة على السنة التي قبلها - أي سنة الإعداد - كما أنها ماضية عبر التاريخ الإنساني الطويل ، وباقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨، ١١٩] .

ويحتدم الصراع نتيجة هذا الاختلاف لإقرار الحق أو إقرار الباطل : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٨٦] .

---

(١) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المناقب ، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية ، ج ٤، ص ١٦١ . وكتاب التفسير ، سورة الشعراء ، باب وأنذر عشيرتك الأقربين ج ٦ ، ص ١٦ ، والطبراني : المعجم الكبير ، رقم ٨٠٦ ، ج ٢٠ ، ص ٣٤٣ ، وابن هشام : السيرة النبوية ١ ج ١ ، ص ٢٨٦ - ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٥٦ - ٤١١ ، ٤١٥ .

(٢) انظر : عبد العزيز الجليل : متى نصر الله ؟ : ص ١٠٧ - ١٠٨ .

هذا التدافع هو الذي عناه الله ﷻ بقوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وهو الذي عناه النبي ﷺ بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » (١) .

وهذه الطائفة المنصورة تجتمع فيها أسباب النصر المعنوية والمادية التي خلقها الله ﷻ من علم صحيح ، وسلوك مستقيم ، وأخذ بالمقدمات التي جعلها الله وسيلة موصلة إلى نتائجها المرجوة ؛ وإلّا فإن مجرد الإيمان والالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة - دون الأخذ بأسباب التمكين ومقدماته المادية ، ودون الالتزام بسنن اللّه الكونية الصارمة - لا يضمن ولا يكفل الظهور والتمكين في الأرض الذي وعد اللّه به عباده الصادقين (٢) .

وقد أوضح اللّه ﷻ أن الجهد الإنساني للمؤمنين هو الذي يحسم الصراع - بقدر من اللّه - لصالح المؤمنين : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

إن التدافع الذي يعنيه القرآن الكريم من خلال هذه السنة هو الذي يكون لخير البشرية ، وبه يتحقق السلام العالمي ، بتحقيق العبودية للّه وحده في الأرض ، وإزالة كل طاغوت يعبد من دون اللّه ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

فالبشرية بدون العبودية للّه ﷻ لا تستطيع أن تملك قاعدة عليا من الحق ؛ لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف ، ولا سبيل أبدًا لتوحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعًا والاتجاه المنقاد المستسلم للّه تعالى وحده لا شريك له .

وبين فوضى الأرباب والآلهة ، والطواغيت والمعبودات ذات الأسماء والشعارات المختلفة والصور المتباينة يرسم القرآن الكريم للمؤمن الموحد طريقًا واضحًا أبلجًا

---

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإمارة ، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، ج ١٣ ، ص ٦٦ .

(٢) انظر محمد عبد الهادي المصري : أهل السنة والجماعة ، ص ٥٢ .

لا زلل فيه ولا عثار ، محذرًا إياه بأن اختياره لغير هذا الطريق أو تردده في الاستمساك به معناه الكارثة المحققة والخسارة الكبرى [١] : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٤- ٦٦] .

كما بيَّن القرآن الكريم أن عاقبة الصراع تكون دائمًا للمؤمنين مهما طال الطريق وعصف بهم طغيان المشركين : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

والهدف من هذا البيان : هو شد عزائم الجماعة المؤمنة في مكة لتعي وتفقه طبيعة الصراع بين الإيمان والكفر ، ولتعدَّ نفسها إعدادًا كاملًا - علمًا وتربيةً وتخطيطًا وتنظيمًا - لمواجهة أعباء وعوائق الطريق وكثرة الأعداء من الداخل والخارج ؛ من النفس ، والعشيرة ، والأموال ، والأزواج ، ومن الشيطان وجنده ، ومن المشركين .

وفي ضوء ما بذله المؤمنون من جهد بقيادة الرسول ﷺ ، ومن خلال ما قدَّموه من تضحيات في الأموال والأنفس ، وهجرة الأوطان والأهل ، جاءتهم البشرى بحسم الصراع لفائدتهم واستخلافهم في الأرض : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٥٥] .

* * *

(١) انظر : سفر بن عبد الرحمن : العلمانية ، ص ٧١٢ .

المبحث الثالث العلم بمقاصد الهجرة وأهدافها

أهمية الهجرة

تعد الهجرة من أهم متطلبات الدعوة إلى اللَّه تعالى ، وهي سنة اللَّه في رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين ، الذين هاجروا فرارًا بدينهم وخوفًا من بطش الظالمين . وهو الأمر الذي عرفه رسول اللَّه ﷺ منذ أول يوم جاءه الوحي ؛ إذ لما ذهبت خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما قد رآه ، قال له ورقة : « ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك » (١) .

ولهذا أدرك النبي ﷺ منذ أول يوم أوحي إليه فيه أنه سيُخرج من بلده ، وهو أشرف الخلق وأكرمهم عند اللَّه عز وجل ؛ فنصْرُ اللَّه في الدنيا وثوابه في الآخرة إنما ينالهما المرء بالعمل والتضحية والمصابرة على الشدائد ، واللجوء إلى اللَّه عز وجل بالدعاء والاستعانة .

ويُستنبط من هذا الحديث العظيم : أن الهجرة لا تختص بفئة معينة من المؤمنين في زمن معلوم يأتي عليه زمن آخر فتنسخ ، بل إنها دائمة ما دام الحق والباطل ، وما دام الكفر والإسلام ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (٢) ، وفي رواية « لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار » (٣) .

ولم يكن وعد اللَّه سبحانه بتعظيم أمر الهجرة وثواب المهاجر في سبيله إلا بسبب ما يحتمل المهاجر من عناء ومشقة وشدائد ومكابدة الأخطار ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٨، ٥٩] .

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا يحيى بن بكير ج ١ ، ص ٣ .
(٢) أخرجه أحمد في المسند ، ج ١ ص ١٩٢ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، ح ٧٤٦٩ ، ج ٢ ، ص ١٢٤٤ .
(٣) الهيثمي : كشف الأستار عن زوائد البزار ، رقم ١٧٤٨ ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ ، وابن حجر : التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير رقم ٢١٦٩ ، ج ٤ ، ص ١٦٧ .

وقد أوجب اللَّه ﷻ الهجرة على كل مؤمن ؛ لتكثير سواد المسلمين ، ولنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس والنفيس ؛ إذ كانت الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين ؛ ليتوطد سلطان الإسلام فيها ، حيث يتربص به اليهود والمنافقون ، وتحيط به قوى الأعراب المشركين من حول المدينة ، ويترصده كفار قريش الذين أقضَّت الهجرة مضاجعهم ، فمضوا يخططون ويعملون للإجهاز على كيان الإسلام الفتي ؛ لذلك تتابعت الآيات في الأمر بالهجرة وبيان فضلها وعظيم أجرها ، حتى وعد اللَّه جل ذكره المهاجرين في سبيله بتمكينهم من مراغمة أعدائهم والتوسعة عليهم في أرزاقهم بقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

ثم جاء الوعيد شديدًا فيمن تباطأ وتثاقل عن الهجرة والجهاد في سبيل اللَّه ، وآثر متاع الدنيا على التضحية في سبيل اللَّه ، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

قال الشيخ ابن عتيق رحمه الله : « وما من أحد يترك الهجرة إلا وهو يتعذر بشيء من هذه الثمانية ، وقد سَّد اللَّه على الناس باب الاعتذار بها ، وجعل من ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقًا . وإذا كانت مكة هي أشرف بقاع الأرض وقد أوجب اللَّه الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذرًا ، فكيف بغيرها من البلدان ؟! »[١] .

وحسمًا لأمر الهجرة وجعله فرض عين : قطع اللَّه ﷻ الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر في قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء : ٨٩] .

فالذين دخلوا في هذا الدين عقيدة ، لكن لم ينضموا للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ، ولم يلتحقوا به فعلًا ، لا يعدُّون أعضاءً في المجتمع المسلم . ولذا : لم يجعل اللَّه ﷻ بينهم وبينه ولايةً وتناصرًا بمعناه الأعم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) ابن عتيق : سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك ص ٢٨ .

وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

ولما كانت الهجرة بهذه المنزلة ، وجب على كل من أسلم أن ينتقل إلى مهُاجر رسول اللَّه ﷺ بالمدينة ، إلا من استُثنيَ من أهل الأعذار من الأطفال والنساء والشيوخ .

قال القاضي عياض : « واتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم ، وأن سكنى المدينة كانت واجبة لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس » (١) . بل إن الإقامة بعد ذلك في مكة كانت حرامًا على من هاجر منها قبل الفتح ، ولهذا : رثى النبي ﷺ لسعد ابن خولة أن مات بمكة (٢) .

الحكمة من الهجرة

إن العلم بمقاصد وأهداف الهجرة أمر ضروري لكل مسلم يهمه أمر إقامة صرح هذا الدين ؛ فالنصوص القرآنية التي وردت بصدد الهجرة ما كانت تعالج أمر الهجرة في تلك المرحلة من الزمن فحسب ، ولكنها تعالج حالة قائمة في أمر الدعوة ، ولذلك : وردت بعض نصوص السنة توضح هذا الأمر .

فعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة » (٣) .

وفي حديث آخر : « لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد » (٤) .

والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة كما جاء في حديث أبي داود : « والجهاد ماضٍ منذ بعثني اللَّه إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال » (٥) .

---

(١) نقلًا عن فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢٦٧ .

(٢) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب قول النبي ﷺ : اللَّهم أمض لأصحابي هجرتهم ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الجهاد ، ح ٢٤٨٢ ، ج ٣ ، ص ٤ ، وأحمد في المسند ، ج ٢ ، ص ١٩٩ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٤ ، ص ٦٢ . وقال الألباني : إسناده صحيح . السلسلة الصحيحة ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الجهاد ، ج ٢٥٣٢ ، ج ٣ ، ص ١٨ .

وهذا الحكم استنبطه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث النبي ﷺ : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر ، والمغنم » بقوله : باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر [١] .

ولذلك : فالهجرة ليست مرحلة تاريخية انتهت بمضي وقتها وأهلها ، وأصبحت معلمًا وصفحةً من صفحات التاريخ فحسب ، وإنما هي صفحة من صفحات السيرة المضيئة التي خلَّدها القرآن والسنة ، وستظل جزءًا من حركة الدعوة إلى اللَّه تعالى [٢] .

يقول صاحب الظلال : « ولقد ظل شرط الهجرة قائمًا حتى فتح مكة ، حين دانت أرض العرب للإسلام وقيادته ، وانتظم الناس في مجتمعه . فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل ، كما قال رسول اللَّه ﷺ ، غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفًا ومائتي عام تقريبًا .. فأما اليوم وقد ارتفع حكم اللَّه سبحانه عن حياة الناس في الأرض .. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام كالجولة الأولى تأخذ في التنظيم كل أحكامها المرحلية ، حتى تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة ، ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى بإذن اللَّه فلا تعود هجرة ، ولكن جهاد وعمل ، كما حدث في الجولة الأولى » [٣] .

على أن الحكمة الأساس من الهجرة : هي أن رسالة الإسلام جاءت لتنظيم شؤون الناس في شتى مجالات الحياة ؛ فهي دستور ومنهج شامل لابد لتطبيقه من أمة وأرض تقام فيها أحكام اللَّه تعالى .

والمسلمون لايمكن أن يكون لهم وحدة فعلية إلا إذا صَبَغَ الإسلام جميع مرافق حياتهم ، وساد نظامه أرضهم وقامت فيها أحكامه وآدابه ، كما تقوم فيها شعائره وتسود فيها عقائده .

لكن إذا تعذر على المسلمين تطبيق أحكام دينهم وإقامة نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وآدابه الخلقية في بلدهم ، وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه ، تكثيرًا لسواد المسلمين ، وإعزازًا لأمر

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، ج ٣ ص ٢١٥ .

(٢) صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة) ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٥٦٠ . بتصرف يسير .

الدين ، واستعدادًا لنصره وتأييده بالنفس والنفيس . وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط ؛ وجب عليهم أن يجتمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام تامًّا كاملًا ويتعاونون على حماية دعوته ، واتخاذ الأسباب والوسائل لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم بإحسان (١) .

وقد غفل عن هذه الظاهرة من أمر الإسلام بعض الذين دخلوا فيه على عهد رسول اللَّه ﷺ ، فلبثوا في وطنهم مكة مستضعفين فيه لا يستطيعون إعلاء كلمة اللَّه لغلبة الباطل يومئذٍ على الحق ، ولا يهاجرون منها إلى المدينة فيقوى بهم الإسلام ، فنزل فيهم قول اللَّه ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] .

وعن شأن هؤلاء روى البخاري في « جامعه الصحيح » عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة أصحاب بدر : « أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول اللَّه ﷺ ، يأتي السهم فيُرمى به ، فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يُضرب فيقتل ، فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ » (٢) .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستَخْفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، قال المسلمون : كان أصحابنا مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ . قال : فكُتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية : لا عذر لهم ، قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ .. ﴾ [العنكبوت : ١٠] » (٣) .

وعند الطبري بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما : « فكتب إليهم المسلمون بذلك ، أي بآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ

---

(١) محب الدين الخطيب : من إلهامات الهجرة ، ص ٤٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، باب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، ج ٥ ، ص ١٨٣ .

(٣) ابن كثير : التفسير ، ج ١ ، ص ٥٤٢ .

ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ .. ﴾ [العنكبوت : ١٠] » . فحزنوا فنزلت : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٠] ، فكتبوا إليهم بذلك ، فخرجوا ، فلحقوهم - أي المشركون - فنجا من نجا وقُتل من قتل » (١) .

وقال الضحاك : « فنزلت هذه الآية الكريمة (٢) عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع » (٣) .

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان ، متجاوزًا تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين وفي بيئة معينة ؛ يمضي حكمًا عامًّا يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أي أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها متى كان هناك في الأرض - في أي مكان - دار للإسلام يأمن فيها على دينه ويجهر فيها بعقيدته ويؤدي فيها شعائر دينه (٤) .

ولما كان الإسلام دين يسر ، ومن مبادئه وأحكامه أن تقدر الضرورات بقدرها ، وأن يعذر أهلها ؛ كان تمام الآيات السالفة قول الله ﷻ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٨، ٩٩] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٨٨، ٨٩] ، قال العوفي عن ابن عباس ﵄ : نزلت في قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة ، قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم ؛ فإنهم

(١) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ . وابن حجر : الفتح ، ج ٨ ، ص ، ٢٦٣ .
(٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ . (٣) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٤٢ .
(٤) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ .

يظاهرون عليكم عدوكم .

وقالت فئة أخرى : سبحان اللَّه ! - أو كما قالوا - أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم ، نستحل دماءهم وأموالهم ؟! فكانوا كذلك فئتين ، والرسول ﷺ عندهم لا ينهي واحدًا من الفريقين عن شيء ، فنزلت : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ (١) .

وهكذا : إذا كان القرآن الكريم قد أنحى باللائمة على جماعة من المسلمين كانوا في مكة يصلون ويصومون ، ولكنهم ارتضوا البقاء تحت أنظمة تخالف الإسلام ، فلا قوة لهم على تغييرها ، ولم يهاجروا إلى دار الإسلام في المدينة ليكونوا من جنودها المتحفزين لتغيير تلك الأنظمة ، فليُعلم أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم فحسب ، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته وآدابه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم ومجامعهم ودواوين حكمهم ، وأن يتوسلوا بجميع الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الغرض الواجب (٢) .

كما ينبغي أن يُعلم أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل وأنه تكالف وتبعات ، وأنه إقرار وامتثال وطاعة ، وإذ هو كذلك : كان لزامًا أن ينعكس أثره على اللسان والقلب والجوارح ، علمًا ، وعملًا وسلوكًا .

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره : رواه ابن أبي حاتم ، وقد رُوي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا . ج ١ ، ص ٥٣٢ .

(٢) محب الدين الخطيب : من إلهامات الهجرة : ص ٥٢ ، ٥٣ .




منهج النبي ﷺ في الدعوة
من خلال السيرة الصحيحة



الفترة المكية



خصائص الفترة المكية في مجال التربية

المبحث الأول : التربية بالأحداث .

المبحث الثاني : التربية بأعمال القلوب .

المبحث الثالث : التربية بالأخلاق .

المبحث الرابع : تكوين القاعدة الصلبة نتيجة للتربية الشاملة .

المبحث الخامس : الثبات على المبدأ ورفض المساومة عليه .

تمهيد

إن مسيرة هذا الدين الواقعية في الأرض ، والإعداد للتمكين له ، تبدو ظاهرة جلية في كل مرحلة من مراحل الدعوة ، بل في كل خطوة من خطواتها ؛ فالأمر كله جد ونصب ، وكله صبر وابتلاء .

المبحث الأول التربية بالأحداث

المعاناة في تلقي الوحي

فمنذ اللحظة الأولى لنزول هذا الدين تأتي الشدة والاجهاد في تلقي الوحي ؛ ففي حديث عائشة رضي الله عنها : أن الملك جاء إلى النبي ﷺ وهو في غار حراء فقال : اقرأ فقال ﷺ : « ما أنا بقارئ » ، قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ... » الحديث [1] .

ثم من هذه المعاناة الصعبة إلى السنة الربانية التي أخبر بها ورقة بن نوفل النبي ﷺ : « لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي » [2] .

توثيق الصلة بالله ﷻ : قيام الليل

لقد كان الزاد الأول الأصيل الذي لا بد منه لمن يريد حمل هذه الدعوة والقيام بأعبائها وتكاليفها الشاقة ، هو زاد توثيق الصلة بالله والتزكية الروحية بالتقرب إليه ومناجاته في أرجى ساعات المناجاة وأصفاها ؛ في جوف الليل الغابر .

وكان هذا التوجيه التربوي بواسطة الوحي ، حيث نزلت الآيات الكريمات في

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، ج ١ ص ٣ .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ، ج ١ ص ٤ .

وقت مبكر جدًّا من المرحلة المكية تأمر النبي ﷺ أن يخصص شطرًا من الليل لصلاة التهجد في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل : ١- ٦] .

فقام النبي ﷺ قريبًا من عام هو وأصحابه حتى ورمت وانتفخت أقدامهم ، ثم نزل التخفيف بعد أن علم اللَّه ﷻ اجتهادهم في تنفيذ أمره ، وحرصهم على طلب رضاه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [المزمل : ٢٠] (١) .

ولا شك أن هذا الامتحان في هجر الفراش ، ومقاومة النوم ومألوفات النفس من الدعة والراحة والكسل ؛ هو تربية على المجاهدة ، وتدريب للتغلب على حظوظ النفس وشهواتها ، تمهيدًا لحمل رسالة الإسلام التي جاءت لتقوِّم مسار البشرية وتسدد خطاها نحو توحيد اللَّه وطاعته .

وهي مهمة لا يضطلع بها إلا أفذاذ من الرجال الذين : ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧، ١٨] .

الصدع بالدعوة

ولما انقضت مرحلة الدعوة السرية بنزول الآية : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، خرج رسول اللَّه ﷺ حتى صعد الصفا فهتف : « **يا صباحاه** » فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « **يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ؟** » قالوا : ما جربنا عليك كذبًا ، قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » فقال أبو لهب : تبًّا لك ، أما جمعتنا إلا لهذا ! ثم قام ، فنزلت هذه السورة : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] (٢) .

وصدع الرسول ﷺ بالدعوة ، وسفَّه أحلام المشركين ، وعاب آلهتهم ، فثارت

---

(١) انظر سنن أبي داود ، رقم ١٣٠٥ ، ج ٢ ، ص ٣٢ . وابن كثير في تفسيره ج ٤ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، سورة المسد ، ج ٥ ، ص ٩٤ ، ومسلم في الجامع الصحيح بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب وأنذر عشيرتك الأقربين ، ج ٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

عليه قريش ثورة رجل واحد ، ولقي وأصحابه من الأذى صنوفًا وألوانًا .

إيذاء قريش للنبي ﷺ وللمسلمين

وعندما رأت قريش أن عدد المسلمين يزيد ، وجدت في ذلك خطرًا على كيانها ، فصعَّدت من عمليات الإيذاء ؛ فقد روي من طريق ابن مسعود ﷺ : « أن أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول اللَّه ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار بن ياسر ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد . فأما رسول اللَّه ﷺ : فمنعه اللَّه بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر : فمنعه اللَّه بقومه ، وأما سائرهم : فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس » [١] .

ولقد عانى الصحابة ﷺ أشد المعاناة ؛ وما تعذيب بلال وآل ياسر إلا نماذج من ذلك ، بل إن الأذى ليصل إلى النبي ﷺ نفسه وإلى أشراف القوم من أمثال الصديق ﷺ .

فقد قيل لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : « ما أشد ما رأيتِ المشركين بلغوا من رسول اللَّه ﷺ ؟ فقالت : كان المشركون رفعوا في المسجد عُمُدًا ليروا رسول اللَّه ﷺ وما يقول في آلهتهم ، فبينا هم كذلك ، إذ أقبل رسول اللَّه ﷺ فقاموا إليه بأجمعهم ، فأتى الصريخ إلى أبي بكر ، فقالوا : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وإن له لغدائر [٢] أربع ، وهو يقول : ويلكم ! أتقتلون رجلًا يقول : ربي اللَّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟! فلهوا عن رسول اللَّه ﷺ ، وأقبلوا على أبي بكر ﷺ ، قالت : فرجع إلينا أبو بكر ، فجعل لا يمس من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام » [٣] .

وفي رواية أخرى من حديث أنس قال : « لقد ضربوا رسول اللَّه ﷺ حتى غشي عليه ، فقام أبو بكر ﷺ فجعل ينادي : ويلكم ! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه ؟! فقالوا : من هذا ؟ فقالوا : أبو بكر المجنون ، فتركوه وأقبلوا على أبي بكر » [٤] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، ج ٣ ص ٢٨٤ ، وابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٢) الغدائر : الضفائر من الشعر أو الذوائب . ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٩٦١ .

(٣) أورده ابن حجر في المطالب العالية برقم ٤٢٧٩ ، ج ٤ ، ص ١٩٢ ، وقال : رواه الحميدي وأبو يعلى ، وقد أخرجه الحميدي في مسنده ح ٣٢٤ ، ج ١ ص ١٥٥ . ونسب محقق المطالب العالية - بالهامش - إلى ابن حجر قوله في الفتح : « قال البوصيري : رواه الحميدي وأبو يعلى بإسناد رواته ثقات » .

(٤) أورده ابن حجر في المطالب العالية وصححه . رقم ٣٩٠٥ ، ج ٤ ، ص ٣٨ - ٣٩ . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى والبزار ورجاله رجال الصحيح ، ج ٦ ، ص ١٧ .

وسأل عروة بن الزبير - إمام المغازي - عبد اللّه بن عمرو بن العاص : « أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول اللّه ﷺ ؟ قال : بينا رسول اللّه ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول اللّه ﷺ ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول اللّه ﷺ وقال : أتقتلون رجلًا أن يقول : ربي اللّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ » [١] .

وقد تصاعد أذى قريش إلى ذروة العنف والاضطهاد للمستضعفين من المسلمين ، فنكلت بهم وعذبتهم ؛ لتفتنهم عن دينهم ، ولتجعلهم عبرة لغيرهم . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتد الحر [٢] .

وكان أمية بن خلف إذا حميت الظهيرة يطرح بلالًا على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، ويقول بلال وهو في ذلك البلاء : أحدٌ أحد [٣] .

وكانت جارية بني مؤمل يعذبها عمر بن الخطاب لتترك الإسلام فيضربها حتى إذا ملَّ قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة [٤] .

وكان المشركون يضربون أحد أصحاب النبي ﷺ ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا لكثرة الضرر الذي لحق به [٥] .

وكان بني مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول اللّه ﷺ فيثبتهم ويسلّيهم بقوله : « صبرًا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » [٦] ، أما أمه فقتلها أبو جهل وهي تأبى إلا الإسلام [٧] .

وقد كان من نتيجة هذه الموجة : أن مات من مات تحت التعذيب [٨] ، وصبر من صبر [٩] ،

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب التفسير ، سورة المؤمنون ، ج ٦ ، ص ٣٤ .
(٢) انظر ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .
(٣) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٣٤٠ . (٤) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٣٤١ .
(٥) انظر ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ص ٣٤٢ .
(٦) قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات . ج ٩ ، ص ٢٩٣ .
(٧) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٤٢ . (٨) انظر المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٤٢ .
(٩) انظرابن ماجه : السنن ، رقم ١٥٠ . وقال المحقق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي : قال البوصيري في زوائد ابن ماجه : إسناده ثقات ج ١ ، ص ٥٣ .

وفتن من فتن [١] ؛ ممن لم يصمد أمام الاختبارات القاسية التي مرَّ بها المسلمون .

وهكذا تخلصت الدعوة منذ البداية ممن لم يكن أهلًا لحملها ، إذ كانت التربية بالأحداث محك الاختبار . وعندئذٍ لم يكن يقدم على الإيمان إلا من نذر نفسه للَّه ، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة ، بل والموت في أبشع الصور أحيانًا .

وللإشارة ؛ فالذين ثبتوا على الرغم من استمرار عمليات التعذيب إنما تمرنوا على ذلك ؛ لأن الصبر يكون عند الصدمة الأولى ، ومن تحمل البلاء في المرة الأولى فهو أقدر على تحمله في المرة الثانية كما في حادثة بلال وابن مسعود وجارية بني مؤمل [٢] .

ويوضح سعد بن أبي وقاص ﷺ هذا المعنى بقوله : « كنا قومًا يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول اللَّه ﷺ وشدته ، فلما أصابنا البلاء ، اعترفنا لذلك ومُرِّنَّا عليه [٣] وصبرنا له » [٤] .

ولم يقتصر الأذى على التعذيب البدني ، بل جاوزه إلى غصب أموال المضطهدين والاستهزاء بهم .

فعن خباب بن الأرت ﷺ قال : « كنت رجلًا قينًا ، وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه ، فقال لي : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، قال : قلت : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال : وإني لمبعوث من بعد الموت ؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال : فنزلت : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم : ٧٧] » [٥] .

وهذا الموقف من ضبط النفس طول تلك المدة رغم كثرة الحوادث والمصائب التي أصابت المسلمين من حبس وتعذيب وإذلال واستهزاء ، يؤكد أن قوة ضبط الأعصاب وقوة التحكم بالإرادة وفقًا للأوامر قد بلغت المستوى المطلوب ، وأن تلك التربية قد أينعت ثمارها .

---

(١) انظر موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٦٦ .

(٢) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٣) اعتدنا وداومنا : ابن منظور : لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ .

(٤) أبو نعيم : حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب التفسير ، باب تفسير سورة مريم ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب صفات المنافقين ، باب سؤال اليهود عن الروح ، ج ١٧ ، ص ١٣٨ .

« ... ومن ثمَّ كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق »[1] .

صور من الأذى المادي والمعنوي الذي لحق بصاحب الدعوة

اتخذ الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ صورًا شتى حيث كانت السخرية والاستهزاء أحد الأسباب التي اتبعها المشركون لصرف الناس عن دعوته .

فمن حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : « بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، قال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم - سُمِّيَ عقبة بن أبي معيط في رواية أخرى[2] - فأخذه ، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه ، قال : فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ . والنبي ساجد ، ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت هي وجويرية ، فطرحته عنه ، ثم أقبلت تلعنهم ، فلما قضى النبي صلاته رفع صوته ، ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا ، دعا ثلاثًا ، وإذا سأل سأل ثلاثًا ، ثم قال : « **اللَّهم عليك بقريش** » ، ثلاث مرات[3] .

والملاحظ : أن دعوة النبي ﷺ على المشركين كانت بسبب تكذيبهم إياه واستعصائهم على الإيمان ، وليس بسبب إيذائهم له . فطالما احتمل أذاهم ولم يدع عليهم ، بل دعا لهم بالهداية ، مما يصلح مثلًا أعلى في الصبر على الدعوة واحتمال المدعوين وإن آذوا أصحاب الدعوة في أموالهم وأنفسهم[4] .

ومن صور استهزاء المشركين بالنبي ﷺ : ما رواه ابن عباس ﵄ قال : إن

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٣١٦٧ .
(٢) قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار والطبراني في الأوسط ، وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي ... وحديثه حسن إن شاء الله . ج ٦ ، ص ١٨ .
(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الصلاة ، باب المرأة تطرح عن المصلى شيئًا من الأذى ، ج ١، ص ١٣١ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين ، ج ١٢ ، ص ١٥٢ .
(٤) أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، ج ١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففتَّه بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أَيُحيي اللَّه هذا بعد ما أرم ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ « **نعم ، يميتك اللَّه ، ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم** » ، قال : ونزلت الآيات من آخر سورة يس [(١)] .

واتخذ الأذى أشكالًا أخرى : كالمراء بالباطل ، حيث سلكوا مع النبي ﷺ طريق الجدال لرد الحق ؛ فقد قال النبي ﷺ للمشركين : « **يا معشر قريش ! إنه ليس أحد يعبد من دون اللَّه فيه خير** » وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم فقالوا : يا محمد ! ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّاوعبدًا من عباد اللَّه صالحًا ؟ فلئن كنت صادقًا فإن آلهتهم لكما تقولون . فأنزل اللَّه جلّ ذكره : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف : ٧٥] [(٢)].

كما ذكر القرآن الكريم افتراءهم الكذب عليه ﷺ ونبزه بألقاب الزور ، واتهامهم إياه بأوصاف هو بريء منها كقولهم ﴿ لَسَٰحِرٌ ﴾ [(٣)] أو ﴿ شَاعِرٌ ﴾ [(٤)] أو ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ [(٥)] ، أو يتلقى الوحي عن بعض الأعجمين [(٦)] ، أو اكتتبه من أساطير الأولين [(٧)] ، وهو بلا شك أشد وقعًا على النفوس البريئة من ضرب السيوف .

ولهذا طمأنه ربه وسلاه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

تربية النفوس المؤمنة بالتوجيه والتحذير والعتاب

كان الوحي ينزل على الرسول ﷺ في العهد المكي تارةً موجهًا ، وتارةً محذرًا ، وتارةً معاتبًا ، بحسب الحالات والظروف الطارئة لتقويم النفوس المؤمنة والسمو بها إلى أعلى مراتب الانضباط والطاعة .

فكانت تجيء التوجيهات الربانية إلى النبي ﷺ والذين آمنوا معه – وهم في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه ، ووافقه الذهبي ج ١ ، ص ٤٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، ج ١ ، ص ٣١٨ . والطبراني في المعجم الكبير ، رقم ١٢٧٤٠ ، ج ١٢ ، ص ١٥٣ – ١٥٤ . وقالَ الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ، وفيه عاصم ابن بهدلة ، وثقة أحمد وغيره ، وهو سيئ الحفظ ، وبقية رجاله رجال الصحيح . ج ٧ ، ص ١٠٤ .

(٣) الآية : ٢ من سورة يونس .

(٤) الآية : ٣٠ من سورة الطور .

(٥) الآية : ٣٦ من سورة الصافات .

(٦) الآية : ١٠٣ من سورة النحل .

(٧) الآية : ٥ من سورة الفرقان .

مكة - تدعوهم إلى السماحة واليسر، والعفو والصفح عن أعدائهم، والحلم على السفهاء من قومهم : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] لما في ذلك من تربية للنفس على الصبر والحلم والأناة وتوطينها على تحمل الأذى في سبيل الله، وإعدادها لحمل أعباء وتبعات الدعوة مستقبلًا .

وحين منعت الأنفة والكبر المشركين من السماع إلى الرسول ﷺ بحضور المستضعفين من المؤمنين مثل : عبد الله بن مسعود، وبلال الحبشي، طلبوا من النبي ﷺ أن يطردهم، فنزل الوحي محذرًا من ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢] (١) .

بل قد عاتب الله ﷻ رسوله الكريم عندما أعرض عن ابن مكتوم وهو يسأله عن شيء، ورسول الله ﷺ منصرف إلى الكلام مع أبي بن خلف طمعًا في إسلامه، فنزلت الآيات : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : ١- ١١] (٢) .

ربط العلم بالعمل

ربما كان من نافلة القول أن مفردات هذه العقيدة تجاوزت العلم النظري إلى تفاعل نفسي واجتماعي كان قوامه التربية العملية التي انتهجها الإسلام في مكة وربَّى أبناءه عليها .

إنهم تعلموا من خلال الواقع أنه ﷺ لا يعلم الغيب، وأنه بشر، وأن الأمر لله من قبل ومن بعد ؛ فها هم المشركون يسألونه - بتعليم من اليهود - عن فتية ذهبوا في الدهر، فقال لهم النبي ﷺ : « **أخبركم بما سألتم غدًا** » ولم يستثنِ، فمكث عليه الصلاة والسلام خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي، ثم أنزل الله ﷻ قصة هؤلاء الفتية في سورة الكهف وليقول له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٣، ٢٤] (٣) .

---

(١) انظر : مسلم : الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد، رقم ٢٤١٣، ج ٨، ص ١٩٩ .

(٢) أخرج ذلك الترمذي في السنن، وقال : حديث حسن ج ٥، ص ١٠٣ - ١٠٤ . والحاكم في المستدرك وصححه ج ٢، ص ٥١٤ .

(٣) انظر ابن هشام : السيرة، ج ١، ص ٣٢١ ٣٢٢ . والطبري : جامع البيان ج ٩، ص ٢٢٨ .

لقد كانت أيامًا مؤلمة للنبي ﷺ ولصحابته الكرام لمُكث الوحي عنه ، وهم يسمعون لمز الكافرين : (وعدنا محمد غدًا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه) [١] . ولكنهم تعلموا أن الأمور بيد اللّٰه تعالى ، لم يتعلموها نظرية تقرأ ، وإنما عايشوها حسًّا وواقعًا لحظة بعد لحظة ، واستقر في يقينهم أن اللّٰه فعال لما يريد ، وأن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ ومنذر ، يقود الناس إلى طريق الحق بأمر اللّٰه تعالى [٢] .

دلالة الهجرة إلى الحبشة على مستوى تربية النفوس وإعدادها

وفي مسيرة هذه التربية بالأحداث ، يتبادر سؤال وجيه إلى الذهن ، وهو : لماذا هاجر إلى الحبشة أشراف القوم الذين لم يتعرضوا للاضطهاد والأذى كعثمان والزبير وجعفر ، ولم يهاجر المستضعفون كبلال وعمار وصهيب وخبَّاب وأمثالهم من المعذبين ؟ .

يبدو أن الغاية من هجرة رجال ذوي عصبيات كانت توطئة نفسية وعملية تدريبية لهؤلاء على مغادرة وطنهم ، الأمر الذي كانوا في حاجة إلى الاستعداد له ، بينما لم يكن لأولئك الموالي المستضعفين حاجة إلى ذلك ؛ إذا ليسوا أهل مكة وليس لهم ارتباط بالأرض ، « أما الذين بعث إليهم - أي قريش - وفيهم رسول اللّٰه ﷺ ، كان يؤثر في سلوكهم ونفسياتهم أمران : الارتباط بالقوم ممثلًا في العشيرة والقبيلة ، والارتباط بالأرض ، وهما أمران يزاحمان في النفس معاني التوحيد ، وكان لابد من التخلص عمليًّا - وليس قولًا - من ذلك . وكان إعلان الإيمان تخلصًا من العصبية القبلية .

أما الارتباط بالأرض : فقد كانت مكة أم القرى ، كانت العاصمة الدينية للعرب قاطبة ، وكان موسم الحج كل عام يؤكد هذه المكانة ؛ فسكَّانها هم حماة الحرم ..

وإذن فقد تحول الارتباط بهذه الأرض إلى مزايا نفسية واجتماعية جعلت سكانها أكثر وأكثر ارتباطًا بها ... وكانت الهجرة هي التطبيق العملي لأولوية العقيدة ، وترك الأرض - بكل ما تعنيه من وشائج ومصالح وارتباطات - في سبيلها .

وكان لابد أن يكون الدرس عمليًّا ؛ ذلك أن الدروس النظرية في العقيدة غير مجدية .

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٢١ ، والطبري : جامع البيان ج ٩ ، ص ١٩٢ .
(٢) صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٤٣ .

ولعل هذا يفسر عدم ضرورة اشتراك بلال وأمثاله في تطبيق هذا الدرس ، بينما كان غيرهم بحاجة إليه ، مثلهم في ذلك مثل الأغنياء والفقراء ؛ فإن الأغنياء هم الذين يعنيهم فقه الزكاة وليس الأمر كذلك بالنسبة للفقراء » (١) .

بلوغ الأذى ذروته في حصار الشعب

بلغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي الذي فرضته قريش ظلمًا وعدوانًا على النبي ﷺ وأصحابه ، ومن آزرهم من قرابتهم .

وخلاصة رواية عروة بن الزبير - وهو رائد مدرسة المغازي ، ويروي في الغالب عن الصحابة - أن حصار الشِّعبِ وقع بعد فشل قريش في استعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة ، فأخذ عنادهم يقوى ، واشتد بلاؤهم على المسلمين ، وعزموا على قتل رسول اللَّه ﷺ ، فاتفق بنو عبد المطلب مسلمهم وكافرهم أن يدخلوا رسول اللَّه ﷺ شعبهم ليحموه فيه ، فأجمع المشركون أمرهم على مقاطعتهم بأن : لا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يُسَلِّموا رسول اللَّه ﷺ للقتل ، وكتبوا في ذلك صحيفة بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر (٢) ، فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنوات عانوا فيها من الجهد والبلاء والجوع ، حتى كان يُسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع (٣) .

فلما كان رأس ثلاث سنين ؛ تلاوم رجال من قريش على ماحدث ، وأجمعوا على نقض الصحيفة ، وقد أخبرهم النبي ﷺ أنه لم يبقَ فيها سوى كلمات الشرك والبغي (٤) .

ومما يستخلص من عبرٍ في هذا الحصار : أنه لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو المعاصرة من قيم يمكن الاستفادة منها ؛ فقد ضحى بنو هاشم تضحيات

---

(١) صالح أحمد الشامي : من معين السيرة ، ص ٧٥ ، ٧٦ . وانظر كتابه الآخر : السيرة النبوية ، ص ١١٠ .

(٢) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ، ج ٤، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الحج ، باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر ، ج ٩ ، ص ٦١ . وابن هشام في السيرة ، ج ١ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) انظر ابن إسحاق : السير والمغازي ، ص ١٤٠ والبيهقي : دلائل النبوة ج ٢ ، ص ٣١٥ .

(٤) انظر موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٨٢ . وأبو نعيم : دلائل النبوة ح ٢٠٥ ، ج ١ ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب ، واستفاد الإسلام من هذه المواقف والتضحيات ، فإذا وجدت فرص في مجتمعاتنا المعاصرة مثل : الدفاع عن المظلوم ، أو الحرية الفكرية في بعض الدول ؛ فلا ضير من الاستفادة منها كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم لهم في حصار الشعب (١) .

كما أن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان يلجأون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم للضغط عليهم في مراجعة مواقفهم ، وهو أسلوب يتفق عليه المشركون والمنافقون . فحين يكون الدعاة إلى اللّه موظفين أو مستخدمين في دولة تخالفهم فيما يدعون إليه ؛ فإن هذه الدولة تلجأ إلى تنحيتهم عن أعمالهم كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذ ضدهم . وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة ويستعدوا لها (٢) .

الهجرة وما اكتنفها من مصاعب وشدائد

ختم المشركون أذاهم لرسول اللّه ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية ، مما كان سببًا لهجرته إلى المدينة . فلما رأت قريش أن رسول اللّه ﷺ صار له جماعة وأنصار في يثرب ، ورأوا خروج أصحابه مهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد أصبحت لهم منعة ، فحذروا من خروج الرسول ﷺ وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يصنعون ، فقال بعضهم : أثبتوه في الوثاق ، وقال بعضهم : أخرجوه ، فاتفق أمرهم مع أمر إبليس : أن يأخذوا من كل قبيلة فتًى شابًا ، ويُعطى كل منهم سيفًا صلتًا ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق بذلك دمه في القبائل ، ولن يقدر بنو عبد مناف على حرب القوم جميعًا (٣) .

وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

وأتى جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بما بيّته المشركون ، وأن لا يبيت على فراشه ،

---

(١) مهدي رزق أحمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٣) له أصل في الصحيح ، من حديث ابن عباس الذي أخرجه أحمد في المسند ، ج ١ ، ص ٣٤٨ . وقال الحافظ في الفتح : إسناده حسن ، ج ٧ ، ص ٢٣٦ . وراه ابن هشام في السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٢ – ٩٥ . وأبو نعيم في الدلائل ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

فاجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم أوعز إلى علي بن أبي طالب ﷺ أن ينام في فراشه ويتسجَّى ببرده [١] ، ثم خرج فأخذ حفنة من التراب في يده ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو الآيات الأوائل من سورة يس حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٩] [٢] .

وهكذا لم يكن طريق الدعوة معبَّدًا سهلًا مفروشًا بالورود ، وإنما كانت كل خطوة من خطواته تسير على الشوك والأذى حتى كانت الخطوة الفاصلة بالهجرة والخروج إلى المدينة ، فاكتنفها من المصاعب والشدائد ما ذكرته الروايات الصحيحة ؛ فقد كانت عيون قريش تلاحقه ، ورصدها يطارده إلى أن وقفوا على الغار نفسه الذي كمن فيه هو وصاحبه ، وكانوا من العثور عليهما قاب قوسين أو أدنى [٣] .

قال أبو بكر الصديق ﷺ : قلت للنبي وأنا في الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « **ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟!** » [٤] .

وكذلك هاجر المؤمنون تاركين وراءهم الدور والمال والولد والوطن فرارًا بعقيدتهم من فتن المشركين ، وسعت قريش بشتى الوسائل إلى عرقلة سير هذه الهجرة إلى المدينة ، تارة بمنع المهاجرين من حمل أموالهم ، وتارة بحجز زوجاتهم وأطفالهم ، لكن المهاجرين « كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم كلها تلبية لداعي العقيدة » [٥] .

فلما اعترضت قريش سبيل صهيب الرومي ﷺ بحجة أنه جمع أمواله من عمله بمكة ، ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة ؛ ترك أمواله وهاجر بنفسه ، فبلغ ذلك

---

(١) أخرج ذلك الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ٤ .

(٢) روى ذلك أبو نعيم في الدلائل ، ح ١٥٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ . وابن هشام في السيرة ، ج ٢، ص ٩٥ - ٩٦ ، بسند مرسل حسن ، والطبري في تاريخه ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .

(٣) انظر عبد الرزاق في المصنف ، ج ٥ ، ص ٣٨٩ ، ح ٩٧٤٣ ، وحسَّن ابن كثير إسناده في السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ . وانظر أحمد في المسند ، ج ١ ، ص ٣٤٨ . وحسَّنه الحافظ في الفتح ، ج ٧ ، ص ٢٣٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين ، ج ٤ ، ص ١٩٠ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي بكر ، ج ١٥ ، ص ١٤٩ .

(٥) أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، ج ١ ، ٢٠٢ .

رسول الله ﷺ فقال : « **ربح صهيب** » [١] .

ومنع المشركون أبا سلمة ﷺ من الهجرة بزوجته وابنه ، فلم يمنعه ذلك من الهجرة وحيدًا تاركًا زوجته وطفله ، وقد ظلت زوجته أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح في مكة تبكي حتى تمسي نحو سنة ، حتى تمكنت من الهجرة بابنها ولحقت بزوجها ، ولهذا كانت تقول (والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة) [٢] .

وواجه المهاجرون في المدينة صعوبة اختلاف المناخ ؛ إذ كانت المدينة تقع في موقع زراعي ، تغطي أراضيها بساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى من مكة [٣] ، فأصيب العديد من المهاجرين بالحمى [٤] . لكنهم احتملوا وصبروا وتغلبوا على المشكلات التي واجهتهم في أرضهم الجديدة مغلبين مصلحة العقيدة ومتطلبات الدعوة على حظوظ أنفسهم .

وهكذا فإن الهجرة اقترنت بظروف صعبة ، كانت تمحيصًا لإيمان المؤمنين ، واختبارًا لقوة عقيدتهم ، وسمو نفوسهم على أعراض الدنيا ومتاعها ومصالحها الآنية .

خصائص التربية بالأحداث

إن التربية بالأحداث تربية عملية تقوم في واقع الحياة الملموس ، ولم تكن مجرد محاضرات أو دروس نظرية ، وإنما ترتكز على الواقع ومعطياته التطبيقية . ولعل السمة البارزة في هذه التربية هي « الابتلاء » .

١ - **فمن خصائص التربية بالأحداث** : الاستفادة من تجارب السابقين ؛ فهي خبرات عملية ، وهي بين موقفين : موقف إيجابي يحسن التأسي به ، وموقف سلبي ومنزلقات على الطريق ينبغي الحرص والابتعاد عنها [٥] .

فالموقف الإيجابي يشد عزائم المؤمنين ، ويبث روح الثبات فيهم ، كقصة أصحاب

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ . والحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافق الألباني الحاكم على تصحيحه ؛ انظر حاشية فقه السيرة للغزالي ص ١٥٤ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، من طريق ابن إسحاق بإسناد صالح للاعتبار ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(٤) انظر البخاري في الجامع الصحيح كتاب المرضى ، باب عيادة النساء والرجال ، ج ٧ ، ص ٥ .

(٥) أحمد صالح الشامي : السيرة النبوية ، ص ١٠٠ .

الأخدود [١] التي عبَّرت عن صبر وثبات المؤمنين السابقين ؛ فهي دروس في العقيدة والتربية تقول للمسلمين : إنكم لستم وحدكم على الطريق ، إنما سبقكم أمم ابتليت كما ابتليتم ، وطغى عليها الطغاة كما طغوا عليكم ، فصبروا على الاضطهاد والتعذيب والتحريق ، فكونوا كذلك صابرين حتى يأتي اللّٰه بالتغيير على أيديكم .

ومثال آخر : من حديث خباب ﷺ حين جاء إلى النبي ﷺ يشتكي إليه من عدوان المشركين ، فشد أزره بتذكيره بصبر الأمم السابقة . وخباب إنما كان يشكو واقعًا عمليًا ، وقد رفع الرسول ﷺ من همته بواقع عملي آخر سابق : « لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه » [٢].

٢ - **ومن خصائص التربية بالأحداث** : أنها تحوّل المفاهيم إلى حركة ، وهذا بالضبط ما يخيف الجاهلية ، فتتربص بالمسلمين الدوائر وتسعى إلى حصارهم ، فينتج عن ذلك الابتلاء .

ولو كان الإسلام مجرد فكر نظري لا رصيد له ولا حركة له في الواقع لما كان هناك أي اعتراض عليه ؛ فقد وجد قبل البعثة رجال يطلق عليهم « الحنفاء » اعتزلوا معتقدات المشركين وعبادتهم ، واعتقدوا بألوهية اللّٰه وحده ، وقدموا له الشعائر التعبدية .

ومع هذا لم يقف لهم الملأ من قريش بالمرصاد ؛ لأن فكرهم شعور فردي لم يتحول إلى حركة ، ولا صلة له بالمجتمع ، بينما رأوا في الإسلام تلك الحركة المصاحبة للشهادتين ، وهي الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيادته وسلطانه وقوانينه ، والولاء لقيادة الدعوة التي تريد أن تحقق الإسلام في واقع الحياة .

٣ - **ومن خصائص هذه التربية** : أنها بطيئة وئيدة الخطى . فإذا نظرنا في حساب الزمن نجد أنها استغرقت ثلاثة عشر عامًا ، بينما استغرق بناء الدولة أقل من ذلك ، أي عشر سنوات فقط .

وإذا نظرنا في حساب الوحي ؛ نجد أن أكثر من نصف القرآن نزل في العهد المكي .

---

(١) قصها اللّٰه تعالى في سورة البروج ، وهي مكية .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

ومرجع ذلك : إلى أن مهمة الإصلاح وتغيير النفوس البشرية ليست مهمة سهلة ؛ بل تحتاج إلى الجهد الكبير والنفس الطويل والوقت المديد ، فترتقي من حال إلى حال حتى تصل إلى حدِّ التمام والكمال .

ويشرح صاحب الظلال رحمه الله كيف تمت هذه التربية في الجماعة الأولى فيقول : « هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ ، لم تنبت فجأة ، ولم توجد مصادفة ، ولم تخلق بين يوم وليلة .. بل نمت نموًّا طبيعيًّا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور ، وأخذت الزمن اللازم لنموها ،كما أخذت الجهد الموصل الثابت المطرد الضروري لهذا النمو ، واحتاجت إلى العناية الساهرة والصبر الطويل ، والجهد البصير في التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت ، واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة ، والابتلاءات الشاقة المضنية ، مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات » [١] .

٤ - **ومن خصائص هذه التربية أيضًا** : أنها تربط النفس بالعمل لا بالنتيجة . وهذا العمل يستمد قيمته من الإخلاص وإصلاح النية ، حيث يقوم المؤمن بأداء الواجب ، والإسهام في الخير ؛ امتثالًا لأمر اللَّه تعالى ورسوله ﷺ دون أن يفت في عزمه تأخر النتائج .

وهذا الميزان في التقويم له نتائج عظيمة في واقع الحياة ؛ إذ يجعل المسلم لا يتطلع إلى النتيجة التي قد تأتي متأخرة ، أو تكون غير منظورة ، وإنما حسبه أنه يبذل ما في وسعه ويكل أمر النتيجة إلى علام الغيوب ، فهو الذي يعلم بتقديره وحكمته الوقت المناسب لقطف الثمرة .

ولقد كان النبي ﷺ يأتي آل ياسر وهم يعذبون ، فلا يجد ما يواسيهم به إلا أن يقول : « **اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة** » [٢] .

وفي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : « أقبلت مع رسول اللَّه ﷺ آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء ، حتى أتى على آل عمار بن ياسر ، فقال أبو عمار : يا رسول اللَّه ! الدهر هكذا ؟ فقال له النبي ﷺ : « اصبر » ، ثم قال : « اللَّهم اغفر

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٣٣٧ .

(٢) قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات : ج ٩ ، ص ٢٩٣ .

لآل ياسر ، وقد فعلت » [١] .

وقد مات آل ياسر ولم يشعرا أنهما وصلا إلى نتيجة ؛ لأن التربية النبوية علمت المؤمنين أن يعطوا في هذه الدينا ولا يأخذوا فيها شيئًا ، فهي علَّقت قلوبهم بالآخرة ، بالجنة والرضوان ، هناك حيث الأجر العظيم والثواب الجزيل ، مما يدل قطعًا على أن الجزاء ليس مرتبطًا بالنتيجة ، وإنما بالعمل والنية .

وخلاصة القول : لقد آتى جهد التربية النبوية أكله في تكوين شخصية إسلامية نموذجية ، في ضوابطها الأخلاقية ، والتزاماتها السلوكية ، وحيويتها الحركية ، مما جعل هذه النواة الجهادية الصلبة قادرة بعد ذلك على تحمل ضغوط الوثنية عليها في فتنتها عن دينها : اضطهادًا وتعذيبًا ، ونفيًا وقتلًا ، وقطيعة ، وتجتاز الابتلاء بصمود وروح معنوية عالية نحو تحطيم النظام الجاهلي والتمكين للنظام الإسلامي بديلًا عنه .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ، ج ١ ، ص ٦٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ج ٩ ، ص ٢٩٣ .

المبحث الثاني التربية بأعمال القلوب

لما كان عمل القلب يحظي بأهمية كبيرة ، كان لابد أن يكون حظ الحديث عنه من الذكر الحكيم الذي أنزله اللَّه ﷻ لإصلاح حياة العالمين وتزكيتها هو الحظ الأوفر ؛ فجاء في القرآن المكي آيات كثيرة تبيِّن أعمال القلب كالإنابة والخشية والصبر والمحبة والصدق والإخلاص واليقين والسلامة من الشرك دقيقه وجليله وغيرها ، كما تبين أهميتها في الإيمان أصلًا ووجوبًا وكمالًا .

وكان الرسول ﷺ وصحبه أوفر نصيبًا في العناية التامة بهذه الأعمال وتطبيق مقتضياتها وفقًا لما أمر اللَّه ﷻ به في كتابه الكريم .

الصبر

لم يكن تغيير الواقع الجاهلي وتحويله إلى واقع مسلم بالأمر الهين والسهل ، بل قد احتاج إلى الجهد الكبير ، والإرادة الصلبة ، والعزيمة القوية .

وهذا الجهد لا يمكن المضي في بذله إلا إذا تدربت إرادة صاحبه على قوة التحمل ، وتوطنت نفسه على الصبر ؛ لأنه العدة اللازمة في بلوغ الأهداف الكبيرة .

على أن الصبر ليس موعظة تستمع أو درسًا يحفظ ؛ إنه مواقف تختبر بها صلابة الإرادة وقوة تحملها في الميادين المختلفة بالممارسة .

فعن سعد بن أبي وقاص ؓ قال : « كنا قبل الهجرة - الهجرة إلى الحبشة - يصيبنا ظلف العيش وشدته ، فلا نصبر عليه ، فما هو إلا أن هاجرنا ، فأصابنا الجوع والشدة ، فاستضلعنا [1] بهما وقوينا عليهما ... ولقد رأيتني مرة ، قمت أبول من الليل ، فسمعت تحت بولي شيئًا يجافيه ، فلمست بيدي فإذا قطعة من جلد بعير ، فأخذتها ، فغسلتها حتى أنعمتها ، ثم أحرقتها بالنار ، ثم رضضتها فشققت منها ثلاث شقات ، فاقتويت بها ثلاثًا » [2] .

---

(١) أو تضلعنا : أي احتملنا . ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٠٦ . والذهبي : السير ج ١ ، ص ١٤٨ .

ولهذا كانت التربية على الصبر هي الوسيلة الناجعة لتجاوز فترة الأزمات ، وهي تحتاج إلى مدة من الزمن ينتقل الإنسان فيها من موقف إلى آخر أشد منه ودواليك .

وهذا ما يفسر لنا تأكيد القرآن الكريم على الأمر بالتزام الصبر منذ وقت مبكر في عمر الدعوة المكية .

ولأهمية الصبر القصوى في حسم المواجهة لصالح المسلمين ، ولو إلى حين ، جاء ذكره في القرآن الكريم في تسعة وتسعين موضعًا [١] .

ويبيِّن صاحب الظلال رحمه الله في معرض حديثه عن الصبر ، أن الصبر هو عدَّة وسلاح المؤمن في مواجهة ثقل التبعات والمضي في طريق الدعوة الشائك حتى يتحقق أمر اللَّه في إقامة هذا الدين : « ذلك أن اللَّه سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ، والذي يقتضه القيام على دعوة اللَّه في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات .. لابد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصي ، والصبر على جهاد المشاقين للَّه ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقلة العناد ، ومضاضة الإعراض » [٢] .

ولما وقفت الجاهلية بجبروتها وطغيانها في وجه الدعوة ، واستعملت كل الوسائل الممكنة للصد عن سبيل اللَّه ، كان لا بد أن تكون العُدَّة في مواجهة هذا الباطل هي التربية بالصبر ليتمكن المؤمن من هدفه المرسوم ، وهو أن يكون الدين للَّه في الأرض .

وإذا كان المؤمن بطبيعته بشرًا ينتابه الضعف واستعجال الثمرة و ويستبطئ الوصول إلى النتائج ، فإن آيات الصبر بمثابة محطات تقوية تشحذ الهمة وتدفعها إلى المضي في الطريق مرة أخرى وبعزم قوي [٣] .

وللبلاء العظيم الذي نزل بالمؤمنين ، كان الحث على الصبر تنزل به الآيات بأساليب متنوعة ؛ منها ذكر ما أصاب الرسل من الإيذاء والتكذيب وكيف صبروا على ذلك : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٣٩٩ - ٤٠١ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٣) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٤٨ .

نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

وحين لجأ الكفر إلى اتخاذ وسائل تعتمد على التأثير النفسي من الوصف بالسحر والجنون والشعر ، والاستهزاء بالمسلمين ، أخذ القرآن الكريم يعرض تارة لذكر الأنبياء السابقين وما أصاب المستهزئين بهم ، وتارة أخرى يدعو إلى الصبر على ما يقولون : ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الانعام: ١٠] ، ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ ﴾ [طه: ١٣٠] .

وكلما طالت المعركة مع الكفر نزل الوحي ليطمئن النبي ﷺ والمؤمنين معه أنهم على درب الحق ، وأن الصبر هو عُدَّتهم وزادهم لتحمل مشقة الطريق ، على أن العاقبة بعد للمتقين : ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩] ، ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] .

كما كان النبي ﷺ يبث في أرواح المسلمين الأمل ويذكرهم بسنة اللّه في أنبيائه والدعاة إليه ، فقد أخرج البخاري في باب : ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ، عن خباب رضي الله عنه قال : « أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بُردة ، وهو في ظل الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت : يا رسول اللّه ! ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : « لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن اللّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا اللّه والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » [(١)] .

والظاهر أن سبب إحمرار وجه النبي ﷺ هو تأثره من استعجال الصحابة رضي الله عنهم للنصر ، المشعر باستبطائهم لوعد اللّه مع ما أمروا به من الصبر واليقين ، مما يؤكد أهمية عامل الزمن في أي عملية تربوية لاستكمال الإعداد .

وجدير بالإشارة أن نزول آيات الصبر قد امتدت على طول الفترة المكية تقود

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ ، وأحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) ، ج ٢٠ ، ص ٢٢٢ .

خطوات المؤمنين خطوة خطوة ، فتمرنوا على تحمل المشاق وتحمل الأذى، وضبط الإرادة ، وألا تكون تصرفاتهم ردود أفعال ، كما تدرَّبوا على الالتزام بما يرد عن اللَّه تعالى ، والانضباط مع أوامر رسول اللَّه ﷺ (١) .

الصدق

إن من أهم أعمال القلوب التي حث عليها الإسلام أتباعه هي تحري الصدق في النية والعمل حتى يصير خلقًا وسجية للنفس يسري عليها في جميع الظروف والأحوال ؛ لأن النجاة في الصدق وإن ظهر للنفس خلاف ذلك .

ومما يبعث على الإعجاب والإكبار : موقف مهاجرة الحبشة ﷺ في بيانهم لعقيدتهم في عيسى عليه السلام بصراحة ووضوح ، ودون لبس أو تمويه ، رغم مخالفتها للنصرانية السائدة في الحبشة ، فلم يلجأوا إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين في مجلس النجاشي خوفًا من تسليمهم لقريش ، فأحسن اللَّه عز وجل عاقبتهم ، وآمنهم في دار هجرتهم (٢) ، بسبب صدقهم وثباتهم على الحق الذي يؤمنون به .

ولأجل ذلك ، فإن عاقبة الصدق حميدة في الدنيا والآخرة ، وثمراته عظيمة وكثيرة، لا سيما وأن مدار القبول والثواب عند اللَّه عز وجل على الصدق والإخلاص (٣) .

وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه اتسمت حياته كلها بالصدق والإخلاص ، وبذل الغالي والنفيس في سبيل اللَّه ، والمحبة الصادقة للَّه عز وجل ونبيه ﷺ ، ومن أجل ذلك استحق هذا اللقب العظيم من رسول اللَّه ﷺ (٤) .

ومن مواقف الصدق المشهورة لأبي بكر رضي الله عنه : موقفه حين أُمر النبي ﷺ بالهجرة ، وأذن لأبي بكر في الخروج معه ، فاحتمل أبو بكر رضي الله عنه ماله كله معه ؛

---

(١) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٥٠ .

(٢) أخرج قصة ذلك الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بسند حسن من حديث أم سلمة رضي الله عنها وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٢٤- ٢٧ . وأخرجه أبو نعيم في الحلية بسند صحيح ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(٣) عبد العزيز الجليل : وكونوا مع الصادقين ص ١١٧ .

(٤) انظر : الزهري : المغازي ، ص ٤٨ . والحاكم : المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦٢ .

خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم ، ووضعه رهن إشارة الدعوة [١] .

ومن ذلك : استعداده لفداء النبي ﷺ ليس بماله فحسب ، بل بنفسه ، وهذا منتهى المحبة الصادقة التي تحوِّل النيات والأقوال إلى أفعال .

فمن حديث محمد بن سيرين قال : « ذُكر رجال على عهد عمر ﷺ ، فكأنهم فضَّلوا على أبي بكر ﷺ ، قال : فبلغ ذلك عمر ﷺ فقال : واللَّه لليلة من أبي بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر ؛ لقد خرج رسول ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر ، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن له رسول اللَّه ﷺ فقال : « يا أبا بكر ! مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟ » فقال : (يا رسول اللَّه ! أذكر الطلب فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك) ، فقال : « يا أبا بكر ! لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟ » قال : (نعم والذي بعثك بالحق ما كانت أن تكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك) ، فلما انتهيا إلى الغار ، قال أبو بكر : (مكانك يا رسول اللَّه حتى استبرئ لك الغار) فدخل واستبرأ حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة ، فقال : (مكانك يا رسول اللَّه حتى استبرئ لك الحجرة) ، فدخل فاستبرأ الحجرة ، ثم قال : (انزل يا رسول اللَّه) ، فنزل ، فقال عمر : والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر [٢] .

وفي هذا درس للدعاة للمطابقة بين القول العمل ، وبين العقيدة والسلوك ، لتعطي الدعوة ثمارها حقًّا . واللَّه جل ذكره ضمن تفريج الشدائد ، وكشف كربات أوليائه ، والنصر على الاعداء لعباده المتقين .

المحبة

المحبة أساس كل عمل من أعمال الدين والإيمان ، وذلك أن كل عمل يعمله

---

(١) انظر المسند للإمام أحمد (بترتيب الشيخ الساعاتي) ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٢ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٥٩ . وأخرج ذلك الحاكم في المستدرك وصححه ، ج ٣ ، ص ٥ - ٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال : صحيح مرسل ، ج ٣ ، ص ٦ . وأورده الحافظ في الفتح من مرسل ابن سيرين ، ج ٧ ، ص ٢٣٨ .

الإنسان لابد أن يكون من إرادة قلبية ، وهذه الإرداة إما أن تكون حبًّا أو كرهًا [(١)] .

وقد أخبر اللَّه ﷻ عن اختلاف حالي المؤمن والكافر وعاقبتيهما بحسب اختلاف موقف كل منهما ؛ فقال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٧- ٢١] .

والمقصود هنا هو أبو بكر الصديق ﷺ الذي كان يبذل المال الكثير لعتق رقيق المسلمين من أيدي المشركين محبة للَّه ورسوله [(٢)] .

أما المشرك : فيجعل للَّه ﷻ ما يكره هو ، ويفتري الكذب عليه ، كما يقف عقبةً في وجه نشر الدين ، ويصد عن سبيل اللَّه كراهيةً واستكبارًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل : ٦٢] ، وقوله جل ثناؤه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٩] .

والمؤمنون أنفسهم تتفاوت درجات إيمانهم بحسب المحبة والرضا ؛ فكم بين إسلام أبي ذر ﷺ الذي تحمل المشاق حتى بلغ رسول اللَّه ﷺ في مكة ، فلما أسلم أعلن إسلامه بين ظهراني الكفار مستعذبًا ضربهم وأذاهم يومًا بعد يوم [(٣)] وبين إسلام الأعرابي الذي جاء النبي ﷺ فقال له : « أسلم » ، فقال : أجدني كارهًا - أي في نفسه بقيه كره للدين ، ولما ينشرح صدره للإسلام بعد - فأرشده النبي ﷺ إلى إرغام النفس وقبول الحق [(٤)] ، فقال له : « أسلم وإن كنت كارهًا » [(٥)] .

بل كم بين إسلام سلمان الفارسي الذي قضى السنين الطوال بحثًا عن الدين الحق ، وانتقل من خدمة راهب إلى آخر حتى وقع في الرق ، وبلغه خبر رسول اللَّه

(١) انظر : سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء ، ص ٤١٤ . وقد نقل ذلك عن التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية .

(٢) أخرج ذلك الحاكم في المستدرك ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ - ٥٢٦ . وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة : إسناده حسن . ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٣) أخرج ذلك البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ، ج ٤ ، ص ٢٤١- ٢٤٢ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، ج ١٦ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) انظر : سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء ، ص ٤١٥ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ، ١٨١ ، وصححه الألباني في الجامع الصغير ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

ﷺ وهو على النخلة ، فكاد يسقط فرحًا وشوقًا ومحبةً [(١)] ، وبين إسلام المؤلفة قلوبهم من جفاة الأعراب ومسلمة الفتح الذين دخلوا في الإسلام طمعًا ورهبةً [(٢)] .

وقد روي أن رسول اللَّه ﷺ نظر إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه مقبلًا عليه وعليه إهاب [(٣)] كبش قد تنطَّق به [(٤)] . فقال : « انظروا إلى هذا الذي نوَّر اللَّه قلبه ، ولقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيت عليه حلَّة شراها – أو شريت – بمائة درهم ، فدعاه حبُّ اللَّه ورسوله إلى ما ترون » [(٥)] .

ومن هنا كانت المحبة أصل أعمال القلوب وشرطًا من شروط لا إله إلا اللَّه ؛ فالإله : هو الذي يألهه العباد حبًّا وذلًّا وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا وطاعةً . والمحبة : هي أصل وحقيقة العبودية ، وهل تُمكن الإنابة بدون المحبة ؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين ؟ [(٦)] .

ويخبر اللَّه ﷻ حكاية عن المشركين وهم في النار ، يقولون لآلهتهم وأندادهم المحضَرين معهم في العذاب : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] وهذه التسوية برب العالمين ليست في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم في المحبة والتعظيم [(٧)] ، وهما أساس الطاعة والتشريع .

فالدليل على المحبة : هو طاعة اللَّه ﷻ ورسوله ﷺ باتباع الأمر واجتناب النهي ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] مما يوحي بالعلاقة العضوية بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح ؛ فالأولى مؤثرة وفعالة ، والثانية متأثرة وتابعة ، حيث إن المحبة الصادقة في القلب لا بد أن تثمر الطاعة ، وتجريد المتابعة عمليًّا .

---

(١) انظر البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام سلمان ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ . وفي كتاب البيوع ، باب شراء المملوك من الحربي ، ج ٣ ، ص ٣٨ . وأخرج ذلك أحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) مطولًا من طريق ابن إسحاق ، ج٢٢ ، ص ٢٦١ – ٢٦٦ .

(٢) انظر : مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة ومن يُخاف على إيمانه إن لم يعط ، ج ٧ ، ص ١٥٢ ، ١٥٤ . وأحمد : المسند ج ٤ ، ص ١٩٨ .

(٣) الإهاب هو الجلد ، ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

(٤) شدَّه في وسطه ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٦٣ .

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب ، ح ٦١٨٩ ، ج ٥ ، ص ١٦٠ . وأبو نعيم في الحلية ، ج ١ ، ص ١٠٨ . وله شاهد من حديث الترمذي في السنن ، ح ٢٥٩٤ ، والحاكم في المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦٢٨ .

(٦) ابن القيم : مدارج السالكين ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٧) المصدر نفسه ص : ٢١ .

المبحث الثالث التربية بالأخلاق

أخلاق العرب في الجاهلية والإسلام

تجلَّت في العرب صفات وأخلاق كانت من ضمن المؤهلات التي جعلتهم يكونون أهلًا لحمل أعباء الرسالة ؛ ومنها : الشجاعة ، والكرم ، والنجدة ، والعفة ، والوفاء ، والمروءة ، والنخوة ، والفداء .

وهذه الصفات وإن تحلى بها العرب ، إلا أنها في بعض الأحيان عندما تجاوز حدَّها الطبيعي كانت تنقلب إلى ضدها - شأن كل الأمور - لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، فتنقلب الشجاعة إلى تهور ، والكرم إلى إسراف ، والنخوة إلى استعلاء ، وهكذا دواليك .

ولذلك حين أقر الإسلام تلك الأخلاق الفاضلة ، فقد هذَّبها وضبطها بضوابط الشرع .

هذا علاوة على أخلاق أخرى نقلتهم إلى طور مزري من الانحطاط والإسفاف والقبح الخلقي الذي تحول عندهم إلى عادات وتقاليد ظهر منها : وأد البنات أحياء، وقتل الأولاد للتخلص من نفقتهم ؛ وذلك نهاية القسوة والشح ، وكانوا يسفكون الدماء بينهم لأهون الأسباب التي تثير الحمية ، ويشنون الغارات لنهب بعضهم بعضًا [١] .

ورغم هذه الأوضاع المزرية ، كان العقلاء من العرب يُجلُّون من يتصف بمكارم الأخلاق وكرم الشمائل ، ويرون فيه عضوًا إيجابيًّا ، ينشر الفضيلة ، وينفق على الضعيف واليتيم وذوي الحاجة ، ويعطي الناس ما لا يجدون عند غيره من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق .

فعندما نزل الوحي على النبي ﷺ في غار حراء ، رجع وفؤاده يرجف ، وأنبأ زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بالخبر ، فقالت له : (كلا ، واللَّه ما يخزيك

(١) انظر علي التركي : دروس موضوعية من السيرة ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

اللّه أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق) [١] .

ولما ابتلي المسلمون ولحقهم الأذى من المشركين ، خرج أبو بكر ﷺ مهاجرًا نحو أرض الحبشة وحين بلغ برك الغماد لقيه ابن الدُغُنَّة - وهو سيد القارة [٢] - وقال : « أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال له أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ؛ إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف في أشراف قريش فقال لهم : أن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج ، أتخرجون رجلًا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكلَّ ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟! فأقرته قريش » [٣] .

لقد نزل هذا الدين ، ومن أهدافه السامية : تزكية النفوس بمكارم وفضائل الأخلاق ، فزكى النبي ﷺ الداخلين فيه ونقاهم من الأخلاق الرديئة والصفات القبيحة .

وفي هذا الصدد يقول جعفر بن أبي طالب ﷺ لما سأله النجاشي عن حقيقة هذا الدين الذي فارقوا فيه قومهم : « أيها الملك ! كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولًا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى اللّه ﷻ لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون اللّه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع لصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا يحيى بن بكير ، ج ١ ، ص ٣ .

(٢) قبيلة مشهورة من بني الهُون بن خزيمة بن مضر ، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش . انظر : هشام الكلبي : جمهرة النسب ، ص ١٦٦ - ١٦٧ . وابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

اللّه ولا نشرك به شيئًا ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » [١] .

معجزة النبي ﷺ الأخلاقية

إن النبي ﷺ قد تأيّد في مجال الأخلاق بلون من الإعجاز كان كامنًا في تكوينه وذاتيته ، بارزًا في سلوكه ، وظاهرًا في شخصيته لأجل غاية سامية تمثلت في قوله ﷺ : « **إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق** » [٢] .

وهو إعجاز أخلاقي يستحيل في معهود البشر أن يحتشد جميعه في إنسان واحد إلا إذا كان مصنوعًا على عين اللّه ، ولا مبالغة في القول أن الرسول ﷺ قد مهد في المرحلة المكية لإنشاء أول دولة في التاريخ تقوم على دعائم الأخلاق والقدوة لمن حوله في الخُلُق، كما كان كذلك في كل شيء [٣] .

ولكي نقرب من تصور المعجزة الأخلاقية في شخصية الرسول ﷺ ؛ يحسن إلقاء نظرة على ما اتفق عليه علماء الأخلاق والاجتماع من قواعد تحكم السلوك البشري .

يقولون : إن أسس الأخلاق الحسنة أربعة هي :.العفة ، والشجاعة ، والعدل ، والحكمة .

- فعن العفة تتفرع أوصاف

- القناعة .
- والحياء .
- والورع .
- وغنى النفس .

- وعن الشجاعة تتفرع أوصاف

- الكرم .
- والسماحة .

(١) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٢٤ - ٢٧ . ورواه ابن هشام في السيرة ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، رقم ٢٧٣ ، ص ١٢٢ . وصححه الألباني في الجامع الصغير ، ٢٣٤٩ ، ج ١ ، ص ٤٦٤ .

(٣) علي التركي : دروس موضوعية من السيرة النبوية ، ص ١٠٢ .

- والرحمة .
- والنجدة .
- والصفح .

- وعن العدل تتفرع أوصاف

- الصدق .
- والتواضع .
- والبِّر .
- وسلامة الصدر .
- وحسن العشرة .
- والدفع بالتي هي أحسن .

- والحكمة يتفرع عنها

- العلم .
- والتزكية .
- والأناة .
- والرزانة [1] .

وإنه لمِمَّا يبهر العقول أن نرى في شخصية الرسول ﷺ استكمالًا لكل شمائل الخير أصولًا وفروعًا ، إلى جانب تنزهه وبراءته من أوصاف السوء أصولًا وفروعًا [2] .

وكفى بشهادة اللَّه ﷻ له ؛ حيث أثبت في كتابه الكريم لنبيه ﷺ جماع الأخلاق الحسنة التي بلغ فيها الذروة ومنتهى الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقد كان هذا الثناء العظيم في وقت مبكر جدًّا من عمر الدعوة ؛ لأن سورة القلم هي السورة الثانية التي نزلت على النبي ﷺ بعد سورة العلق .

---

(١) الماوردي : تسجيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك ، ص ١٣ - ١٤ . وعبد الرحمن النحلاوي وآخرون : علم الاجتماع . نقلًا عن علي التركي : دروس موضوعية من السيرة ، ص ١٠٣ .
(٢) انظر : علي التركي : دروس موضوعية من السيرة ، ص ١٠٣ .

المنهج القرآني في التربية الأخلاقية

إن المنهج القرآني في تربيته الأخلاقية في العهد المكي يقوم على حقيقتين اثنتين هما : النفي ، والإثبات .

فالأولى : الغاية منها : الوصول إلى نظافة النفس من رواسب الجاهلية .

والثانية : الغاية منها : تثبيت أركان البناء الخلقي في النفس المؤمنة .

ولقد كان من حكمة هذا المنهج في خطته للتخلص من مخلفات الجاهلية أن سلك للقضاء عليها مسلكين :

الأول : ويقوم على بيان الخطأ والانحراف فيها وضرورة الابتعاد عنها .

والثاني : هو أن التوجيهات الجديدة التي جاءت لتقرر المنهج الأخلاقي في حياة المسلم كانت تقوم بدورها تلقائيًا ؛ فكل خلق إسلامي يلغي خلقًا جاهليًا ليحلَّ مكانه (١) .

وعلى سبيل المثال : فعقيدة التوحيد تجذرت في القلوب لتقضي علىالوثنية في النفوس قضاءً مبرمًا ، وأصبح ولاء الفرد للجماعة المسلمة ، وأصبح ارتباطه بالرسول ﷺ مكان ولائه للقبيلة وارتباطه بزعيمها ، وأصبحت السيادة في نفسه للشرع لا للعرف ، وهكذا دواليك .

وبصدد الحديث عن مرحلية التربية في بناء الجيل الأول نلمح أن القرآن المكي ركز على القضايا الكلية ؛ فحض على الخطوط العامة للفضيلة ودرء الرذيلة في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وتزكية النفس إنما تكون بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؛ ذلك أن الإسلام يقوم على الصدق الكامل الذي يطابق فيه القول العمل ، ويواطئان في ذات الوقت النية والضمير ، ولهذا يأتي التأكيد على ترك الإثم في السريرة والعلانية

---

(١) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٦٤ .

حتى يتوازن السلوك الخلقي بعضه مع بعض من كل جوانبه [1] .

وفي ميدان المحرمات يلفت القرآن المكي النظر إلى تفصيلات كثيرة :

إما بالتأكيد على اجتنابها والابتعاد عنها لاجتثاثها من نفوس المؤمنين .

أو بالتمهيد لتحريمها في المستقبل .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

ولما كان النبي ﷺ منبعًا للزاكيات من الأخلاق ، والعاليات من الخلال والشمائل ؛ فقد زكى أتباعه من الأخلاق السيئة ، وذلك باقتدائهم بأخلاقه الكريمة وآدابه الرفيعة ، وتلقيهم عنه السبيل إلى الأعمال التي ترضي اللَّه ﷻ ولعلمهم أن التأسي به هو عبادة في حدِّ ذاته ؛ لأن اللَّه ﷻ قد أمر به ، وجعل اتباعه والاقتداء به فرضًا على عباده المؤمنين .

نماذج أخلاقية فريدة

ولنستعرض بعض النماذج التي تزكت بأخلاق الإسلام وتأثرت بسلوك النبي ﷺ وخلاله الحميدة في هذه المرحلة ، ومن ضمنها نماذج أبانت عن وفائها ومروءتها وعفتها قبل إسلامها في معاملته للمسلمين ، حيث جاء الإسلام وفي العرب بعض المزايا الحميدة .

ولا يستبعد أن تلك المحاسن والفضائل هي من بقايا دين إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام بقيت بين العرب بشكل أو بآخر [2] .

ولذلك قال النبي ﷺ : « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » [3] .

---

(١) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٦٨ .

(٢) حبيب بن حنش الزهراني : أدب الحنيفية ، ص ٣٨١ - ٣٨٣ . نقلًا عن محمد الناصر : أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ، ص ١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأنبياء ، باب قصة إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب خيار الناس ، ج ١٦ ، ص ٧٨ .

فهذا العباس بن عبد المطلب عمُّ الرسول ﷺ يعدُّ نموذجًا للوفاء والمروءة والشهامة ، فرغم أنه كان على دين قومه ، فقد حضر مع النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية ليتوثق له ويثبت له في هذا الأمر ، فقال : « يا معشر الخزرج ! إن محمدًا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلَّا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ؛ فمن الآن فدعوه ؛ فإنه في عِزٍّ ومنعة من قومه وبلده » [١] .

فرغم الاختلاف في الدين ، فقد وفَّى العباس للنبي ﷺ وحفظ له سرَّه ، بل نافح عنه واستوثق له فيما كان بينه وبين الأنصار من عهود ليلة العقبة .

كما ضرب علي بن أبي طالب مثالًا للفداء والتضحية ليلة الهجرة ؛ فحين أمر النبي ﷺ بالهجرة ، نام عليٌّ في فراشه وتسجَّى ببرده للتمويه على المشركين ، ففدى النبي ﷺ بنفسه ، إذ عرَّضها للقتل ، وكان المشركون قد اتفقوا في تلك الليلة على قتل رسول اللَّه ﷺ [٢] .

ولما أُذن للمسلمين في الهجرة ، سعى المشركون بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة وإثارة المشاكل أمام المهاجرين ؛ فقد منعت قريش أبا سلمة ﷺ من مصاحبة زوجته وابنه إلى دار الهجرة ، فمكثت زوجته قريبًا من سنة على هذه الحالة تبكي حتى سُمح لها بالهجرة مع ابنها ، فارتحلت إلى المدينة تريد بعلها ، وبالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة - ولم يُسْلِمْ بعد - ، ونترك أم سلمة تحكي قصتها معه ، وهي ذات دلالة على مروءة وعفة هذا الرجل .

تقول رضي الله عنها : « فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، قالت : وما معي أحد من خلق اللَّه ، وقالت : فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت

(١) رواه الطبري في تاريخه بسند صحيح ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، وصححه ابن حبان كما في الفتح ، ج ٥ ، ص ٤٢٥ . وأورده الهيثمي في موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ، ص ٤٠٨ . وصححه في المجمع ، ج ٦ ، ص ٤٤ .

(٢) روى ذلك الزهري في المغازي ، ص ٩٩ - ١٠٠ . وأخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ٤ .

عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجي في المدينة . قال : أوما معك أحد ؟ قالت : لا واللَّه ، إلا اللَّه ثم ابني هذا . قال : واللَّه ما لك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يهوي بي ، فواللَّه ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ؛ كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر بعيري ، فحطه عنه ، ثم قيّده في الشجرة ، ثم تنحى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه فقاده ، حتى ينزل بي ، يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلًا - فادخليها على بركة اللَّه ، ثم انصرف راجعًا إلى مكة . قال - أي الراوي - فكانت تقول : واللَّه ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة » [(١)] .

وفي قصة عمر بن الخطاب مع عياش بن ربيعة رضي الله عنهما دلالة أخرى على فضيلة الكرم ، وبذل الغالي والنفيس في سبيل العقيدة ؛ يحدث عمر رضي الله عنه بها بنفسه قال : « اجتمعنا للهجرة ، أوعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص الميضاة ، ميضاة بني غفار فوق سَرِف ، وقلنا : أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس فليمض صاحباه ، فحبس عنا هشام بن العاص ، فلما قدمنا منزلنا في بني عمرو بن عوف ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدم علينا المدينة فكلماه ، فقالا له : إن أمك نذرت أن لا تمس رأسها مشط حتى تراك ، فرقَّ لها ، فقلت له : يا عياش ! إنه واللَّه إن يريدك القوم إلا عن دين ؛ فاحذرهم . فواللَّه لو قد أذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة - أحسبه قال - لامتشطت . قال : إن لي هناك مالًا فآخذه . قال : قلت : واللَّه إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالًا ، فلك نصف مالي ، ولا تذهب معهما ، فأبى إلا أن يخرج معهما ، فقلت له لما

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة ، ج ٢ ، ص ٧٧ - ٧٨ . وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة : روي من طريق ابن إسحاق بإسناد صالح للاعتبار ج ١ ، ص ٢٠٤ .

أبى عَلَيَّ : أما إذ فعلت فخذ ناقتي هذه ؛ فإنها ناقة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب ؛ فانج عليها .. » (١) .

خلق الجوار

ومن الأخلاق التي استفاد منها المسلمون ، وهم مستضعفون في مكة : عرف الجوار الذي يأخذ معنى الأمان والحماية والمنعة . وهو خلق من مآثر الجاهلية كانوا يحترمونه .

فعندما اشتد على المسلمين أذى المشركين ، ونزلت بهم المحن والخطوب ، لم يكن أمامهم إلا تحمل الآلام والمشقة أو الدخول في جوار أحد من الناس أو الهجرة إلى مكان آمن .

وقد خرج جماعة من الصحابة فرارًا بدينهم ومن بينهم رجال من كبار الصحابة مصطحبين معهم النساء والأبناء ، وقصدوا أرض الحبشة ، فنزلوا مطمئنين بجوار ملكها العادل ؛ حيث جاء في حديث أم سلمة الطويل عن الهجرة : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها جار النجاشي أمِنًّا على ديننا ، وعبدنا اللَّه وحده ، لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه .. » (٢) .

ومن أمثلة الجوار كذلك : دخول الرسول ﷺ مكة عند عودته من الطائف بجوار المطعم بن عدي (٣) ، وقد كان سابقًا في حماية عمه أبي طالب وبني

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة بسند حسن ، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث ، ج ٢ ، ص ٨٤ . والبيهقي في السنن ، ج ٩ ، ص ١٣ . وأورده الهيثمي في كشف الأستار عن زوائد البزار ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣، وقال في المجمع : رواه البزار ورجاله ثقات ، ج ٦ ، ص ٦١ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، ج ١ ، ص ٢٠٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٢٤ .

(٣) روى ذلك ابن سعد في الطبقات ، ج ١ ، ص ٢١٢ ، وابن كثير في البداية والنهاية ج ٣ ، ص ١٥١ من مغازي الأموي . قال الحافظ في الفتح بمناسبة الحديث عن أسرى بدر ، حيث قال رسول اللَّه ﷺ : « لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له » (الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب فرض الخمس ، رقم ٣١٣٩) قال : والمراد من قوله : ليتركنهم له ، أي بغير فداء ، وبيَّن ابن شاهين من وجه آخر السبب في ذلك ، وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حيث رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم ابن عدي ، وقد ذكر ابن إسحاق القصة في ذلك مبسوطة (ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٠٦) . وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل . ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

هاشم ،[١] ودخول أبي بكر ﷺ في جوار ابن الدُغُنَّة عندما خرج مهاجرًا إلى أرض الحبشة ، فلقيه هذا الأخير حيث بلغ بَرْك الغِمَاد ، فأرجعه إلى مكة معلنًا للملأ من قريش أنه دخل في جواره[٢] .

ولهذا يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، وفي حدود الشرع[٣] ، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي ، أو كان مشركًا كأبي طالب الذي حمى النبي ﷺ ، وكابن الدغنة الذي عاد أبو بكر ﷺ في حمايته إلى مكة .

وقد يكون الجوار في عصرنا على شكل بلاد مفتوحة أمام المهاجرين ، بحيث يستطيع الإنسان أن يقيم فيها دون الالتزام بقيود في مجال الاعتقاد ، وإنما يستفيد من قوانين تلك البلاد التي لا تتعرض للأحوال الشخصية للناس ، كما هو الحال في بعض البلاد الأوروبية التي اصطلحت على عرف الجوار ، وهو ما يعرف في مصطلح الدبلوماسية المعاصرة « بحق اللجوء السياسي » . وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة فرارًا بدينهم وعقيدتهم من مواطنهم الأصلية ، ولتبليغ دعوتهم إلى الناس .

ويمكن القول بعد هذا : أن المنهج الأخلاقي قد اسْتُكْمِلَ بناؤه في نفوس المسلمين في المرحلة المكية من جهة : بتوجيه القرآن الكريم الذي أكد على أسس وأركان هذه التربية الخلقية مقررًا إياها بأساليب متعددة . ومن جهة أخرى : تجلت هذه الأخلاق في شخص الرسول ﷺ ليكون قدوة للمؤمنين في تزكية نفوسهم بأمهات الأخلاق وفضائل الأعمال . ومن جهة ثالثة : فإن بعض الأخلاق الحميدة المتأصلة في نفوس العرب منذ الجاهلية قد لعبت دورًا إيجابيًّا لمصلحة الدعوة في مرحلة الاستضعاف .

---

(١) انظر موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٨٢ . وابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) أخرج ذلك البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٣) فمن الصحابة ﷺ من ردَّ الجوار بعد أن حاول المجير أن يحد من مواقف ونشاط المستجير ؛ حيث رد أبو بكر ﷺ الجوار لابن الدغنة عندما طلب منه أن لا يصلي خارج بيته . انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

وخلاصة القول : أن الإسلام - كما رأينا - سار بتربية الجماعة الأولى في أكثر من مسار في آن واحد ، فهو بقدر ما كان يبني في النفوس الخير ومكارم الأخلاق ، بقدر ما كان يوطنها على تحقيق أعمال القلوب والعناية بها . وفي الوقت ذاته يبني هذه النفوس في مسار آخر وهو التربية بالأحداث لتستطيع الصمود في معركتها مع الطغيان والباطل في واقع الحياة .

إذًا فهما جهادان ؛ جهاد في داخل النفس لإصلاحها ، وجهاد خارج النفس لإصلاح المحيط من حولها . غير أن جهاد النفس كان توطئة وإعدادًا للمواجهة الخارجية . وهذه المواجهة مفروضة على المؤمنين ؛ لأنها في حقيقتها معركة عقيدة ، وسنة ربانية لا محيص عنها .

وقد كان الذين يملكون أثارة من علم يعلمون هذه الحقيقة قبل أن يقرؤوها في كتاب اللَّه تعالى ، بل قبل أن ينزل بها : (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي) [1] .

* * *

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ، ج ١ ، ص ٣ - ٤ .

المبحث الرابع تكوين القاعدة الصلبة نتيجة للتربية الشاملة

أثر الابتلاء والإيمان في تشكيل النواة الصلبة

إن السنن الربانية في الأمم ، والقوانين الثابتة في الاجتماع ، تدل على أن التغيير إلى الأصلح لا بد أن يعتمد على نواة صلبة جدًّا ، ونقية ومؤثرة إلى حدٍّ بعيد ، تجتمع في فلكها عناصر الصلابة والنقاء والتأثير .

وهذه النواة لا يمكن أن تتكون إلا بعد أن ينفض من حولها غبار العناصر الهشة ، ولا يتحقق ذلك إلا بعد أن يخضع الجميع لتمحيص الابتلاء وغربلة الفتنة ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، وقوله جل ثناؤه : ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١- ٣] .

ويتبادر إلى الذهن سؤالٌ وجيه : لماذا التركيز على التربية بهذه القوة في المسارات ، أو الاتجاهات السالفة الذكر ؟ .

إن التربية في هذه المسارات الثلاثة : بالأحداث ، وبأعمال القلوب ، وبالأخلاق ؛ قد أفرزت قاعدة صلبة على درجة عالية من الإيمان والقوة والثبات ، وما ذلك إلا بفضل التربية الإيمانية التي كان الرسول ﷺ ينشِّئ أصحابه عليها .

ومما زاد من تجذُّر هذه القاعدة وصلابتها : أنها لم تُمَنَّ بالوعود البراقة من منصب ومغنم وجاه دنيوي ، وإنما ربطت برضوان اللَّه تعالى والجنة في الدار الآخرة ؛ لأن الغاية من تلك التربية : أن تنشأ القلوب المؤمنة على درجة عالية من الصلابة والنقاء والتأثير ، ولا يكون ذلك إلا بالتجرد من حظوظ النفس وشهواتها ، وصرف الهمم إلى التعلق بالآخرة .

أثر التربية العملية في تكوين النواة الصلبة

لقد كان المسلمون الأولون أسعد الناس حظًّا بتربية النبي ﷺ وأقربهم منه في

جميع الأحوال ، ولهذا كانوا النواة الصلبة والأساس المتين الذي بني عليه صرح الإسلام وكيانه .

وقد كان القرآن الكريم ينزل ليلفت أنظارهم إلى عظم المسؤولية الملقاة على عواتقهم ؛ إذ هم حملة الرسالة وحماتها الذين ينبغي أن يتأسوا بحملة الرسالات السابقة وأتباع الرسل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦- ٢٤٩] .

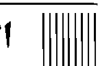
هذه الآيات التي حكت قصة الكثرة من بني إسرائيل الذين عركتهم الشدائد ، وصفَّتهم الاختبارات حتى لم يبق من الجمِّ الغفير إلا أقل القليل ، حيث تحول الملأ إلى فئة قليلة العدد ؛ فئة قليلة جادة في الإيمان صابرة محتسبة أمام فئة كثيرة جادة في العناد والطغيان .

وشاء اللَّه أن ينصر الفئة المؤمنة على قلتها ، ويجري على أيديها سنة : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] [١] .

---

(١) عبد العزيز الشيخ : الوهم الجماهيري ، ص ١٠ .

وحسب رواية السدي : كان جيش طالوت ثمانين ألفًا [١] ، فلم يبق منهم بعد أن جاوزوا النهر إلا بضعة عشر وثلاثمائة . وقد أخرج البخاري من حديث البراء ابن عازب رضي الله عنهما قال : « كنا أصحاب محمد نتحدث أن عدَّة أصحاب بدر على عدَّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن : بضعة عشر وثلاثمائة » [٢] .



الصحابة هم المكوِّن الرئيسي لمادة الإسلام

وكذلك صراط الإسلام ، فلم يكن في عصر النبوة معبَّدًا مفروشًا بالورود ، بل كان محفوفًا بالمخاطر ، مفروشًا بالأشواك ، وكان الدخول فيه امتحانًا شاقًّا لا يجتازه بنجاح إلا أصحاب الهمم العالية والنفوس الأبية الشامخة التي حازت قدم السبق في الإيمان والإخلاص والمجاهدة .

روي عن جُبير بن نُفير قال : « مرَّ بالمقداد بن الأسود رضي الله عنه رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت ، فاستمعت فجعلت أعجب ، ما قال إلا خيرًا ، ثم أقبل عليه – أي المقداد – فقال : ما يحمل أحدكم أن يتمنى محضرًا غيَّبه الله عز وجل عنه ، لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ؟! والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام كبهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ! أو لا تحمدون الله ؟ لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم ، وقد كفيتم البلاء بغيركم ؟! » [٣] .

وروى محمد بن كعب القرظي قال : قال فتًى منا من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ! لقد رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد [٤] ، قال : والله لو أدركنا ما تركناه يمشي على الأرض ، ولجعلناه على أعناقنا . قال : فقال لحذيفة :

(١) ابن كثير : التفسير ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .
(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب المغازي باب عدَّة أصحاب بدر ، ج ٥ ، ص ٥ . والترمذي في السنن ، كتاب السير ، وقال : حديث حسن صحيح ، ح ١٦٤٦ ، ج ٣ ، ص ٧٧ .
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، ج ١ ، ص ١٧٥ – ١٧٦ . ورواه الذهبي في السير ، ج ١ ، ص ٣٨٨ . رواته ثقات إلا يحيى بن عبد الحميد الحمَّاني ، اختلف في توثيقه النقاد بين معدِّل ومجرِّح .
(٤) أي كنا في مشقة شديدة . ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ٥٢٠ .

يا ابن أخي ، واللّه لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ بالخندق ، وصلى رسول اللّه ﷺ هويًا [١] ، ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ، يشترط له رسول اللّه أنه يرجع ، أدخله اللّه الجنة ؟ » فما قام رجل . ثم صلى رسول اللّه ﷺ هويًا ، ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، يشترط له رسول اللّه الرجعة ، أسأل اللّه أن يكون رفيقي في الجنة ؟ » ، فما قام رجل من القوم مع شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحد ، دعاني رسول اللّه ﷺ ، فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني فقال : « يا حذيفة ! فاذهب فادخل في القوم ، فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا » [٢] .

وما أحسن وصف ابن مسعود ﷺ لهذه النواة الصلبة حين قال : « من كان متأسيًا منكم فليتأسَّ بأصحاب محمد ﷺ ؛ فإنهم كانوا أَبَرَّ هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا ، وأحسنها حالًا، قومًا اختارهم اللّه لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه » [٣] .

وقد دلَّل التاريخ فعلًا على نجاح التربية المحمدية للصحابة ﷺ ، فبرز منهم عظماء الإسلام من الخلفاء والولاة والقضاة والقادة والعلماء والمربين ، وتمكنوا من إرساء قواعد العقيدة ، ومناهج الشريعة ، وأصول التربية ، وقيم الأخلاق ، في المجتمع والدولة معًا [٤] .

إعادة النظر في تنشئة الجماهير

الذي ينبغي التنبيه إليه هنا – على ضوء التجارب – أن أثر الجماهير [٥] في التغيير عديم الجدوى إلا بقدر ما يقترن بالتنشئة والتربية ، والتوجيه والمتابعة .

لكن مما يدعو إلى الأسف أن في برامج الكثير من العاملين في الحقل الإسلامي :

---

(١) الحين الطويل من الزمان . ابن منظور : لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٤٨٩ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٥ ، ص ٣٩٢ – ٣٩٣ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الخندق ، ج ١٢ ، ص ١٤٥ .

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٤) أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٦٧٩ – ٦٨٠ .

(٥) في الأصل تطلق هذه الكلمة على الرمل الكثير وهي الأغلبية والكثرة من الناس . ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

ميل إلى مساندة الجماهير الحقيقية وقت الشدائد ، دون إعداد وتوجيه لها ؛ فهم يتوقعون مجيء تلك المساندة على نفس الهيئة التي يرونها في أوقات الرخاء ، في الانتخابات والمؤتمرات والندوات ، وهي حسابات ظنية لا يصح أن تبنى عليها إستراتيجيات أو تستند إليها برامج مخططات . ففرق بين من يستعد لإعطاء صوته في صندوق الاقتراع ، وبين مَنْ يجودُ بنفسه وماله وأهله إذا جدَّ الجِدُّ .

إن الجماهير تحب الإسلام ،لكن حبًّا وجدانيًّا عاطفيًّا لم يرقَ بعد إلى البذل والتضحية في سبيله . وكم جرى من وقائع وأحداث ، وكان الناس يراهنون وقتها على تحرك الجماهير ، كلما سمعوا عن داعية اعتقل أو زعيم قتل أو جماعة حُلَّت ؛ كانوا يؤملون أن تتجاوب الجماهير مع تلك الأحداث ، على الأقل مثلما تتجاوب مع الرغيف أو الكرة أو المزمار ، غافلين أنَّ على الصفوة أن تجدَّ في سيرها لحمل المهمة الثقيلة التي منها تأهيل الجماهير لتكون إيجابية في التغيير [1] .

* * *

(١) عبد العزيز الشيخ : الوهم الجماهيري ، ص ١٠ - ١١ .

المبحث الخامس الثبات على المبدأ ورفض المساومة عليه

إن من أهم سمات التربية في المرحلة المكية : الثبات على المبدأ ، والصلابة في الحق ، وعدم التنازل ورفض أي شكل من أشكال المساومات وأنصاف الحلول في قضايا الدعوة .

لقد ظل رسول اللَّه ﷺ صامدًا أمام الإغراءات والعروض ، لم ينثنِ ويتراجع أمام التحديات وأساليب التهديد والترهيب التي مارسها إزاءه المشركون ؛ فلم يساوم قط في دينه ، وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة وهو محاصر بدعوته ، وأصحابه القلائل يُتخطفون ويُؤذون في اللَّه أشد الإيذاء ، وهم صابرون محتسبون .

وقد اتخذت مساومة المشركين له في دعوته صورًا شتى من المساومة على الدعوة كلها بأساليب التهديد والترغيب - كما جاء في كتب الحديث والسيرة - إلى المساومة على جانب منها للالتقاء معه في منتصف الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] .

أسلوب المشركين في المساومة على الدعوة بالترهيب

لجأ المشركون في بادئ الأمر إلى أسلوب التهديد لثني صاحب الدعوة عن المضي في طريقه المرسوم .

من ذلك : ما روي عن عقيل بن أبي طالب ﷺ قال : جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا ، فانهه عنا ، فقال : يا عقيل ! انطلق فائتني بمحمد ، فاستخرجته من كنس ، أو قال : خنس - يقول بيت صغير - فجاء به في الظهيرة - في شدة الحر - فلما أتاهم قال : إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم . فحلَّق رسول اللَّه ﷺ ببصره إلى السماء فقال : « ترون هذه الشمس؟ » قالوا : نعم ، قال : « فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منه بشعلة » وفي رواية : « واللَّه ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من

نار » . فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخي قط ، فارجعوا راشدين »[1] .

وصورة أخرى كانت في إيذاء قومه له بعد أن أعياهم أمره : ، نقلها عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ وهو شاهد عيان ، قال : « حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ؛ سفَّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا . لقد صرنا على أمر عظيم - أو كما قالوا - قال : فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت ، فلما أن مرَّ بهم غمزوه ببعض ما يقول ، قال : فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلما مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فقال : « تسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده ! لقد جئتكم بالذبح » . فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ... قال : فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم منه ، حتى إذا بدأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك ؛ إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ - كما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم - قال : فيقول رسول الله ﷺ : « نعم ، أنا الذي أقول ذلك » ، قال : فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه ، قال : وقام أبو بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - دونه يقول وهو يبكي : أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله ؟! ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه ﷺ »[2] .

وقوله : « فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه ﷺ » : يعني ما رآه هو ، وليس ما رأى غيره ، حيث أوذي رسول الله ﷺ بأكثر من ذلك ، كما سبق ذكره .

---

(١) قال ابن حجر في المطالب العالية : رواه أبو يعلى وإسناده صحيح ، والطبراني في الأوسط والكبير ، رقم ٤٢٧٨ ، ج ٤ ، ص ١٩٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، ج ٦ ، ص ١٥ .

(٢) رواه أحمد في المسند ، ج ٢ ، ص ٢١٨ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع ، وبقيه رجاله رجال الصحيح ، ج ٦ ، ص ١٦ . وأخرجه البخاري مختصرًا في كتاب فضائل الصحابة ، باب لو كنت متخذًا خليلًا ، ج ٤ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ . وقال الحافظ : وصله البخاري في خلق أفعال العباد من طريقه ، وأخرجه أبو يعلى وابن حبان من وجه آخر عن محمد بن عمرو . الفتح ، ج ٧ ، ص ١٦٩ .

أسلوب المشركين في المزاوجة بين الترهيب والترغيب

وصورة أخرى للمساومة تجلَّت في التلميح بالتهديد والإغراء في آن واحد ، وذلك بتوعُّده ثم إغرائه وعرض المناصب والمال والنساء عليه ، فأبى عليهم .

فعن جابر بن عبد اللَّه ﭬ قال : اجتمعت قريش للنبي ﷺ يومًا ، فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ، ولينظر ما يرد عليه . قالوا : ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة . قالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال : ... أما واللَّه ما رأينا سخطة أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى طار فيهم أن في قريش ساحرًا ، وأن في قريش كاهنًا ، ما ينتظر إلى مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى .

أيها الرجل ! إن كان إنما بك الحاجة ؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلًا ، وإن كان إنما بك الباءة ؛ فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشرًا . (وفي رواية ابن إسحاق : يا ابن أخي ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا ؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت إنما تريد شرفًا ؛ سودناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد ملكًا ؛ ملكناك علينا) . فقال رسول اللَّه ﷺ : « أفرغت ؟ » قال : نعم . قال : فقال رسول اللَّه ﷺ : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ حتى بلغ ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت ١- ١٣] . فقال عتبة : حسبك ، ما عندك غير هذا ؟ قال « لا » [(١)] .

ربما تساءل بعض الناس : لماذا لم يرض رسول اللَّه ﷺ - من باب الحكمة والسياسة - بالزعامة والملك على أن يقرر في نفسه اتخاذ الملك والزعامة وسيلة إلى تحقيق الدعوة والدولة فيما بعد ، خصوصًا وأنَّ للسلطان والملك تأثيرًا قويًّا في النفوس ؟ .

ولعل الإجابة تكمن في أن النبي ﷺ لم يرض سلوك هذه الوسيلة إلى دعوته ؛ لأن ذلك ينافي مبادئ الدعوة نفسها ، ولأن المساومة كانت للعدول عن الدعوة ،

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، وصححه الشيخ الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي ، ص ١٦٨ . وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ج ١٤ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ . والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ . وأبو نعيم في الدلائل رقم ١٨٢ ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

وفي الإسلام : الغاية لا تبرِّر الوسيلة ؛ فاللَّه ﷻ تعبَّد المؤمنين بالوسائل كما تعبَّدهم بالغايات ، فليس لأحد أن يسلك إلى الغاية التي شرعها اللَّه سبحانه إلا بالوسيلة الشرعية الخاصة التي شرعها اللَّه ﷻ [1] .

استدراج صاحب الدعوة إلى أنصاف الحلول للتنازل عن بعض دعوته

وحاول المشركون فتنة النبي ﷺ عن دينه ودعوته في صور أخرى :

منها : استدراجه بإظهار الوفاق والاستجابة لما يدعوهم إليه إن هو مسَّ آلهتهم ولمَّ بها [2] .

وفي رواية أخرى : طلبوا منه الإنظار لمدة سنة حتى يهدي لآلهتهم ثم يسلموا بعد ذلك [3] .

فهمَّ رسول اللَّه ﷺ أن يقاربهم ويدانيهم في بعض ذلك ، لكن اللَّه امتن عليه وعصمه من كيدهم وثبته على ما أوحي إليه ، ووقاه الركون إليهم ، ولو قليلًا ، ووقاه عاقبة هذا الركون ؛ وهو عذاب الدنيا والآخرة مضاعفًا ، وفقدان المعين والنصير ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٣- ٧٥] .

قال ابن عباس ﵄ : (كان رسول اللَّه ﷺ معصومًا ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في أحكام اللَّه تعالى وشرائعه) [4] .

وصورة أخرى للمساومة : فيما رواه الإمام الطبري بسنده إلى سعيد بن مينا مولى البَخْتَرِي قال : « لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول اللَّه ﷺ فقالوا : يا محمد ! هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشركك في أمرنا كلِّه ، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا ؛ كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يدك ؛ كنت

---

(١) إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ٨٦ .

(٢) رواه الطبري بسند حسن إلى قتادة ، جامع البيان ، ج ٩ ، ص ١٣٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ١٣٠ .

(٤) القرطبي : أحكام القرآن ، ج ١٠ ، ص ٣٠٠ .

قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت منه بحظك ؛ فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ حتى انقضت السورة » [١] .

إن ما يستنتج من هذه الأساليب الماكرة المتنوعة : أن محاولات الحكام أو الملأ مع أصحاب الدعوات لا تكاد تهدأ أو تفتر ؛ إذ يحاولون ترهيبهم وتهديدهم لينصرفوا عن دعوتهم بالكلية . وإذا لم يفلحوا في هذا الجانب حاولوا إغراءهم بشتى الوسائل لينحرفوا - ولو قليلًا - عن استقامة الدعوة وصلابتها ، وليرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها .

ومن ثَمَّ يطلبون منهم تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق ؛ لأن الحكام يستدرجون أصحاب الدعوات ، فإذا سلَّموا في جزء فقدوا مقاومتهم وحصانتهم ، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة سينتهي إلى تسليم الصفقة كلِّها .

وجدير بالإشارة أن التسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب الحكام إلى صفها هو هزيمة نفسية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة ، واللَّه وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون في نصرة الحق [٢] .

الاستعصاء على المساومة مع شدة الحاجة إلى النصرة والتأييد

إن ثبات الدعوة على الطريق الذي تسلكه للوصول إلى هدفها الرئيس وهو التمكين لدين اللَّه في الأرض ، أمر يستدعي الاستعلاء على الضغوط والتحديات ، والاستعصاء على الإغراء والمساومة ، وهو ما يلحظه المتأمل في مواقف النبي ﷺ الشديدة الاستعصاء على الاستدراج والتنازل ، مع أنه كان في أشد الحاجة إلى المساعدة والنصرة والتأييد لتخفيف الضغط على نفسه وأتباعه .

ومثال ذلك : موقفه من عمه أبي لهب الذي أخذته حمية العصبية ، فتدخَّل لحمايته بعد وفاة أبي طالب ، فساء ذلك قريشًا ، ورتَّبت خطة أنهت بها تلك الحماية بإيقاع النبي ﷺ في موقف حرج ؛ إذ ذهب أبو جهل وعقبة بن أبي معيط إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقال لهما بعد أن سأل رسول اللَّه ﷺ عن ذلك : إنه مع قومه . غير أنهما وعيا التورية في كلام النبي ﷺ ، فدفعا

---

(١) رواه الطبري في تفسيره بسند حسن ، ج ١٥ ، ص ٣٣١ .
(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٢٤٥ .

أبا لهب إلى التعمق في استكناه موقفه بصراحة ، فسأله مباشرة : أيدخل عبد المطلب النار ؟ فردَّ النبي ﷺ عليه : « نعم ، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار » ، فثارت ثائرته وقال : واللَّه لابرحت لك عدوًّا أبدًا (١) .

وهنا يتضح حرص النبي ﷺ على صيانة دعوته وحفظ أصولها ومبادئها من أي تأويل أو توجيه يؤثر سلبًا على حقيقتها ، مع علمه أنه بهذا الموقف يخسر غطاءً أمنيًّا هو في أمس الحاجة إليه .

ومن ذلك : موقف قبيلة بني عامر بن صعصعة عندما عرض عليها - عليه الصلاة والسلام - الدعوة ، وطلب منها الحماية والنصرة ، فقبلت على شرط أن يكون لها الأمر بعده ، فرفض النبي ﷺ قائلًا لهم : « الأمر إلى اللَّه يضعه حيث يشاء » (٢) ، لعلمه أن الاستجابة لهم بهذا الصدد تعرض الدعوة لمخاطر قاتلة ؛ تنتقل بها من دعوة للعالمين ، إلى ملك يورث ، ووسيلة للاستعلاء على الخلق ، وخدمة الأهداف والمصالح الخاصة (٣) .

على أن المتأمل في النماذج الآنفة الذكر من صور الترغيب والترهيب ، والإغراء والمساومة ، والاستدارج ، إلى التنازل وأنصاف الحلول ؛ يلاحظ مدى خطورة التحديات التي كانت تهدد الدعوة بالانسياق وراء مواقف تستدرجها إلى تنازلات قاتلة ، لولا وضوح الرؤية لدى قيادتها ، واستقامة منهج الحركة مع طبيعة الرسالة وحقائقها وأهدافها من جهة ، وسنن التغيير من جهة أخرى .

إن المفاصلة التي أمر بها اللَّه جل ذكره رسوله ﷺ ضرورية اليوم للدعاة .

إنه ليس هناك ترقيع مناهج ، ولا أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق مع أعداء الدين من الكفار والمنافقين والمرتدين . إنما هي الدعوة إلى الدين الخالص ، إلى تطبيق الإسلام وشريعته في كل نواحي الحياة ، وإلَّا فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ .

* * *

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢١١ . والنجم : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ١ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٣ .
(٣) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣٩٩ .






منهج النبي ﷺ في الدعوة
من خلال السيرة الصحيحة



الفترة المكية

الفصل الثالث

خصائص الفترة المكية في مجال التخطيط

المبحث الأول : الخطة النبوية في المرحلة الأولى من الفترة المكية (الدعوة السرية)

المبحث الثاني : الخطة النبوية في المرحلة الثانية من الفترة المكية (الدعوة الجهرية)

المبحث الثالث : الخطة النبوية في المرحلة الثالثة من الفترة المكية .






تمهيد

إذا نظرنا في تاريخ الدعوة منذ البعثة النبوية ؛ وجدنا أنها كانت تسير ضمن عملية محكمة ، بلغت في تخطيطها [1] وسيرها شأنًا بعيدًا .

على أن التخطيط للدعوة في عصر النبوة بدأ من المنطلق الإستراتيجي الإحكامي البعيد المدي ، مثل ما حصل في مرحلة الدعوة السرية ، ومراحلة الدعوة الجهرية ، وبوضع خطط ذات أهداف بعيدة تمكّن من بناء قاعدة صلبة ، وإيجاد منطلقات آمنة للدعوة ، وتمهيد الطريق لإقامة الكيان الإسلامي عبر آليات فاعلة ، والاستفادة من الظروف والإمكانات المتاحة ، وتوظيفها بشكل جيد ودقيق في التأثير السريع والعميق على مجريات الأحداث .

* * *

(١) التخطيط عملية نحاول من خلالها امتلاك صورة عن حُقْبة محددة قادمة ، تدعو لاختيار بديل من عدة بدائل لتطبيقة في المستقبل ، يُجدد من خلاله طبيعة العمل والمكان والزمان والكيفية والوسيلة : انظر : نبيل الفيصل : الخطة والتخطيط لماذا وكيف ؟ وعبد الكريم بكار : من أجل انطلاقة حضارية شاملة ، ص٢٥ .

المبحث الأول الخطة النبوية في المرحلة الأولى من الفترة المكية (الدعوة السرية)

التركيز على النوعية في بناء النواة الأولى

إن الخطة المحكمة تستدعي تعميق البحث وتكثيف الجهود لضمان انطلاقة سليمة موفقة للدعوة من خلال إيجاد حلول لبعض الأسئلة المهمة المطروحة :

- من هم الأشخاص المؤهلون الذين ينبغي التركيز عليهم في بداية الأمر ؟
- كيف تتم مواجهتهم بقضية الدعوة ؟ .
- كيف يتم أمر متابعتهم وتكوينهم ؟ .
- كيف يتم التوفيق بين ممارسة بعض شعائر دينهم والحرص على عدم الاصطدام بالمجتمع ؟ .
- كيف يمكن لهذه الطليعة المؤمنة أن تنخرط في ممارسة وظائف الدعوة دون الإضرار بمسيرة العمل وبنفسها ، كرصيد للدعوة ينبغي حمايته والمحافظة عليه حتى تتجذَّر الدعوة في المجتمع ويشتد ساقها ؟ [١] .

ولا شك أن المتابع لسير الدعوة وللكيفيات التي واجه بها النبي ﷺ الواقع ، وحرَّك بواسطتها الأحداث من حوله ؛ يلاحظ أن خطواته ﷺ كانت مضبوطة ومنسقة ومدروسة ، لا مكان فيها للعفوية والارتجال وسوء التقدير ؛ لأنها تصدر عن خطة عمل محدودة الأهداف والوسائل الإجرائية ، على ضوء إحاطته التامة بالواقع ، وتقديره لموقف البيئة المحيطة بالدعوة .

فقد كان عليه الصلاة والسلام على علم بطبيعة البيئة القبلية المعقدة القائمة على الصراع بين الأسر والزعامات ، بحيث يصعب على الناس وخاصة أهل النفوذ والوجاهة هضم أمر الانقياد لمن هو دونهم في المكانة الاجتماعية والسِّن ؛ وهو ما سجَّله القرآن الكريم في قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ

---

(١) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٢٨٤ .

﴿ مِنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

فالصدارة الاجتماعية من المنظور الجاهلي ينبغي أن تكون لأهل الجاه والثراء ، لا للمستضعفين من الناس وصغارهم ، وهو ما كان رسول الله ﷺ على وعي به وبمخاطره ، وأخذه في الحسبان في خطة عمله حتى لا يثير ضده « الملأ » الجاهلي منذ البداية (١) .

علاوة على أن طبيعة الدعوة الإسلامية المناقضة بصفة كلية لأصول الحياة الجاهلية في جميع المجالات ، تجعل مفاجأة الرأي العام بها منذ البداية يشكل رهانًا في غاية الخطورة ؛ لأنه يحفِّز المجتمع ويهيِّئه للدفاع عن كيانه ووجوده ، والنزوع إلى تيار مواجهة الدعوة ، ومحاولة إجهاض مشروعها والقضاء عليه (٢) .

على أن هذه الاعتبارات وعاها النبي ﷺ ، فاتجه إلى البحث عن نماذج نوعية تكون فيها قابلية الانضباط والاستعداد للعطاء المثمر ؛ لبناء قاعدة الإقلاع الحقيقي بالمشروع الإسلامي ، وتكون مؤهلة لحسن اختيار العناصر التي تضع اللبنات والمرتكزات الأولى للدعوة ؛ لأن من سنن الله الثابتة أن المقدمات الصحيحة تؤدي إلى النتائج الصحيحة .

ولهذا كان أول إجراء حكيم قام به النبي ﷺ لضمان بداية سليمة وموفقة للدعوة ، هو اعتماد أسلوب الاتصال الفردي الانتقائي القائم على المعرفة الشخصية « لقابليات » الأفراد من جهة ، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخرى ، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها من أصحاب الآفاق المحدودة والعقليات الضيقة ، ممن لا يصلحون طليعة قيادية يُؤسَّس عليها صرح الدعوة (٣) .

وقد بدأ النبي ﷺ بدعوة الخواص من أهل بيته الذين يجيبون دون تردد . ويروي ابن إسحاق في هذا الشأن : « وجعل رسول الله ﷺ يذكر جميع ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله » (٤) ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة عليٌّ » وفي

---

(١) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٢٨٨ .
(٢) المرجع نفسه : ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٩٠ .
(٤) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

رواية : (أول من أسلم) [١] .

وبالمنهجية نفسها أخذ عليه الصلاة والسلام يوسّع دائرة الدعوة إلى أصحابه « الخلّص » الذين يثق فيهم ويطمئن إلى قدراتهم ومواهبهم ، حيث ركّز على أبي بكر الصديق ﷺ - بعد إسلام أهل بيته : خديجة ، وعلي ، ومولاه زيد - لمكانته بين قومه ، والتي ترشحه لأداء دور مهم في مسيرة الدعوة ولا سيما أنه كان « مؤلّفًا لقومه محببًا سهلًا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلمهم بها وما كان فيها من خير وشر ، وكان تاجرًا ذا خلق معروف ، فكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لتجارته وحسن مجالسته وغير ذلك » [٢] .

فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام متوسمًا فيه الخير ، فكان إسلامه مكسبًا عظيمًا للدعوة ؛ إذ بمجرد إسلامه انطلق بصدق وفاعلية لبناء قاعدة الدعوة ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ، فأسلم على يده نفر من خير وأنبل بيوتات قريش منهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد اللَّه ﷺ أجمعين [٣] .

فكان هؤلاء السابقون من خيار المجتمع صدقًا ، واعتدالًا ، ومروءة ، ونخوةً ، واستقامةً ، وهم بذلك طليعة الإسلام ونواته الصلبة المؤثرة التي انطلقت باحتياط وحذر تنشر الإسلام بالأسلوب الانتقائي نفسه الذي سلكه صاحب الدعوة صلوات اللَّه وسلامه عليه ، فأثمرت الجهود بعد حين من الزمن وتتابع دخول الناس في دين اللَّه رجالًا ونساءً وشبانًا ، حتى فشا ذكره في مكة وتحدث الناس به [٤] .

تفادي الصدام المبكر مع الملأ

وإلى جانب التدبير السابق الذي واجه به النبي ﷺ مشكلة انطلاقة الدعوة ، نهج في خطته مسلكًا آخر تمثل في عدم مفاتحته زعماء قومه بالدعوة ، قبل أن يشتد ساقها ويصلب عودها ، وذلك لمعرفته ﷺ بتقاليد بيئته وطباع أهل النفوذ فيها ، وقدرتهم على تزييف وعي الرأي العام وتجنيده للمحافظة على استقرار الأوضاع لصالحهم .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ، رقم ٣٨١٧ . ج ٥ ، ص ٣٠٦ ، وقال الشيخ الساعاتي في الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد : سنده جيد ، ج ٢٠ ، ص ٢١٤ .

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

وهي النظرة العميقة التي اتضح فيما بعد صوابها ، حينما فشا أمر الدعوة وتجاوز مرحلة الخطر ، وبدأت المواجهة العنيفة مع زعامة المجتمع الجاهلي [١] .

وقد نجح رسول الله ﷺ في هذه الخطة إلى أبعد حد ، حيث استطاع أن يُجنِّب الدعوة مواجهة مبكرة مع « الملأ » ، قد تعصف بها وتشلُّ حركتها .

وهو الأمر الذي تبلور من خلال سياسة تفادي المواجهة مع « الملأ » ، مما فسح المجال للدعوة كي تسري في أعماق المجتمع دون أن يلتفت قادته إلى الآثار المستقبلية والتغييرات العميقة التي ستلحق به ، فأخطأوا التقدير عندما ظنوا أن دعوة النبي ﷺ لا تخرج عن نطاق الحنيفية التي كان لها وجود فردي محدود في المجتمع المكي [٢] .

على أن هذه السياسة المحكمة أتاحت الفرصة للدعوة كي تتحرك بعيدًا عن أجواء الإكراه والصدام المبكر الذي يؤثر على سيرها ، ويفوِّت على القوى المضادة إمكانية تحجيمها ، وفرصة الانفراد بها ، بالاستفادة من « العنصر القبلي » الذي أصبح بفضل المخطط النبوي يرفد ، ويتكيَّف شيئًا فشيئًا وفق أهداف الإسلام ومصالحه العليا . وهذا ما سيتضح لاحقًا من خلال معالم الخطة التي نهجها النبي ﷺ لتمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كلِّه أو أغلبه .

استيعاب الفئات الاجتماعية المختلفة

أما البعد الثالث في خطة النبي ﷺ في هذه المرحلة من الدعوة السرية ، فهو حرصه ألا تنحصر الدعوة في مكان محدود أو فئة اجتماعية معينة أو عشيرة بذاتها ؛ لأن ذلك يحجِّم الدعوة ويورِّطها في متاهات الصراع الفئوي أو القبلي أو المحور الجغرافي ، فعمل عليه السلام ما في وسعه من أجل توسيع نطاق قاعدة الدعوة لتشمل معظم الجهات والفئات الاجتماعية [٣] .

وباستعراض قائمة الرعيل الأول من المؤمنين ومحاولة فرزها على ضوء الأصول الجغرافية والانتماءات القبلية ، والجنس ، والسن ؛ يتبينَّ مدى تمكن الدعوة من النفاذ إلى بطون المجتمع القرشي وقبائله المختلفة .

---

(١) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٢٩٣ .

(٣) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

التمثيل القبلي (بطون قريش)

- ١٣ فردًا من بني هاشم .
- ٧ أفراد من بني مخزوم .
- ٥ أفراد من بني جمح .
- فردان من بني سهم .
- فرد من بني سلمة [١] .
- ٨ أفراد من بني عدي .
- ٦ أفراد من بني زهرة .
- ٤ أفراد من بني تيم .
- فردان من بني عامر .
- فرد من بني أسد .

التمثيل الاجتماعي

- ٣١ فردًا من وجهاء قريش .
- ١٤ فردًا من مواليهم وحلفائهم .
- ١٢ امرأة موزعة على أكثر من سبعة بطون .
- ٣ أفراد من قبائل أخرى [٢] .

التمثيل الجغرافي

- هذيل .
- مذحج .
- دوس .
- سليم .
- مازن .
- كلب .
- النمر .
- عنز [٣] .

وهكذا استطاعت الدعوة أن تستوعب فئات اجتماعية مختلفة ، علاوة على إيجاد مواقع لها في جلِّ بطون قريش ، وفي مناطق جغرافية متعددة . ولعلَّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام ، مما كان له الأثر البالغ في تكوين رصيد احتياطي وأرضية صلبة في غاية الأهمية بالنسبة للمراحل المقبلة .

* * *

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٤ . ومنير الغضبان : المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص ٢٤. نقلًا عن الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي (السيرة) ، ص ٦٠ .

(٣) أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

المبحث الثاني الخطة النبوية في المرحلة الثانية من الفترة المكية (الدعوة الجهرية)

توطين الحركة على الانضباط النفسي ضمن خطة مراحل تشريع الجهاد

يعدُّ الجهاد في سبيل اللَّه من أهم الأعمال التي خضعت لخطة محكمة اتسمت بالمرحلية والمرونة والواقعية ، لضمان الوصول إلى الهدف النهائي ، وهو التمكين لدين اللَّه في الأرض .

وقد مرَّ الجهاد بمراحل قبل أن يصل إلى حكمه النهائي ؛ وهي :

المرحلة الأولى : مرحلة إعداد النفوس ، والكف عن المشركين ، والإعراض عنهم ، والصبر على أذاهم ، مع الاستمرار في دعوتهم إلى دين الحق . وهو عمل عميق وشامل ذو أبعاد حكيمة ، يدخل في إطار تغيير ما بأنفس المقبلين على الدعوة حتى يتهيأوا للاضطلاع بالتحول الرسالي الذي جاء به الإسلام ، وذلك يستلزم ترويض نفس العربي على ضبط أعصابه ، والصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم ، وتعويده علىالسير المنتظم مهما كان مخالفًا لمألوفاته وعاداته (1) .

وهو ما وجِّهت إليه كثير من الآيات في العهد المكي ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية : ١٤] ، وقوله جل ذكره : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٨، ٨٩] ، وقوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

وقد أمر رسول اللَّه ﷺ أصحابه - تبعًا للتوجيهات القرآنية - بضبط النفس والتحلي بالصبر والحلم والأناة ، وعدم مواجهة عدوان المشركين بالمِثل حرصًا على حياتهم ؛ لأنهم مادة الإسلام الناشئة ومكوِّنه الرئيس ، وحماية لمستقبل الدعوة الوليدة أن يئدها المتربصون بها ، وهي لا زالت غضة طرية .

---

(١) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣٦٨ .

ولعلَّ المشركين كانوا شديدي الحرص على مواجهة حاسمة مع الدعوة ، وهي في طور التأسيس والبناء للقضاء عليها .

ولكن الحكمة الإسلامية بتوجيهٍ من الوحي فوَّتَتْ عليهم الفرصة بالدعوة إلى أخلاق التسامح وكظم الغيظ والعفو والصفح .

وقد جاء الأمر بالكفِّ عن القتال في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء : ٧٧] وإن كانت هذه الآية مدنية ، فهي تشير إلى ما حدث بمكة من الأمر بالكفِّ عن القتال سواءً بمبادأة المشركين أو الردّ على عدوانهم .

ولذلك كان النبي ﷺ يربي أصحابه على الصبر الجميل حتى يتم اللَّه ﷻ أمره منبهًا إياهم إلى التأسي بمن سبقهم من أهل الإيمان الذين لم يصرفهم التعذيب والإيذاء عن دينهم .

فيروي خباب ﷺ عن نفسه قال : أتيت النبي ﷺ ، وهو متوسد بردة ، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدَّة . فقلت : يا رسول اللَّه ! ألا تدعو لنا ؟ فقعد - وهو محمر وجهه - فقال : « لقد كان قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقُّ اثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليُتِمَّنَّ اللَّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا اللَّه والذئب على غنمه » (١) .

وكان هذا الموقف السلمي تجاه المشركين قد أغاظ بعض المسلمين ولا سيما الشباب منهم ، ولا يخفى ما يعتري الشباب في سن العنفوان من الحماس والاندفاع والجرأة ؛ فجاء عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي ﷺ فقالوا : يا نبي اللَّه ! كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ! قال ﷺ : « إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » (٢) .

ولما أستأذن أهل يثرب النبي ﷺ ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار : باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) رواه الطبري في تفسيره ، ج ٥ ، ص ١٧٠ ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ، وقال الذهبي : هو على شرط البخاري ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

قال ﷺ : « إني لم أومر بهذا » (١) .

وبدل جهاد المشركين ، تم التركيز في هذه المرحلة على جهاد النفس بتعلم الهدى ودين الحق ، وحملها على العمل به ، ومجاهدتها على الدعوة إليه ، وتعليمه من لا يعلمه ، ومجاهدتها على الصبر على مشاق الدعوة إلى اللّٰه ، وتحمل أذى المشركين في سبيل ذلك (٢) .

كما اتجه القرآن الكريم في هذه المرحلة إلى صقل النفوس بمكارم الأخلاق وتنقيتها من الرذائل ، وتصفيتها من كل ما يعيق سيرها إلى اللّٰه تعالى .

وحرص النبي ﷺ بتوجيهٍ من ربه ﷻ على تزكية نفوس الصحابة بالصلاة والذكر والدعاء والاستغفار حتى أصبح ذلك جزءًا من حياتهم اليومية لإعدادهم للأمر الثقيل ، وتكاليف الجهاد الشاقة في المرحلة المقبلة .

ولعل من حِكَم الكفِّ عن القتال في هذه المرحلة :

أ - تربية الصحابة على الصبر على الظلم الذي يواجهونه من قومهم ، فيعتادون على ضبط أعصابهم عند استثارتها ؛ لأنهم تربوا في بيئة لا ترضى بالضيم ولا تصبر على الظلم ، وذلك لتعتدل طبائعهم ، وليتربوا على الانضباط والانقياد والطاعة للقيادة التي لا يعرفها العربي قبل الإسلام .

ب - كون الدعوة السلمية أكثر أثرًا في قبيلة كقريش ، وهي ذات عنجهية وثارات ؛ إذ قد يدفعها قتالها إلى زيادة العناد ، فتتولد من ذلك ثارات وإحن وضغائن لا تنطفئ أبدًا ، وتكون مرتبطة بدعوة الإسلام ، فتتحول فكرة الإسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الرئيسة .

ج - ولو أُمروا بالقتال وهم ليسوا سلطة منتظمة لوقعت مقتلة في كل بيت فيه مؤمن ، ثم يستعمل هذا سلاحًا إعلاميًا ضد الإسلام بالقول : هذا هو الإسلام يأمر بقتل الأهل والأقارب .

د - ومن يدري أن بعض المعاندين سيكونون فيما بعد مادة الإسلام ومن جنده

(١) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ٤٦٢ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٤٥ ، وصححه ابن حبان كما في الفتح ، ج ٥ ، ص ٤٢٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد في هدى خير العباد ، ج ٣ ، ص ١٠ .

المخلصين بعد أن فتحوا عقولهم لفهم حقائق هذا الدين ومقاصده . وخير مثال على ذلك تحول بعض رؤوس الكفر والضلالة من محاربة الإسلام واضطهاد أهله إلى الدخول في دين اللَّه والنظام في سلك جنده ، كعمر بن الخطاب وعكرمة بن أبي جهل وأبو سفيان بن الحارث وغيرهم .

هـ - ولو أمر المسلمون بالقتال وهم قلة منحصرين في مكة لكان ذلك سببًا في فنائهم ، بل لابد قبل خوض المعركة مع الباطل من : تكوين النواة الصلبة ، وتأسيس القاعدة العريضة التي لا تتأثر بفناء ثلة منها في الحرب الدائرة مع أهل الباطل .

و - وربما كان ذلك أيضًا لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تنتصر للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم ، وقد وقع ما يدل على هذا ؛ فابن الدُغُنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عارًا على العرب ، فعرض عليه جواره وحمايته ، وكذلك خبر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . فالصبر في مثل هذه المواطن يكسب الدعوة والدعاة تعاطفًا شعبيًا ، بل لو لجأوا إلى المواجهة لخسروا هذا التعاطف من الناس .

ي - كما أن الصبر في مثل هذه المواطن يدعو إلى تفكر المجتمع في حال هؤلاء المؤمنين وإلى تساؤل مفاده : ما الذي يدعوهم إلى كل هذا التحمل ؟ لا بد أن يكون هؤلاء أصحاب رسالة وأصحاب حق يحملونه في قلوبهم يقينًا صادقًا لا يمكنهم التراجع عنه ، فيكون ذلك سببًا في إيمانهم [١] .

وهكذا باستقراء الأحداث والكشف عن مكنون الخطة النبوية ، نرى أن الهدف من هذا الانضباط النفسي العالي ، هو تمكين « كل فرد في الحركة من قراءة حساب دقيق ليس لنفسه كفرد ولا لبعض إخوانه فحسب ، بل يتجاوز ذلك إلى التقدير الجيد .. المفضي بهم إلى الخروج من ذواتهم إلى الدوران مع مصلحة دعوتهم ومشروعهم الحضاري [٢] » .

فرسول اللَّه ﷺ رغم أنه مسدَّد بالوحي ، إلا أنه كان يتحرك في إطار سنن اللَّه

---

(١) انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٢ ، ص ٧١٣ - ٧١٥ . ومحمد الأحمد : حديث القرآن عن الجهاد في سبيل اللَّه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣٧١ .

في خلقه كسائر البشر ؛ فقد كان على وعي تام بأن انزلاق الحركة نحو تبني أسلوب المواجهة المبكرة في مقابلة الضغوط والتحديات التي تفرضها القيادة الجاهلية لاستدراج المسلمين إلى الصدام المسلح معناه : تمكين القوى المضادة من استئصال شأفة الحركة بحكم اختلال ميزان القوى بينهما بشكل واضح .

وأهم من ذلك : أنه كان عليه الصلاة والسلام على وعي وإدراك بأن عدم التخطيط المحكم لضبط العلاقة مع المحيط بكل مكوناته ومؤثراته سيؤدي حتمًا إلى الاصطدام به ، والدخول معه بمرور الأيام في مواجهة غير متكافئة تئد المشروع الإسلامي إلى غير رجعة .

خطة الهجرة إلى الحبشة

عندما اشتد تعنُّت المشركين وضغطهم على المسلمين في مكة ، صار مقامهم فيها غاية في الصعوبة . وقد وصفت أم سلمة ، زوج النبي ﷺ - وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى - الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة فقالت : (لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ، ورأوا ما يصيبهم في الفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمِّه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه » ، فخرجنا إليها أرسالًا حتى اجتمعنا بها ، فنزلنا بخير دار إلى خير جار ، أمنَّا على ديننا ولم نخش منه ظلمًا)[1] .

ومن مقاصد هذه الهجرة أيضًا : إبعاد الأتباع عن أجواء الصراع ، وذلك بالنأي عن إثارة المعوقات في طريق الدعوة ؛ لأن المؤمنين بها كانوا في كثرتهم شبابًا تملؤهم النخوة والأنفة وعدم الرضا بالضيم والاستسلام للظلم ، الأمر الذي يضاعف من احتمال التصادم مع قريش[2] .

ونظرًا لهذه الظروف جاء التفكير في الهجرة إلى هذا الملاذ الآمن .

وقد أخذت هذه الخطة في الحسبان عدَّة أمور :

---

(١) رواه موسى بن عقبة في المغازي ، ص ٦٦ ، وابن هشام في السيرة ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، وابن حجر في الفتح عن ابن إسحاق ، ج ٧ ، ص ١٨٨ ، والطرف الأخير منه في مسند أحمد ج ٢٠ ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ﷺ ، ج ٢ ، ص ١٠ - ١١ .

الأول : أن ملك الحبشة لا سلطان للقبائل العربية عليه . ولذلك لما أرسلت قريش وفدها تطلب أن يرد إليها المهاجرين لم يفعل [١] .

ولم تكن قادرة على عمل شيء يذكر لاسترجاعهم ، وأيقنت أن المسلمين قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأصابوا بها دارًا وقرارًا .

ولو كان هؤلاء المسلمون قد لجأوا إلى قبيلة عربية ، فإن الأمر سيكون مختلفًا تمامًا ؛ لأن تلك القبيلة لن تستطيع مقاومة طلب قريش خوفًا من قيام حرب بين الطرفين ، أو خوفًا من التعرض لضغوطها وابتزازها ، لا سيما وأن قريش كانت تتبوأ مكانة اجتماعية خاصة بين القبائل ؛ لأنها أوسط العرب دارًا وأعربهم أحسابًا [٢] ، ورجالاتها هم سدنة الكعبة التي يفد إليها الناس كل عام للحج .

الثاني : أن الرسول ﷺ أخذ بعين الاعتبار أوضاع الحبشة الداخلية التي تتسم بالاستقرار والأمان والعدل ؛ يدل على ذلك قوله : « إنَّ بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده أحد » .

الثالث : أن قرب المسافة بين مكة والحبشة يمكن أن يكون أحد العوامل التي تدخل في هذا التقدير ، مما يدل على حسن تخطيط النبي ﷺ وعظيم حكمته .

وثمة نقطة إستراتيجية [٣] مهمة ، تمثلت في معرفة الرسول ﷺ بما حوله من الدول والممالك ؛ فكان يعلم عادلها من ظالمها ، وقويها من ضعيفها ، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة ؛ إذ لا بد أن يكون ملمًا بما يجري حوله ، مطلعًا على أحوال وأوضاع الأمم ، والحكومات والدول من حوله ، حتى إذا اتخذ قرارًا يكون مبنيًا على خطة محكمة ومدروسة ، فتكون غالبًا نتائج سليمة ؛ لأنها مبنية على مقدمات سليمة ، بخلاف ما لو بناه على جهل بالواقع وعدم معرفة بالمحيط الإقليمي والدولي [٤] .

---

(١) انظر : أحمد : المسند ، ج ٢٠ ، ص ٢٢٦ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب فضل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضل أبي بكر ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

(٣) الإستراتيجية هي : فن استغلال القوى من أجل تحقيق الأهداف السياسية . [المدخل إلى الدراسات الإستراتيجية : Introduction à La Stratégie]

(٤) إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٠١ (بتصرف) .

المرونة في التعامل مع الواقع

ومعنى ذلك القدرة على التكيف مع معطيات الواقع ، بما يضمن حماية الدعوة وتمكينها من السير قُدمًا نحو تحقيق أهدافها .

ومما يدل على هذه المرونة استفادة النبي ﷺ من « العنصر القبلي » الذي كان يُوجِّه سلوك الناس ويؤطِّر مواقفهم ، وتوظيفه لحماية الدعوة وقيادتها ؛ يقول ابن إسحاق : « ... ومنع اللَّه رسوله ﷺ منهم - أي قريش - بعمه أبي طالب . وقد قام أبو طالب حين رأى قريش يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني عبد المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول اللَّه ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو اللَّه الملعون [١] .

وفي رواية أخرى : وهو على ذلك - أبو طالب - يخبرهم وغيرهم في ذلك من شِعْرِه أنه غير مُسْلِمٍ رسول اللَّه ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه [٢] .

لقد كان النبي ﷺ على وعي بسلطان القبيلة ودورها في حياة الناس ؛ لذلك قبل التكيُّف مع هذا الوضع والاستفادة منه لصالح الدعوة ، وبما لا يؤثر على وجهتها وثوابتها ، فضمن - على الأقل - تعاطف قومه وحمايتهم في إطار تقاليد البيئة الاجتماعية وأعرافها المرعية [٣] ، وتمكن فعلًا من كسب تأييد أغلبيتهم ودفعهم للانتصار له والذود عنه كما يدل عليه موقف أبي طالب السابق ، ثم انحياز سائر بني عبد المطلب ما عدا أبي لهب ضد قريش في حصارها الشامل للدعوة ومقاطعتها لبني هاشم ؛ ذلك أن قريشًا وبني كنانة تحالفوا على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، حتى يسلموا إليهم رسول اللَّه ﷺ [٤] ، وحاصروهم حصارًا دام ثلاث سنوات [٥] .

وهذا الموقف يبيِّن المرونة في التعامل مع معطيات الواقع ؛ إذ لم يرفض عليه الصلاة

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٨١ .
(٢) انظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .
(٣) انظر : الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣٥٦ .
(٤) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ومسلم : الجامع الصحيح ، كتاب الحج ، باب استحباب النزول بالمحصب ، ج ٩ ، ص ٦١ .
(٥) انظر : ابن إسحاق : السير والمغازي ص ١٤٠ .

والسلام خدمات هؤلاء مع استمرار وفائهم لمواريث جاهليتهم ، مما ساعده على توفير حدٍّ أدنى من الحماية لدعوته ، وضمان تواصل عمله ، رغم المحاولات المبذولة من قِبَلِ المشركين لإسقاط الحماية عنه ، والانفراد به ، والقضاء على دعوته (١) .

والمتأمل في خطوات المسار النبوي في هذا الصدد يرى أيضًا كيف استفاد عليه الصلاة والسلام ، من « تناقضات القوى المضادة » (٢) لتخفيف وطأة المواجهة على دعوته ، وإضعاف موقف أعدائه ، وتقليل فرص نجاحهم ، وذلك لانحياز جزء مهم من قوى المجتمع - وهم عشيرته - إلى صفِّه عصبيةً (٣) ، ثم مبادرة فعاليات مهمة من قيادات المجتمع إلى فك الحصار عنه ، أمثال مُطْعِم بن عدي ، وأبو البختري بن هشام ، وزهير بن أبي أمية ، وهشام بن عمرو بن ربيعة ، بعد ظهور بوادر التذمر وبداية السعي الجاد إلى إنهاء وضعية ذلك الحصار الظالم (٤) .

ومن النتائج الإجمالية للمخطط النبوي في هذه المرحلة

- إنجاز انفتاح الدعوة على المجتمع بصورة شاملة بعد أن ظلت في المرحلة السرية تتحرك في مجال محدود وبخطى حذرة .

- اتساع قاعدة الإطار القبلي للدعوة بشكل أكبر من المرحلة السابقة ، حيث شملت أغلب الفئات الاجتماعية . وقد عدَّد موسى بن عقبة وابن إسحاق أنسابها ، فكانت (١٩) بين قبيلة وعشيرة (٥) .

- تحقيق انتشار واسع النطاق لصيت الدعوة ، حيث تعدَّت مكة إلى جهات أخرى بعيدة كالحبشة واليمن ودوس وغفار والأزد وغيرها من المناطق (٦) .

- خلخلة النظام الاجتماعي الجاهلي بشكل قوي ، وتقويض مرتكزاته العقائدية والفكرية ، مما أدى إلى تفريغه من الطاقة البشرية شيئًا فشيئًا ، والانخراط في صفوف الدعوة الجديدة ، مما أفسح المجال لمرحلة التغيير القادمة .

---

(١) انظر : الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣٥٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٣) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٧٢ .

(٤) انظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٩ .

(٥) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٧٥ - ٨١ . وابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٥٢ .

(٦) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ج ٤ ، ص ٢٤١ . وابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٤٠٨ ، والحاكم : المستدرك ، ج ٣ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

المبحث الثالث الخطة النبوية في المرحلة الثالثة من الفترة المكية

طلب النصرة من القبائل والبحث عن سند اجتماعي للدعوة

لم يغفل النبي ﷺ - مع كونه مؤيدًا بالوحي ومشمولًا بالرعاية الإلهية - التحرك ضمن إطار سنن اللّه الاجتماعية ، لكونه بلا ريب القدوة النموذجية للمسلمين في كل العصور في علاقتهم بالكون والحياة والناس .

ولذلك قام عليه الصلاة والسلام بجملة من التدابير اتخذها لمعالجة الأمر في سياق خطته المنهجية المحكمة ، التي شكَّل البحث عن سند اجتماعي وموقع جديد للانطلاق في بناء الدولة محورها الرئيس .

فالدعوة بدون سند اجتماعي قوي لا يُنتظر منها إنجاز عملية التغيير المنشود ، كما لاحظَ ذلك ابن خلدون حين نصَّ - في إطار سنة التدافع - على أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم (١) .

ولهذا كان الإعداد لبناء الدولة هدفًا إستراتيجيًا وحيويًّا بالنسبة للمرحلة المكية برمَّتها ؛ فبناء الدولة التي تشكل السياج الحامي للدعوة والمحافظة على مكاسبها ، كان من أولويات العمل النبوي منذ البداية ؛ وهو ما عبَّر عنه النبي ﷺ لوفد قريش في بيت أبي طالب : « يا عمُّ ! كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » (٢) .

وهو ما أكَّده العباس رضي الله عنه في جوابه لعفيف الكندي عندما قدم إلى مكة تاجرًا ، فرأى رسول اللّه ﷺ وعليًّا وخديجة يصلون فقال : يا عباس ! ما هذا الدين ؟ فبيَّن له الأمر ، وقال له بأن محمدًا يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر (٣) .

على أن النبي ﷺ ظل طيلة المرحلتين السابقتين يعمل على توفير الشروط

---

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٧ . وابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٣) انظر : النجم عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج ١ ، ص ١٩١ .

الموضوعية لبناء الدولة فبعد أن حقَّق نتائج مهمة على مستوى إعداد القاعدة البشرية اللازمة لذلك ، تحرك في المرحلة الأخيرة من الفترة المكية للبحث عن الموقع الذي يجمع فيه أتباعه من جهة ، ويشكِّل سندًا اجتماعيًا قويًّا للدعوة من جهة ثانية [١] .

ومن هذا المنطلق تحرك رسول اللَّه ﷺ إلى الطائف في السنة العاشرة من البعثة ، يدعو أهلها إلى الإسلام ، ويطلب حمايته ونصرته [٢] ، لعلمه بمركز هذه المدينة السيادي والتجاري المرموق في الحجاز بعد مكة ، ولما كان يتسم به أهلها من القوة وحسن البلاء [٣] .

وحين لم يثمر اتصاله بقبيلة ثقيف [٤] ، كثَّف عليه الصلاة والسلام اتصالاته ولقاءاته بالقبائل العربية المختلفة عبر مواسم الحج بحثًا عن سند اجتماعي جديد للدعوة ، كي يمنحها فرصة كسر الطوق الذي ضربته عليه قريش ، حيث كان ﷺ يتبع الحاج في منازلهم ويقف على القبائل الواحدة تلو الأخرى دون كلل أو ملل وهو يقول : « هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإنَّ قريشًا منعوني أن أبلِّغ كلام ربي ﷻ » [٥] .

ويروي جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه في هذا الشأن قائلًا : (مكث رسول اللَّه ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة ، وفي المواسم بمنى يقول : « من يؤويني من ينصرني ، حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنَّة ؟ » حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر ، فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا اللَّه من يثرب فآويناه وصدقناه) [٦] .

ويبيَّن هذا الحديث مدى إصرار النبي ﷺ على متابعة دعوته ، وتصميمه الجازم على الاستمرار فيها لإيجاد ملاذ آمن لها ، وعدم يأسه من استجابة الناس لها

---

(١) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣٩١ (بتصرف) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ٢٨ . والطبراني كما في المجمع للهيثمي بسند حسن عن ابن إسحاق عن يزيد بن زيد عن ابن كعب القرظي مرسلًا ، ٣٥/٦ .

(٣) انظر : الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٤٠٩ .

(٤) انظر البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال : أحدكم آمين ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب فضائل القرآن ، وقال : حسن صحيح ، رقم ٣٠٩٣ ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ . وأحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله ثقات ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

(٦) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ . وقال الحافظ في الفتح : إسناده حسن ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ . والحاكم في المستدرك ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ - ٦٢٥ .

بحثًا عن ميدان جديد بعد أن قامت الحواجز والعوائق دونها في ميدانها الأول :

وفي حواره مع القبائل كان النبي ﷺ يسأل عن أصول هذه القبائل ، ومواطنها ، وقوتها العددية ، وتاريخها ، وارتباطاتها ، وأخلاقها ، حتى يعرف البيئة الاجتماعية عن قرب ، ويقف على مراكز قواها التي يمكن الاستفادة منها في نصرة الدعوة [١] .

ومثال ذلك : الحوار الذي كان بينه ﷺ وبين قبيلة بكر بن وائل ، فقال لهم : « ممن القوم ؟ » قالوا : من بكر بن وائل ، فقال : « من أي بكر بن وائل ؟ » قالوا : من بني قيس بن ثعلبة ، قال : « كيف العدد ؟ » قالوا : كثير مثل الثرى ، قال : « كيف المنعة ؟ » قالوا : لا منعة ؛ جاورنا فارسًا ، فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم [٢] .

وكذا الحوار الذي جرى مع قبيلة شيبان بن ثعلبة حين سألهم أبو بكر في حضرة النبي ﷺ عن العدد ، فقال أحدهم - مفروق بن عمرو - : « إنا لنزيد عن الألف ، ولن يُغلب الألف من قلّة ، قال أبو بكر : فكيف المنعة فيكم ؟ فقال مفروق : علينا الجهد ولكل قوم جدٌّ ، فقال أبو بكر : وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال مفروق : إنّا لأشد ما يكون غضبًا حين نلقاهم ، وأشد ما يكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح » [٣] .

وقد وفق عليه الصلاة والسلام في موسم السنة الحادية عشرة من البعثة - وهو يوالي اتصالاته المكثفة بوفود القبائل - للعثور على مركز جديد يحتضن الدعوة ويحميها ، وهم أهل يثرب من الأوس والخزرج الذين لقي منهم نفرًا عند عقبة منًى فسألهم كعادته : « من أنتم ؟ » قالوا : نحن الخزرج ، قال : « أمن موالي يهود ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أفلا تجلسون حتى أكلمكم ؟ » قالوا : بلى . فجلسوا معه . فدعاهم إلى اللّٰه ﷻ وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا وعادوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام [٤] .

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثني عشر رجلًا ، فلقوا

---

(١) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٤٠٩ .

(٢) ابن كثير : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

(٣) أبو نعيم : الدلائل ، ج ١ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ، والنجم عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ١ ، ص ٣٢١ . وقال الحافظ في الفتح : إسناده حسن ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .

(٤) أبو نعيم : الدلائل ، ج ١ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٦ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني مرسلًا وفي سنده ابن لهيعة وفيه ضعف ، وهو حسن الحديث ، وبقية الرجال ثقات . ج ٦ ، ص ٤٢ .

رسول اللَّه ﷺ بالعقبة ، فجرت بيعة العقبة الأولى [١] ، التي مهدت السبيل لانتشار الإسلام بين الأوس والخزرج ، بعد أن أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويصلي بهم ويفقههم في الدين ، وكان يُدعى المقرئ [٢] .

ثم قدم وفد الأنصار في مواسم الحج ، فبايعوا بيعة العقبة الثانية [٣] . وقد قامت هذه البيعة على عدة شروط منها : « وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » [٤] .

وهكذا بايع الأنصار رسول اللَّه ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب ، لذلك سماها عبادة بن الصامت رضي الله عنه بيعة الحرب [٥] ، مما مهَّد للمؤمنين المضطهدين في مكة أن يجدوا في المدينة ملجأ ومهاجرًا يتمركزون فيه ، ولرسول اللَّه ﷺ موئلًا أمينًا يقيم فيه دولته ، وينطلق منه جند الإسلام لكسر شوكة الشرك والكفر .

وجدير بالإشارة أن النصرة على هذا النحو أصبحت في العصر الحديث غير ممكنة ؛ لأن وسائل التقنية الحديثة سمحت بقيام دول مركزية قوية تراقب جميع المناطق الخاضعة لها ، بينما كانت بلاد الجزيرة العربية عبارة عن كيانات قبلية متفرقة متناحرة مستقلة بشؤونها ، مما مهد الطريق لقيام دولة إسلامية بقيادة الرسول ﷺ بعد أن توفر لها أربعة عناصر :

- **عنصر « الأرض »** ممثلًا في المدينة التي أصبحت منطلقًا آمنًا للدعوة الإسلامية [٦] .

---

(١) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .

(٢) رواه موسى بن عقبة في المغازي ، ص ٩٠ . والبيهقي في الدلائل ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ . وابن كثير في السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨٠ . وسند البيهقي عن ابن إسحاق مرسل رجاله ثقات .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ، ج٣ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ . والبزار (انظر : كشف الأستار عن زوائد البزار ، رقم ١٧٥٦ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح ، ج ٦ ، ص ٤٦ ، وقال ابن كثير في السيرة : هذا إسناد جيد على شرط مسلم ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح ، ج ٦ ص ٤٦ . وأخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ - ٦٢٥ .

(٥) انظر : أحمد : المسند ، ج ٥ ، ص ٣١٦ . وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة : بإسناد صحيح لغيره ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٦) انظر : محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ص ٤٦ .

- **عنصر « الاقتصاد »** حيث أصبح المسلمون يمتلكون السيادة على موارد المدينة الاقتصادية .

- **العنصر « البشري »** المتمثل في الأنصار الذين بايعوا صاحب الدعوة ﷺ على حمايته والذود عنه ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم وأموالهم .

- **عنصر « العقيدة »** الذي يعني الالتقاء القلبي والفكري على غاية مشتركة ، التقاءً يدخل به المجتمع التأسيس والوجود والتميُّز الفعلي فيما يمكن أن يطلق عليه « أمة » [١] .

أما في العصر الحديث : فيمكن أن تتحول هذه النصرة إلى تكوين القاعدة المسلمة الصلبة ، الواعية المجاهدة ، التي تعدُّ دعامة للحكم الإسلامي بعد قيامه .

وبشكل موازٍ يتم حشد التأييد لقضايا الدعوة الإسلامية عن طريق العمل الاجتماعي وإشاعة الوعي الصحيح بمرامي الإسلام ومقاصده بين الناس ، لتهيئة القاعدة الشعبية العريضة لقبول الإسلام عقيدةً ومنهجًا للحياة .

ولا يتم ذلك إلا بامتداد جذور الدعوة في أوساط « الأمة » ، وأن ينشأ لها في قواعدها تأييد وتعاطف .

ولكي تصل الدعوة الإسلامية إلى إحياء الأمة ؛ فإنه من الضروري أن تقوم بترتيب أولويات أعمالها ، وتراعي هذا الترتيب في دعوة الناس ، وفي تنظيم مراحل علاج المواقع الفاسدة ، والبناء للواقع الإسلامي الصالح من خلال ما تتبناه من أفكار يتم تبسيطها باللغة التي تفهمها جماهير الناس ، وتقوم على حلِّ مشكلات الواقع ووضع خطة المستقبل بشكل أفضل ، ورسم منهج للتربية يتربى من خلاله كل داعية على الشعور بأنه هو المسؤول عن تغيير واقع أمته وليس غيره ، ولذلك لابد أن يخالط الناس ويصبر على أذاهم ؛ لأن ذلك أرضى للَّه وأنفع لعباده [٢] .

ولهذا الغرض ينبغي توسيع دائرة العمل إلى أبعد حدٍّ ممكن عبر إقامة شبكة متكاملة من الروابط والعلاقات ، ومدِّ جسور التواصل مع مختلف فئات الأمة ، بحيث تصبح العلاقة بين صفوة الدعاة وعامة الناس علاقة ودية وإيجابية تقوم على الانسجام والتعاون لخدمة الإسلام [٣] .

---

(١) انظر : محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ص ٤٦ .

(٢) انظر : محمد محمد بدري : الصفوة والأمة ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

ولا شك أن هذا الأمر يتطلب من العاملين في حقل الدعوة « امتلاك القدرة على فقه التعامل مع المجتمعات ، والانفتاح المتزن أكثر ... وامتلاك قدر أكبر من المرونة ، مع الإبصار الكامل الدقيق والأمين للأهداف والتقدير للإمكانيات ... » (١) .

وبشكل عام ، لا تقدر الدعوة الإسلامية أن تنفذ إلى أهدافها وتحقق غاياتها إلا أن تمتلك رصيدًا كبيرًا في الأمة ، وتستند إلى قاعدة عامة قوية تدخل بها دائرة المفاصلة مع الأنظمة المعادية للإسلام ، ولكي تحقق هذه الغاية لابد أن تشق الطريق نحو القاعدة أكثر فأكثر ، فتدخل في نسيجها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ، وتوظف مختلف الإمكانيات والوسائل المتاحة للقيام بالتغيير المنشود (٢) .

على أن طلب النصرة إنما هو أسلوب ووسيلة لتحقيق الهدف الرئيس المتمثل في قيام الكيان الإسلامي . وقد يتخذ هذا الأسلوب أشكالًا أخرى ووسائل مختلفة حسبما تقتضيه الأحوال والظروف ، لكن شريطة أن تبقى هذه الوسائل منضبطة بقواعد الشرع وأحكامه .

التخطيط يقتضي الإحاطة بالخريطة النفسية والاجتماعية لبيئة الدعوة

إن المعرفة بأوضاع المجتمع السياسية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية شرط رئيس للتكيف معه والتأثير فيه ؛ لأنها تمنح الإنسان مفاتيح كثير من مغالقه ، مما يسهل تطويق التحديات وتجاوز المصاعب التي تواجهها الدعوة .

على أن النبي ﷺ كان على جانب عظيم من المعرفة بالخريطة النفسية والاجتماعية (٣) لبيئة الدعوة ، حيث كان – عليه الصلاة والسلام – يتحرك إلى المواقع المختلفة عن دراية وعلم ، مستعينًا بخبرة الآخرين مسلمين وغير مسلمين (٤) .

---

(١) عمر عبيد حسنه : نظرات في مسيرة العمل الإسلامي ، ص ١١٦ .

(٢) انظر : محمد بدري : الصفوة والأمة ، ص ١٠٩ .

(٣) لقد بلغ علم النفس الاجتماعي في العصر الحاضر شأوًا بعيدًا في دراسة الجماعات من حيث تركيبها ووظائفها ، وعلاقات التأثر فيما بينها وعلاقة الجماعة بالفرد ، وبسط آليات تفجير الطاقات والإبداع لدى المجموعات والأفراد ، والعمل بروح الفريق واتخاذ القرارات ، وتسليط الضوء على الوسائل التي تتبناها النخبة في توجيه المجتمع ، إلى غير ذلك من المفاهيم والأدوات والمناهج التي ينبغي للدعاة استيعابها للدخول في معترك مواجهة النخب المفسدة ، والتأثير على القطاعات الواسعة من الجماهير .

(٤) انظر : الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٤١٩ .

ومثال ذلك : محاولة التعرف على قبائل العرب وزعمائها عن كتب ؛ ليأخذ فكرة عن نفسياتهم وعقلياتهم وأوضاعهم الاجتماعية ، تفيد في ضبط خطواته المستقبلية بإحكام (١) .

وفي لقائه - عليه الصلاة والسلام - مع وفد يثرب في موسم السنة الحادية عشرة من البعثة دلَّ سؤاله لهم على مدى معرفته بأحوال الناس في المدينة ؛ قال : « من أنتم ؟ » قالوا : نفر من الخزرج ، فقال : « أمن موالي يهود ؟ » قالوا : نعم (٢) .

وفي إطار اتصال بعض الأنصار برسول اللَّه ﷺ استعدادًا للقاء العقبة جاءه رجلان وهو جالس في المسجد الحرام بمكة مع عمه العباس ، فسأله - عليه الصلاة والسلام - : « هل تعرف هذين الرجلين ؟ » فقال : هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، فقال : - عليه الصلاة والسلام - « الشاعر ؟ » فقال العباس : نعم . ففوجئ كعب بمعرفة النبي ﷺ له ، وقال معلقًا : واللَّه ما أنسى قول رسول اللَّه ﷺ « الشاعر » (٣) .

ولعل إحاطته - عليه الصلاة والسلام - بأوضاع المدينة هي التي جعلته يبعث مصعبًا لتسريع عملية الإفادة من الاستعددات النفسية الكبيرة التي وفَّرَتها حرب بُعاث ، وحديث يهود بيثرب عن نبي قد أطل زمانه (٤) .

وكذلك حرصه - عليه الصلاة والسلام - على لقاء مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل اجتماع العقبة الأخيرة ، ليطلعه على الصورة الكاملة لوضعية المجتمع المدني وسير الدعوة فيه ، حتى يقدِّر - عليه الصلاة والسلام - الموقف المطلوب عن دراية بمعطيات الواقع ، مما يفيده في ضبط خطته عمليًا عندما ينتقل إلى المدينة (٥) .

واستفادته - عليه الصلاة والسلام - أيضًا من خدمات بعض المشركين ؛ حيث طلب من عمه العباس قبل إسلامه أن يحضر معه بيعة العقبة الثانية ليتوثَّق له ؛ إذ كان

---

(١) انظر : المرجع نفسه ، ص ٤٢٠ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢١٩ . وأبو نعيم : الدلائل ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

(٣) أخرجه ابن جرير في تاريخه ، ج ٢ ، ص ٣٦١ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٤٢ - ٤٥ .

(٤) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، ج ٤ ، ص ٢٢١ ، وأحمد : المسند ، ج ٦، ص ٦١ . وأبو نعيم : الدلائل ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

(٥) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص ١٧٣ .

العباس تاجرًا وذا معرفة بقبائل يثرب وله وجاهة عند زعمائها [١] ، فأراد - عليه الصلاة والسلام - أن يستفيد من هذه الخبرة وتلك السمعة ، وكان له فعلًا ما أراد .

كما استفاد - عليه الصلاة والسلام - من خدمة عبد اللّٰه بن أريقط ؛ ذلك الدليل الماهر الذي استأجره أبو بكر ليدلهما أثناء الهجرة على طريق آمن وغير مسلوك - في الغالب - إلى المدينة ، لمَّا لمسا منه الوفاء [٢] .

وفي هذين الموقفين دليل واضح على أن النبي ﷺ كان أعظم الأمة فراسة ، وبعده الصديق رضي الله عنه . بيد أن المعرفة بنفسيات الناس وسيماهم ودخائلهم ، ترجع عادة إلى عدَّة أسباب منها : قوة الإيمان ، وجودة الذهن ، وحدَّة القلب ، وحسن الفطنة .

وخلاصة القول : إن الأحوال والمواقف الآنفة الذكر تدلُّ فعلًا على مدى إحاطة النبي ﷺ بالخريطة النفسية والاجتماعية لبيئة الدعوة ، أفرادًا ، وقبائل ، وتاريخًا ، وواقعًا ، مما شكل أحد العوامل المهمة في تنفيذ الخطط بكفاءة ونجاح .

خطة الهجرة إلى المدينة

إن الدارس المتأمل في أحداث السيرة يلمس أن الهجرة إلى المدينة لم تكن عملًا مرتجلًا ، وإنما سبقها التمهيد الواعي ، والإعداد المحكم ، والتخطيط الواسع . ولا شك أن ذلك حدث بتقدير اللّٰه تعالى وتوجيهه .

أ - إعداد المهاجرين

وقد كان هذا الإعداد في اتجاهين : إعداد للمهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجر إليه [٣] .

والهجرة لم تكن نزهة أو رحلة قصيرة من أجل الترويح عن النفس ، وإنما كانت امتحانًا عسيرًا للنفوس المؤمنة ، ولذلك احتاجت إلى جهد كبير تمثَّل في أساليب الضغط المختلفة التي عايشها المسلمون حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بهذه الهجرة ؛ ومن ذلك :

---

(١) انظر : الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ - ٦٢٥ . البيهقي : السنن ، ج ٩ ، ص ٩ .
(٢) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .
(٣) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ١١٧ .

- التربية الطويلة التي تمرَّنوا من خلالها على الصبر ، فكانت وسيلة آتت ثمارها للتغلب على الأزمات .

- الاضطهاد والضيم الذي أصابهم حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية معايشة الكفر .

- الإذن بالهجرة إلى الحبشة ؛ إذ حصل فيها التدريب العملي على ترك الأهل والوطن .

- التنويه بالهجرة وبيان فضلها ولفت النظر إلى أن أرض اللَّه واسعة : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

- ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف ، وفيه ذكر الفتية الذين آمنوا بربهم ، واضطروا حفاظًا على إيمانهم أن يهجروا بلدهم ويتجهوا إلى الكهف . وبالثناء عليهم تستقر صورة من صور الإيمان في النفوس ؛ وهي أن ترك الأهل والوطن قد يكون ثمنًا للحفاظ على العقيدة .

- ثم تلا ذلك نزول آيات صريحة تتحدث عن الهجرة وثوابها وتحث عليها ، في سورة النحل ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤١] [١] .

- وكان من جملة هذا الإعداد : امتحان الذين لم يهاجروا إلى الحبشة بحادثة الإسراء والمعراج ؛ فقد ارتد ناس كانوا قد أسلموا [٢] . فكانت هذه الحادثة تصفية للصف المسلم من الشوائب ، وتنقية لطريق الدعوة ممن ليس أهلًا لتحمل مشاق الطريق ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الاختبار في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] [٣] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « هي رؤيا عين أريها رسول اللَّه ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس » [٤] .

---

(١) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣) انظر : صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ١١٩ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب المعراج ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

ب - إعداد في المكان المهاجر إليه

أما الإعداد الثاني في المدينة ، فلم يقلَّ عن الإعداد الأول بتقدير اللَّه تعالى وتدبيره .

- فبشأن إسلام الأنصار واستجابتهم للَّه ورسوله ، قالت عائشة رضي الله عنها : « كان يوم بُعاث يومًا قدَّمه اللَّه لرسوله صلى الله عليه وسلم فقَدِم رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سرواتهم وجرحوا ، فقدمه اللَّه لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام » [١] .

- وذكر ابن إسحاق رحمه الله سببًا آخر هيَّأ نفوس الأنصار لتقبل الإسلام ، قال : « وكان مما صنع اللَّه بهم في الإسلام ، أنَّ يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم [٢] ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ؛ فلما كلَّم رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى اللَّه ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا واللَّه إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من إسلام » [٣] .

- ثم إن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم لم يسارع بالانتقال إلى دار الهجرة ، وإنما أخر ذلك حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًّا بعد أن استجاب سادة وأشراف الأوس والخزرج ، وغالبية من معهم بعد انتقال مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة [٤] .

فلم يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم حتى تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ أوجه ، وذلك حين طلبهم بهجرته إليهم .

فيروي جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه وهو شاهد عيان : « ... حتى بعثنا اللَّه من يثرب ، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب الأنصار ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .

(٢) غلبوهم .. ابن منظور : اللسان ، ج٢ ، ص ٩٨٦ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ، رقم ٢٢٣ ، ج ١ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ . وابن كثير في السيرة ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ . وقال الهيثمي في المجمع : أخرجه الطبراني عن ابن إسحاق ورجاله ثقات ، ج ٦ ، ص ٤٢ .

(٤) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٩٠ ، وابن إسحاق مطولًا (سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٦) ، وهو مرسل رجاله ثقات .

فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلَّا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم ائتمروا جميعًا ، فقلنا : حتى متى نترك رسول اللَّه ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحل إليه سبعون رجلًا منَّا حتى قدموا عليه في الموسم ، فوعدنا شعب العقبة ... » [1] .

– كما أن النقاش الذي جرى في بيعة العقبة يؤكد حرص الأنصار الشديد على تأكيد البيعة والاستيثاق للنبي ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم ، قابلين ما يقوله الرسول ﷺ ، عارفين بتبعاته ، مقدرين ما يحتاج إليه من بذل للنفوس قبل الأموال .

وما كلمة أسعد بن زرارة رضي الله عنه إلا تأكيدًا لهذا المعنى ؛ فعندما بين لهم النبي ﷺ شروط البيعة وبايعوه ، أخذ بيده أسعد بن زرارة فقال : « رويدًا يا أهل يثرب ، فإنَّا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول اللَّه ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، إما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على اللَّه ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خبيئة فتبيَّنوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند اللَّه ، قالوا : أمط عنا يا أسعد ، فواللَّه لا ندع هذه البيعة أبدًا ، ولا نسلبها أبدًا ، فبايعناه فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة » [2] .

وهكذا تمَّ إعداد المهاجرين إعدادًا يناسب طبيعة المرحلة المقبلة ، لمكابدة الأخطار والمشقة والشدائد الناتجة عن الهجرة ، وذلك بتوطين النفوس على الصبر ، والتدريب على ترك الأهل والوطن والمال .

كما تمَّ إعداد الأنصار ليكونوا قادرين على استقبال طلائع المهاجرين ، وما يترتب على ذلك من تكاليف وتبعات في الأموال والنفس تعكس بالفعل الأخوة الحقيقية التي تميزت بالإيثار والحب ، وبذل الغالي والرخيص في سبيل دعم هذا الكيان الناشئ .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ، والبيهقي في السنن ، ج ٩ ، ص ٩ . وقال الحافظ في الفتح : إسناده حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان ج ٧ ، ص ٢٢٢ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ . وقال ابن كثير في السيرة : هذا إسناد جيد على شرط مسلم ، ج ٢ ، ص ١٩٦ . وقال الحافظ في المطالب العالية : رواه أبو بكر بن شيبة وهو صحيح ، وأبو يعلى ، رقم : ٤٢٩٠ . ج ٤ ص ٢٠٥ .

ج - الإعداد لهجرة النبي ﷺ

وبصدد الهجرة نفسها ، فقد تمَّ إعداد لكل أمر ما يناسبه من التخطيط سواء أكان ذلك مما يتصل بالزمان أو المكان أو الوسائل أو الأشخاص : -

١ - اختيار الوقت المناسب لإيصال الخبر إلى أبي بكر

عندما نزل الوحي بأمر الهجرة ، وأراد النبي ﷺ أن يخبر أبا بكر ﷺ لصحبته ، اختار لذلك وقت الظهيرة ، وهي ساعة لم يكن قد اعتاد فيها زيارته [١] .

ففي مثل هذا الوقت تقلُّ الحركة ، ويندر الرقيب ، وبالتالي يأمن النبي ﷺ رصد عيون قريش له ، علمًا بأنه كان يأتي طرفي النهار في العادة [٢] ، فإذا افترض أن هناك من يراقب منزل أبي بكر ؛ فإنه غالبًا يراقبه في هذين الوقتين دون سواهما [٣] .

٢ - اختيار الوقت المناسب للخروج إلى الغار

غادر رسول اللَّه ﷺ بيته ليلًا ، وأتى رفيقه أبا بكر ﷺ ، ثم خرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته [٤] ، إمعانًا في الاحتياط .

وهذه مما يشير إلى التخطيط الدقيق واختيار الوقت المناسب ؛ فالليل - كما هو معلوم - ستار آمن ، يمكن التحرك فيه بكثير من الاطمئنان ، مما يقلِّل من احتمال رؤيتهما [٥] .

وكون هذا التحرك تمَّ قبل الفجر ، ربما كان على تقدير أن قريشًا لن تكشف حقيقة الأمر إلا بعد طلوع الفجر ، أي بعد قيام علي ﷺ عن فراش النبي ﷺ ؛ يقول ابن إسحاق في هذا الأمر : « فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي ﷺ عن الفراش » [٦] وبالتالي تمَّ تفويت الفرصة على قريش ؛ إذا كان النبي ﷺ

---

(١) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ ج ٤ ، ص ٢٥٤ .
(٣) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ص ١٤١ .
(٤) انظر : ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ج ٢ ، ص ٩٨ .
(٥) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٤٨ .
(٦) ابن هشام : سيرة النبي ﷺ ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

وصاحبه قد وصلا إلى الغار بسلام [١] .

٣ - التمويه في الخروج إلى مكان الغار والتحرك منه

يقع غار ثور جنوبي مكة [٢] ، بينما يقع الطريق المؤدي إلى المدينة شمال مكة ، وهنا تبدو دقة التخطيط ؛ إذ لمَّا كان النبي ﷺ يعلم أن قريشًا ستجدُّ في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالاً ، فسلك الطريق الذي يضاده تمامًا ؛ وهو الطريق الواقع جنوبي مكة ، والمتجه نحو اليمن ، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ جبلًا يعرف جبل ثور [٣] .

وكذلك بعد الخروج من الغار سلك بهما الدليل الطريق المتجه جنوبًا نحو اليمن ، ثم غربًا نحو الساحل حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس ، اتجه شمالاً على مقربة من ساحل البحر حتى عارض الطريق أسفل من عُسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمْج .. في طريق لم يكن يسلكه أحد إلاَّ نادرًا [٤] ، وما ذلك إلا إمعانًا في تمويه الرصد .

٤ - الإقامة في الغار ثلاثة أيام

بعدما انتهى النبي ﷺ وصاحبه إلى الغار مكثا فيه ثلاثة أيام [٥] . وهذه الخطة اقتضتها الظروف الأمنية ؛ لأن الخروج إلى أي مكان في الأيام الأولى حين يشتد الطلب عليهما ، يجعلهما عرضة للوقوع في قبضة العدو ، فمكثا في الغار هذه المدَّة حتى يخفَّ الطلب عليهما ، ويتراخى المشركون عن المطاردة والملاحقة ، وبالتالي تسنح الفرصة للإفلات منهم .

٥ - اختيار طريق الهجرة

المتأمل في طريق الهجرة يلاحظ أنه كان آمن وأقصر الطريق المؤدية إلى المدينة ، ولم يكن من الطرق المسلوكة عادة .

---

(١) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٤٩ .

(٢) انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٣) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم : ص ١٩٤ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥) انظر : عبد الرزاق : المصنف ، ج ٥ ، ص ٣٨٩ ، وحسنه ابن كثير في السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٣٩، وابن حجر في الفتح ، ج ٧ ، ص ٢٣٦ .

ولا يخفى ما في ذلك من التمويه على المطاردين ، كما أن الطريق القصير يختزل الزمن الذي تستغرقه الرحلة ، ولا يحتاج إلى الزاد الكثير بخلاف الطويل .

أما كونه غير مألوف : ففي ذلك زيادة في الاحتياط الأمني ؛ إذ غالبًا ما تكون جهود قريش منصبَّة على الطريق العام ، مما سهَّل مهمة الركب في الوصول إلى الوجهة المقصودة [١] .

٦ - تـهيئة وسيلة الهجرة

لما كانت رحلة الهجرة رحلة طويلة تحتاج إلى وسيلة تناسب طبيعة الأرض والمناخ ، قام أبو بكر ﷺ بتهيئة راحلتين كانتا عنده وإعلافهما ورق السَّمُر [٢] أربعة أشهر [٣] .

فالنبي ﷺ وصاحبه لم يختارا الخيل أو البغال لهذه الرحلة ؛ لأن الإبل تعدُّ أنسب وسيلة للسفر في الصحراء في ذلك العصر ، وهي - كما يقال - سفينة الصحراء ؛ إذ تتحمل طبيعة الصحراء القاسية بما لها من صبر وقوة تحمل ، وذلك لما أودعه اللّه ﷻ فيها من خصائص ؛ فالجمل يصبر أيامًا على العطش ، وهذا ضروري للرحلة التي مرَّت عن طريق غير مأهولة يندر فيها الماء ، كما أنَّ السير في رمال الصحراء لا يناسبه إلا خفُّ البعير ؛ لأنها مسطحة لا تغوص في الرمال فتعوق بذلك سرعة الحركة ، بل تثبت على السطح وتزيد من سرعة الحركة ؛ الأمر الذي تتطلبه الرحلة .

علاوة أن هذه الرحلة الشاقة الطويلة تحتاج إلى نوع من الإبل تمتاز بالقوة والحيوية ؛ لأجل ذلك علفها أبو بكر ﷺ ورق السمر ، وهو غذاء ممتاز للإبل يمدُّها بالطاقة الكافية لتحمل السفر مددًا طويلة دون أن يصيبها الجهد والإعياء [٤] .

٧ - تموين الهجرة

ولأن هذه الرحلة الطويلة تحتاج إلى تأمين الزاد أثناء الاختباء بالغار ، وأثناء الطريق إلى المدينة ؛ تم وضع مسألة التموين في الحسبان ؛ حيث اضطلع بذلك آل أبي بكر [٥] .

---

(١) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٦٣ ، (بتصرف) .

(٢) السمر : ضرْب من شجر الطلح واحده سمره ، والطلح شجر عظام من شجر العضاه . انظر : القاموس المحيط مادتي سمر ، وطلح .

(٣) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٤) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٤٦ (بتصرف) .

(٥) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

ولا يخفى أهمية الزاد في الحفاظ على اللياقة البدنية كما أن تأمينه يوفر عليهم التأخر في المسير بالتماسه أثناء الطريق ، ولا يعرضهم لخطر اكتشاف أمرهم [١] .

٨ - تسخير الأفراد لأمر الهجرة

ولإحكام الخطة لرحلة كهذه ، تم اختيار الأعوان بعناية ، حيث وقع الاختيار على أفراد أسرة أبي بكر للقيام بالأعمال الضرورية من : إعداد الطعام ، وإخفاء الأثر ، ونقل أخبار العدو أولًا بأول [٢] ، فباتت أسرة أبي بكر وراعيها يعملون من أجل إنجاح الخطة المرسومة للهجرة .

وكذلك كان من مستلزمات الإعداد للهجرة : اختيار الدليل الكفء الماهر العالم بآمن الطرق وأقصرها بين مكة والمدينة ، حتى لا يضلا الطريق أو يسلكا طريقًا معروفًا يجعلهما عرضة للوقوع تحت طائلة الأسر أو القتل .

ولا شك أن تقدير النبي ﷺ لشخص الدليل ، وإسناده هذه المهمة الخطيرة له ، على الرغم من أنه مشرك ، وعلى الرغم من الإغراء المادي الضخم الذي قدمته قريش لمن يدل على محمد ﷺ [٣] ، لدليل على صدق فراسة النبي ﷺ ، وعلى نقاء معدن الرجل المختار لهذه المهمة [٤] .

٩ - عدد أفراد الركب

لقد كان تركيز قريش حين ملاحقة النبي ﷺ وصاحبه على أيِّ ركب يتألف من شخصين ، ولكن حكمة النبي ﷺ وصاحبه جعلت من أفراد الركب أربعة أشخاص ، حيث انضم إليهما الدليل عبد اللّٰه بن أريقط وعامر بن فهيرة [٥] .

وهذا العدد يبعد الشبهة إلى حد كبير عن الركب ؛ لأنه يتكون من أربعة ، بينما التركيز في الغالب على الركب الذي يتكون من اثنين [٦] .

---

(١) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوة ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٤) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٤٤ (بتصرف) .

(٥) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

(٦) انظر : إبراهيم علي أحمد : في السيرة النبوية ، ص ١٦٤ .

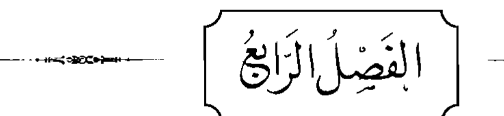





منهج النبي ﷺ في الدعوة
من خلال السيرة الصحيحة



الفترة المكية



خصائص الفترة المكية في مجال التنظيم

المبحث الأول : الدعوة السرية .

المبحث الثاني : تربية الفرد في إطار الجماعة .

المبحث الثالث : إدارة الدعوة .






المبحث الأول (الدعوة السرية)

الاستخفاء بالدعوة

بدأت الدعوة الإسلامية بمكة سرية ، ويحدد ابن إسحاق وابن سعد هذه المرحلة بثلاث سنين [١] . ويحددها أبو نعيم كذلك بثلاث سنين ؛ لا يظهر فيها النبي ﷺ الدعوة إلا للمختصين به ، منهم : خديجة وأبو بكر وعلي وزيد ﷺ وغيرهم ، ثم أعلن الدعوة وصدع بها بأمر اللّٰه نحو عشر سنين [٢] .

ومما يدل على أن الدعوة كانت سرية في بداية الأمر ما نقله ابن إسحاق بأن « أصحاب رسول اللّٰه ﷺ إذا صلُّوا ذهبوا في الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ في شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلُّون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ... » [٣] .

وأخرج مسلم عن أبي أمامة قال : قال عمرو بن عبسة السلمي : « كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا ، فقعدت على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسول اللّٰه ﷺ مستخفيًا ، جُرَءَاءُ عليه قومه ، فتلطفت حتى دخلت عليه مكة ... » [٤] .

وروى جعفر بن أبي شيبة في « تاريخه » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر رضي الله عنه لما أعلن إسلامه قال : « قلت : يا رسول اللّٰه ! ففيم الاختفاء ؟ .. » [٥] .

(*) التنظيم هو : عملية بناء العلاقات بين أجزاء العمل ، ومواقع العمل ، والأفراد ، من خلال قيادة أو سلطة ، بهدف أداء العمل بطريقة جماعية منظمة وفعالة . انظر مدني علاقي : الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية ، ص ١٥٦ .

(١) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٧٤ . وابن سعد : الطبقات ، ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) انظر : أبو نعيم : دلائل النبوة ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٤) أخرجه مسلم في جامعه الصحيح ، كتاب صلاة المسافرين ، باب إسلام عمرو بن عبسة ، رقم ٨٣٢ ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ .

(٥) ابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ٤٨ .

وذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبب نزول الآية الكريمة : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] ما نقله أبو عبيدة عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه : « ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيًا حتى نزلت ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه » [١] .

ومما يدل أيضًا على تكتم المسلمين في أمر دينهم ، في أوائل المرحلة المكية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه : « اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى قومك فأخبرهم ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل » [٢] .

وأخرج البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامعه الصحيح معلقًا بصيغة الجزم قول النبي صلى الله عليه وسلم للمقداد : « فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة » [٣] .

وكان أبو ذر رضي الله عنه يرى نفسه رابع الإسلام [٤] ، كما عبَّر بذلك عمرو بن عبسة عن نفسه [٥] ؛ لأن كلاهما لا يدري من أسلم قبل الآخر ، حيث كانت الدعوة هي السبب في تعارض دعاوى السبق إلى الإسلام ؛ إذ كان يخفى على اللاحق من سبقه إلى الإسلام [٦] .

ورُوي عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : فقلت له - أي للنبي صلى الله عليه وسلم - : فمن معك على هذا ؟ قال : « حرٌّ وعبد » ، قال : ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن معه ، فقلت : إني متبعك ، قال : « إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالي وحال الناس ؟! ولكن ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني ... » [٧] .

ويبدو أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لم يخبره بأسماء سائر من أسلم ، وإنما سمى أبا بكر وبلالًا فقط ؛ حرصًا على سلامة من أسلم من الأذى [٨] .

ويعضد ذلك ما جاء في رواية ابن مسعود رضي الله عنه بقوله : « أول من أظهر إسلامه

---

(١) ابن كثير : التفسير ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ . (٢) ابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ١٧٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الديات ، باب قول اللّه تعالى : ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ ، ج ٨ ، ص ٣٥ .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، ج ٢ ، ص ١٥٥ . والحاكم في المستدرك ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٤ ، ص ١١٢ . وابن سعد في الطبقات ، ج ٤ ، ص ٢١٥ .

(٦) انظر : ابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٧) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب صلاة المسافرين ، باب إسلام عمرو بن عبسة ، رقم ٨٣٢ ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

(٨) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد »[١] .

فقد كان عدد المسلمين أكثر من ذلك ، إلا أن قريشًا لما أظهرت جرأتها على الإسلام واشتدَّ أذاها على المسلمين ، كما يدلُّ عليه قول النبي ﷺ : « ألا ترى حالي وحال الناس ؟ » آثر رسول الله ﷺ إخفاء أسماء الباقين .

ومن الملاحظ إذن أن الانضباط الأمني العالي كان يحكم سلوك النبي ﷺ وأتباعه الأوائل ، الأمر الذي جعل الكثير ممن أسلموا يعتقد كل واحد منهم أنه من السُّبَّق ، كما اتضح ذلك من قول أبي ذر وعمرو بن عبسة ، وقول سعد بن أبي وقاص : « ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام »[٢] .

فهؤلاء قالوا ذلك حسب إطلاعهم ؛ لأن النبي ﷺ كان قد أحاط الدعوة بسياج من الانضباط الأمني ، حَالَ دون معرفة ما كان يجري من التحولات داخل المجتمع المكي ؛ فالدعوة كانت تتحرك ، والناس كانوا يسمعون بها ويتحدثون عنها ، لكن الإحاطة بمن انضوى تحت لوائها ظَلَّ غير معروف ، وهو ما جعل الملأ من قريش لا يُولونها أهمية ويقلقوا منها ويحفزوا لمواجهتها ، إلا بعد فترة من الزمن تمكنت فيها من مدِّ جذورها في أعماق المجتمع[٣] .

وبذلك جاء عمل النبي ﷺ في هذا النطاق منظمًا ومنسقًا في مستوى التحدِّي والطموح معًا ؛ إذ أعدَّ للدعوة الأرضية الصلبة التي ستقف عليها بوثوق وثبات بعد ذلك .

ومن الملاحظ أيضًا : أنه في بعض الأحيان يمكن التداخل بين الدعوة السرية والدعوة العلنية ؛ إذ تفيد رواية إسلام أبي ذر ذلك .

فهذا علي رضي الله عنه يتخذ تدابير اليقظة والحذر ، وهو يمهد الطريق لإدخال أبي ذر على النبي ﷺ ، ولما قابله - عليه الصلاة والسلام - واستمع إلى قوله فأسلم ، قال له : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » ، فقال : والذي نفسي بيده لأصرخن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بإسناد حسن ، ج ١ ، ص ٤٠٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب أصحاب النبي ، باب مناقب سعد ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(٣) انظر : الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد ، فأعلن إسلامه أمام الملأ من قريش ، إذ نادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه [١] .

وهذا يفيد أنه ليس لكل مرحلة من المرحلتين السرية والعلنية معالمها المحددة ، وإنما قد تواكب إحداهما الأخرى تبعًا لما تقتضيه مصلحة الدعوة الناشئة .

اتخاذ دار الأرقم مقرًّا للدعوة

اتخذ الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزًا لدعوته ، يدعو الناس فيها إلى الإسلام ، فأسلم فيها قوم كثير [٢] .

لكن لماذا اختار النبي ﷺ دار الأرقم بالذات ؟

يجيب الشيخ المباركفوري عن هذا السؤال استنتاجًا فيقول :

- « لأن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه ، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم ؛ إذ يستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو ، ولأنه كان فتًى صغيرًا عندما أسلم ، في حدود الست عشرة سنة ؛ إذ إنه في هذه الحالة تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة » [٣] .

- ويُلحظ أن دار الأرقم كانت قرب الصفا ، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبيعية ، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار [٤] .

- كما أنها كانت بمعزل عن أعين قريش ومجالسهم ، ولا يخفى الأهمية الأمنية لهذا الموقع ، فكونها في معزل ؛ يجعلها محاطة بالسرية ، وبعيدة عن مراقبة الملأ ، ولا تحتاج عملية الوصول إليها أو الخروج منها إلى احتياطات معقدة [٥] .

- ولعل تنظيم الدخول والخروج من العوامل المهمة التي ساعدت كذلك على

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ، ج ٤ ، ص ٢٤١ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي ذر ، ج ١٦ ، ص ٣٤ .

(٢) انظر : ابن سعد : الطبقات ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ . وابن عبد البر : الاستيعاب ، ج ١ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) نقلًا عن مهدي رزق اللَّه أحمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٩٥ .

(٤) انظر : مهدي رزق اللَّه : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٩٥ .

(٥) انظر : إبراهيم أحمد علي : في السيرة النبوية ، ص ٣٩ .

الاحتفاظ بسرية المقر [١] وهذا التنظيم الدقيق يظهر لنا من خلال موقفين :

الأول : موقف علي مع أبي ذر رضي الله عنهما حين أخذه إلى دار الأرقم لمقابلة النبي ﷺ ، إذ كان يراقب الأعداء أثناء ذهابه إلى المقر ، وأخبر أبا ذر بأنه إذا رأى شيئًا يريبه غيَّر وجهته وأمره أن يفعل مثله [٢] .

الثاني : موقف أم جميل مع أبي بكر رضي الله عنهما : فعندما أخذت أم جميل وأم الخير أبا بكر إلى دار الأرقم بعد أن آذاه المشركون ، جاء في الرواية : « فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما ، حتى أدخلتاه على رسول اللَّه ﷺ » [٣] .

وكانت الدعوة في المرحلة المكية مهمة كل مسلم ؛ إذ كان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه إلى الإسلام ، فإن استجاب وجَّهه إلى دار الأرقم حيث يلتقي بالنبي ﷺ .

فقد روى ابن سعد في « طبقاته » كيف التقى عمار وصهيب رضي الله عنهما على باب دار الأرقم دون موعد ، وسأل كلٌّ منهما الآخر عن سبب مجيئه ، مما يدل على أن معرفتهما بمكان رسول اللَّه ﷺ كان بتوجيه الذين دعوهما وأعلموهما .

فعن عبيدة بن محمد بن عمار قال : « قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ، ورسول اللَّه ﷺ فيها ، فقلت له : ما تريد ؟ قال لي : ما تريد أنت ؟ فقلت : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه ، قال : وأنا أريد ذلك ، فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام ، ثم مكثنا يومًا على ذلك حتى أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون » [٤] .

وما من شكٍّ في أن المسلمين الأوائل قاموا بدور فعَّال في الدعوة في المرحلة السرية ، مثل أبي بكر الذي جعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ويجالسه ، فاستجاب له عدد من رجالات قريش كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد اللَّه ، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم [٥] .

وقد استمرت دار الأرقم في أداء دورها الفعال في استقبال المسلمين الجدد [٦] ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

(٢) انظر : البخاري : الجامع الصحيح كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ، ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .

(٥) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٦) انظر : الحاكم : المستدرك ، ج ٣ ، ص ٥٠٢ .

حتى إسلام عمر بن الخطاب فيها في ذي الحجة سنة ست من البعثة النبوية [١] .

ومن القرائن الدالة على ذلك : ما أخرجه أبو نعيم في « الدلائل » : أن عمر بن الخطاب حين جاء إلى دار الأرقم وأعلن إسلامه قال للنبي ﷺ يا رسول اللَّه ! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال ﷺ : « بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متُّم وإن حييتم » قال : فقلت : ففيم الاختفاء ! والذي بعثك بالحق لتخرجن ، فخرجنا في صَفَّيْن ، حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر ... حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلى قريش ، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها [٢] .

وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال : « لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر » [٣] .

وروى سعيد بن المسيَّب مرسلًا : « أسلم عمر بعد أربعين رجلًا وعشر نسوة ، فما هو إلا أن أسلم عمر فظهر الإسلام بمكة » [٤] .

فوائد الاستخفاء

لقد كان الاستخفاء في السنوات الأولى من البعثة ينطوي على أكثر من فائدة ومصلحة للمسلمين :

أ - لقد رأى رسول اللَّه ﷺ بتسديد اللَّه وتوفيقه أن الحكمة تقتضي في أول خطوات سير الدعوة أن لا يسرع إلى مواجهة قومه الذين تجذرت فيهم المفاسد الخلقية والاجتماعية ، وأن لا يجهر بتبليغ دعوته سوى الإنذار العام الذي كان تمهيدًا لتهيئة القلوب والأسماع ، وبمثابة إلقاء البذر في الأرض الصالحة رجاء أن تنبت وتثمر، حتى تصل الدعوة هادئة إلى قلوب مستعدة لتقبل الحق ، وإلى عقول مستنيرة بنور الفطرة ، ليعد لها أرضًا صلبة تقف عليها في كفاحها وجهادها .

من ثم آثر الاستسرار بالدعوة ، والاستخفاء بالتبليغ لبعض الوقت [٥] .

---

(١) حكى ابن الجوزي الاتفاق عليه ، انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ج ١ ، ص ٢٧٢ (نقلًا عن صالح الشامي السيرة النبوية ، ص ٢١) .

(٢) أبو نعيم : دلائل النبوة ، رقم ١٩٢ ، ج ١ ، ص ٣١٧ . وابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ٤٨ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .

(٥) محمد صادق عرجون : محمد رسول اللَّه ﷺ ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .

ب - لم يكن الاستخفاء بالدعوة موقفًا سلبيًا لا حركة فيه ، بل كان موقف التأسيس والبناء والإعداد ، والتربية الصبورة الدؤوبة ، تُختار فيه العناصر القوية الصادقة الصلبة لتكون المادة التي يبنى منها المجتمع الإسلامي ؛ قوية في تماسكها ، صادقة في إيمانها ، صلبة في مواقفها ، موحدة الحركة إلى غايتها : فكان هؤلاء قوة للضعفاء والمستضعفين الذين آمنوا على حذر من قومهم أن يفتنوهم في دينهم [١] .

ولذلك يخطئ من ذهب من الباحثين إلى أن الذين دخلوا في دين اللّٰه في مدة الدعوة السرية من السابقين الأولين كانوا جميعًا من المستضعفين والعبيد والفقراء [٢] .

فقد ذكر ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما أسماء وأنساب هؤلاء السابقين الأولين من أبناء الأسر ذات الوضع الاجتماعي المرموق والبيوتات ذات المكانة الرفيعة أمثال : أبي بكر الصدِّيق ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد اللّٰه ، وأبي عبيدة بن الجراح ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم ﷺ[٣] .

ولو لم يكن من آثار الاستخفاء بالدعوة إلا أنها اجتذبت في أول خطواتها إلى ساحة الإيمان أشجع رجلين كانا في قريش ، بهما أعز اللّٰه جل ذكره دينه وأيد نبيه ﷺ ، وهما : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب ؛ لكفاها نجاحًا وتوفيقًا وسدادًا [٤] .

ج - إن قريشًا لما أظهرت عداوتها وصبت غضبها على بعض من أسلم ، كان من واقعية هذا الدين أنه لا يطلب من الناس ما لا يطيقون ، وبما أن الناس ليسوا جميعًا في مستوى واحد في قدرتهم على تحمل الفتنة ؛ فإن الاستخفاء يتيح لبعضهم الأمن ولو إلى حين [٥] .

د - إن آيات القرآن الكريم كانت تنزل تترى ، وفيها التوجيهات الإلهية الكريمة التي تقود الجماعة المسلمة في طريق الحق . إلا أن قريشًا وقفت عقبة في سبيل هذا التبليغ ؛ إذ حكى القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، فلجأ المسلمون إلى

---

(١) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .
(٢) صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٣٤ .
(٣) موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٧٤ - ٧٥ . وابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٤ .
(٤) محمد صادق عرجون : محمد رسول اللّٰه ﷺ ، ج ١ ، ص ٦٠٨ .
(٥) صالح أحمد الشامي : السيرة النبوية ، ص ٢٥ .

أسلوب الاستخفاء في تلك الفترة المبكرة من عمر الدعوة لمواجهة تعنت قريش وصدَّها عن سبيل الله ، حيث نظموا أنفسهم في جماعات صغيرة يلتقون في البيوت على قراءة كلام اللَّه تعالى وحفظه . ومن لا يستطيع الوصول إلى دار الأرقم كانت تصله الآيات مكتوبة ، يأتيه من يتلوها عليه ويعلمه إياها .

فقد جاء في إحدى روايات إسلام عمر ﷺ قوله : « لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب ؟ إنك تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك ، قلت : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت . فرجعت مغضبًا ، وقد كان النبي ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة ، فيكونان معه ، ويصيبان من طعامه ، وقد ضم إلى زوج أختي رجلين ... » [(١)] .

وفي رواية ابن إسحاق : « ... وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن مع زوجها » [(٢)] .

وفي « الطبقات » لابن سعد : « إن خَتَنَكَ وأختك قد صبوَا وتركا الذي أنت عليه ، قال : فمشى عمر ذَامِرًا حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خبَّاب . قال : فلما سمع خبَّاب حِسَّ عمر توارى في البيت ، فدخل عليهما فقال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟ قال : وكانوا يقرأون طه ... » [(٣)] .

هـ - ومن فوائد الاستخفاء : رصد حركة أعداء الدعوة بحيث تتمكن الجماعة من أخذ زمام المبادرة في الوقت المناسب قبل فوات الأوان ، وإبطال ما يسعى الأعداء إلى تنفيذه .

ومثال ذلك : ما فعله نعيم بن عبد اللَّه النحام - وكان كاتمًا إسلامه - فإنه لما رأى عمر بن الخطاب متوشحًا سيفه شك في أمره وارتاب في مقصده ، مما دفعه إلى سؤاله فقال : « أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدًا ، هذا الصابئ الذي فرَّق أمر قريش ، وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبَّ آلهتها ؛ فأقتله ، فقال نعيم : واللَّه لقد غرَّتْك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟! قال :

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

وأي أهل بيتي ؟ قال خَتَنَكَ وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ... » (١) .

الحكمة من سرية الدعوة

لقد كانت الدعوة السرية مرحلة تنظيمية تقتضيها حكمة التدبير في تبليغ الرسالة نظرًا لعدة اعتبارات منها :

١ - التريث ريثما تتكون لبنات قوية المزج ، شديدة التماسك في جو بعيد عن إثارة المعوقات في طريق سير الدعوة ؛ لأن هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي سيعتمد عليها بناء المجتمع الإيماني الجديد في مواجهة قوى الظلم والبغي المتربصة بهذا الدين في صبر لا يعرف الوهن ، وجهاد لا يعرف اليأس .

٢ - نهج المسالمة المؤقتة في البداية ؛ لأن مهاجمة هذا المجتمع الغارق في شروره ومواجهته بضلاله وساق الدعوة لم يستو بعد ، يؤذن بتحريك دوافع المقاومة للدعوة في نفوس المستكبرين ، والدعوة لا تزال في أول خطواتها ، فتتعثر في سيرها ، وهي لا تزال وليدة طرية .

لذلك آثر النبي ﷺ الاستسرار بدعوته وتبليغ رسالته ، حرصًا منه أن يكون سيرها مطردًا وئيدًا هادئًا ، تسير إلى القلوب بخطى ثابتة ، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها في الوقت المناسب (٢) ، بعد أن يؤمن بها عدد من الناس يضحون في سبيله بالغالي والنفيس ، مما يضمن استمرارها وبقاءها .

٣ - إتاحة الفرصة للدعوة حتى تصل إلى مسامع العرب في مواسمهم ومحافلهم وأسواقهم ومضارب منازلهم ، فأتت هذه الخطوة أكلها ، حيث أقبل إلى مكة فريق منهم ، يتحسس أخبارها ، ويتعرف مكانها في خفية وحذر ، حتى إذا بلغوا مأمنها في مقرها (دار الأرقم) أسلموا للّه تعالى ، واتبعوا رسوله ﷺ ، واهتدوا بهديه ، وآمنوا بما جاء به من الحق (٣) .

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢) محمد صادق عرجون : محمد رسول اللّه ﷺ ، ج ١ ، ص ٦٠٥ .

(٣) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ، ج ٤ ، ص ٢٤١ . ومسلم : الجامع الصحيح ، كتاب صلاة المسافرين ، باب إسلام عمرو بن عبسة ، رقم ٨٣٢ ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ .

أهمية القيادة في سير الدعوة

خلال الدعوة السرية كان لا بد من تقسيم العمل بين عناصر الجماعة المسلمة بشكل منظم من أجل نشر الدعوة . ويبدو من رواية ابن عباس رضي الله عنهما أنه عُهد لعلي رضي الله عنه بمهمة رصد الغرباء الذين يأتون للتعرف على حقيقة هذا الدين أو للدخول فيه ، فقد جاء فيها أن أبا ذر رضي الله عنه قدم مكة فأتى المسجد ، فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فرآه عليٌّ فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم قام احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمَرَّ به عليٌّ فقال : أما نَالَ للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث ؛ فعاد عليٌّ على مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلت ، ففعل ، فأخبره ، قال : فإنه حق ، وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه [١] .

وقد ضم النبي ﷺ خباب بن الأرت إلى سعيد بن زيد وزوجته يعلمهما القرآن [٢] .

وفي رواية أخرى : (كان يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة ، فيكونان معه) [٣] .

كما عهد إلى أبي ذر رضي الله عنه بدعوة قومه إلى الإسلام ، فإذا سمع به فليأتي [٤] .

وهكذا لابد للجماعة من قيادة تتولى مسؤولية التنظيم وبرامج التوجيه ، بتحديد الأولويات والمراحل والأهداف ، وتقوم بتعبئة الطاقات ، وتنظيم العلاقات بين أفراد الجماعة ، وتوزيع المسؤوليات أو المهمات ، وتوجيه الكفاءات ، وتنسيق الجهود

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ، ج ٤ ، ص ٢٤١ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ج ٤ ، ص ٥٩ . وقال الحافظ في الفتح : أخرجه الدارقطني من طريق القاسم بن عثمان عن أنس ، ج ٧ ، ص ١٧٦ .

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٤) ابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ١٧٥ .

للسير في خطى ثابتة وحثيثة نحو الهدف المنشود .

ومن أجل ذلك نبّه النبي ﷺ إلى أهمية القيادة ؛ لأن فيها السلامة من الخلاف . وبعدم التأمير يستبد كل فرد برأيه ، فينشأ عن ذلك الاختلاف المفضي إلى النزاع ثم الفشل .. ولذلك شُرع للحد الأدنى في الجماعة وهم ثلاثة أن يؤمِّروا عليهم أحدهم إذا كانوا في سفر .

فعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم » [١] .

وأخرج أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم » [٢] .

وإذا كان الأمر كذلك : فشرعيته لعدد أكثر يسعون لتحقيق هدف أسمى ، هو من باب أولى .

لكن طاعة القيادة مشروطة بالمعروف ، والتزام أوامر الشرع ، لقول النبي ﷺ : « الطاعة في المعروف » [٣] .

إنها طاعة واعية مبصرة لا تسمح للأفراد أن تذوب شخصيتهم في شخصية القيادة ؛ لأن المؤمن يتعلق بالمبدأ لا بالقيادة التي تُسمع وتُطاع بمقدار امتثالها لأوامر اللَّه عز وجل وتعلقها بها .

وتبعًا لذلك تنمو لدى الأفراد قوة الشخصية التي تؤهلهم للاضطلاع بحمل المسؤوليات والتبعات الملقاة عليهم ، وكان الرسول ﷺ يربي هذه الملكة لدى الصحابة بكثرة مشاورتهم ، تعويدًا لهم على التفكير بالمشاكل العامة ، وحرصًا على تربيتهم على الشعور بالمسؤولية ، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه : « لم أر أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللَّه ﷺ » [٤] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٢ ، ص ١٧٧ . وقال الألباني : رجاله ثقات غير ابن لهيعة فإنه سيئ الحفظ . السلسلة الصحيحة ، ج ٣ ، ص ٣١٥ . وله شاهد من حديث أبي داود الذي بعده وهو بسند حسن .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب الجهاد ، رقم ٢٦٠٨ ، ج ٣ ، ص ٣٦ ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ، ج ٣ ، ص ٣١٤ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب سرية عبد اللَّه بن حذافة السهمي ج ٥ ، ص ١٠٧ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) ج ٢١ ص ٩٥ - ٩٦ .

المبحث الثاني تربية الفرد في إطار الجماعة

أهمية الجماعة في بناء صرح الإسلام

يعدُّ « التجمع » حقيقة مهمة لتحقيق هذا الدين في حياة الناس بل إن الإسلام لا يتصور قيامه إلا في جماعة .

ولوجاهة هذا الأمر وأهميته في بناء الدين ، فإن من أولئك السور التي نزلت في المرحلة المكية سورة العصر ، تبيَّن بوضوح أن دعوة الإسلام لا تكون إلا في جماعة ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر : ١- ٣] .

وكان التطبيق العملي لهذا التوجيه القرآني في وقت مبكِّر من الدعوة يوم اتخذ النبي ﷺ دار الأرقم مركزًا لدعوته ، يستقبل فيها المسلمين الجدد ، ويبني في نفوسهم حقيقة الإيمان ويقرئهم ما ينزل عليه من آي الذكر الحكيم .

على أن التواصي بالحق والصبر الذي جاء في سورة العصر ، لا يتصور إلا في جماعة يوصي بعضهم بعضًا ، ويتعاون الجميع في بناء صرح الإسلام .

وقد أكد القرآن الكريم بعد ذلك هذا المعنى في سورة البلد في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ [البلد : ١٧] .

يقول صاحب الظلال في هذا الصدد : « والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة . والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته ؛ درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان ؛ فهي أعضاء متجاوبة الحسِّ ، تشعر جميعًا شعورًا واحدًا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضًا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبِّتُ بعضها بعضًا فلا تتخاذل ، ويُقوِّي بعضها بعضًا فلا تنهزم ... وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة » (١) .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٩١٣ .

ومصطلح « الصحبة » يندرج تحت هذا الأصل ؛ إذ كانت علاقة الصحابة بالنبي ﷺ علاقة ملازمة ومصاحبة . طابعها التأسي والاقتداء به في القول والعمل ، ومتابعته في السراء والضراء ، والمنشط والمكره واليسر والعسر .

وقد استطاع النبي ﷺ بهذا النمط من التربية أن يصل إلى مدى بعيد يربط الفرد بالجماعة ، بحيث لم يعد الفرد يتحسس آلام الآخرين فحسب ، بل يعيشها واقعًا حيًّا .

فعندما رجع عثمان بن مظعون ﷺ من الهجرة الأولى إلى الحبشة ، رأى ما فيه أصحاب رسول اللّه ﷺ من البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمان الوليد بن المغيرة ، فقال : واللّه إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في اللّه ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي . فمشى إلى الوليد بن المغيرة فردَّ عليه جواره [1] .

إنه لم يطق أن يتميز على إخوانه ممن هم يلقون العنت والأذى من المشركين . إنها التربية التي جعلت من المسلمين جسدًا واحدًا .

ومن الأمثلة التي سجلتها السيرة في ميدان التكافل والتآزر بين عناصر الجماعة المسلمة : ما بذله أبو بكر الصديق ﷺ في تحرير الأرقاء المسلمين إنقاذًا لهم من العذاب الذي مورس عليهم ببشاعة ، فأعتق بلالًا ، وعامر بن فهيرة ، وأم عبيس ، وزنيرة ، والنهدية وابنتها ، وجارية بني مؤمل ، وغيرهم من الرقيق [2] .

وأنفق بسبب ذلك مالًا كثيرًا حتى عاتبه والده أبو قحافة . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل : ١٧، ١٨] . حتى قال ابن كثير بأن بعض المفسرين حكى الإجماع بأن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ[3] .

إنه في ظل التآزر والانضباط والشعور بالمسؤولية ، تجمعت حول النبي ﷺ طلائع المؤمنين الذين آمنوا به ، حيث جمع بينهم شعور قلبي واحد يمكن وصفه بالتطلع إلى هدف مشترك يرقبه الجميع ، ويسعون إليه ، وهو التمكين لدين اللّه في الأرض .

وهذا الشعور الجماعي هو الذي سينقلهم فيما بعد نقلة أخرى نحو مرحلة التميز التي تُوصف بها الجماعات بوصف الأمم أو الشعوب .

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة ، ج ١ ، ص ٣٩١ ، والطبراني في المعجم الكبير ، رقم ٨٣١٦ ، ج ٩ ، ص ٢٤ . والبيهقي في الدلائل ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ١، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) ابن كثير : التفسير ج ٤ ، ص ٥٢١ .

وجوب التجمع شرعًا

ولما كان وجود الفرد في الجماعة أمرًا ضروريًّا ، ولا يتم شيء من المعاني والمواقف المذكورة إلا في إطار الجماعة ، رغَّب الرسول ﷺ فيها وحثَّ عليها ، بل وأمر بها .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية [(١)] فقال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ مقامي فيكم فقال : « استوصوا بأصحابي خيرًا ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشوا الكذب ، حتى إن الرجل ليبتدئ بالشهادة قبل أن يُسألها ، فمن أراد منكم بحبوحة الجنة ؛ فليلزم الجماعة ؛ فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ... » [(٢)] .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التي بعدها كفارة لما بينهما » قال : « والجمعة إلى الجمعة ، والشهر إلى الشهر - يعني رمضان إلى رمضان - كفارة لما بينهما » ، قال : ثم قال بعد ذلك : « إلا من ثلاث » - قال : فعرفت أن ذلك الأمر حدث - « إلا من الإشراك باللَّه ، ونكث الصفقة ، وترك السنة » . قال : « أمَّا نكث الصفقة : أن تبايع رجلًا ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك ، وأما ترك السنة : فالخروج من الجماعة » [(٣)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يد اللَّه مع الجماعة » [(٤)] .

عقد الموالاة والترابط بين عناصر الجماعة المسلمة

ولا يتم معنى الجماعة إلا بالمفهوم الذي طبقه الرسول ﷺ مع أصحابه ، حيث ألزمه اللَّه ﷻ في مكة بالمؤمنين وألزمهم به ، وجعل ولاءه وولاءهم للَّه ، وخصَّهم وحدهم دون غيرهم بمحبته ورضاه ، وأخذ يغرس في نفوسهم طاعة اللَّه ورسوله ، والاجتماع على ذلك ، ومحبة المؤمنين ونصرتهم ، وبغض الكفر والشرك وأهله .

---

(١) الجولان حاليًا .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة رقم ٢٢٥٤ ، ج ٣ ، ص ٣١٥ ، وقال : حديث حسن صحيح . والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) رواه أحمد في المسند ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ . وصححه أحمد شاكر في الطبعة المحققة ج ١٢ ، ص ٩٨ - ١٠١ . وأخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه وقال الذهبي : على شرط مسلم ولا أعرف له علَّة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب الفتن ، رقم ٢٢٥٦ ، ج ٣ ، ص ٣١٦ ، وابن أبي عاصم في السنة ، رقم ٨١ ، ج ١ ، ص ٤٠ . وقال المحقق الشيخ الألباني : حديث صحيح .

وهنا نشأت وشيجة جديدة في نفوس الجماعة المؤمنة وهي رابطة العقيدة ، وبدأ يقر في نفوسهم أن هذه هي الرابطة الحقيقية التي تنتظمهم وترصُّ صفوفهم ، وأخذ كل منهم يحس نحو أخيه المسلم برباط من نوع جديد ، إنه يحبه كنفسه ، ويذكّره إذا نسي ، ويوقظه إذا غفل ، ويدفعه إذا أبطأ .

وموقع الفرد في هذه الجماعة لبنة أساسية في بنائها ، وخليَّة يمدُّها ويستمد منها .

خلية إذا انفصلت عن جسمها ماتت ، وإذا ظلت متصلة به ظلت تستمد ، والجسم تتكامل وظائفه وتتسق بشتى خلاياه ، ويضيره أن يفقد واحدة منها [١] .

ولتربية الروح الجماعية عند المؤمنين ، وصفهم الرسول ﷺ بالجسد الواحد في قوله عليه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين في تراحمهم ، وتوادهم ، وتعاطفهم ؛ كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » [٢] .

وشبههم عليه الصلاة والسلام بالبنيان في تفاعلهم وتكاملهم وتناسقهم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، ثم شبك بين أصابعه » [٣] .

ولقد ربَّى رسول اللَّه ﷺ أصحابه على هذه الروح الجماعية ، فكان كل واحد منهم جنديًّا مرابطًا ينتظر الأوامر من قائده ، ولا يقدم على عمل إلا بعد استئذانه ، كما فعل من بايع من الأنصار في بيعة العقبة الثانية قالوا : إن شئت لنميلنَّ على أهل منًى بأسيافنا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « لم نُؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » [٤] . فهم ينتظرون الأوامر من النبي ﷺ ، وهو ينتظرها من اللَّه ﷻ .

وخلاصة القول : إن الانسجام العميق بين الفرد والجماعة والارتباط الوثيق بين القيادة والقاعدة في هذه المرحلة ، يبرز الاتصال الفعَّال الذي يربط بين قنوات النظام الداخلي والخارجي للجماعة ، مع وضوح الأهداف المطلوب تحقيقها عاجلًا وآجلًا من كل فرد يعمل لهذا النظام على اختلاف مستواه .

---

(١) محمد أمين المصري : المسؤولية ، ص ٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ،ج ٧ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٤٥ .

كما يوضح فنَّ وقدرة القائد وبراعته العظيمة على السير الصحيح بمن تحت أمرته ، وهدايتهم وتوجيههم لما في صالحهم ، مع إشاعة روح الحب والودِّ والرضا والصبر والتفاني في العمل حتى يتحقق الهدف المنشود .

* * *

المبحث الثالث إدارة الدعوة

بنشأة الدعوة الإسلامية في مكة ، نشأ معها ما يمكن أن يطلق عليه اصطلاحًا « إدارة الدعوة » ، حيث كان لهذه الدعوة هدف محدَّد ، وهو : نشر التوحيد ، وعبادة اللّٰه ، وتخليص الناس من الشرك .

وكان هناك جهاز قائم على تنفيذ هذا الهدف ، وهم صحابة رسول اللّٰه ﷺ الذين آمنوا به وصدَّقوه ، وتولى النبي ﷺ هذا الجهاز وتنظيمه ، ووضع له الخطة المناسبة للوصول إلى الهدف . وكان له مقر يجتمع فيه مع أصحابه ، حيث كانت دار الأرقم عند الصفا أول مقر للدعوة الإسلامية (١) .

وقد اهتم النبي ﷺ منذ اللحظة الأولى من دعوته بالتنظيم ، فبدأ بدعوة أقاربه (٢) ، وخاصة أصحابه (٣) ، ثم أنذر عشيرته الأقربين (٤) ، ثم اتجه إلى أقرب المدن من مكة وهي الطائف ودعا أهلها إلى الإسلام (٥) ، ثم عرض نفسه على القبائل في الأسواق ومواسم الحج (٦) .

تنظيم شؤون الجماعة المؤمنة

إن المتتبع لسيرة الرسول ﷺ في المرحلة المكية ، يلاحظ اهتمامه برعاية شؤون

(١) فرناس البنا : التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية - عهد رسول اللّٰه ﷺ - ج ١ ، ص ١٧٤ .
(٢) انظر الحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ١٨٣ . وقال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ، ورجال أحمد ثقات ، ج ٩ ، ص ١٠٣ .
(٣) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي : « لو كنت متخذًا خليلًا » ج ٥ ، ص ١٩٢ .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ج ٦ ، ص ١٦ - ١٧ . ومسلم : كتاب الإيمان (بشرح النووي) ، باب : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ج ٣ ، ص ٨٠ - ٨١ .
(٥) رواه موسى بن عقبة في المغازي ، ص ٨٦ . وأحمد في المسند ، وقال المحقق الشيخ الساعاتي : سنده جيد ، ج ٢٠ ، ص ٢٤٣ .
(٦) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رجاله ثقات ، ج ٦ ص ٣٥ . وأبو داود في السنن ، كتاب السنة ، رقم ٤٧٣٤ ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

الجماعة المؤمنة الناشئة وتنظيم أمورها وتدبير مصالحها ، **ومن ذلك** :

١ - لما اكتشف المشركون بعض الصحابة في شعاب مكة وهم يصلون مستخفين فناكروهم واصطدموا معهم ، أمر النبي ﷺ أصحابه بالاجتماع في دار الأرقم لكي يعبدوا الله بعيدًا عن أنظار قريش ويتعلموا ما ينزل من القرآن الكريم (١) .

٢ - حين أسلم بعض الغرباء كعمرو بن عبسة وأبي ذر الغفاري أمرهم النبي ﷺ بالرجوع إلى قومهم ، لينشروا الإسلام في قبائلهم من ناحية ، وليحافظوا على أنفسهم من كفار قريش الذين يفتنون الضعيف والغريب الذي لا ناصر له (٢) .

٣ - حرص عليه الصلاة والسلام على متابعة شؤون أصحابه بتقوية هممهم وتثبيتهم عند حلول الشدائد والمحن بهم ، فكان يزور الذين يعذبون منهم في أماكن تعذيبهم ، فيواسيهم بالصبر والثبات ، ويبشرهم بالجنة ، كما في قوله لآل ياسر وهم يعذبون : « صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » (٣) .

٤ - كان عليه الصلاة والسلام يقوم بزيارة منتظمة لأبي بكر رضي الله عنه كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها : « لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشيًّا » (٤) .

ولا شك أن زيارته المتكررة ما هي إلا لأغراض الدعوة ، لا لمجرد الزيارة فقط ، بدليل أنه ﷺ لم يفعل ذلك في المدينة (٥) .

٥ - وفي العام التالي على لقاء وفد الخزرج ، حضر إلى الموسم اثني عشر رجلًا من الأوس والخزرج ، فالتقوا بالنبي ﷺ وبايعوه بيعة العقبة الأولى (٦) .

(١) رواه ابن هشام في السيرة : ج ١ ، ص ٢٧٥ . والحاكم في المستدرك ، ج ٣ ، ص ٥٠٢ .

(٢) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام أبي ذر ، ج ٤ ، ص ٢٤١ . ومسلم في الجامع الصحيح ، كتاب صلاة المسافرين ، باب إسلام عمرو بن عبسة ، رقم ٨٣٢ ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ . وابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ١٧٥ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، ج ٩ ، ص ٢٩٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٥) علي العلياني : أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ، ص ٧٥ .

(٦) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب وفود الأنصار وبيعة العقبة ، ج ٤ ، ص ٢٥١ . ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الحدود باب الحدود كفارات لأهلها ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

ومن اللافت للنظر أن النبي ﷺ اهتم بتنظيم أمر هذه الجماعة التي بايعته ، فأرسل معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم تعاليم الإسلام ، ويفقههم في الدين (١) .

٦ - ولما انتشر الإسلام في المدينة ، قدم وفد الأنصار في موسم الحج ، فبايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية ، وكانوا سبعين رجلًا (٢) .

ولم يترك النبي ﷺ هذا الوفد بلا تنظيم ، بل طبق عليهم قاعدة تنظيمية تعدُّ الآن من أحدث القواعد التنظيمية في علم التنظيم ، وهي قاعدة : « نطاق الإشراف » ؛ ويقصد به أن هناك حدًّا لعدد المرؤوسين الذين يستطيع الرئيس أن يديرهم بكفائة ، فإن زاد العدد عن هذا الحدِّ تنتج حالة من الإشراف غير الكافي ، وإذا قلَّ العدد تنتج حالة من الإشراف الشديد أكثر مما يجب (٣) .

وخلال هذه البيعة الثانية قال النبي ﷺ للأنصار : « أخرجوا لي اثني عشر نقيبًا منكم يكونون على قومهم » ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا منهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس (٤) .

وكانت وظيفة النقيب الإنابة عن العشيرة في عقد وحلِّ الأمور ، وأنه بمثابة العريف والكفيل والضامن عليهم (٥) ؛ فقد ذُكر أنَّ أم عمارة رضي الله عنها قالت : رجعنا من بيعة العقبة إلى رحالنا ، فلقينا رجلين من قومنا وهما : سليط بن عمرو وأبو داود المازني ، يريدان أن يحضرا البيعة ، فوجدا القوم قد بايعوه - أي النبي ﷺ - فبايعا بعد ذلك أسعد بن زرارة ، وكان رأس النقباء (٦) .

---

(١) موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٩٠ . وابن كثير : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢ ، عن ابن إسحاق بسند حسن مرسل .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦٢٥ . والبيهقي في السنن ، ورجاله ثقات ، ج ٩ ، ص ٩ وقال الحافظ في الفتح : رواه أحمد بإسناد حسن ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ .

(٣) L . Urwick : The Elements Of Administration , P . 52 نقلًا عن فرناس البنا : التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٤٤ - ٤٥ . ورواه الطبري في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

(٥) الطبري : جامع البيان ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .

(٦) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ٤ ، ص ٥٩ .

وكان ذلك تطبيقًا عمليًا لمهام النقيب الرئيسة التي توخاها رسول الله ﷺ حين نقبهم بأن يكونوا كفلاء على قومهم .

الاستفادة من خبرات الآخرين واتخاذ التدابير اللازمة

تظهر الخبرة القيادية التنظيمية للنبي ﷺ في قدرته على توظيف جهود الأتباع وغيرهم ، وتوجيهها لمصلحة الدعوة ضمن نطاق الاستفادة من خبرتهم وتخصصهم ، وكذلك اتخاذ التدابير الأمنية والاحتياطات التي من شأنها حماية الدعوة ، حيث لا يخلو موقف من مواقفه العملية من الإجراءات المنظمة التي شكلت - فعلًا - أحد عوامل نجاحه في مواجهة المصاعب والتحديات الكثيفة التي اعترضت سبيل دعوته .

ومن أمثلة الاستفادة من التخصص والخبرة : تقديمه عليه الصلاة والسلام أبا بكر رضي الله عنه في اتصالاته الدعوية الاستكشافية للقبائل المختلفة ، لعلمه بأنساب العرب وأحوالهم [١] ؛ ليمهد له الدخول معهم في الحوار بعد ذلك عن علم بهم وبأوضاعهم [٢] .

وفي الهجرة إلى المدينة استعان عليه الصلاة والسلام بخبرة مشرك على مغالبة المطاردين وتضليلهم بسلوك طريق غير معروف ، ونظر في هذا الاختيار إلى الخبرة والكفاءة ؛ ولم يهتم لكون الرجل مشركًا ، فيما يتصل بالمسائل الفنية .

أما العناية بالتدابير الأمنية المنظمة : فهي من الكثرة والدقة بمكان الأمر الذي يجعلني أقتصر على عينات ولقطات منها لتأكيد الدور الحاسم للنظام في نجاح أية خطة . **ومن ذلك** :

- خروج النبي ﷺ إلى الطائف راجلًا مع مولاه زيد ، حتى لا يعلم كفار قريش بوجهته فيعملون على معاكسته [٣] .

- عندما كان عليه الصلاة والسلام يتصل بالقبائل في مواسم الحج لطلب النصرة ، كان لحرصه على أن لا يعلم به أحد فيفسد عمله ، كثيرًا ما يخرج في ظلام الليل [٤] .

- عندما التقى عليه الصلاة والسلام بوفد الأنصار في السنة الثالثة عشرة من البعثة

---

(١) ابن الأثير : منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، ص ٢٨٦ .

(٢) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٤١٣ .

(٣) المباركفوري الرحيق المختوم ، ص ١٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، نقلًا عن النجيب أبادي : تاريخ إسلام ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

لمبايعته على الحماية والنصرة ، اتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتى لا يعلم به أحد :

– **فكان أول إجراء أمني اتخذه** : هو ضبط الموعد مكانًا ، وزمانًا ، بدقة متناهية ؛ فكان المكان : « شعب العقبة الأيمن » .

والزمان : أوسط أيام التشريق ؛ حيث يكون الناس في زحمة الانشغال بتهيئة أنفسهم للعودة إلى ديارهم .

والوقت : نهاية الثلث الأول من الليل حين يستسلم الناس للنوم (١) .

– **وثاني إجراء** : هو الكتمان الصارم للأمر ، وخروج المجتمعين مثنى وأفرادًا مستخفين ، دون انتظار غائب ، أو إيقاظ نائم (٢) .

– **وثالث إجراء** : حضوره بعد اكتمال العدد ، ووضعه عليه الصلاة والسلام حراسة في مداخل الشعب (٣) .

– **ورابع إجراء** : هو طلبه عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز في كلامه (٤) وأن يخفض صوته (٥) ، حتى لا يطول اللقاء ولا يشعر به أحد (٦) .

كما أرسى عليه الصلاة والسلام في هذا قواعد مهمة في أصول التنظيم مثل :

– قاعدة إشراك الجماعة في اختيار أفضلها للقيام بشؤونها ، حين طلب من الأنصار أن يعينوا منهم اثني عشر نقيبًا (٧) .

– قاعدة تحديد الصلاحيات وضبط المسؤوليات بدقة ووضوح ، كما يدل على ذلك تحميل النقباء مسؤولية رعاية شؤون الدعوة وقومهم على السواء ، حيث خاطبهم النبي ﷺ بقوله : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء » (٨) .

– قاعدة الإشراف والمراقبة لضمان فاعلية إنجاز العمل ، وتلافي التسويف والإهمال ،

(١) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٩ . وابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٢١ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٢١ .
(٣) نقلًا عن الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٤١٧ .
(٤) ابن كثير : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .
(٥) في رواية ابن سعد : العباس هو الذي طلب منهم أن يخفضوا أصواتهم ج ١ ، ص ٢٢١ .
(٦) الطيب برغوث : منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص ٤١٧ .
(٧) أحمد : المسند ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ، ج ٦ ، ص ٤٤ – ٤٥ .
(٨) ابن هشام : السيرة عن ابن إسحاق بسند حسن مرسل ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

وهو ما يتمثل في عمل القيادة ؛ لقوله ﷺ : « وأنا كفيل على قومي » يعني المسلمين [١] .

التخصص وتقسيم العمل

لما كانت هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة مَعْلمًا بارزًا وحدًّا فاصلًا بين عهدين - إذ كانت منطلقًا لتأسيس وبناء الدولة الإسلامية - كان للتنظيم أثر كبير في نجاح خطة الهجرة ، حيث قسم الرسول ﷺ العمل بين أصحابه ومن ساعده في تنفيذ إجراءات هذه الهجرة .

فعندما أُذن له بالخروج من مكة ، استخلف عليًّا على فراشه للتمويه على المشركين [٢] ، واصطحب معه أبو بكر ، فجهز راحلتين لسفرهما [٣] . ثم لحقا بغار في جبل ثور [٤] جنوب مكة لتضليل المطاردين ؛ لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن النبي ﷺ ناحية الشمال ، جهة المدينة ، فمكثا فيه ثلاث ليالٍ [٥] حتى يخف الطلب عنهما .

وكان عبد اللَّه بن أبي بكر يتسمع أقوال قريش فيهما نهارًا ليبلغهما بها مساءً في غار ثور ، ثم يرجع إلى مكة في السحر ليصبح مع قريش ، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها : « ... يبيت عندهما عبد اللَّه بن أبي بكر ، وهو غلام شاب لقن ، فيدَّلِج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرًا يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ... » [٦] .

وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - يقوم بمهمة أخرى : « ويرعى عليهما ... منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رِسْلٍ - وهو لبن منحتهما ؟ - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ... » [٧] .

ولم تكن هذه مهمته فحسب ، بل تقلد عملًا آخر وهو : « إذا غدا عبد اللَّه

---

(١) ابن هشام: السيرة ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٢) انظر أحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) ، ج ٢٠ ، ص ٢٧٩ ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، ج٣ ،ص ٤ . وحسنه الحافظ في الفتح ، ج ٧ ، ص ٢٣٦ .

(٣) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) انظر البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

ابن أبي بكر من الغار إلى مكة اتَّبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفِّى عليه - أي يمسح أثره » (١) .

كما استأجرا رجلًا من بني الدِّيل هاديًا خريتًا (٢) ، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال (٣) .

وقامت عائشة وأسماء بنتا أبي بكر ﷺ بإعداد سفرتيهما وجهزتاهما أحث الجهاز ، وشقت أسماء نطاقها فربطت بقطعة منه على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين (٤) .

وعلى هذا النحو ، فإن التنظيم بهذه الدقة والعمق - في هذه المرحلة من مراحل الدعوة - قد حقق تقدُّمًا واضحًا في تقريره وتنفيذه لمبدأ التخصص وتقسيم العمل .

وإذا كان التنظيم هو تنسيق الطاقات وتنظيم الجهود لجماعة من الناس ، بحيث يمكِّنهم ذلك من تحقيق هدف معين ، فقد ظهر ذلك جليًّا في أحداث الهجرة التي تُمثل درسًا في غاية التنسيق لإحكام خطة الهجرة ، وتوزيع العمل والمسؤوليات على الأفراد حسب تخصصهم دون فوضى ، وعمل الاحتياطات اللازمة لكل حادث قد يصادف تلك الرحلة .

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(٢) هو الدليل الماهر العارف بمسالك طرق الصحراء للاستعانة بخبرته في معرفة الطريق . ابن منظور : اللسان ، ج ١ ، ص ٨٠٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه .








الباب الثاني

الفترة المدنية

الفصل الأول

خصائص الفترة المدنية في مجال المعرفة






تمهيد

إن فضيلة الإسلام الكبرى أنه فتح للمسلمين أبواب المعرفة على مصراعيها لينهلوا من العلوم النافعة في ميدان العلم الفسيح ، فيرسوا لَبِنَاتِ المجتمع القوي المتحضر من ناحية ، ثم ليندفعوا في طريق التجديد والتطوير والارتقاء ؛ وهي عملية ترتبط بوسائل الحياة ودوراتها المتصلة وأساليبها المتجددة من ناحية ثانية .

* * *

المبحث الأول الحركة العلمية

الحث على التعلم وعلو منزلة العلماء

حض القرآن الكريم المسلمين على التعلم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، بل جعل النبي ﷺ طلب العلم فريضة على كل مسلم (١) .

كما أشاد القرآن الكريم بمنزلة العلماء ؛ قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وهكذا عطف سبحانه وتعالى عبارة ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ على الملائكة ، بل وعلى نفسه ﷻ ، مما يوحي بأهمية شأن أهل العلم .

وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه اللَّه مالًا فسُلِّطَ على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها » (٢) .

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ، ج ١ ، ص ٨ – ٩ . وقال محقق الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة – الشيخ محمد لطفي الصباغ : قال المزي : هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن ، ص ١٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة ج ١ ، ص ٢٦ .

وروي من طريق عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه » [١] .

ولأهمية العلم جاء الإعلان عن وظائف الرسالة في قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وقد جمعت الآية للرسول ﷺ ثلاث وظائف رسالية هي : تزكية النفوس بأمهات الأخلاق ، وتعليم قواعد الدين وأصول الأحكام ، وبيان صادق الأخبار . وهي وظائف لا يمكن أن يؤديها على وجهها الأتم في أمة إلا رجل حاز واستكمل جوانب العلم [٢] .

دور المسجد النبوي في الحركة العلمية

لقد كان أول عمل قام به النبي ﷺ حين دخل المدينة هو بناء المسجد [٣] . وفي هذا العمل دلالة على ما يكتسبه المسجد من أهمية خاصة في حياة المسلمين ؛ إذ لم يكن دوره مقتصرًا على العبادة فحسب ، بل كان مركزًا لمختلف نشاطات المجتمع الإسلامي الدينية والدنيوية .

ومن أبرز هذه الأنشطة التي ارتبطت بالمسجد ارتباطًا وثيقًا : التعليم ؛ إذ كان من مهام المسجد واستعمالاته الرئيسة أن يتلقى فيه المسلمون العلم ويتفقهون في دينهم . ومردُّ ذلك أن أبواب المسجد مفتوحة للجميع ، وليس بمقدور أحد أن يصد الناس عنه ، بخلاف مؤسسات التعليم الأخرى التي تكون قاصرة على فئة معينة من الناس .

وهذا ما جعل المسجد يلعب دورًا كبيرًا في مهمة التعليم ، إذ روي عن النبي ﷺ قوله : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم ، إلَّا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .
(٢) علي التركي : دروس موضوعية من السيرة ، ص ١٠١ (بتصرف) .
(٣) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

اللَّه فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله ؛ لم يسرع به نسبه » [١] .

ويؤكد هذا الحديث الشريف بصورة جلية على عناصر ثلاثة هي قوام التعليم عند المسلمين :

أ - فضل التماس العلم وتدارس كتاب اللَّه .

ب - أن يكون التدارس في جماعة من المسلمين .

ج - أن يكون المكان هو المسجد .

ولهذا يمكن القول بأن الحديث قد وضع القواعد الأساسية للتعليم الإسلامي وأرسى أسس الحركة العلمية التي تتركز في بيوت اللَّه وهي المساجد [٢] .

وقد أكد هذا المعنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من دخل مسجدنا هذا ليعلَم خيرًا أو ليعلِّمه ؛ كان كالمجاهد في سبيل اللَّه ، ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له » [٣] . وفي رواية ابن ماجه : « من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلَّمه ويُعلِّمُهُ ؛ فهو بمنزلة المجاهد في سبيل اللَّه ، ومن جاء لغير ذلك ، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره » [٤] .

التعليم الجماعي والتعليم الانفرادي

هناك أدلة صريحة على قدم حلقات التعليم في العهد المدني ، ومن ذلك ما روى عن أبي واقد الليثي أن رسول اللَّه ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول اللَّه ﷺ وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول اللَّه ﷺ ؛ فأمَّا أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا . فلما فرغ رسول اللَّه ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فآوى إلى اللَّه فآواه اللَّه ، وأما الآخر

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن رقم ٢٢٥ ، ج ١ ، ص ٨٢ . والدارمي في السنن جـ ١ ، ص ٨٥ . وله أصل في الجامع الصحيح لمسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن رقم ٢٧٠٠ ، ج ٩ ص ٢٧ .

(٢) سامي الصفار : لمحات عن نشوء الحركة العلمية في الحجاز في صدر الإسلام ص ٢٨ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج ٢ ، ص ٤١٨ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن ، رقم ٢٢٧ ، ج ١ ، ص ٨٢ - ٨٣ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٦١٨٤ .

فاستحيا فاستحيا اللَّه منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض اللَّه عنه » (١) .

وفي الحديث استحباب الأدب في مجالس العلم ، وفضل سدِّ الحلقة .

وفيه فضل ملازمة حلق العلم ، وجلوس العالم في المسجد للتوجيه والتعليم (٢) .

ومن باب الحض على طلب العلم بشكل جماعي وبثّه بين الناس : ما روي ، أن النبي ﷺ مرَّ بمجلسين في مسجده فقال : « كلاهما على خير ، وأحدهما أفضل من صاحبه ؛ أما هؤلاء : فيدعون اللَّه ﷻ ويرغبون إليه ، فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء : فيتعلَّمون الفقه والعلم ويعلِّمون الجاهل ؛ فهم أفضل ، وإنما بعثت معلِّمًا ، فجلس معهم » (٣) .

وروى أبو داود والخطيب عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : « جلست مع عصابة من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري ، وقارئ يقرأ علينا ، فنحن نستمع إلى كتاب اللَّه ؛ إذ جاء رسول اللَّه ﷺ ... فجلس وسطنا ليعدل نفسه بنا ، ثم أشار بيده فاستدارت الحلقة ، وبرزت وجوههم له ، فمن كان أكثرهم علمًا وأسرعهم فهمًا ؛ فإنه يقربه ويدنيه ويجعله مما يليه » (٤) .

وبهذا أرسى رسول اللَّه ﷺ قاعدة تعليمية مهمة ، وهي تقديم ذوي الفهم وكثرة العلم وتقريبهم ، ربما لغرض اتخاذهم دعاة ومعلمين .

وقد كان بعض الصحابة اشتهروا بحفظ القرآن والتفقه فيه ، وتصدوا لتعليمه للناس بأمر من رسول اللَّه ﷺ ؛ فعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد اللَّه بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب » (٥) .

وإلى جانب التعليم الجماعي كان هناك التعليم الانفرادي : وهي حالات بعض

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، ج ١ ص ٢٤ .

(٢) ابن حجر الفتح ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن ، رقم ٢٢٩ ، ج ١ ص ٨٣ ، والدارمي في السنن ، ج ١ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ، ج ١ ص ٦٠ ، وله شاهد من حديث الترمذي : « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » في باب : ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، وإسناده حسن ، رقم ٢٦٨٣ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب العلم ، رقم ٣٦٦٦ ، ج ٣ ، ص ٣٢٣ ، والخطيب في الفقيه والمتفقه ، ٢٨٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ج ٦ ، ص ١٠٢ .

أصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين أخذوا القرآن عنه منفردين .

ويُروى في هذا الباب عن ابن مسعود ﷺ أنه تعلم بعض سور القرآن عن النبي ﷺ منفردًا ؛ حيث ذكر ذلك عن نفسه : « لقد أخذت من فيِّ رسول اللَّه ﷺ سبعين سورة » [١] . وفي مقام آخر ذكر سورة الليل ثم قال : « أقرأنيها النبي ﷺ فاه إلى فيِ » [٢] .

وكان عثمان بن أبي العاص في وفد ثقيف يأتي النبي ﷺ عندما ينام أصحابه وقت الهاجرة يستفسره في مسائل الدين ويستقرئه القرآن [٣] .

وكان النبي ﷺ بأمر من اللَّه ﷻ يعلِّم أُبي بن كعب القرآن ؛ إذ قال له : « إن اللَّه أمرني أن أقرئك القرآن » ، قال : اللَّه سماني لك ؟! قال : « نعم » ، قال : وقد ذُكرت عند رب العالمين ؟! قال : « نعم » ، فذرفت عيناه [٤] .

كما علَّم النبي ﷺ بريدة بن الحصيب صدرًا من سورة مريم ، وقدم بريدة بن الحصيب بعد أن مضت بدر وأحد على رسول اللَّه ﷺ فتعلَّم بقيتها [٥] .

اهتمام النبي ﷺ بنشر العلم بين المسلمين

لقد تجلى حرص النبي ﷺ على تعليم المسلمين واضحًا في اهتمامه بتعليمهم الكتابة والقراءة ، واتخذ خطوة عملية في هذا الصدد على نطاق الجماعة ؛ إذ عرض على أسرى بدر أن يفتدي من يرغب منه نفسه بتعليم عشرة أطفال من المسلمين القراءة والكتابة [٦] .

وعندما جاء الحكم بن سعيد بن العاص قبل ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ مهاجرًا غيَّر اسمه إلى عبد اللَّه ، وكان مُجيدًا للكتابة ، فعهد إليه النبي ﷺ بتعليم الناس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ج ٦ ، ص ١٠٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب عبد اللَّه بن مسعود ، ج ٤ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات ج ٥ ، ص ٥٠٨ ، وابن القيم في زاد المعاد ، ج ٣ ص ٥٩٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، سورة : ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾ - [البينة] - ٩٨ ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٦) رواه ابن سعد في الطبقات ج ٢ ص ٢٢ ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي ج ٢ ، ص ١٤٠ .

في المدينة الكتابة ، وقُتل يوم بدر [١] .

وتحكي رواية أخرى أن المهاجر الذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالنبي ﷺ ، ثم يوجهه بعد ذلك إلى من يكفله ويعلِّمه ؛ حيث روي عن عُبادة بن الصامت قال : « كان رسول اللَّه ﷺ يُشْغَل ، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول اللَّه ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلِّمه القرآن ، فدفع إلي رسول اللَّه ﷺ رجلًا ، وكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت ، فكنت أقرئه القرآن » [٢] .

وكان غالب الذين يستقرُّون في الصُّفَّة [٣] مؤقتًا من المهاجرين الجدد ، وبعضهم ربما كان حديث عهد بالإسلام ، فكان بحاجة إلى تعلُّم القرآن وأحكام الشرع . ولذا كانوا يقضون جلَّ وقتهم في تدارس القرآن الكريم ، يقوم بذلك الرسول ﷺ أو من يوكل إليه ذلك . كما كان ﷺ يكثر مجالستهم ويرشدهم ويذكرهم ، ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته ؛ فعن عمرو بن أوس أن أباه أوس ﷺ أخبره قال : « إنا لقعود عند رسول اللَّه ﷺ في الصُّفَّةِ ، وهو يقصُّ علينا ويُذكِّرنا » [٤] .

وروى عقبة بن عامر الجهني : « خرج علينا رسول اللَّه ﷺ يومًا ، ونحن في الصفة ، فقال « أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان ، أو إلى العقيق فيأتي بناقتين كَوْمَاوَيْن [٥] في غير إثم ولا قطع رحم ؟ » ، فقلنا : يا رسول اللَّه ! نحبُّ ذلك ، قال : « أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلِّم ، أو يُقْرأ آيتين من كتاب اللَّه خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل ؟ » [٦] .

وكان للتوجيه النبوي أثر بالغ على أهل الصفة ، فانقطعوا للعلم ، واعتكفوا في المسجد للعبادة ، وألفوا حياة الزهد ، فكانوا في خلوتهم يصلون ويقْرؤون القرآن ويتدارسون آياته ، ويتعلم بعضهم الكتابة ، حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت ﷺ لأنه كان يعلِّمهم القرآن والكتابة [٧] .

---

(١) ابن حجر : الإصابة ج ١ ص ٣٤٣ .
(٢) أخرجه أحمد في المسند ج ٥ ص ٣٢٤ .
(٣) مكان في مؤخرة المسجد النبوي مظلل أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى لهم ولا أهل . ابن حجر الفتح ج ٦ ص ٥٩٥ .
(٤) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ٨ .
(٥) الكوماء من الإبل : العظيمة السنام ، ابن منظور : اللسان ، ج ٣ ، ص ٣١٥ .
(٦) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن وتعلمه ج ٦ ، ص ٨٩ .
(٧) انظر أحمد : المسند ج ٥ ص ٣١٥ .

واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي ﷺ مثل أبي هريرة ﷺ الذي عرف بكثرة تحديثه ، وحذيفة بن اليمان ﷺ صاحب أحاديث الفتن .

وهكذا بفضل الله ﷻ ثم سياسة الرسول ﷺ الحكيمة في تعليم المسلمين القرآن انتشرت القراءة والكتابة في المدينة انتشارًا واسعًا في وقت قصير جدًّا ، بعد أن كانت الكتابة في العرب قليلة (١) فقد بلغ عدد الذين كتبوا للرسول ﷺ وحده ما يناهز أربعين كاتبًا ، فضلًا عن كُتَّاب الصدقات والرسائل والعهود (٢) . كما كان قراء الصحابة كثيرين جدًّا (٣) ، في حين أنه جاء الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلًا فقط يعرفون الكتابة (٤) .

وبعد أن توطد الإسلام في المدينة ، شرع النبي ﷺ في إيفاد المعلمين إلى قبائل العرب خارج المدينة ؛ فأوفد بعثًا من سبعين رجلًا من أصحابه يقال لهم : « القُرَّاء » إلى قبيلة بني عامر بنجد ليدعوهم إلى الإسلام ويفقهوهم في الدين ، فعرض لهم حيان من بني سُليم : رَعْل وذَكْوان عند بئر معونة فقتلوهم (٥) .

وبعد فتحه لمكة ؛ عهد النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل ، وكان من أعلم أصحابه بالحلال والحرام (٦) ، أن يقيم في مكة ليعلِّم أهلها القرآن ويفقههم في الدين (٧) . كما عهد إليه وإلى أبي موسى الأشعري ﵄ في فترة لاحقة بمهمة مماثلة في اليمن (٨) .

بل ذُكر في رواية مفصلة لابن إسحاق أن مهمة نشر الإسلام وتعليم الناس في اليمن أُنيطت بجماعة أميرها معاذ بن جبل ؛ حيث ورد في نص الخطاب الذي بعثه النبي ﷺ إلى زُرعة ذي يزن صاحب قبيلة حمير : « أما بعد ، فإن رسول الله

---

(١) انظر ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ص ٤٩٨ ، ٥٢٢ .

(٢) انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٣) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ، ج ٦ ، ص ٩٨ . وانظر الفتح ، ج ٩ ص ١٢ ، ٥٢ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٦٠ .

(٥) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان ، ج ٥ ، ص ٤١ . وابن شهاب الزهري : المغازي ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٦) انظر الترمذي في السنن رقم ٣٨٧٩ ، ج ٥ ص ٣٣٠ ، وعزاه الحافظ في الفتح إلى ابن حبان ، وقال : إسناده صحيح ، إلا أن الحفاظ قالوا : إن الصواب في أوله الإرسال ، والموصول ما اقتصر عليه البخاري ، والله أعلم ج ٧ ص ٩٣ .

(٧) انظر موسى بن عقبة في المغازي ص ٢٩٢ ، وابن سعد في الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ .

(٨) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ج ٥ ، ص ١٠٧ .

محمدًا النبي ﷺ أرسل إلى زُرعة ذي يزن أن إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا : معاذ بن جبل ، وعَبْد بن زيد ، ومالك بن عُبادة ، وعُقبة بن نمر ، ومالك بن مُرَّة ، وأصحابهم ... وإن أميرهم معاذ بن جبل ... » [١] .

ويعضد ذلك : أن رجلًا واحدًا أو اثنين لا يتمكنان من نشر الإسلام وتعليم القرآن في إقليم كامل من أقاليم جزيرة العرب كاليمن ؛ علاوة على أن النبي ﷺ كان قد أرسل قرابة السبعين من القراء لقبيلة بني عامر بنجد ليُعلِّموهم أمور الدين كما ذُكر آنفًا ، وأرسل نفرًا ستة إلى عَضَل والقارة وبني لحيان من هُذيل ليفقهوهم في الدين ، ويقرؤوهم القرآن ، ويعلموهم شرائع الإسلام [٢] .

إقبال الصحابة على العلم

لا شك أن المنزلة الرفيعة التي منحها النبي ﷺ للعلماء والمتعلمين حفزت الصحابة ﷺ إلى طلب العلم طلبًا موصولًا في إقبالهم الدؤوب على طلبه ، وحرصهم الشديد على التفقه في الدين .

فهذا أبو هريرة ﷺ كان أحفظ من روى الحديث في عصره [٣] ؛ إذ لازم النبي ﷺ ولم يفارقه ، فحفظ ما لم يحفظه غيره ، ويرد على من يقول إنه كان من المكثرين في الحديث بقوله : « إنَّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وإنَّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وإنَّ أبا هريرة كان يلزم رسول اللَّه ﷺ بشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون » [٤] .

وروى الإمام البخاري في « التاريخ » والإمام البيهقي في « المدخل » من حديث محمد بن عمارة بن حزم : « أنه قعد في مجلس فيه مشيخة من صحابة رسول اللَّه ﷺ ، بضعة عشر رجلًا ، فجعل أبو هريرة ﷺ يحدِّثهم عن رسول اللَّه ﷺ بالحديث ، فلا يعرفه بعضهم ، فيراجعون فيه حتى يعرفوه ، ثم يحدثهم بذلك مرارًا ، فتيقنت يومئذ أن أبا هريرة أحفظ الناس » [٥] .

---

(١) ابن هشام : السيرة ج ٤ ص ٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٣) ابن حجر الفتح ، ج ١ ، ص ٢١٤ .
(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب حفظ العلم ج ١ ص ٣٨ .
(٥) نقلًا عن الحافظ في الفتح ج ١ ص ٢١٤ .

وقد بلغ من اهتمام الصحابة ﷺ بالعلم أنَّ المشتغل بتجارته يحرص أن لا يفوته شيء من العلم بالتناوب مع غيره في حضور مجلس رسول اللَّه ﷺ يومًا بيوم ؛ فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : « كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد – وهي من عوالي المدينة – وكنَّا نتناوب النزول على رسول اللَّه ﷺ ؛ ينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » (١) .

وكان بعض الصحابة ﷺ يجمعون بين ممارسة أعمالهم اليومية في النهار والتفرُّغ في الليل للعلم والعبادة حرصًا على ألَّا تفوتهم فضيلة مذاكرة العلم .

وعن هؤلاء يقول أنس بن مالك ﷺ : « كنا نسميهم القُرَّاء ... كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل » (٢) .

ويمدُّنا الواقدي بمعلومات مفصلة في هذا الشأن بقوله : « كان من الأنصار سبعون رجلًا شببة يسمون القراء ؛ كانوا إذا أمسوا أتوا ناحيةً من المدينة فتدارسوا وصلُّوا ، حتى إذا كان وجاه الصبح ، استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب .. » (٣) .

وكان عبد اللَّه بن مسعود ﷺ من أبرز القراء وأشهرهم ، ومن أعلم الناس بكتاب اللَّه ؛ لتتبعه الوحي ، وعلمه بأسباب النزول ، وحفظه وكثرة إطلاعه ، حتى قال عن نفسه : « واللَّه الذي لا إله غيره ، ما أُنزلت سورة من كتاب اللَّه إلا أنا أعلم أين أُنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب اللَّه إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت ، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب اللَّه تبلغه الإبل لركبت إليه » (٤) .

ولقد كان من حرص الصحابة ﷺ على ملازمة النبي ﷺ : أن بعضهم ترك الأهل والولد وزهد في الدنيا من أجل طلب العلم . والقصة التالية التي يرويها ابن سيرين رحمه الله ليست إلا مثلًا واحدًا من أمثلة كثيرة ؛ قال : « أقطع الرسول ﷺ رجلًا يقال له : سُلَيط – وكان يُذكر من فضله – أرضًا ، قال : فكان يخرج إلى تلك الأرض فيقيم بها الأيام ثم يرجع ، فيقال له : نزل بعدك كذا وكذا على رسول اللَّه ﷺ ،

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم ج ١ ص ٣١ .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان ، ج ٥ ص ٤٢ .
(٣) الواقدي : المغازي ، ج ١ ص ٣٤٧ .
(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ، ج ٦ ص ١٠٢ .

قال : فانطلق إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه ! إن هذه الأرض التي أقطعتني قد أشغلتني عنك ، فاقبلها مني ، فلا حاجة لي في شيء يشغلني عنك »[١] .

دور النساء في الحركة العلمية

لم يكن تلقِّي العلم في العهد المدني قاصرًا على الرجال فحسب ، بل كان للنساء سهم وافر فيه ؛ إِذ كان لهنَّ يوم خاص يتلقَّين فيه تعاليم دينهنَّ من رسول اللّه ﷺ[٢] .

كما حثَّ النبي ﷺ على تعليم النساء في البيوت على أيدي محارمهن ومن يتولى أمرهن ؛ فقال : « ثلاثة لهم أجران : ... ورجل كانت عنده أمة فأدَّبها فأحسن تأديبها ، وعلَّمها فأحسن تعليمها ... »[٣] .

ثم وضع الإِمام البخاري بعد هذا الحديث بابًا عنوانه : « باب عظة الإِمام النساء وتعليمهن »[٤] ، فبيَّن الحافظ ابن حجر العسقلاني أن مراده هو التنبيه إلى أن تعليم النساء ليس مختصًّا بأهلهن ، بل ذلك مندوب للإِمام الأعظم ومن ينوب عنه[٥] . وفي ذلك إشارة إلى مسؤولية الدولة في تعليم النساء وفق ضوابط الشريعة .

وقد حرصت النساء على حضور صلاة الصبح مع الجماعة في المسجد النبوي ، حتى لا يفوتهنَّ تلقي العلم من النبي ﷺ ، مغتنمات انسدال ستور الظلام ، حيث ينصرفن متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس[٦] .

وذكر ابن سعد في « الطبقات » أسماء بعض النساء اللواتي كن يحضرن الصلاة مع رسول اللّه ﷺ[٧] .

وقد شمل التعليم عددًا من الصحابيات من أمثال : عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهي من أبرز نساء صدر الإسلام علمًا ، ومن أفقههن وأحسنهن رأيًا[٨] ؛ حيث

---

(١) أبو عبيد : الأموال ، رقم ٦٧٧ ، ص ٢٨٦ .
(٢) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب هل يجعل للنساء يومًا على حدة في العلم ، ج ١ ص ٣٤ .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب تعليم الرجل أمته وأهله ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣ .
(٥) ابن حجر : الفتح ج ١ ص ١٩٢ .
(٦) انظر : مالك : الموطأ رقم ٤ ص ١٠ .
(٧) ابن سعد : الطبقات ج ٨ ص ٢٩٦ .
(٨) الحاكم : المستدرك ج ٤ ص ١١ . والذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

كان الصحابة ﷺ أجمعين يسألونها عن الفرائض [١] ، واستدركت على بعضهم في أحاديث نقلوها خطأً ، وهي مخالفة لظاهر القرآن [٢] .

ولها في رواية الحديث حظ وافر ، ولا أدل على ذلك من مسندها الذي يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث ، اتفق لها البخاري ومسلم على مائةٍ وأربعة وسبعين حديثًا ، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين ، وانفرد مسلم بتسعة وستين [٣] .

كما كانت ذات باع في الشعر ، وربما روت القصيدة الطويلة ستين بيتًا أو المائة البيت [٤] .

واشتهرت أخريات من الصحابيات بالعلم من أمثال : نسيبة بنت كعب (أم عطية الأنصارية) التي تُعدُّ من فقهاء الصحابة ، وحديثها مخرج في الكتب الستة [٥] .

ومنهن : أم الفضل بنت الحارث ، أخرج لها أصحاب الكتب الستة ، ولها في مسند بقي بن مَخْلد ثلاثون حديثًا [٦] .

ومن النساء اللاتي اشتهرن برواية الحديث ، وكنَّ موضع اعتماد مؤرخي السيرة أمثال عروة والزهري : عمرة بنت عبد الرحمن التي تربت في حِجْر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فحفظت عنها الكثير من الحديث ، وكانت ثقة علامة فقيهة ، حتى كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يسألها على جلال قدره في العلم . وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يدوِّن له مروياتها [٧] .

روى أيوب بن سويد بسنده إلى الزهري أن القاسم بن محمد قال له - وهو غلام حدث - : يا غلام ! أراك تحرص على طلب العلم ، أفلا أدلك على وعائه ؟ قلت : بلى ، قال : عليك بعمرة ؛ فإنها كانت في حجر عائشة ، قال : فأتيتها فوجدتها بحرًا لا ينزف [٨] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات ج ٨ ، ص ٦٦ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٢ ، ص ٤٣٥ .
(٢) انظر : البخاري : كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : يعذب الميت ببكاء أهله عليه ، ج ٢ ص ٨١ ، وكتاب التفسير ، تفسير سورة النجم ، رقم ٥٣ ج ٦ ص ٥٠ . والحاكم : المستدرك ج ٤ ص ١٠٠ .
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٣٩ .
(٤) انظر ابن سعد الطبقات ج ٨ ص ٧٢ - ٧٣ . وابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٣٥ .
(٥) انظر الذهبي السير ج ٢ ص ٣١٨ .
(٦) انظر الذهبي السير ج ٢ ص ٣١٥ .
(٧) انظر العجلي : تاريخ الثقات ص ٥٢١ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج ١٢ ص ٤٢٨ - ٤٣٩ .
(٨) الذهبي السير ج ٤ ص ٥٠٨ .

ومنهن من برزت في الخطابة مثل : أسماء بنت يزيد الأنصارية ؛ تلقت العلم عن رسول اللَّه ﷺ وروت عنه جملة من الأحاديث ، وكانت خطيبة النساء [١] .

ومن عقلائهن وذات الرأي منهن : أم الدرداء العالمة ، وهي خيرة بنت حدرد السلمي ؛ روت عن النبي ﷺ وعن زوجها أبي الدرداء عويمر بن مالك ، وروى عنها جماعة من التابعين [٢] .

رورى ابن عبد البر بسنده إلى عون بن عبد اللَّه قال : لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنا عندها ، فقلنا : أمللناك يا أم الدرداء ؟ فقالت : ما أمللتموني ، لقد طلبت العبادة بالمدينة فما وجدت أشهى لنفسي من مذاكرة العلم [٣] .

مراعاة المؤهل العلمي في إسناد المسؤولية

كانت معرفة القرآن الكريم وسنن الإسلام من أهم المؤهلات التي يختار الرسول ﷺ على ضوئها أصحابه لتكليفهم بالمسؤوليات المختلفة ؛ فلقد أرسل عددًا من أصحابه الذين تميزوا بالفطنة والمعرفة إلى بعض القبائل والبلدان دعاة وأمراء وعمالًا على الصدقات ، ومن هؤلاء : أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل اللذان توجها إلى اليمن وأمرهما النبي ﷺ أن يعلِّما الناس القرآن [٤] ، وكان كل واحد منهما على مخلاف ، واليمن مخلافان [٥] .

وروي في هذا الشأن عن الأسود بن يزيد قال : « أتانا معاذ بن جبل باليمن معلِّمًا وأميرًا ، فسألناه عن رجل توفي وترك ابنته وأخته : فأعطى الابنة النصف ، والأخت النصف » [٦] .

ويبدو أن النبي ﷺ فوض إلى معاذ ﷺ تنظيم التعليم باليمن وحضرموت ؛ ففي

---

(١) انظر ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٦ ص ١٨ . والذهبي : السير ، ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) انظر ابن عبد البر : الاستيعاب ج ٤ ص ٤٣٠ ، وابن حجر : الإصابة ج ٤ ، ص ٢٨٨ ، والذهبي : السير ، ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٣) نقلًا عن الكتاني : التراتيب الإدارية ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) انظر أحمد في مسنده ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ج ٥ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الفرائض ، باب ميراث البنات ج ٨ ص ٦ .

« تاريخ الطبري » : « وكان معاذ معلمًا ينتقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت » [١] .

وأورد الجعدي في « طبقات فقهاء اليمن » : « وكان معاذ بن جبل معلمًا لأهل البلدين ، اليمن ، وحضرموت ، وأمره النبي ﷺ ، فكان معاذ ينتقل في عمالة ، من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت » [٢] .

وبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ إلى قبيلة همدان يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلموا على يديه [٣] . كما بعث أبا عبيدة بن الجراح ﷺ إلى نجران [٤] ؛ ففي حديث أنس : أن أهل اليمن قدموا على النبي ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلًا يعلّمنا السنّة والإسلام ، فأخذ بيد أبي عبيدة ، وقال : « هذا أمين هذه الأمة » [٥] .

وكان سالم مولى أبي حذيفة - وهو من الموالي - يؤمُّ المهاجرين الذين قدموا المدينة ، وفيهم عمر بن الخطاب وأبو سلمة بن عبد الأسد [٦] ، وهو من الأربعة الذين دلَّ عليهم النبي ﷺ ليعلّموا الناس القرآن [٧] .

ولم يكن تفضيل قرّاء القرآن مقصورًا على الأحياء فحسب ، بل إنَّ أموات القرّاء يفضَّلون على غيرهم [٨] ؛ فقد روي من طريق جابر بن عبد اللّه ﷺ قال : إن رسول اللّه ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد ، ثم يقول : « أيهم أكثر أخذًا للقرآن ؟ » ، فإذا أشير له إلى أحد قدَّمه في اللَّحد [٩] .

وكان النبي ﷺ يختار أمراءه من القبائل ، ممن يقرأون القرآن ويعرفون السنة

---

(١) الطبري : التاريخ ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) الجعدي : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨ .

(٣) رواه البيهقي في الدلائل ، ج ٥ ، ص ٣٩٦ ، والمحب الطبري في الرياض النضرة ، ج ٤ ص ٢٢٣ ، وأصل الخبر في الصحيح انظر : البخاري : كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ج ٥ ص ١١٠ .

(٤) انظر البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب أبي عبيدة عامر بن الجراح ج ٤ ، ص ٢١٦ .

(٥) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح ج ١٥ ص ١٩٢ .

(٦) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأذان ، باب إمامة العبد والمولى ، ج ١ ص ١٧٠ .

(٧) انظر البخاري في كتاب الفضائل ، باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة ، ج ٤ ص ٢١٨ .

(٨) عبد العزيز الهلابي : الحركة الثقافية في الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين ص ٤ .

(٩) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد ج ٢ ص ٩٣ .

ويتفقهون في الدين ، فيقدمهم على قومهم ، ويستعملهم عليهم ؛ فلقد أمَّر عثمان ابن أبي العاص على ثقيف رغم صغر سنِّه ؛ لأنه كان أحرصهم على تعلُّم القرآن والتفقه في الدين [١] .

كما استعمل فَروة بن مُسَيك المُرادي على قبيلة مُراد وزُبيد ومَذحج كلِّها [٢] .

* * *

(١) انظر ابن سعد في الطبقات ج ٥ ص ٥٠٨ ، وابن ماجه في السنن ، رقم ٩٨٧ ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير حكيم بن حكيم بن عباد وقد وثق ، ج ٩ ص ٣٧١ .

(٢) ابن هشام : السيرة ج ٤ ص ٢٥١ .

المبحث الثاني العلوم التي عني بها المسلمون

لقد كانت العلوم التي طرقها المسلمون في عصر النبوة مذاكرة وتعليمًا - سواءً أكان ذلك في المساجد أو في خارجها - هي علوم : القرآن ، والحديث ، والمغازي ، والشعر ، والأنساب ، والكتابة .

١ - القرآن الكريم

لقد كان القرآن الكريم هو أساس التعليم ؛ لاشتماله على تعاليم الإسلام التي تنظم حياة المسلمين في شؤون الدين والدنيا .

ومن المعلوم أن تعليم القرآن الكريم كان قد بدأ في تاريخ مبكر جدًّا ، وذلك بعد بيعة العقبة الأولى ؛ حين أوفد النبي ﷺ مصعب بن عمير ﵁ إلى المدينة ليقرأ أهلها القرآن ويعلمهم أحكام الشريعة ، وكان يُدعى : المقرئ [١] .

ويروي ابن شَبَّة والواقدي في حديثيهما عن هجرة ابن أم مكتوم ﵁ أنه قدم المدينة مهاجرًا بعد بدر فنزل « دار القراء » وهي دار مخرمة بن نوفل [٢] .

وهذا الأمر يدل على شيئين : أولهما : أن القراء قد أصبحوا في وقت مبكر - أي بعد بدر بيسير - طبقة معروفة .

وثانيهما : أن لهؤلاء القراء دار خاصة بهم [٣] .

وقد برز في الإقراء أربعة من الصحابة هم : أُبي بن كعب ، وعبد اللَّه بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ﵃ ؛ حيث أمر النبي ﷺ بالأخذ عنهم [٤] .

وفي هذا دلالة على شهادة الرسول ﷺ لهؤلاء النفر من الصحابة بالعلم

---

(١) انظر موسى بن عقبة : المغازي ص ٨٩ - ٩٠ ، وابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ٤٢ .
(٢) انظر ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
(٣) سامي الصقار : لمحات عن نشوء الحركة العلمية في الحجاز ، ص ٤٦ .
(٤) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ج ٦ ص ١٠٢ .

والرسوخ فيه ، وأنهم أهل لتعليم غيرهم من المسلمين القرآن .

ومن الثابت أن النبي ﷺ هو الذي كان يبين للناس تأويل القرآن الكريم ، إذ كان يفسر ما نزل من القرآن الكريم [١] .

وكان - عليه الصلاة والسلام - إمَّا أن يبتدر الصحابة بتفسير آية ، أو يسأله الصحابة عن المعنى المراد فيجيبهم [٢] .

ومن أمثلة ذكر الآية ثم تفسيرها : ما رواه مسلم بن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ؛ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ... » [٣] .

ومن أمثلة أن يسأله الصحابة عن المعنى المراد فيجيبهم : ما أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنَّ رجلًا من أهل مصر سأله عن هذه الآية ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، قال : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول اللَّه ﷺ فقال : « ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت : هي الرؤية الصالحة يراها المسلم ، أو تُرى له » [٤] .

وبتوجيه من النبي ﷺ تعاهد الصحابة رضي الله عنهم القرآن الكريم بالدرس والمذاكرة [٥] ، واهتموا بمعرفة قراءاته وتفاسيره ومعانيه [٦] . كما جمعه بعضهم على عهد رسول اللَّه ﷺ كعبادة بن الصامت الخزرجي [٧] . وكان أحق الناس بالإمامة أقرأهم لكتاب اللَّه [٨] .

٢ - السنن

وإلى جانب تعلُّم القرآن الكريم عُني المسلمون بمعرفة سنة النبي ﷺ ؛ إذ هي المصدر الثاني بعد القرآن في التشريع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

---

(١) انظر السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٨٤ .
(٢) مساعد الطيار : مصادر التفسير (التفسير بالسنَّة) مجلة البيان ، عدد ٩٦ ص ٢١ .
(٣) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه رقم ١٩١٧ ، ج ٨ ص ٧٣ .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب الرؤيا ، وقال : حديث حسن ، رقم ٢٣٧٥ ج ٣ ص ٣٦٤ .
(٥) انظر ابن حجر : الإصابة ج ٢ ص ٧ ، ٣٦ .
(٦) انظر الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١ ص ١١ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٧ .
(٧) انظر ابن حجر : الإصابة ج ٢ ص ٢٦٠ . (٨) انظر البخاري في كتاب المغازي ج ٥ ص ٩٦ .

ولقول النبي ﷺ : « إني أوتيت القرآن ومثله معه » (١) .

وقد حرص الصحابة ﷺ أشدَّ الحرص على ملازمة النبي ﷺ للتعلم منه ، والتأدب بآدابه والاهتداء به .

وكان من أحرص الصحابة على حديث رسول الله ﷺ أبو هريرة ﷺ ، لا من ناحية التحصيل والاستفسار فحسب ؛ بل من ناحية الحفظ أيضًا .

أما من جهة السؤال : فقد سأل يومًا النبي ﷺ عن أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ؛ لما رأيت من حرصك على الحديث ... » (٢) .

ومن جهة الحفظ : فقد اشتكى إلى النبي ﷺ كثرة نسيانه الحديث ، فقال له النبي ﷺ : « ابسط رداءك » ، فبسطته ، قال : فغرف بيده ثم قال : « ضمه » ، فضممته ، فما نسيتُ شيئًا بعده (٣) .

وفيما يتعلق بتدوين الحديث وكتابته : فلقد نهى النبي ﷺ عن كتابة السنن في بادئ الأمر خشية اختلاطها بالقرآن الكريم الذي لم يكن قد جمع بعد ، وكذلك خشية انشغال المسلمين بالحديث عن القرآن وهم حديثو عهد به (٤) .

ثم أذن - عليه الصلاة والسلام - بعد ذلك بكتابة الحديث لبعض أصحابه المتقنين للكتابة ، مثل : عبد اللّه بن عمرو الذي استأذن في ذلك فأذن له . كما أذن لرجل من أهل اليمن حين استكتبه ، فقال : « اكتبوا لأبي فلان » (٥) .

وكان عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ من أحرص الصحابة على تقييد السنن ، ومن المعتنين بجمع حديث رسول اللّه ﷺ وكتابته .

وقد شهد له أبو هريرة ﷺ أنه كان من المكثرين مثله ؛ فيما رواه وهب بن منبه عن أخيه قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني ، إلا ما كان من عبد اللّه بن عمرو ؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب » (٦) .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج ٦ ص ٨ ، وأبو داود في السنن ، كتاب السُّنة ، رقم ٤٦٠٤ ج ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث ، ج ١ ص ٣٣ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب حفظ العلم ج ١ ص ٨٨ .

(٤) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص ٣٨٦ . وانظر كذلك ابن حجر : الفتح ، ج ١ ص ٢٠٨ .

(٥ ، ٦) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب كتابة العلم ج ١ ص ٣٦ .

ويُحدِّث عبد اللَّه بن عمرو ﵄ عن نفسه فيقول : « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللَّه ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ ، ورسول اللَّه ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا ؟! فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول اللَّه ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : « اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق » [١] .

وأشار الإمام الخطابي إلى أن النهي عن الكتابة إنما شُرع كراهة أن يكتب شيء مع القرآن في صحيفة واحدة ، أو يجمع بينهما ، تعظيمًا للقرآن وتنزيهًا له أن يُسوَّى بينه وبين كلام غيره [٢] .

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستدلال بجواز الكتابة أقوى ، وأن أحاديث السماح بالكتابة نسخت أحاديث النهي عنها .

ويتعيَّن ذلك بعد أن رسخت معرفة الصحابة بالقرآن الكريم ، فلم يُخش خلطهم له بسواه ، وممن قال بذلك : ابن قتيبة الدينوري والخطابي ، وأومأ إليه البخاري في جامعه الصحيح [٣] .

٣ - المغازي

لقد كان الحديث عن مغازي رسول اللَّه ﷺ يحتلُّ قيمة علمية كبيرة عند المسلمين؛ إذ تأتي في المرتبة الثالثة بعد القرآن الكريم والسنة الشريفة .

والمغازي تكوَّن جانبًا كبيرًا من سيرة النبي ﷺ ؛ لأنها تمت تحت قيادته أو بأمر منه ، ونزل في معظمها قرآن يُتلى إلى يوم القيامة .

وقد كان الصحابة ﷺ على علم دقيق وواسع بالمغازي ؛ لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها ، وكانت محبتهم للرسول ﷺ ، وتعلقهم به ، ورغبتهم في اتِّباعه ، وأخذهم بسنَّته في الأحكام ، سببًا في ذيوع أخبار السيرة ومذاكرتهم فيها

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن ج ١ ص ١٢٥ ، والخطيب في تقييد العلم ص ٨٠ - ٨١ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج ٤ ص ٤٥ .

(٢) انظر الخطابي : غريب الحديث ج ١ ص ٦٣٢ .

(٣) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث (نقلًا عن أكرم العمري : بحوث في السنن ص ٢٩١) والخطابي : أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، باب كتابة العلم ، ج ١ ص ٢١٦ ، وابن حجر : الفتح ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ .

وحفظهم لها ، فهي التطبيق العملي لأحكام الدين [١] .

وقد اشتهر عدد منهم باهتمامهم الكبير بحقل المغازي ؛ منهم : صهيب الرومي ، وجابر بن عبد الله ، والبراء بن عازب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وسهل بن أبي حثمة ، وسعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي ﷺ أجمعين .

فكان صهيب ﷺ - وقد شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع النبي ﷺ - يقول : « هلمُّوا نحدثكم من مغازينا ... » [٢] .

ومثل صهيب ، جابر ﷺ ؛ شهد بيعة العقبة الثانية وبيعة الرضوان ، كان له اهتمام خاص برواية المغازي ، خصوصًا تلك التي شارك فيها ؛ إذ يقول عن نفسه : « لم أشهد بدرًا ولا أحدًا ، منعني أبي ، فلما قتل ؛ لم أتخلف عن غزوة » [٣] . وفي رواية أخرى عنه : « غزوت مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة » [٤] .

وله روايات كثيرة عن المغازي النبوية ذكرتها كتب الحديث والسير والتراجم [٥] .

كما اهتم بأخبار المغازي : البراء بن عازب ﷺ ؛ يذكر عن نفسه أنه شهد مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة [٦] .

وهو الذي روى عن أبي بكر ﷺ حديث الهجرة مع النبي ﷺ [٧] وله مرويات كثيرة عن المغازي مبثوثة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد [٨] .

---

(١) أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ١ ص ٥٣ . (٢) رواه ابن سعد في الطبقات ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب عدد غزوات النبي ﷺ ، رقم ١٨١٣ ، ج ٦ ص ٤٣٤ . وموسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٩٤ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٩١ .

(٥) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، ج ٥ ص ٣٠ ، ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الزهد والرقائق ، باب حديث جابر الطويل ، ج ١٨ ، ص ١٣٦ . وأحمد المسند ج ٣ ص ٣٢٢ ، ٣٢٩ . وعبد الرزاق : المصنف ج ٥ ، ص ٣٦٤ . وموسى بن عقبة : المغازي ص ١٩٤ ، وابن الأثير : أسد الغابة ج ١ ص ٣٠٧ . وابن حجر : الإصابة ج ١ ص ٢١٤ .

(٦) ابن سعد : الطبقات ج ٤ ص ٣٦٨ . وقال محقق السير للذهبي : إسناده صحيح ج ٣ ص ١٩٥ .

(٧) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم ج ٤ ص ١٨٩ . ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الزهد ، باب في حديث الهجرة ، ج ١٨ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٨) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي رقم ٣٩٨٦ . ومسلم : الجامع الصحيح ، كتاب المساجد ، رقم ٥٢٥ ، والترمذي كتاب السير رقم ١٥٩٨ ، وأبو داود : كتاب الجهاد ، رقم ٢٦٦٢ . والحاكم : المستدرك ج ٢ ص ٢٩٦ ، وأحمد : المسند ج ١ ص ٢ - ٣ .

ومن الصحابة الذين اهتموا بالمغازي : سهل بن أبي حثمة ﷺ ؛ شهد المشاهد كلها إلا بدرًا ، وهو من أهل بيعة الرضوان [1] . كتب شيئًا من سيرة النبي ﷺ [2] ، وبقيت بعض المعلومات التي جمعها لدى حفيده محمد بن يحيى ، وعنه أخذ الواقدي .

ومنهم سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي الذي بقيت بعض المعلومات التي جمعها عن السيرة في بعض المصادر . وقد اعتمد عليها ابنه شُرَحْبيل في كتاباته [3] .

ولما كانت المغازي تعتمد على الرواية ولقاء الرواة شخصيًّا ، فلم يكن أنسب من المسجد لعقد هذه اللقاءات ومذاكرة المغازي والحديث عنها [4] .

٤ - الشعر

لقد حدَّد الإسلام منهجًا أخلاقيًّا للشعراء في الدفاع عن الدين ، وإبراز المآثر الصالحات ، وفي جهاد أعداء المسلمين بالكلمة ، وردِّ كيد المفترين . كما حارب منهج الغاوين ، لما فيه من انفعالات لا ضابط لها ، وأحلام موهومة تشغل صاحبها عن الحقيقة : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧] .

ولما نزلت هذه الآيات من أواخر سورة الشعراء بالمدينة ، صار في نفوس الشعراء المسلمين حرج من قول الشعر ، فقال كعب بن مالك الأنصاري للنبي ﷺ : إن اللَّه قد أنزل في الشعر ما أنزل ، قال : « إن المؤمن يجاهد بنفسه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنما يرمون فيهم به نضح النَّبل » وفي رواية أخرى : « لكأنما ترمونهم به نضح النَّبل » [5] .

وقد كان النبي ﷺ يؤيد الشعر الذي يدعو إلى الفضيلة والقيم الحميدة ، وكان

(١) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٤٨ .

(٢) انظر : البخاري : الجامع الصحيح كتاب الديات ، باب القسامة ج ١٢ ص ٢٢٩ . والطبري : التاريخ ج٢ ص ٤٠١ ، ج ٣ ص ٣٥ ، ٥٣ ، ١٧٣ . وابن حجر : التهذيب ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٣) انظر : الطبري : التاريخ ، ج ١ ص ١١٤ . وابن حجر : الإصابة ج ٢ ص ٤٤ وتهذيب التهذيب ج ٤ ، ص ٣٢٢ .

(٤) سامي الصقار : لمحات عن نشوء الحركة العلمية في الحجاز ص ٥١ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ج ٦ ص ٣٨٧. وعبد الرزاق في المصنف ، باب الشعر والرجز ، ج ١١ ص ٢٦٣ ، وقال محقق السير الذهبي - الشيخ شعيب الأرناؤوط : سنده صحيح ، ج ٢ ص ٥٢٥ .

يقول : « إن من الشعر حكمة » (١) وكان يمدح الشعر الذي يعبر عن الحقيقة ولو كان جاهليًا حيث قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل » (٢) .

وبالمقابل كان يذم الشعر الذي يثير الأحقاد والفتن ، ويدعو إلى التهتك والخلاعة ؛ حيث قال في هذا الصنف من الشعراء : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا » (٣) .

وقد كان دور الشعر والشعراء في التصدي لأعداء الدعوة الإسلامية بارزًا عظيمًا ؛ وذلك بعد أن أصبح للمسلمين قوة ومنعة بعد هجرتهم إلى المدينة ، مما أضفى - بلا ريب - على دور الشعر أهمية خاصة ، أهّلت فئة من شعراء الأنصار أن يصبحوا مقرَّبين جدًّا إلى النبي ﷺ ، يذبُّون عنه وينصرونه بألسنتهم كما نصروه بسلاحهم (٤) .

وكان أهم الشعراء الذين تصدوا لأعداء الدعوة هم ثلاثة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد اللَّه بن رواحة ﷺ ، وكان هجاء حسان أشدُّ وقعًا على قريش من هجاء ابن رواحة وكعب ؛ إذ يُحكى أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب : « من يحمي أعراض المسلمين ؟ » قال كعب بن مالك : أنا ، وقال ابن رواحة : أنا ، وقال حسَّان : أنا ، قال : « نعم ، اهجهم وجبريل معك » (٥) .

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن حسَّان بن ثابت استأذن الرسول ﷺ في هجاء المشركين ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « فكيف بنسبي » فقال : حسان : « لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَعَرة من العجين » (٦) .

ويذكر في هذا أن النبي ﷺ كان يضع لحسَّان المنبر لينافح عنه ، ويقول : « إن

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز ج ٧ ص ١٠٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز ، ج ٧ ، ١٠٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر جـ ٧ ، ص ١٠٩ .

(٤) انظر عبد الرزاق : المصنف ، باب الشعر ، ج ١١ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٥) تاريخ ابن عساكر (التهذيب) ج ٤ ص ١٢٩ ، والذهبي : السير ج ٢ ص ٥١٤ . والشطر الأخير من الحديث « اهجهم وجبريل معك » في الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين ، ج ٧ ص ١٠٩ .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين ج ٧ ص ١٠٨ .

اللَّه يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول اللَّه ﷺ » [1] . وفي رواية أخرى : « يا حسَّان ! أجب عن رسول اللَّه ﷺ ، اللَّهم أيِّده بروح القدس » [2] .

ويأتي بعد حسَّان رضي الله عنه في دفاعه ومنافحته عن النبي ﷺ كعب بن مالك رضي الله عنه ، وكان يعارض أعداء الإسلام بمثل قول شعرائهم في الوقائع والأيام ، ويذكر مثالبهم [3] .

وكذلك يأتي في صَفِّهِما ومرتبتهما المرموقة عبد اللَّه بن رواحة ، إلا أنه اختلف عنهما في أسلوب ردِّه على أعداء الدعوة ؛ فكان يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه [4] ؛ فلما دخل النبي ﷺ مكة في عمرة القضاء ، كان ابن رواحة ينشد بين يديه :

خلُّوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر : يا ابن رواحة ! ، في حرم اللَّه وبين يدي رسول اللَّه ﷺ تقول الشعر ! فقال النبي ﷺ: « خل يا عمر ، فهو أسرع فيهم من نضح النبل » وفي لفظ آخر : « فوالَّذِي نفسي بيده لكلامه عليهم أشد من وقع النبل » [5] .

وخلاصة القول : لقد قام شعراء المسلمين في العهد المدني بتسجيل مغازيه ووصف أحداثه ، ونافحوا عن النبي ﷺ وهجوا أعداءه ، دفاعًا عن الحق والقيم السامية ، وأشادوا ببطولات المقاتلين من الصحابةِ ، ورَثَوا شهداء المسلمين الذين أصيبوا في المغازي والسرايا .

وهكذا حفلت أشعارهم بروح جديدة ، وتقمصت معاني سامية ، تُمجِّد الإسلام وتدعو إليه ، وتفتخر برسوله ﷺ واعتناق دينه .

٥ - الأنساب

حثَّ رسول اللَّه ﷺ المسلمين على تعلُّم الأنساب لغرض صلة الرحم التي تعدُّ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب الأدب رقم ٥٠١٥ ج ٤ ص ٣٠٤ ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين ، ج ٧ ص ١٠٩ .

(٣) انظر الذهبي : السير ، عن ابن سيرين ج ١ ص ٢٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٥ .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب الأدب ، وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه رقم ٣٠٠٥ ج ٤ ص ٢١٧ ، والنسائي في السنن كتاب الحج ج ٥ ص ٢٠٢ .

من أعظم القربات في الإسلام ؛ فقد أخرج الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » [١] .

وقد كان لبعض المسلمين في المدينة على عهد رسول اللَّه ﷺ معرفة جيّدة بالأنساب ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ﷺ الذي يعدُّ أعلم الناس بنسب قريش وسائر العرب .

ويشهد له الحديث الذي روته عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال لحسان : « ...فائت أبا بكر فإنه أعلم قريش بأنسابها ، فيخلِّص لك نسبي » [٢] .

واشتهر بهذا العلم أيضًا عقيل بن أبي طالب ؛ حيث كان عالمًا بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها [٣] .

٦ - الكتابة

لم تمض فترة طويلة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حتى نزلت آية المداينة التي أرشدت المسلمين إلى كتابة معاملاتهم التجارية ، مما ينبئ أن المجتمع المسلم قد بلغ درجة من المعرفة بالقراءة والكتابة تؤهله للعمل بهذا الأمر [٤] .

وقد كان للنبي ﷺ كُتَّاب متخصصون في مجالات عديدة ، منهم كتَّاب الوحي الذين بلغ عددهم حسب بعض الروايات حوالي اثنين وأربعين كاتبًا [٥] .

وكان هناك من يكتب أموال الصدقات كالزبير بن العوام والجهم بن الصلت ﷺ [٦] .

وواظب على كتابة الرسائل عبد اللَّه بن الأرقم وزيد بن ثابت ﷺ [٧] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج ٢ ص ٣٧٤ ، والحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ج ٤ ص ١٦١ . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج ١ ص ٤٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان رقم ٢٤٩٠ ، ج ٨ ص ٢٨٦ ، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٣٥٨٢ ، ج ٤ ص ٤٥ . ورجاله ثقات .

(٣) انظر ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٤) انظر مصطفى الأعظمي : دراسات في الحديث النبوي ج ١ ، ص ٥٤ .

(٥) انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦ . والكتاني : التراتيب الإدارية ج ١ ص ١١٦- ١١٧ .

(٦) انظر ابن حجر : الإصابة ج ١ ص ٢٧٥ . والقلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ص ١٢٥ .

(٧) انظر ابن عبد البر : الاستيعاب ج ١ ص ٥٣٣ ج ٢ ص ٢٥١ ، وابن حجر : الإصابة ج ١ ص ٥٤٣ ، ج ٢ ص ٢٦٥ .

وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير رضي الله عنهما يكتبان بين الناس المداينات وسائر العقود [١] ، وحذيفة رضي الله عنه يكتب خرص النخل [٢] .

وكان أبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما يكتبان ما يُقطع من الأراضي [٣] .

ومعيقيب بن أبي فاطمة رضي الله عنه كان يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] .

وكان علي رضي الله عنه يكتب العهود والصلح [٥] .

والعلاء بن عقبة وعبد اللَّه بن الأرقم يكتبان ما بين الناس في قبائلهم ومياههم [٦] .

أما حنظلة الكاتب رضي الله عنه : فكان يقوم مقام كل من غاب ، وكان يحمل خاتم رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم [٧] .

ومن اللافت للنظر أن زيد بن ثابت رضي الله عنه تعلم بأمر رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم لغة أجنبية للكتابة إلى أهلها ولقراءة ما يأتي منهم ؛ فقد روي عنه قال : قال - أي النبي صلى الله عليه وسلم - : « يا زيد ! ، تعلم لي كتاب يهود ، فإني واللَّه ما آمن يهود على كتابي » ، قال زيد : فتعلمت له كتابهم ما مرَّت بي خمس عشرة حتى حذقته ، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب » [٨] .

ومن الطريف أن توجد نصائح عديدة في دوواين السنة ربما نصح بها النبي صلى الله عليه وسلم الكتَّاب ، **ومن جملة ذلك :**

* **العرض بعد الكتابة لتصحيح الأخطاء** [٩] .
* **التنقيط على الحروف** [١٠] .

---

(١) انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٢ . (٢) انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٦١ .

(٣) انظر ابن عبد البر : الاستيعاب ج ١ ص ٣٠ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ، ص ١٦١ ، والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٢.

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب ج ١ ص ٣٠ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٤ ص ١٦١ . والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٢ .

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٦١ ، والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٢ .

(٨) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأحكام ، باب ترجمة الحكام ، وهل يجوز ترجمان واحد ج ٨ ص ١٢٠ ، وأحمد : المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) واللفظ له ج ٢٢ ص ٢٤٢ .

(٩) الصولي : أدب الكتاب ، ص ١٦٥ .

(١٠) الخطيب : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ج ١ ، ص ١٩٩ ، وذكر الدكتور مصطفى الأعظمي نقلًا عن الخطيب والفراء أن العرب لهم معرفة بالنقط قبل الحجاج بن يوسف الثقفي . دراسات في الحديث النبوي ج ١ ص ٥٥ .

ويستخلص مما سبق : أن سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مجال التعليم قد جاءت سريعًا بثمرات مرجوة ؛ إذا أعطت للدولة الإسلامية الناشئة الكُتَّاب والمحاسبين والإداريين ؛ رجالًا عُرفوا بالكفاءة والأمانة ، وعُرفوا بالمهارة والدقَّة والحذق وسرعة البتِّ في أداء أعمالهم .

وتحسن الإشارة إلى أن العلوم السالفة الذكر كانت متميزة عن بعضها البعض ومعروفة بأسمائها ، ثم إن بعض العلماء من الصحابة كانوا متخصصين في بعضها ؛ ففي الحديث الذي رواه أصحاب السنن عن النبي ﷺ قال : « أرحم أمتي أبو بكر ، وأقضاهم عليٌّ ، وأفرضهم زيدٌ ، وأقرؤهم أُبَي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ » [(١)] .

وفي هذا دلالة واضحة على وجود تصنيف للعلوم يميِّزها عن بعضها البعض ، وعلى وجود تخصيص في فروع المعرفة التي طرقها المسلمون في ذلك العصر .

* * *

(١) أخرجه أحمد في المسند ج ٣ ص ١٨٤ ، وابن ماجه في السنن رقم ١٥٤ ج ١ ، ص ٥٥ ، والترمذي في السنن ، كتاب المناقب ، رقم ٣٨٧٩ ، ج ٥ ص ٣٣٠ . وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، رقم ٨٩٥ ، ج ١ ص ٢١٦ .

المبحث الثالث فقه أحكام الشريعة

لم يكن التشريع الديني المحض - كأحكام العبادات والمعاملات - في العهد المدني يصدر إلا عن وحي اللّه لنبيه ﷺ من كتاب أو سنَّة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] وكانت مهمة الرسول ﷺ لا تجاوز دائرة التبليغ والتنفيذ، حيث تتابع نزول الأحكام التفصيلية المنظمة لحياة المسلمين، وهو ما يميز الفترة المدنية من الناحية التشريعية.

أما التشريع الذي يتصل بقضايا السياسة الشرعية في السلم والحرب فيدخل ضمن القواعد الإسلامية التشريعية، وهذه عنيت بتقرير الأحكام الكلية التي يندرج تحت كل منها ما لا يحصى من الحالات الجزئية؛ فقد صيغت القواعد الإسلامية وفق « تفصيل ما لا يتغير وإجمال ما يتغير؛ فليس من المعقول أن تعرض شريعة جاءت على أساس من الخلود والبقاء والعموم لتفصيل أحكام الجزئيات التي تقع في حاضرها ومستقبلها ... فلا مناص إذًا من هذا الإجمال والاكتفاء بالقواعد العامة »(١).

والفقه هو مجال هذا التشريع؛ إذ على ضوء هذه الكليات من القواعد يستطيع المجتهدون من الفقهاء أن يستخرجوا أحكام الحالات الجزئية التي تعرض للمسلمين في حياتهم ضمن الوقائع المتجددة.

حث القرآن الكريم على الاستنباط

لقد جاء الحديث عن التفقه في الدين والاستنباط في موضعين من كتاب اللّه.

الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

يقول صاحب الظلال رحمه الله في تفسير هذه الآية: « إن الفقه الإسلامي وليد

---

(١) محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص ١٣٩ - ١٤٠ (نقلًا عن محمد شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة).

الحركة الإسلامية . فقد وجد الدِّين أولًا ثم وجد الفقه ، وليس العكس هو الصحيح ... ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعلًا وفق المبادئ الكلية في الشريعة - إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة - وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة للّه وحده ، واستيحاء شريعته وحدها ، تحقيقًا لهذه الدينونة ، جدَّت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية في حياته . وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية ، وبدأ نمو الفقه الإسلامي) [(١)] .

والموضع الثاني : في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

﴿ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ ﴾ أي : يستخرجونه من معانيه [(٢)] ، لعلمهم وإحاطتهم وفقههم .

استنباط الأحكام في السنة

أما الاستنباط في السنة : فمثاله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر » .. فسئل ﷺ عن الحُمُر فقال : « ما أُنزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ » [الزلزلة : ٧- ٨] [(٣)] .

قال ابن التين : « والمراد أن الآية دلَّت على أن من عمل في اقتناء الحمير طاعة رأى ثواب ذلك ، وأن من عمل معصية رأى عقاب ذلك ، أي قياسًا على حكم الخيل [(٤)] .

وقال ابن بطال : « فيه تعليم الاستنباط والقياس ؛ لأنه شبَّه ما لم يذكر اللّه حكمه في كتابه وهو الحمر بما ذكره من عمل مثقال ذرة من خير أو شر ؛ إذ كان معناهما واحدًا [(٥)] .

وإلى هذا أشار الإمام البخاري في كتاب الاعتصام من جامعه الصحيح بقوله : « باب الأحكام التي تعرف بالدلائل ، وكيف معنى الدلالة وتفسيرها ،

---

(١) انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٧٣٥ .
(٢) انظر ابن كثير : التفسير ج ١ ص ٥٣٠ .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ رقم ٩٩ ، ج ٦ ، ص ٩١ .
(٤) ابن حجر : الفتح ج ٦ ص ٦٥ . (٥) المصدر نفسه ، ج ٦ ص ٦٥ .

وقد أخبر النبي ﷺ أمر الخيل وغيرها ، ثم سئل عن الحمر فدلَّهم على قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ، وسئل النبي ﷺ عن الضب فقال : «لا آكله ، ولا أحرمه » ، وأُكل على مائدة النبي ﷺ الضب ، فاستدل ابن عباس بأنه ليس بحرام [١] .

والمراد بالدلالة هنا : التوجيه إلى أن حكم الشيء الخاص الذي لم يرد فيه نص خاص داخل تحت حكم دليل آخر بطريق العموم [٢] .

وكذلك من أمثلة الاستنباط في السُّنة : أن النبي ﷺ قضى في المرأة التي زنى بها أجير زوجها بالرجم ، وفي الشاب الذي زنى بها بالجلد وتغريب عام ، وذلك استنادًا إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥] ، فبيَّن النبي ﷺ أن المراد بالسبيل رجم الثيِّب وجلد البكر ونفيه [٣] ، مع العلم أن الرجم والتغريب ليسا مذكورين في القرآن الكريم .

وكان منهج الصحابة ﷺ في الاستدلال هو ردُّ القضايا التي تعرض للعالم المجتهد من طريق القياس إلى الكتاب والسنة ، حيث أقرهم النبي ﷺ على ذلك .

فمن طريق عبد الرحمن بن غَنْم ، رفعه إلى معاذ ﷺ أنَّ النبي ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال له : « كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضي بكتاب اللَّه ، قال : « فإن لم تجد في كتاب اللَّه ؟ » قال : أقضي بسنة رسول اللَّه ﷺ ، قال : « فإن لم تجد في سنة رسول اللَّه ﷺ ؟ » ، قال : اجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول اللَّه ﷺ صدره ، وقال : « الحمد للَّه الذي وفق رسول رسول اللَّه ﷺ لما يرضي رسول اللَّه » [٤] .

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الاعتصام ، ج ٨ ص ١٥٨ .

(٢) انظر ابن حجر : الفتح ج ١٣ ص ٣٣١ .

(٣) قاله ابن دقيق العيد، انظر : الفتح ج ١٢ ص ١٣٨ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن ، باب اجتهاد الرأي في القضاء ، رقم ٣٥٩٢ ج ٢ ص ٣٠٣ ، والترمذي في السنن ، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي ، ج ٢ ص ٣٩٤ . وصححه الكلوذاني في : التمهيد في أصول الفقه وقال : يثبت صحته ، على أنه قد رواه عبادة بن نُسَي عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ ﷺ ج ٣ ص ٣٨١ . وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط محقق جامع الأصول : « وقد تلقاه بعض العلماء بالقبول منهم ابن العربي ، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين ، والشيخ زاهد الكوثري في مقالاته) ج ١٠ ، ص ١٧٨ .

تنمية ملكة النظر والفهم لدى الصحابة

حثَّ النبي ﷺ المسلمين على التفقه في الدين وفهم مسائله ، لفضل المتفقهين على سائر الناس ، في قوله ﷺ : « من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين » [١] .

ولذلك كان النبي ﷺ يختبر أصحابه ليقوي لديهم ملكة النظر والفهم بضرب الأمثال والأشباه لزيادة الأفهام ، وتصوير المعاني لترسخ في الذهن ، ولتحديد الفكر للنظر في حكم الحادثة [٢] .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ » فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد اللَّه : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول اللَّه ؟ قال : « هي النخلة » [٣] .

وكان رسول اللَّه ﷺ يشجع أصحابه على القضاء بين يديه ليتمرسوا على الاجتهاد واستنباط الأحكام ؛ فعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : جاء رجلان إلى رسول اللَّه ﷺ يختصمان ، فقال لعمرو : « اقض بينهما يا عمرو » ، قال : أنت أولى مني بذلك يا رسول اللَّه ، قال : « وإن كان » ، قال : فإذا قضيت بينهما فما لي ؟ قال : « فلك عشر حسنات » [٤] .

وفي رواية عن عمرو بن العاص نفسه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ؛ فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ ؛ فله أجر » [٥] .

كما كان - عليه الصلاة والسلام - يمدح النجباء والراسخين في العلم من أصحابه ، وفي ذلك مصلحة بروز ذوي الكفاءات العلمية ليتبوأوا المكانة اللائقة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين ، ج ١ ص ٢٥ .

(٢) انظر ابن حجر : الفتح ، ج ١ ص ٧٤٧ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب العلم ، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم ج ١ ص ٢٢ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند : ج ٤ ص ٢٠٥ ، وانظر ابن حجر : الفتح ج ١٣ ، ص ٣١٩ .

(٥) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الاعتصام ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ج ٨ ص ١٥٧ .

بهم في المجتمع ؛ فعن أبي بن كعب ﷺ قال : قال لي رسول اللَّه ﷺ : « يا أبا المنذر ! أتدري أي آية من كتاب اللَّه معك أعظم ؟ » قال : قلت : اللَّه ورسوله أعلم [١] ، قال : « يا أبا المنذر ! أتدري أي آية من كتاب اللَّه معك أعظم ؟ » قال : قلت : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : « واللَّه ، لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر » [٢] .

التوجيه أثناء النقاش

كان الصحابة ﷺ يرجعون إلى النبي ﷺ ويسألونه عما لا يعلموه ، ويستفسرونه فيما خفي عليهم من النصوص ؛ حرصًا على تفهم معاني الأحكام الشرعية ، ويعرضون عليه ما فهموه منها ، فكان أحيانًا يقرهم على فهمهم ، وأحيانًا يبيِّن لهم موضع الخطأ فيما ذهبوا إليه .

فقد كانت عائشة رضي الله عنها لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبي ﷺ لمَّا قال : « من حوسب عُذِّب » ، قالت عائشة : فقلت : أو ليس يقول اللَّه تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ قالت : فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك » [٣] .

وعن أم بشر رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء اللَّه من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها » . قالت : بلى يا رسول اللَّه ! فانتهرها ، فقالت حفصة : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، فقال النبي ﷺ : « قد قال اللَّه عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ » [٤] .

وحيث يظهر من هذه المسائل العموم ، فأوضح لهن النبي ﷺ أن المراد في كل منها أمر خاص [٥] .

---

(١) قال ذلك تأدبًا مع النبي ﷺ .

(٢) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، ج ٦ ص ٩٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، باب من سمع شيئًا فراجع حتى يعرفه ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٤) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أصحاب الشجرة ، ج ١٦ ص ٥٧ - ٥٨ .

(٥) انظر ابن حجر : الفتح ج ١ ص ١٩٧ .

دور السنة في فقه الأحكام

كان للسنة أثر بيِّنٌ في فقه أحكام الشريعة ، بتخصيص عمومها ، وبيان مجملها ومبهمها ، وتقييد مطلقها ؛ لأنها هي الموضحة والمبينة لكتاب الله ﷻ .

ومثال ذلك : لما ورد لفظ الظلم « عامًّا » في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، استشكل الصحابة مدلول لفظة الظلم ، وشق عليهم هذا الحكم ؛ إذ فهموه بمعناه العام ، « فخصَّه » النبي ﷺ بالشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] [(١)] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] ، أجمل الله ﷻ القدر من المال الذي ينبغي إنفاقه ، فبيَّنت السنة أن القدر الذي ينبغي إنفاقه هو الزائد عن الحاجة بعد سدِّ الحاجات الضرورية ؛ وذلك في قوله ﷺ : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى » [(٢)] وهذا من قبيل ردِّ المجمل إلى المبيِّنِ .

كما بيَّن النبي ﷺ للصحابة ما أبهمه القرآن الكريم ولا مجال لمعرفته إلا عن طريق الوحي ، كما في قوله تعالى : ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ؛ فقد روي عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم الخندق : « حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » [(٣)] . يعني العصر .

ومن مثال حمل « المطلق » على « المقيد » : ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ [آل عمران : ٩٠] .

وهذا إطلاق في عدم قبول التوبة ، فقيَّدته السنَّة بتأخير التوبة إلى حضور الموت في قوله ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [(٤)] .

---

(١) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، تفسير سورة لقمان ج ٦ ، ص ٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الزكاة ، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، ج ٢ ص ١١٧ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب التفسير ، سورة البقرة ، ج ٥ ص ١٦٢ .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن ، وقال : حديث حسن ، رقم ٣٦٠٣ ، ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ . وابن ماجه في السنن ، كتاب الزهد ، رقم ٤٢٥٣ ، ج ٢ ، ص ١٤٢٠ .

ضرورة تبني منهج الصحابة في الاستدلال

لقد ورث الصحابة ﷺ عن النبي ﷺ منهجه القويم في الفقه والاستدلال ؛ فكانوا بحق أعمق هذه الأمة علمًا ، وأغزرها معرفة ، وأوسعها أفقًا ، وأتمها فقهًا لمراتب الأعمال (١) .

وَلـمَّا كان لهم من الصحابة والقرب من رسول اللَّه ﷺ ومعرفة أحواله ، ومباشرتهم للوقائع والنوازل زمن النبوة ، فهم أقدر على فهم القرائن ، وأعرف بأسباب التنزيل ، فأدركوا ما لم يدركه غيرهم بسبب ذلك .

على أن معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد فهم القرآن الكريم ؛ لأن الجهل بأسباب النزول مُوقع لا محالة في الشبه و الإشكالات ، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال ، فيقع الاختلاف .

وإنما يقع ذلك لأن معرفة أسباب النزول بمنزلة مقتضيات الأحوال التي يفهم بها الخطاب ، فإذا فات نقلُ بعض القرائن الدالة ؛ فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه .

فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات أو تخصيص بعض العمومات ؛ فالعمل عليه على الصواب (٢) .

ولَـمَّا كان القرآن الكريم نزل بلغتهم ، فهم أعرف بلسان العرب ، ومواقع كلامها ، وسعة لغتها ، وأشعارها ، ومجازها ، وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه . ومن ثَمَّ فهم أدرى بعادات العرب في أقوالها وأفعالها ، ومجاري أحوالها حالة التنزيل (٣) .

وكذلك من نظر في أقوال الصحابة متدبرًا لها ومتفهمًا لمقاصدها ؛ فإنه سيتضح له ما آتاهم اللَّه ﷻ من حسن البيان ، من غير تكلف ولا تعمق في تجنس الكلام ، بل يلقون الألفاظ بداهة على المعنى ، فتصيب منه المراد (٤) .

---

(١) قال مسروق : « لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ (الغدير) ، فالإخاذ يروي الرجل ، والإخاذ يروي الرجلين ، والإخاذ يروي العشرة ، والإخاذ يروي المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ... » البيهقي : المدخل إلى السنن الكبرى ص ١٦ .

(٢) انظر الشاطبي : الموافقات ج ٣ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ .

(٣) الشاطبي : الموافقات ج ٣ ص ٢٠٤ .

(٤) مساعد الطيار : تفسير الصحابة للقرآن ، البيان عدد ٩٨ ص ٩٨ .

ولذلك كله وجب الرجوع إلى فقه الصحابة ﷺ للنصوص الشرعية ، وفهم مرادهم ، والاستدلال بأقوالهم ؛ لأن الذي وضع لنا معالم هذا المنهج ابتداءً هو رسول الله ﷺ ؛ فعن العرباض بن سارية ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ .. » الحديث (١) .

وجاء في حديث الافتراق : أن هذه الأمة ستفترق على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي . « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » (٢) .

وما سبب هذا الافتراق والخلاف إلا الإعراض عن فقه الصحابة لنصوص الكتاب والسنَّة .

ولاشك أن العودة إلى أقوال الصحابة في فهمهم للنصوص الشرعية من القواعد الجليلة ، والقضايا الكبيرة التي تحقق سلامة في المنهج ، وسدادًا في الرأي ، ونجاةً من الشبهات والأهواء ؛ إذ ليس في الأمة كالصحابة في الإصابة للحكم المشروع والهدي المسنون ؛ فإنهم صحبوا النبي ﷺ ولازموه ، وعاينوا في صحبتهم له الأسرار القرآنية ، وتعلموا منه التأويل وآدابه ، فكانوا بذلك أسعد الأمة بمعرفة الحق وإصابة الصواب ، وأجدرها بعلم فقه السنة والكتاب .

فالسعيد من اتبع صراطهم المستقيم ، واقتفى منهجهم السديد ، والتعيس من تنكب عن طريقهم ، وخالف نهجهم القويم .

وخلاصة القول : إنَّ النهضة العلمية التي شهدها المجتمع المدني في عصر النبوة ترجع في جذورها إلى الجهود العظيمة التي بذلها النبي ﷺ في هذا المضمار تعليمًا وتوجيهًا وقدوةً ، وإلى سياسته الحكيمة في مجال التعليم التي أينعت ثمارها في حياته وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

فقد رُؤي أبو الدرداء ﷺ - على سبيل المثال - داخل مسجد النبي ، ومعه من الأتباع مثل السلطان ، فمن سائل عن فريضة ، ومن سائل عن حساب ، وسائل

(١) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ١٢٦ . وأبو داود في السنن ، كتاب السنَّة ، رقم ٤٦٠٧ ، ج ٤ ص ٢٠١ ، والترمذي في السنن ، كتاب العلم ، وقال : حديث حسن صحيح ، رقم ٢٨١٦ ، ج ٤ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنَّة ، رقم ٦٣ ج ١ ص ٣٢ ، وقال المحقق - الشيخ الألباني - : إسناده جيد . والحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠ .

عن حديث ، وسائل عن معضلة ، وسائل عن شعر [١] .

وكان ابن عباس يجلس يومًا للفقه ، ويومًا للتفسير ، ويومًا للمغازي ، ويومًا للشعر ، ويومًا لأيام العرب ، وهكذا [٢] .

وعن يزيد بن الأصم قال : « خرج معاوية حاجًّا ومعه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ، ولابن عباس موكب ؛ ممن يطلب العلم » [٣] .

وهكذا ؛ تخرَّج من مدرسته عليه الصلاة والسلام جيل فريد من الرجال حازوا جوانب العلم ، وحازوا قصب السبق في ميادين المعرفة ، واستمرت سيرتهم امتدادًا لسيرة النبي ﷺ في الاهتمام الشديد بالعلم ، ففتحوا القلوب والعقول ، ونقلوا للناس هدي نبيهم ﷺ ماثلًا ، فما انقضى عصرهم حتى أظهر اللَّه دينه على العالمين ، ودانت لسلطانه أمم الأرض ، إلا من اعتصم وراء البحار وعاش بعيدًا في الأحراش والأدغال .

ويمكن القول : بأن التألق العلمي والتوثب الحضاري الذي شهده العالم الإسلام بعدئذ يعود في جذوره إلى عصر النبوة ، وأن ازدهار العلوم كان ثمرةً طبيعيةً للشجرة المباركة التي غرس بذورها رسول اللَّه ﷺ في تلك الفترة .

* * *

(١) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣٤٧ .
(٢) انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٦٨ . والفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ ، ص ١٩١ .
(٣) الذهبي : السير ، ج ٣ ص ٣٥١ .






منهج النبي ﷺ في الدعوة

من خلال السيرة الصحيحة



الفترة المدنية



خصائص الفترة المدنية في مجال التربية

المبحث الأول : التربية بالأحداث .

المبحث الثاني : التربية بأعمال القلوب .

المبحث الثالث : التربية بالأخلاق .






المبحث الأول التربية بالأحداث

من التنبيه بمكان أن حياة الجماعة الأولى من المسلمين كانت حلقات قاسية من المعاناة ، والتربية بالأحداث والتجارب ، والفتنة والابتلاء ؛ فبقدر ما كانت الهجرة إلى المدينة ووضع نواة الدولة الإسلامية خلاصًا لهم وخروجًا من مأزق الحصار الذي كان مضروبًا عليهم بمكة ، وتعرضوا من خلاله للأذى والاضطهاد ، كانت هذه النقلة أيضًا بداية لمصارعة قوى جديدة ، والعمل في محيط لا يقل عداءً وصعوبة عن مكة ، وإن تغيَّر الموقف في الظاهر ؛ إذ كان على أنصار الدعوة أن يصارعوا العرب المشركين قاطبة ، واليهود - ذلك العدو الماكر الحاقد - والمنافقين - ذلك العدو المتلون الجديد - وأن يحسبوا حسابًا أيضًا لمواجهة الدولتين العظميين : فارس ، والروم .

فبعد الهجرة إلى المدينة ظل التهديد قائمًا من قبل قريش التي رأت في إيواء الأنصار للمسلمين خطرًا على كيانها وخدشًا لكرامتها .

ولهذا لم يكن مستبعدًا أن تُهاجم المدينة في أي وقت ، وكان النبي ﷺ والمسلمون يحسبون لهذا الأمر حسابه ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ؛ فقد روى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سهر رسول اللَّه ﷺ مقدمه المدينة ليلةً ، فقال : « ليت رجلًا من أصحابي يحرسني الليلة » ، قالت : فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : « من هذا ؟ » قال : سعد ابن أبي وقاص ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « ما جاء بك ؟ » ، قال : وقع في نفسي خوف على رسول اللَّه ﷺ فجئت أحرسه ، فدعا له رسول اللَّه ﷺ ثم نام [(١)] .

وروي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين ، يدعون إلى اللَّه وحده ، وإلى عبادته وحده لا شريك له سرًّا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم اللَّه بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمشون في السلاح ، ويصبحون في

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل سعد ، رقم ٢١١٠ ، ج ٨ ، ص ١٩٥ .

السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء اللّه ، ثم إن رجلًا من الصحابة قال : يا رسول اللّه ! أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتِ علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « لن تصبروا إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا ليست له حديدة » وأنزل اللّه تعالى هذه الآية ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] (١) .

ومن طريق أُبي بن كعب ﷺ قال : لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللّه ؟ فنزلت ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الآية (٢) .

وإزاء كل هذا تبرز الحاجة ملحّة إلى التزوُّد بالصبر والتقوى اللذين هما عدَّة المؤمن للتغلب على الصعاب .

وعلى هذا المنوال سار النبي ﷺ مع أصحابه بتوجيه من اللّه ﷻ ؛ فعن كعب ابن مالك ﷺ قال : كان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش ، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلها أخلاط ، منهم المسلمون ، والمشركون يعبدون الأوثان ، واليهود ؛ وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه ، فأمر اللّه ﷻ نبيه بالصبر والعفو ، ففيهم أنزل اللّه ﷻ : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] (٣) .

ومن نماذج إيذاء اليهود والمنافقين للمسلمين : ما رواه ابن إسحاق : أن شاس بن قيس - وكان شيخًا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين - مرَّ على نفر من أصحاب رسول اللّه ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ج ١٠ ص ١٥٩ - ١٦٠ ، وابن كثير في التفسير ج ٣ ص ٣٠١ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ج ٢ ص ٤٠١ ، والبيهقي في الدلائل ج ٣ ص ٦ .

(٣) أخرجه أبو دواد في السنن ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، رقم ٣٠٠٠ ، ج ٣ ص ١٥٤ .

فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا واللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتًى شابًّا من يهود كان معهم فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، وقال أحدهما للآخر : إن شئتم رددناها الآن جذعة ، فغضب الفريقان جميعًا وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الحِرَّة ، وتنادوا : السلاح ، السلاح . فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين ! اللّه اللّه ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم اللّه للإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألّف بين قلوبكم ؟ ! » فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا ، ثم انصرفوا مع رسول اللّه ﷺ [١] .

وروى الإمام البخاري بسنده إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه : أن رسول اللّه ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة قبل موقعة بدر ، قال : حتى مرَّ بمجلس فيه عبد اللّه بن أبيٍّ ابن سلول - وذلك قبل أن يسلم عبد اللّه بن أُبيٍّ - فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المجلس عبد اللّه بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاج الدابة ، خمر عبد اللّه ابن أُبيٍّ أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول اللّه ﷺ عليهم ، ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى اللّه ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد اللّه بن أُبيٍّ ابن سلول : أيها المرء ! إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجلسنا ، ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد اللّه بن رواحة : بلى يا رسول اللّه ! فاغشنا به في مجالسنا ، فإنا نحبُّ ذلك ، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا [٢] .

---

(١) الطبري : جامع البيان ج ٤ ، ص ٢٥ . وابن حجر : الإصابة ج ١ ص ٩٨ ، وعزاه لأبي الشيخ في تفسيره .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب التفسير باب : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ج ٥ ص ١٧٢ .

ومن الملاحظ أن التربية في بداية هذه الفترة - أسوة بسابقتها - اقتضت كذلك جهودًا كبيرة في التأكيد على التحلي بالصبر ، كما أنها تطلبت توعية وحيطة وبيانًا لما يحكيه الأعداء من دسائس ، واحتاجت تمرين النفس على العفو والصفح لتفويت الفرص على الأعداء الجدد الذين كانوا يحيكون مؤامراتهم في الخفاء للنيل من قوة المسلمين النامية .

لكن هذا الموقف لم يمنع من الاستعداد والتأهب لمجابهة العدو الظاهر على مسرح الأحداث يومئذ - وهو قريش - مما ولَّد قناعة راسخة لدى المسلمين بأنها هي العقبة الرئيسة في وجه الدعوة . وما لم يُحَدَّ سلطانها ويُقضى على شوكتها فلن تستطيع الدعوة أن تسير قدمًا ؛ لأن العرب تنظر إليها وترقب سلوكها بسبب سلطانها وهيمنتها الواسعة .

على أن هذه المعطيات وغيرها جعلت الفترة المدنية فترة غنية بالوقائع والأحداث الجهادية .

ويكفي لبيان كثافة الحركة الجهادية فيها : أن عدد الغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه - حسبما ذكره ابن إسحاق - هو سبع وعشرون غزوة ، وعدد السرايا والبعوث ثمانٍ وثلاثون بين بعث وسرية [(١)] .

غزوة بدر

بعد ثمانية عشر شهرًا من الهجرة - على الأرجح - كانت معركة بدر [(٢)] ؛ وهي أعظم وأعمق الأحداث في تلك المرحلة ، بل ربما كانت أول مواجهة حربية بين كتيبة الإيمان وجيوش الشرك منذ المعركة التي خاضها طالوت وداود مع جالوت ، مما يعطيها قيمة كونية كبرى [(٣)] .

ويبدو التشابه بين المعركتين لا على صعيد نوعية المعركة وصبغتها فحسب ، بل على صعيد الكم كذلك ؛ إذ كان عدد المؤمنين فيهما بضعة عشر وثلاثمائة كما في الجامع الصحيح للبخاري [(٤)] .

---

(١) انظر ابن هشام : السيرة ج ٤ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) انظر موسى بن عقبة : المغازي ص ١٢٧ .

(٣) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ٢٨ .

(٤) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب عدّة أصحاب بدر ، ج ٥ ، ص ٥ .

وقد نزلت سورة الأنفال في هذه الغزوة لتسديد الخطوات وإقالة العثرات ، بالتوجيه تارة والتحذير تارةً ، وبالنذير تارةً ، وبالعتاب تارةً ، لوضع الخطوات الجهادية في مسارها الصحيح ، ولرصِّ لَبِنَاتِ البناء في موقعها السليم ، مبيِّنة ما ينبغي أن يتحلَّى به المجاهدون من قيم ومثل وسلوكيات عملية .

فقد كانت توجيهاتها تسدِّد خطى المؤمنين ، وتأمرهم بطاعة اللَّه ورسوله ، وتدعوهم إلى الصبر والتوكل على اللَّه وحده ، والثبات في مواطن القتال ، ورصِّ الصفوف بالوحدة والائتلاف ، وإعداد القوة اللازمة لملاقاة العدو ، والإنفاق في سبيل اللَّه لدعم الجهاد ، وهي توجيهات تربوية رئيسة في مفهوم الجهاد .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٥، ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وفي مقام التحذير ، جاء الوحي منبِّهًا ومحذِّرًا من البطر والتكبر والزهو والرياء : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

كما حذَّر المؤمنين من عواقب التنازع والاختلاف وما تفضي إليه من الفشل وذهاب الريح وتسلُّط الأعداء : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

وفي موطن آخر ، جاء الوحي معاتبًا : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧، ٦٨] .

فقد عاتب اللَّه ﷻ المسلمين الذين قبلوا الفداء في أسرى معركة بدر ، إذ كان تقتيلهم واستئصال شأفتهم أولى من أخذ الفدية منهم ؛ فالمسلمون ما يزالون قلة والمشركون ما يزالون كثرة .

ونقص عدد المقاتلين من المشركين بالإثخان لكسر شوكتهم وإذلال كبريائهم يعدُّ هدفًا كبيرًا لا يعدله المال الذي يأخذونه مهما مسَّت الحاجة إليه (١) .

غزوة أحد

ثم جاءت غزوة أحد ، وقد فصَّل القرآن الكريم أحداثها في ستين آية من سورة آل عمران (٢) .

ولعل من أهم دروس التربية في هذه الغزوة : أن عاقبة المعصية وخيمة ، وأن مخالفة الأوامر والاختلاف يؤديان حتمًا إلى الفشل .

وقد كان هذا الدرس عمليًّا في واقع الحياة بالجراح العميقة والتضحيات الكبيرة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

ومن أهم دروس هذه المعركة : ذلك الجانب الذي يكشف عن حقيقة هذا الدين وطبيعة سيره وفق سنن اللَّه الثابتة الصارمة التي لا تجامل أحدًا ، ولا يصح إغفالها أو تناسيها في أي عصر ولدى أي دعوة ؛ فعندما خالف المسلمون في أُحد سنَّة اللَّه في النصر ؛ حلَّت بهم الهزيمة ، فأخبرهم القرآن الكريم أنهم أتوا من عند أنفسهم بسبب مخالفتهم : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

ويعلِّق صاحب الظلال رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الآية بقوله : « لقد كتب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته وأصحاب عقيدته ، ولكن علَّق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم ، وباستكمال العدَّة التي في طاقتهم ، وبذل الجهد الذي في وسعهم . فهذه سنَّة اللَّه ، وسنة اللَّه لا تحابي أحدًا .

فأمَّا حين يقصِّرون في أَحد هذه الأمور ، فإنَّ عليهم أن يتقبَّلوا نتيجة التقصير . فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن وإبطال النواميس ، فإنما هم مسلمون ؛

---

(١) من ظلال القرآن بتصرف ج٣ ص ١٥٥٢ . (٢) ابن هشام : السيرة ج٣ ص ٥٨ .

لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرًا كذلك ولا يضيع هباءً ؛ فإن استسلامهم للَّه ، وحملهم لرايته ، وعزمهم على طاعته والتزام منهجه ؛ من شأنه أن يردَّ أخطاءهم وتقصيرهم خيرًا وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروسًا وتجارب تزيد من نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ، وتؤهل للنصر الموعود ... » [(١)] .

ومن دروس أُحد كذلك : أنْ نَجَمَ النفاق وظَهَرَ المنافقون على حقيقتهم ؛ حيث انسحب عبد اللَّه بن أبي ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين معترضًا على قرار رسول اللَّه ﷺ بالخروج .

وقد بيَّن القرآن الكريم أن هذا الانسحاب تنقية لصفِّ المؤمنين ، فلا يبقى فيهم من يرجِّف ويخذِّل : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

وكذلك اقتضت الحكمة تمييز الصادق من الكاذب ؛ وذلك أنَّ نفاق المنافقين كان مخفيًّا على المسلمين ، حتى كانت هذه الغزوة ؛ فكشفت عن مواقف المنافقين الذين عاد تلويحهم تصريحًا ، فعرف المسلمون أن لهم عدوًّا في دورهم ، فاستعدُّوا لهم وتحرَّزوا منهم [(٢)] .

ومن الدروس والعبر التي يستفاد منها في هذه الغزوة أيضًا : أنَّ اللَّه ﷻ هيَّأ لعباده المؤمنين منازل في الجنة لا تبلغها أعمالهم ، فقيَّض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها .

ومنها : أنه إذا أراد إهلاك أعدائه ؛ قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من بغيهم وكفرهم في أذى أوليائه ، فمحَّص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق الكافرين [(٣)] .

ومن يتأمل وقائع هذه الغزوة تستوقفه قضية في غاية الأهمية وهي : إذا كانت المخالفة الجزئية لخطَّة المعركة - كما وقع من بعض الرماة ، وتطلع بعض النفوس إلى

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١ ص ٥١٣ .

(٢) انظر ابن حجر : الفتح ج ٧ ص ٣٤٧ .

(٣) انظر ابن حجر : الفتح ج ٧ ص ٣٤٧ .

الغنائم المادية ، وتولي بعض الأفراد حين حمي وطيس المعركة - نذائر شؤم وأسباب هزيمة وخسارة ، فما بالك بأمة تُلقي كتاب ربها وراءها ظهريًا ، وتعبد الدرهم والدينار ، ولا يخطر على بالها جهاد قط ، وتستحلُّ الرِّبا والغلول ... إلخ ، ثم تستبطئ نصر اللَّه الذي وعد به المؤمنين ، وتحسب نفسها مؤمنة حق الإيمان ؛ لأنها تصدق بقلوبها وتقرُّ بلسانها ؟! إنها هوَّة كبيرة جدًّا بين هذا الإيمان (١) الحي المتحرِّك الوثَّاب الذي يخطئ فيرى عقوبة خطيئته ، ويصيب فيرى بركة استقامته ، وبين واقع العصور المتأخرة ؛ عصور الإرجاء (٢) .

غزوة الخندق

وبعد أن تمثلنا رسول اللَّه ﷺ وهو مكسور الرباعية ، مجروح الوجنة ، مترديًا في حفرة من حفر أُحد (٣) ، نراه في غزوة الخندق وهو عاصب بطنه من الجوع ، يضرب بالمعول ، ويجرف بالمسحاة ، ويحمل في المكتل في ظروف قاسية من البرد والخوف والجوع والتعب (٤) ، وهو ينشد :

اللهم لا خير إلَّا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فيجيبه أصحابه ﷺ أجمعين :

نحن الذين بايعوا محمدًا على الإسلام ما بقينا أبدًا (٥)

وكان المسلمون يعملون بقوة ، ويحملون التراب على أكتافهم ، واستووا جميعًا في الحفر ، حتى أولئك الذين لا يخدمون أنفسهم من التجار والزعماء ، أسوة برسول اللَّه ﷺ الذي كان يحفر معهم وينقل التراب حتى اغبرَّ بطنه ، ووارى التراب جلده ، وقد شد على بطنه حجرًا لفرط الجوع (٦) .

---

(١) إيمان الجيل الأول .

(٢) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٣٦ .

(٣) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد ، ج ٥ ص ٣٧ - ٣٨ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة أحد ، ج ١٢ ، ص ١٤٨ .

(٤) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ، ج ٥ ص ٤٥ - ٤٦ ، ومسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب ج ١٢ ص ١٤٥ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ج ٥ ص ٤٥ .

(٦) انظر البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ، ج ٥ ص ٤٥ ، ٤٧ .

وهكذا تمَّ حفر الخندق في ظروف صعبة ؛ إذ كان الجو باردًا وطعام الجيش قليلًا ؛ شيء من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه ، فيطبخ ويأكلونه رغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة من شدَّة الجوع (١) ، وأحيانًا يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا (٢) .

إنَّ هذا اليوم يضيف إلى دروس أحد دروسًا جديدة في التربية ، ويرسم معالم ومقتضيات جديدة للإيمان ، ظل هذا الجيل يترقى فيها درجة بعد درجة حتى وصل إلى الكمال الذي لم يبلغه جيل مثله ، فاستحق بذلك القوامة على العالمين ، والثناء العظيم من رب العالمين .

ولو أن إيمانهم وقف عند عقبة من عقبات الطريق الشاقة ، أو تملَّص من فتنة من فتن التمحيص الجادَّة لما تحقق لهم كل ما تحقق ، بل ربما خسروا وخسرت الإنسانية كلُّها (٣) .

إن غزوة الخندق تعدُّ بحق امتدادًا طبيعيًّا لسنة اللَّه في سير هذا الدين ، وفي تزكية النفس الإنسانية به ؛ ذلك أن حكمة اللَّه ﷻ اقتضت أن تكون التزكية والتربية ليست بالأوامر والنواهي فحسب ، بل « بالتجارب والابتلاءات ، والفتن والامتحانات ؛ فقد علم اللَّه ﷻ أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة ، ولا تنضج نضجًا صحيحًا ، ولا تصحُّ ولا تستقيم على المنهج ، إلَّا بذلك النوع من التربية التجريبية الواقعية التي تحفر في القلوب ، وتنقش في الأعصاب ، وتأخذ من النفوس ، وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث .

أمَّا القرآن فينزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته ، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة ، ساخنة بحرارة الابتلاء ، قابلة للطرق ، مطاوعة للصياغة » (٤) .

إن هذا اليوم يعلِّمنا درسًا من دروس التربية نقرأ فيه كيف أنه « في معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تصاغ . ويومًا بعد يوم ، حدثًا بعد حدث ، كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو وتتضح سماتها ... وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانًا درجة الفتنة ، وكانت فتنة كفتنة

---

(١) انظر المصدر السابق نفسه ج ٥ ص ٤٥ - ٤٦ . (٢) انظر المصدر السابق نفسه ج ٥ ص ٤٥ .

(٣) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٣٧ .

(٤) المرجع نفسه ج ٥ ص ٢٨٣١ .

الذهب تفصل بين الجوهر الأصيل والزَّبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها ، فلا تعود خليطًا مجهول القيم » (١) .

لقد صور القرآن الكريم ذلك الموقف الرهيب ، والكرب الشديد ، والأهوال المحدقة بالمؤمنين في سورة الأحزاب ، في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ٩- ١١] .

فالأحزاب جاءوا من فوقهم ، وبنو قريظة من أسفل منهم ، وموقف المنافقين اتَّسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين ، لكن إلى جانب هذه الزلزلة وزوغان الأبصار والبلاء الشديد ، كانت « الصلة التي لا تنقطع باللَّه ، والإدراك الذي لا يضل عن سنَّة اللَّه ، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن ، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها ؛ ومن ثمَّ اتخذ المؤمنون بشعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر ؛ ذلك أنهم صدَّقوا قول اللَّه سبحانه من قبل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] . وها هم أولاء يزلزلون ، فنصر اللَّه إذن منهم قريب . ومن ثم قالوا : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] (٢) .

فقد زادهم إيمانًا بعد أن رأوا الأهوال تحدق بهم ، والأحزاب تتألب عليهم ، ليقينهم بحتمية سنَّة الابتلاء والتمحيص قبل التمكين والنصر ؛ لأنه في الحقيقة لا إيمان يمكن الجزم به قبل الابتلاء ، بل هي دعاوى كل يقدر أن يدَّعيها ، فإذا اجتاز المؤمن الابتلاء تحقَّق الإيمان ، وإذا تحقَّق الإيمان تحقَّق النصر : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] إنها سنن ثابتة وحقائق ساطعة (٣) .

(١ ، ٢) سيد قطب في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٨٤٣ .

(٣) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤٠ .

صلح الحديبية

وبعد هذا نأتي إلى معلم آخر من معالم التربية وامتحان للإيمان ، لكنه امتحان من نوع آخر ، « إنه امتحان القلوب المؤمنة التي جاشت بالحميَّة الإيمانية والغيرة للَّه ورسوله ودينه ، واستقرَّ في أعماقها صدق رسولها في وعده ، وصدق وعد اللَّه له ، وإن كان هذا الوعد رؤيا في المنام - فرؤيا الأنبياء حق - وهي قلوب مفعمة باستعلاء الإيمان وعزِّ الطاعة ، تأبى أن يستضيمها عدو اللَّه ، أو تنصاع لضغوطه في أي ميدان .

ومع ذلك ترى في يومها ذاك أمورًا تبدو مناقضة لهذا كلِّه ، فكانت أهوالًا وكروبًا لا يسكن أمامها إلا قلب بلغ الغاية القصوى من الانقياد والتسليم للَّه ورسوله والتجرُّد مما يخالف ذلك ، حتى وإن كان دافعه الغضب للَّه ، والحمية لدينه ، والاعتزاز بالإيمان به . ولم يكن حينئذ قد بلغ هذه الغاية إلا قلب واحد هو قلب الصديق ﷺ[1] .

لقد صُدمت هذه الجماعة الراشدة الزاحفة أبدًا إلى الأمام وهي تواجه منعطفًا خطيرًا يشتهي فيه الكافرون من الشروط ما يشتهون ويحملونها عليها ، ثم ترى قائدها يقبلها بدون تحفظ ، مما أثارَ حميتها وغيرتها الإيمانية ، رافضة هذه الشروط التي تبدو في نظرها مجحفة .

ولعل ما حدث من موقف المؤمنين بالنسبة للصلح كان بسبب الاندفاع الجهادي الذي كان نتيجة للتربية في الفترة السابقة ، فاقتضى الأمر « مرحلة عليا من التربية ؛ مرحلة تتعدَّى مراحل الحضِّ والإيقاد ورفع الهمم والعزائم إلى مرحلة تهذيب الحماس وتسكين الحمية الإيمانية لتوافق الوحي في كل أمر وتنضبط عليه في كل حركة ، وإن رأت أن موافقته شاقَّة على حظِّ النفس »[2] : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٦] .

وفي إطار هذه الموازنة بين التوثب والانضباط - وهي مرحلة دقيقة من التربية حتى تؤتي التربية الجهادية ثمارها - يقارن سيد قطب رحمه الله بين سورتي القتال

---

(١) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤٠ .

(٢) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤١ .

والفتح لتوضيح هذه المعاني فيقول : « وبالموازنة بينها - سورة الفتح - وبين إيحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ، يتبينَّ مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة في مدى السنوات الثلاثة التي نرجِّح أنها تفرِّق بين السورتين في زمن النزول ، وتبينِّ مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن وفي رعاية النبوة .

وَضَحَ في جوٍّ سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ، ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الواقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ، بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها ... وفق حكمة القيادة العليا للدعوة »[١] .

ومن أهم دروس الحديبية أيضًا : تربية النفس وحملها على التسليم لأمر اللَّه ورسوله ؛ إذ لا يمكن للمرء الإحاطة بجميع الأسباب والنتائج .

وكذلك : اتهام العقل أمام النصوص الصريحة ؛ فقد كره بعض الصحابة الصلح مع قريش[٢] لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم ، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ورأوا أنهم قد أخطأوا ؛ إذ كيف يكرهون شيئًا رضيه اللَّه ورسوله ؟! .

وظلت تلك الحادثة درسًا لهم فيما استقبلوا من حياتهم ، وكانوا يُحذِّرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الانسياق خلف الرأي ؛ فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : «أيها الناس ! اتهموا الرأي على الدين ، فلقد رأيتني أردُّ أمر رسول اللَّه ﷺ برأيي اجتهادًا ، فواللَّه ما آلوا عن الحق ، وذلك يوم أبي جندل ، حتى قال لي رسول اللَّه ﷺ : « تراني أرضى وتأبى ؟! »[٣] .

وكان سهل بن حنيف ﷺ يقول : أيها الناس ! اتهموا رأيكم على دينكم ؛ لقد

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٣١٤ ، ٣٣١٥ .

(٢) انطر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجزية ، باب حدثنا عبدان ج ٤ ، ص ٧٠ ، وكتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، ج ٣ ص ١٨٢ . ومسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية ج ١٢ ص ١٤١ .

(٣) قال الحافظ في الفتح : رواه الطبراني في المعجم ، والبيهقي في المدخل ، ج ١٣ ، ص ٢٨٩ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى ورجاله موثوقون وإن كان فيه مبارك بن فضالة ج ١ ص ١٧٩ .

رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول اللّٰه لرددته » [١] .

وقد توالت الأحداث مؤكدة الحكمة البالغة والنتائج الباهرة لهذا الصلح الذي سماه اللّٰه تعالى : ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [٢] :

١ - إذ اعترفت قريش بكيان المسلمين لأول مرّة ، فعاملتهم معاملة الند للند [٣] عندما قبلت إبرام الصلح معهم بعد أن كانت تصورهم أمام الناس بأبشع الصور وتنعتهم بأسوأ النعوت ، مما كان له الصدى العميق في أرجاء الجزيرة العربية . [٤]

٢ - إن هذا الصلح مكّن قبيلة خزاعة من إعلان تحالفها الصريح مع المسلمين [٥] ، حيث كانت قبل الصلح تخفي تعاطفها معهم ؛ « إِذ كانت عيبة نصح رسول اللّٰه ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئًا كان بمكّة » [٦]

٣ - أتاح السلام المبرم الفرصة للمسلمين للتفرغ لآخر معاقل يهود في خيبر [٧] والتي صارت مصدر خطر كبير على المسلمين ؛ إِذ كان لزعمائها دور كبير في تأليب الأحزاب ضد المسلمين في غزوة الخندق [٨] .

٤ - أتاحت هذه الهدنة الفرصة لنشر الإسلام ؛ يقول ابن شهاب الزهري في هذا الشأن : « فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضًا ، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يَعْقِل شيئًا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك » [٩] .

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الاعتصام ، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ، ج ٨ ص ١٤٨ .

(٢) انظر البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ج ٥ ص ٦٦ وذكره الهيثمي في موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان رقم ٤٣٦ .

(٣) انظر البخاري في كتاب الصلح ، باب الصلح مع المشركين ، ج ٣ ص ١٦٨ ، ومسلم (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية ، ج ١٢ ص ١٣٨ .

(٤) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٥) انظر أحمد : المسند : ج ٤ ، ص ٣٢٥ .

(٦) اخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، ج ٣ ، ص ١٧٨ . وموسى بن عقبة : المغازي ص ٢٣٦ .

(٧) لقد أشارت سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية - على قول بعض المفسرين - إلى وعد اللّٰه تعالى للمسلمين بفتح خيبر وحيازة غنائمها ، في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ الآية . انظر : ابن كثير : التفسير ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٨) انظر موسى بن عقبة : المغازي ص ٢١٤ - ٢١٥ ، والبيهقي : الدلائل ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ .

(٩) ابن هشام : السيرة ج ٣ ٣٢٢ .

والدليل على ذلك : أن النبي ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة [(١)] ، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف [(٢)] .

وهكذا يُستشف من هذه النتائج عدم الركون إلى الرأي فيما فيه نص ؛ فطاعة الرسول ﷺ واجبة ، والانقياد لأمره فريضة ، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس وحدِّ الفهم ، فيجب على كل مؤمن أن يتيقَّن أن الخير فيما أمر به ، وأنه جار على أتمِّ الوجوه وأكملها ، وإن قصرت العقول عن إدراك غايته وعاقبة أمره [(٣)] .

ثم كانت نهاية هذا الامتحان العصيب بعد هدأة القلوب وسكون العاصفة أن أنزل اللّه تعالى على رسوله وهو قافل إلى المدينة : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١- ٤] .

إن نزول السكينة وزيادة الإيمان بها ثمرة للإيمان السابق المتمثل في الثقة في اللّه والاستسلام لأمره مهما كان هول الموقف .

وهكذا يرقى الإيمان ويسمو ، وترسخ قاعدة عظمى من قواعد فقه التزكية الإيمانية وهي : **أن من ثواب الإيمان : حصول إيمان أعلى منه ، ومن جزاء المعصية : نقص الإيمان بمعصية أخرى** ، وهي قاعدة لم تثبت من خلال موعظة في مسجد ، ولا محاضرة في جامعة ، وإنما في موقف مهول كهذا الموقف [(٤)] .

غزوة حُنين

كانت معركة حنين تجربة عسكرية خطيرة في معارك المسلمين ، كما كانت مدرسة تربوية علَّمت المسلمين درسًا لن ينسوه على مرِّ الدهور ؛ وهو عدم اعتمادهم على قوتهم والاغترار بكثرتهم حين قال قائلهم : « لن نُغلب اليوم من قلَّة » [(٥)] ،

---

(١) انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ج ٥ ، ص ٦٣ .

(٢) انظر البخاري كتاب المغازي ، باب غزوة الفتح ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

(٣) انظر ابن الديبع الشيباني : حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (نقلًا عن حافظ الحكمي : مرويات غزوة الحديبية ص ٣٠٢) .

(٤) انظر سفر بن عبد الرحمن ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤٢ .

(٥) الهيثمي : كشف الأستار عن زوائد البزار ، رقم ١٨٢٧ ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

حتى استحقوا معاتبة القرآن الكريم لهم ، وتذكيرهم بالاتكال على اللَّه وحده .

فقد ذاق المسلمون في بداية هذه الغزوة مرارة الهزيمة ، ووطأة الفرار أمام زحف المشركين ونبالهم ، وحسن تخطيطهم ، واشتداد هجمتهم عليهم (١) ، ثم كانت الغلبة والنصر بعد ذلك للمؤمنين بحول اللَّه وقوّته (٢) .

وفي ذلك درس تربوي لهم لئلَّا يغترُّوا ويعجبوا بكثرتهم ، ويعلموا علم اليقين أن النصر ليس بكثرة الأعداد والعدد ، وإنما هو توفيق وتثبيت من عند اللَّه ﷻ .

ويصوِّر القرآن الكريم هذا المشهد أدقَّ تصوير في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦] .

فقد صرَّحت الآية بأن هناك إعجابًا حصل من بعض المسلمين ، وأنَّه لما حصل الإنكسار والكرب وضاقت الأرض عليهم بما رحبت ، جاءهم المدد لتثبيتهم وتقويتهم، حيث أنزل اللَّه جنودًا ، فكان النصر بإذنه وفضله .

ويُلحظ هنا أن الإعجاب بالعدد والكثرة فيه غفلة عن سنة كونية ثابتة وهي : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

فالمسلمون إذا قوي إيمانهم باللَّه سبحانه ، وتسلَّحوا بالصبر والتقوى ، وأخذوا بالأسباب ؛ فإن اللَّه يؤيدهم وينصرهم على أعدائهم بأسباب كونية قدرية لا قبل لعدوهم بها ، ولهذا شواهد لا تحصى في التاريخ الإسلامي .

ومن العبر المستفادة من هذا اليوم : أن الدروس العملية أبلغ وقعًا في النفوس من المواعظ والنصائح ؛ فقد صحَّت الروايات أن النبي ﷺ وجَّه النصح والتنبيه للمسلمين أن لا يغتروا بكثرة عددهم ؛ حيث أخرج أحمد والبيهقي من طريق حمَّاد بن سلمة : أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان أيام حنين يُحرِّك شفتيه بعد صلاة الفجر

---

(١) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي باب قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ج ٥ ص ٩٨ . ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين ج ١٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ . والهيثمي : كشف الأستار ، رقم ١٨٢٩ ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ .

(٢) نزل النصر بنص القرآن الكريم .

بشيء لم نكن نراه يفعله ، فقلنا : يا رسول اللَّه ! إنا نراك تفعل شيئًا لم تكن تفعله ، فما هذا الذي تحرك شفتيك ؟ قال : « إن نبيًّا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال : لن يروم هؤلاء شيء ، فأوحى اللَّه إليه أن خيِّر أمتك في أحد ثلاث : إما أن نسلِّط عليهم عدوًّا من غيرهم فيستبيحهم ، أو الجوع ، وإما أن أرسل عليهم الموت . فشاورهم فقالوا : أما العدو : فلا طاقة لنا بهم ، وأما الجوع : فلا صبر لنا عليه ، ولكن الموت . فأرسل عليهم الموت ، فمات منهم في ثلاثة : سبعون ألفًا » . قال رسول اللَّه ﷺ : « فأنا أقول الآن – حين رأى كثرتهم – اللَّهم بك أحاول ، وبك أصاول ، وبك أقاتل » [١] .

لكن رغم هذا التذكير للمسلمين بما حصل لمن قبلهم من عقوبة بسبب الاغترار والإعجاب بالكثرة ، لم يستوعبوا الدرس إلا في صورة عملية عندما تراجعوا وذاقوا مرارة الهزيمة ، فتيقَّنوا أنه لا ملجأ من اللَّه إلا إليه ، وقوي إيمانهم حيث رأوا ثبات نبيهم ﷺ [٢] ، وحين سمعوا النداء بالرجوع إلى ميدان المعركة [٣] ، فجدَّدوا عزمهم على القتال بصدق وعزيمة ، وحسن توكل على اللَّه ، فتحوَّل ميزان القوة بإذن اللَّه لصالحهم ، فكان النصر .

وفي هذه الغزوة أظهر بعض الأعراب المشركين جفاءً وغلظة عند قسمة الغنائم بالجعرانة [٤] ، لكن موقف النبي ﷺ اتَّسم بالحلم والأناة والصبر على جفائهم ، وطمعهم في الأموال ، وحرصهم على المكاسب المادية ، فكان مثالًا للمربِّي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من الخشونة والجفاء والأنانية [٥] ، فكان يعاملهم على قدر عقولهم ويتلطَّف بهم ، ويواجه تعنُّتهم بحكمة وحلم وخلق كريم .

ولا أدل على ذلك من الأسلوب الذي قسَّم به – عليه الصلاة والسلام – غنائم غزوة حنين ؛ حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء والأعراب فأعطاهم عطايا ومنحًا عظيمة جعلتهم يطلقون عبارات الشكر والثناء ، ويعترفون صراحة أن مثل هذه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بسند صحيح ج ٤ ص ٣٣٢ ، والبيهقي في السنن الكبرى ج ٩ ، ص ١٥٣ .
(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب قول اللَّه تعالى : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ج ٥ ص ٩٩ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ج ١٢ ص ١٢٠ .
(٣) انظر مسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين ، ج ١٢ ص ١١٥ – ١١٦ .
(٤) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف ج ٥ ص ١٠٦ .
(٥) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ، ٥١٥ .

المنح لا تكون إلا ممن لا يخشى الفقر (١) ، بل صرَّح بعضهم بأن محمدًا يعطيه وإنه لأبغض الناس إليه ، فما زال يعطيه حتى إنه لأحب الناس إليه (٢) .

وقد استمالت هذه الأعطيات قلوب زعمائهم وأتباعهم ، فأظهروا الرضا بها ، وزادتهم رغبة في الإسلام ، ثم حسن إسلامهم وتشبَّعت نفوسهم بمعانيه على مرِّ الأيام ، فأبلوا فيه بلاءً حسنًا ، وخدموه بأنفسهم وأموالهم ، إلَّا يسيرًا منهم (٣) ، حتى قال أنس بن مالك ﷺ : « إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها » (٤) .

وهذه هي النتيجة التي كان يتوخَّاها النبي ﷺ من قسم الغنائم على أولئك المغمورين تأليفًا لقلوبهم ، نظرًا لقرب عهدهم بالإسلام ، وعدم تمكُّن معاني الإسلام من قلوبهم ، ووكل أهل الإيمان واليقين إلى ما في قلوبهم من الغنى والخير (٥) .

ويعبر هذا الموقف عن دقَّة نظر رسول اللَّه ﷺ ، وعمق معرفته بدخائل النفوس البشريه وما يقوِّم اعوجاجها ؛ حيث أعطى الأعطيات السخية وبذل المنح الكثيرة لأعراب يعادونه ، وطلقاء لم يتمكن الإيمان بعد من قلوبهم لعلَّهم يؤمنون ، فكان في ذلك مصلحة عظيمة (٦) .

كما أبرز قوة إيمان أصحاب رسول اللَّه ﷺ وثباتهم العظيم أمام مغريات النفس ؛ إذ ربَّاهم النبي ﷺ التربية الإيمانية الكاملة التي أثمرت غنى النفس والقناعة والزهد .

غزوة تبوك

لقد كان توقيت غزوة تبوك ابتلاءً وامتحانًا للمسلمين وتمحيصًا لقلوبهم ؛ ليميز اللَّه الخبيث من الطيب ، وتظهر الفواصل جليَّة بين المؤمنين والمنافقين ؛ وذلك من جهتين :

---

(١) انظر مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الفضائل ، باب في سخاء النبي ﷺ ج ١٥ ص ٧٢ .

(٢) انظر مسلم : كتاب الفضائل ، باب في سخاء النبي ﷺ ج ١٥ ص ٧٣ .

(٣) على سبيل المثال : استشهد الأقرع بن حابس مع عشرة من بنيه في وقعة اليرموك (ابن سعد : الطبقات ج٧ ص ٣٧ ، وابن حجر : الإصابة ، ج ١ ص ٧٣) وفقئت عين أبي سفيان في نفس الوقعة (الذهبي : السير ، ج ٢ ص ١٠٦ . ورغب حكيم بن حزام حتى عن أخذ عطائه السنوي من بيت المال (البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الاستعفاف في المسألة ، ج ٢ ص ١٣٠) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب سخائه ﷺ ج ١٥ ، ص ٧٢ .

(٥) انظر البخاري : كتاب الجمعة ، باب من قال في الخطبة بعد الثناء : أما بعد ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٦) انظر إبراهيم قريبي : مرويات غزوة حنين ، ج ١ ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

الأولى : أن إعلان النفير في هذه الغزوة جاء في وقت الحرِّ الشديد ، حين جني التمر ونضج الثمار واشتهاء الظلال [١] .

الثانية : أن الناس استنفروا في وقت أصابهم الجهد والضائقة المالية [٢] ، لذلك سميت بغزوة العُسرة ، والتي تدلُّ عليها الآية الكريمة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

وقد روي عن قتادة ومجاهد أن « الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها » [٣] .

ورغم شدة الحر ، وقلَّة ما في اليد ، وبعد الشقة ، وكثرة الأعداء وبأسهم ، فقد استجاب الصحابة ﷺ وسارعوا إلى تقديم الأموال وإلى الخروج في هذه الغزوة .

وهكذا شأن أصحاب العقيدة لا يفرحون بالثمار والظلال ، بل يؤثرون الحرَّ والظمأ والجوع في سبيل اللَّه ؛ فهي غنيمتهم التي يدخرونها لآخرتهم [٤] .

وبهذا الأسلوب من التربية تتحول المفاهيم إلى حركة وفعل ؛ تتحول من تصور وإطار نظري إلى تربية تطبيقية تقوم في واقع الحياة العملية ، وتكون غنية بالدروس والعبر .

ولقد أجاد صاحب الظلال رحمه الله عندما فسَّر قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، حيث وردت هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة تبوك ، قال : « ... والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون - لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة .

(١) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حديث كعب بن مالك ج ٥ ص ١٣٠ ، والطبري في تفسيره ج ١٠ ، ص ١٣٤ .

(٢) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك ج ٥ ص ١٢٨ ، ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإيمان ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٣) الطبري : جامع البيان ، ج ١١ ، ص ٥٥ .

(٤) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ، ص ٥٢٩ .

والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه - وله أصل من تأويل ابن عباس ﷺ ، ومن تفسير الحسن البصري ، واختيار ابن جرير ، وقول ابن كثير - : أن هذا الدين منهج حركة ، لا يفقهه إلا من يتحرك به ؛ فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه ، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه ، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية أثناء الحركة به .

أما الذين يقعدون : فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحرَّكوا ؛ لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ، ولا فقهوا فقههم ... وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ ، والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقُّه » [1] .

ولم يتخلَّف عن هذه الغزوة سوى ثلاثة من الصحابة لم يكن لهم عذر عن شهود الغزوة . وهؤلاء الثلاثة هم من السابقين الأولين : اثنان منهما شهدا بدرًا هما : مُرارة ابن الربيع وهلال بن أمية [2] ، والثالث كعب بن مالك شهد العقبة [3] .

وقد تعرَّضوا لمحنة رهيبة وصفها اللَّه ﷻ بأنها وصلت إلى حد أن ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨] ، ليكون ذلك أبلغ وأشد وقعًا في نفوس قوم ربما كانت أنفسهم قد سوَّلت لهم التخلُّف ، وهم دون هؤلاء في المرتبة والمكانة .

وللتنبيه : فإن الجماعة المؤمنة وصلت في هذه الغزوة في آفاق التربية الإيمانية إلى درجة لم تبلغه قبلها جماعة قط ، وهي بمثابة تمحيص نهائي وترقية عليا لها ، واستئصال جذري للطفيليات المحسوبة عليها وليست منها [4] .

وتنزل سورة التوبة لهتك ستر المنافقين والكشف عن كنه وطبيعة هذا الصنف من الناس المندسِّ داخل الجماعة المسلمة ؛ فهم شر أنواع الكفار ؛ لأنَّ بليَّة المسلم بهم أعظم من بليته بالكفار المجاهرين ، لذلك استغرق الحديث عنهم من جميع جوانبه أكثر مقاطع السورة ، فكشف عن نفسياتهم وصفاتهم وأخلاقهم ، كما أبان عن مراوغتهم وكيدهم وتآمرهم ، لئلا يغتر المؤمنون بهم ويقعوا في حبائلهم وخداعهم .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٧٣٤ - ١٧٣٥ .
(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة العسرة ، ج ٥ ، ص ١٣٢ .
(٣) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة العسرة ج ٥ ص ١٣٠ .
(٤) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٣ .

ونكتفي بدرسين نستجلي منهما العبرة في هذه الغزوة :

الدرس الأول : « أن المنافقين لم يكن يخفى عليهم قط في هذه الغزوة وقبلها من الغزوات أن الإيمان جهاد وأعباء وواجبات وفرائض على النفس والمال . ولهذا لم يدر بخلدهم أن يستخدموا منطق الأمة الإسلامية في عصورها الأخيرة فيقولوا للرسول ﷺ حين استنفرهم للغزو : لن نجاهد معك ولن يضرَّ هذا في إيماننا ، فنحن مصدِّقون لك بقلوبنا ، ومقرُّون برسالتك بألسنتنا ، فدعنا نأخذ بأذناب البقر ، ونغرس الأشجار ، ونهتم بشؤون أهلينا وأولادنا .

لم يكونوا يفكروا في هذا لأن حقيقة الإيمان الحيَّة أمامهم في حياة النبي ﷺ وصحبه لم تكن تسمح لهم بذلك ، فقول كهذا في مجتمع مؤمن كهذا يعدُّ لغوًا وهذيانًا .

ولو قالوا هذا أو قريبًا منه لكشفته السورة وأزالت شبهته ، لكنه لم يكن يصل في تفكيرهم إلى درجة الشبهة ، ولهذا لجأوا إلى أعذار وتعليلات عليها مسحة من الشريعة مثل :

١ - الاعتذار بأنهم ليسوا محل تكليف ؛ إذ مناط التكليف الاستطاعة ، وهم غير مستطيعين ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ [التوبة : ٤٢] الآية .

٢ - الاعتذار بشدة الحرِّ الذي جعله الشارع سببًا في الترخيص والتخفيف ، كما في الإبراد في صلاة الظهر ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ [التوبة : ٨١] الآية .

٣ - الاعتذار بوقوع مفسدة تضيع معها مصلحة الجهاد ، وهي الافتتان ببنات الروم ﴿ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ﴾ [التوبة : ٤٩] الآية ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح !!.

٤ - الاعتذار بالقياس ، حيث طلبوا من النبي ﷺ أن يعذرهم كما يعذر من رفع اللَّه عنه الحرج من الضعفاء والمرضى ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٨٦] الآية .

وغير ذلك من الأعذار التي هي شرعية في فقه المنافقين أو أصول فقههم ، وهو فقه كثير الحواشي طويل الذيل لا يخلو منه عصر ولا دعوة » [1] .

والدرس الثاني : « وهو عبارة عن واقعة جزئية لها علاقة بقصة النفر من المنافقين الذين نزل فيهم قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

---

(١) سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤٤ - ٤٥ .

وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ ﴾ [التوبة : ٦٥، ٦٦] الآية .

وقد روى سبب نزولها من طرق كثيرة تثبت بمجموعها صحته . والأشهر أن ما قاله هؤلاء المنافقون هو : « ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء » [(١)] .

فهؤلاء قوم خرجوا مع رسول اللَّه ﷺ في هذه الغزوة الشاقة متعرضين للقتل والأسر ، أنهكتهم وعثاء السفر ، فجلسوا في خلوة يتلهون بالسخرية ببعض الصحابة ، فأنزل اللَّه تعالى فيهم آيات محكمات حكم فيها بكفرهم بعد إيمانهم ، وخروجهم من عداد المؤمنين ، وهو ما يترتب عليه خلودهم الأبدي في النار ما لم يتوبوا .

وقبل أن تنزل الآيات فزع هؤلاء النفر يهرعون إلى النبي ﷺ معتذرين نادمين يقسمون الأيمان أنهم ما أرادوا الكفر ولا قصدوه ، وأن ما صنعوا لم يكن إلا خوضًا ولعبًا . ولم يكذِّبهم اللَّه تعالى في دعوى الخوض واللعب ، بل أوضح أن نفس خوضهم ولعبهم كفر ، فنفس عذرهم إقرار بكفرهم » [(٢)] .

من هذه المعالم الكبرى في سيرة النبي ﷺ التي كانت تطبيقًا وتحقيقًا للدين كما يريد اللَّه ﷻ ، وبيانًا واقعيًا لطبيعة سيره ومنهج حركته ، وسنة اللَّه تعالى في تزكية الناس به ومجاهدتهم عليه ، وعلى محكِّ التربية القويمة والتزكية الإيمانية ، ومن مكابدة الواقع بأعبائه ومشقاته ؛ من هذا كله تشكَّلت ملامح الشخصية المؤمنة ، فبرز جيل فريد صاغته الابتلاءات ، وعركته التجارب ، وصار رجاله بحق أصفى أجيال الإنسانية وأعظمها .

فها هم يدركون حقيقة هذا الدين وحقيقة الدعوة إليه ، وحقيقة النفس التي يجب أن تؤمن به ، إدراك من عاناها وتذوقها وتربى عليها وجاهد لأجلها ، ورأى رسول اللَّه ﷺ أمامه يعانيها ويدعو إليها .

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : « إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل اللَّه ، ورأيتنا نغزو وما لنا طعام إلا ورق الحُبْلَة ، وهذا السَّمُر ، وإن أحدنا ليضع

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ج ١٠ ، ص ١٧٢ ، وابن كثير في التفسير ، ج ٤ ، ص ١١١ .
(٢) سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٦ .

كما تضع الشاة ما له من خِلْط » [١] .

وعن عتبة بن غزوان ﷺ في حديث له : « ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول اللّٰه ﷺ ، وما لنا طعام إلاّ ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها ، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ باللّٰه أن أكون في نفسي عظيمًا وعند اللّٰه صغيرًا » [٢] .

ويروي جابر بن عبد اللّٰه ﷺ قال : « سرنا مع رسول اللّٰه ﷺ ، وكان قوت كل رجل منا في كل يوم تمرة ، فكان يمصُّها ثم يصرُّها في ثوبه ، وكنا نختبط بقسِّينا ونأكل حتى قرحت أشداقنا ، فأقسم أخطأها (أي التمرة) رجل منا يومًا ، فانطلقنا به ننعشه ، فشهدنا أنه لم يعطها فأعطيها فقام فأخذها » [٣] .

ويتحدث أبو موسى الأشعري ﷺ عمَّا أصابه في غزوة ذات الرِّقاع فيقول : « خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن في ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، فكنا نلفُّ على أرجلنا الخرق ، فسُميت ذات الرِّقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا » [٤] .

وهكذا استحق الصحابة رضوان اللّٰه عليهم بما بذلوه من تضحيات ، وما قدموه من غالٍ ونفيس في سبيل اللّٰه ، صفة النصرة للّٰه ورسوله ، وبذلك صاروا رموزًا شامخة ، وأعلامًا هادية ، وقدوات سامقة ، ينبغي للأجيال المسلمة في كل العصور أن تتأسى بهم في ميادين العلم والعمل ، والتربية والسلوك ، بكل فخر واعتزاز ، وبكل تمجيد وتقدير .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب سعد بن أبي وقاص ، ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(٢) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح ، كتاب الزهد والرقائق ، باب حدثنا شيبان بن فروخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٥ رقم ٢٩٦٧ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد (بشرح النووي) باب حديث جابر الطويل ج ١٨ ، ص ١٤٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

المبحث الثاني التربية بأعمال القلوب

الإيثار

هو أعلى مراتب السخاء ؛ لأن من وصل إلى هذه المرتبة من أعمال القلب : يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه . وقد اختص الأنصار ﷺ بهذه المنزلة بنص القرآن الكريم .

فعندما أخذ المسلمون - بعد الإذن بالهجرة - يلتحقون بالمدينة ، اقترعت الأنصار على إيواء المهاجرين وآثروهم على أنفسهم ، فنالوا بذلك الثناء العظيم ، وأبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد في القرآن الكريم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

وبهذه المناسبة قال النعمان بن عجلان الأنصاري ﷺ : وقلنا لقوم هاجروا : مرحبًا بكم وأهلًا وسهلًا قد أمنتم من الفقر نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة إيسار الجزر على الشطر [(١)] .

وتتجلى مظاهر هذا الإيثار فيما يلي :

١ - **تأمين السكن للمهاجرين** : فقد أسرع الأنصار لتقديم بيوتهم ومشاركة إخوانهم في سكنهم ، بل كان كل أنصاري حريصًا على أن يناله ذلك الخير ، حتى لم ينزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة ؛ فقد روي عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء - امرأة من نسائهم [(٢)] بايعت النبي ﷺ - أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حتى اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين [(٣)] .

٢ - **اقتسام الثمرة على المهاجرين** : حيث بلغ الأنصار درجة عالية في الكرم

(١) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ، ص ٥٣٢ .
(٢) من نساء الأنصار .
(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ج ٤ ، ص ٢٦٥ .

عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم – وهو مصدر معيشتهم – بينهم وبين المهاجرين ، لكن النبي ﷺ اكتفى بإشراكهم في الثمرة (١) .

كما وهبت الأنصار لرسول اللَّه ﷺ كل فضل في خططها ، وقالوا له : إن شئت فخذ منازلنا ، فقال لهم خيرًا ، وابتنى لأصحابه في أراض وهبتها له الأنصار ، وأراض ليست ملكًا لأحد (٢) .

٣ – يضاف إلى هذا ما قدَّمه الأنصار من منائح (٣) ، قدَّموها إلى النبي ﷺ وجعلوها تحت تصرُّفه يضعها حيث يشاء ، ففي حديث أنس ﷺ : « كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات ... وأن أم أنس أعطت رسول اللَّه ﷺ عذاقًا لها (٤) ، فأعطاها رسول اللَّه ﷺ أم أيمن مولاته ؛ أم أسامة بن زيد » (٥) .

٤ – تجلَّى هذا الكرم والعطاء في أشكال أخرى مثل الهدايا : فعن مخرمة بن سليمان قال : « وكانتِ جفنة سعد تدور على رسول اللَّه ﷺ منذ يوم نزل المدينة في الهجرة إلى يومِ تُوفِّي ، وغير سعد بن عبادة من الأنصار يفعلون ذلك ، فكان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يتواسون » (٦) .

ومن النماذج الفريدة لهذه المواساة والإيثار : ما حدث بين سعد بن الربيع الأنصاري وعبد الرحمن بن عوف المهاجر ﭫ ؛ حيث قال له سعد : إني أكثر الأنصار مالًا ، فاقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك ، فسمِّها لي أطلِّقها ، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها . قال عبد الرحمن : بارك اللَّه لك في أهلك ومالك ، أينْ سوقكم ؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن » (٧) .

---

(١) انظر البخاري : كتاب الحرث والمزارعة ، باب إذا قال : اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمر ج ٣ ، ص ٦٧ .

(٢) رواه البلاذري في أنساب الأشراف ج ١ ، ص ٢٧٠ .

(٣) المنيحة هي الناقة أو الشاة المعارة للبن خاصة . ابن منظور : اللسان ج ٣ ، ص ٥٣٣ .

(٤) جمع عذق ، وهي النخلة . ابن منظور : اللسان ، ج ٢ ، ص ٧٢١ .

(٥) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ج ٥ ، ص ٥٠ ومسلم في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب ردِّ المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر رقم ١٧٧١ ج ٦ ، ص ٣٤١ .

(٦) رواه ابن سعد في الطبقات ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٧) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب البيوع ، باب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ ج ٣ ، ص ٣ .

ولاشك أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة والإيثار المتبادل الذي لا يُشْهد له مثيلٌ في تواريخ الأمم الأخرى (١) .

بل ظل هذا الإيثار منقطع النظير ساريًا حتى بعد انفراج الأزمة في المدينة جزئيًا بعد إجلاء بني النضير ؛ فقد روي عن أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها قالت : ... فلما غنم النبي ﷺ بني النضير ، دعا ثابت بن قيس فقال : « ادع لي قومك » ، قال ثابت : الخزرج ؟ فقال ﷺ : « الأنصار كلها » ، فدعا له الأوس والخزرج ، فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم ، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال : « إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء اللَّه عليَّ من بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » . فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما : يا رسول اللَّه ! بل تقسم بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا : وقالت الأنصار : رضينا وسلَّمنا يا رسول اللَّه . فقال : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » . وقسم ما أفاء اللَّه ، وأعطى المهاجرين ، ولم يعط أحدًا من الأنصار شيئًا ، غير أبي دُجانة وسهل بن حُنيف لحاجتهما » (٢) .

وقد تركتْ هذه المواقف الإيمانية أثرًا في نفوس المهاجرين ، فشهدوا لهم أمام رسول اللَّه ﷺ بالفضل ، حيث قالوا : يا رسول اللَّه ! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن بذلًا من كثير ، ولا أحسن مواساة في قليل ؛ قد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، فقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كلِّه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « كلَّا ما أثنيتم عليهم به ، ودعوتم اللَّه ﷻ لهم » (٣) .

وبهذه المعاملة الكريمة قدَّم الأنصار المثال الصادق للأخوة الإسلامية ؛ تلك الأخوة التي لم يجعلها الإسلام لفظًا فارغًا ، أو تحية تلغو بها الألسنة ، وإنما عملًا يرتبط بالدماء والأموال ، وبعواطف الإيثار والمواساة ، التي ملأت المجتمع

---

(١) أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ١ ، ص ٣٤٥ .

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ج ٢ ص ٥٠ - ٥١ . نقلًا عن الإكليل للحاكم . والشطر الأخير من الخبر في مغازي موسى بن عقبة ، ص ٢١٣ ، ومسند أحمد ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب الأدب رقم ٤٨١٢ ج ٤ ، ص ٢٥٥ . والترمذي في السنن ، كتاب صفة القيامة ، وقال : حسن صحيح غريب ، رقم ٢٦٠٤ ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

المدني بأروع الأمثال .

ومن هذا المنطلق ، فإن أي جماعة تسعى لتحقيق أهدافها لابد أن تقوم العلاقات بين أفرادها على التآخي الذي يجعلهم جسدًا واحدًا ، وصفًّا مرصوصًا في وجه التحديات التي تواجههم .

وإن هذا التآخي الذي يرتكز على العقيدة هو أساس قوة ونجاح هذه الجماعة ، وهو العامل الرئيس الذي يمكِّنهم من تحقيق أهداف رسالتهم في الحياة .

ولذا كان حرص النبي ﷺ على ذلك التآخي الذي كان مضرب الأمثال في الإيثار والبذل والوفاء ، والذي كانت ثمرته رضا اللَّه ﷻ عنهم ، والتمكين لهم في الأرض .

الإخلاص

إنَّ الإخلاص فُرقانٌ بين التوحيد والشرك ، وهو عمل قلبي تظهر آثاره على الجوارح ، ويعد بالنسبة للأعمال كالروح للجسد ؛ إذ الفرق بين عمل بإخلاص وعمل لا إخلاص فيه ؛ كالفرق بين البشر السوي والتمثال الشاخص .

ولما عرف العرب القتال دفاعًا عن القبيلة وانتصارًا وإخلاصًا لها بدافع العصبية ، بعيدًا عن موازين الحق والعدل والقيم الفاضلة ، جاء الإسلام بمفهوم للقتال يختلف عنه في الجاهلية اختلافًا كليًّا في المنطلقات ، والأسباب ، والغايات ؛ فقد أصبح القتال عملًا عباديًّا يُتقرب به إلى اللَّه تعالى ، ولهذا فهو يحتاج إلى النيَّة الصالحة ككل الأعمال والعبادات من صلاة ونحوها ، وأن تكون هذه النيَّة خالصة من كل الشوائب .

إن غاية القتال في سبيل اللَّه ، هي : أن تكون كلمة اللَّه هي العليا ، « لإقامة نظام عادل يلتزم بأحكام الشريعة ، ويسعى لتحقيق أهداف الإسلام في المعمورة » [١] .

ولهذا المعنى السامي كان الموت في سبيل اللَّه شهادة ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون [٢] .

ولما كان هذا المفهوم عن القتال مفهومًا جديدًا يطرحه الإسلام ، كان الناس يسألون النبي ﷺ عن حقيقة الجهاد في سبيل اللَّه .

(١) أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ .
(٢) صالح الشامي : السيرة النبوية ، ص ٢٣٢ .

روي عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : سئل رسول اللَّه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أي ذلك في سبيل اللَّه ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه » [(١)] .

وفي رواية أخرى : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل لمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن في سبيل اللَّه ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه » [(٢)] .

وجاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والدارمي والنسائي : « من غزا ينوي عقالًا فله ما نوى » [(٣)] .

ولهذا كان النبي ﷺ يُذكِّر أصحابه عند توجيه سرِّية أو بعث ؛ أن تكون قلوبهم متجهة إلى اللَّه ، خالصة النيّة ، لا تشوبها شائبة : « اغزوا باسم اللَّه ، في سبيل اللَّه ، قاتلوا من كَفَرَ باللَّه ، اغزوا ولا تغُلُّوا ، ولا تغدروا ... » الحديث [(٤)] .

كما ربط النبي ﷺ بين الجهاد والإخلاص ، في قوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونيَّة ، وإذا استنفرتم فانفروا » [(٥)] .

ولم يفرض الإسلام أن تكون النية في الجهاد خالصة لوجه اللَّه تعالى فحسب ، بل أوجب كذلك إسلامية النظم ، وإسلامية الراية ؛ إذ ينبغي أن يقاتل المجاهدون تحت راية الإسلام لا يشاركهم في ذلك غيرهم ، « فكما أن خلوص النيّة في الفرد أمر ضروري ، فكذلك خلوص الجيش في أفراده بأن يكونوا من المسلمين وحدهم أمر ضروري ، وهذه هي طريقة الإسلام في تناسق أنظمته على كل المستويات » [(٦)] .

---

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه ، ج ١٣ ، ص ٤٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٥ ، ص ٣١٥ ، والدارمي في السنن ج ٢ ، ص ٦٥٤ ، والنسائي في السنن ج ٦ ، ص ٢٤ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٥ ، ص ٣٥٨ ، والترمذي في السنن وصححه ، رقم ١٦٦٦ ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية ، ج ٣ ، ص ٢١٠ .

(٦) صالح الشامي : السيرة النبوية ، ص ٢٣٣ .

ولذلك لا ينبغي الاستعانة بالمشركين ؛ إذ لابد أن تظهر الصبغة العقائدية على المواقف الإسلامية التي يجب أن تتميز بالإخلاص ووحدة الهدف فيها ؛ فقد روي من حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ خرج قِبَل بدر ، فلما كان بحرَّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جراَة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول اللَّه ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول اللَّه ﷺ : جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول اللَّه ﷺ : « تؤمن باللَّه ورسوله ؟ » ، قال : لا ، قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك » [١] .

وفي حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : خرج رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد ، حتى إذا خلف ثنيَّة الوداع نظر وراءه كتيبة خشناء [٢] ، قال : « من هذا ؟ » قال : هو عبد اللَّه بن أُبيٍّ ابن سلول في مواليه من اليهود من بني قينقاع ، هم رهط عبد اللَّه بن سلام ، فقال : « أوقد أسلموا ؟ » فقال : إنهم على دينهم ، قال : « قل لهم فليرجعوا ، فإنَّا لا نستعين بالمشركين على المشركين » [٣] .

وهكذا بالإخلاص والتميز خاض النبي ﷺ وأصحابه المعارك ضد أعداء الدين ، فكان النصر حليفهم في الدنيا .

أما في الآخرة : فَلَمْ تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

المحبة

لما كانت المحبة في حقيقة العبودية وجعل اللَّه عز وجل إخلاصها له فرقانًا بين المؤمنين والكافرين [٤] ، فقد كان الوحي ينزل ليبيِّن للرعيل الأول من المؤمنين أن هذه المحبة لها ثمن ينبغي بذله طاعة للَّه ورسوله ، وتضحية بكل غال ونفيس في سبيله .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب كراهة الاستعانة في الغزو بالكافر ، ج ١٢ ، ص ١٩٨ .

(٢) كثيرة السلاح ، ابن منظور : اللسان ج ١ ، ص ٨٣٨ .

(٣) قال الحافظ في المطالب العالية : قال البوصيري : رواه إسحاق بن راهويه بإسناد حسن رقم ٤٣١٩ ج ٤، ص ٢٢٠ .

(٤) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤١٧ .

وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فالآية الكريمة وضعت ميزانًا لهذه المحبة تقاس به ، فالمطلوب شرعًا أن ترجح كفَّة المحبة للَّه ورسوله على سائر ما يحب المرء من آباء وأزواج وأبناء ومال ومتاع دنيوي .

وقد أدرك الصحابة ﷺ هذه المعاني ، فتعلَّقوا برسول اللَّه ﷺ أشدَّ التعلُّق ، وأحبُّوه أعظم الحبِّ ، وفدوه بالنفس والأهل والمال .

وقد بيَّن النبي ﷺ حدود هذه المحبة الواجبة عندما قال له عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول اللَّه ! أنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : « لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك » ، فقال له عمر : فإنك الآن واللَّه لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي ، فقال : « الآن يا عمر » (١) .

وعلامة هذه المحبَّة عدم : التقديم بين يديه بالقول أو الفعل ، وأن تكون نصرة السنَّة والذَّب عن الشريعة أحبَّ إليه من رعاية مصالحه والحفاظ على نفسه وماله وجاهه (٢) ، لقول النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين » (٣) .

ولمَّا كان الجهاد دليل المحبَّة الكاملة ، لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ [المائدة : ٥٤] ؛ فإنَّ هذه المحبَّة هي التي جمعت بين النبي ﷺ وأصحابه ، وحملتهم على افتدائه بأرواحهم وأهليهم وأموالهم ؛ فهذا سعد بن الربيع ، يرسل النبي ﷺ زيد بن ثابت ليتفقَّده بعد معركة أحد ، فوجده طريحًا بين القتلى وبه رمق ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فما كان منه بعد ردِّه على سلام رسول اللَّه ﷺ إلا أن قال : « ... وقل لقومي من الأنصار : لا عذر لكم عند اللَّه إن يخلص إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ج ٧ ، ص ٢١٨ .

(٢) انظر أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ج ٢ ، ص ٦٤٠ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب حبِّ الرسول ﷺ من الإيمان ، ج ١ ، ص ٩ .

رسول اللّه ﷺ وفيكم شفر يطرف ، وفاضت نفسه رحمه اللّه » [١] .

وكان أبو طلحة الأنصاري ﷺ يحمي الرسول ﷺ ويرمي بين يديه ويقول : « بأبي أنت وأمي ، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك » [٢] .

وحين ولّى الناس بعد الهزيمة ، كان رسول اللّه ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلًا منهم طلحة ، فأدركهم المشركون ، فقاتل أولئك الرجال قتال الأبطال حتى استشهدوا بين يدي النبي ﷺ ، وقاتل طلحة حتى قطعت أصابعه ، ثم ردَّ اللّه المشركين [٣] .

ولا ريب أن منشأ هذه التضحية ، والجود بالنفس - وهو أعلى أنواع الجود - يرجع بالأساس إلى رسوخ المحبّة وثباتها في القلب وإيثار ما عند اللّه ﷻ .

اليقين

اليقين هو درجة عليا من درجات الإيمان ، وهو بهذا المعنى نظير الإحسان الوارد في حديث جبريل ﷺ ، لكن الإحسان في عمل الجوارح ، واليقين في عمل القلب [٤] .

وقد بلغ رسول اللّه ﷺ ذروة اليقين ليس فيما أخبر اللّه به من أمور الدين والإيمان فحسب ، بل في كل خبر ووعد ، حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان موقنًا بأن اللّه ﷻ سينصره ويظهره على العالمين ، وهو ما يزال في أقسى مواقف الاضطهاد والتشريد والأذى ، ولم يستبطئ النصر كما استبطأه رسل من قبله فقالوا : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ولم يستيأس كما استيأس بعضهم [٥] .

فمن حديث خبّاب ﷺ قال : أتينا رسول اللّه ﷺ وهو في ظل الكعبة متوسدًا بُردة له ، فقلنا : يا رسول اللّه ! ادْعُ اللّه تبارك وتعالى لنا ، واستنصره ، قال :

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ، وقال الحافظ في المطالب العالية : صحح إسناده البوصيري رقم ٤٣١٧ ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي : باب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ ج ٥ ، ص ٣٣ .

(٣) انظر النسائي في السنن ، كتاب الجهاد ، ج ٦ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٤) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٣١ ، ٤٣٤ .

(٥) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٣٥ .

فاحمرَّ لونه وتغيَّر فقال : « لقد كان من كان قبلكم يحفر له حفرة ، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فَيُشَقُّ ، ما يصرفه هذا عن دينه ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّه تبارك وتعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللَّه والذئب على غنمه ، ولكنكم تعجلون » [١] .

ويحكي عدي بن حاتم في قصة قدومه على رسول اللَّه ﷺ وإسلامه أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام حدَّثه فقال له : « أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام ، تقول : اتَّبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة لهم ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ » قال عدي : لم أرها ، وقد سمعت بها ، قال ﷺ : « فوالذي نفسي بيده لَيُتِمَّنَّ اللَّه هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتفتحنَّ كنوز كسرى بن هرمز » قال عدي : قلت : كسرى بن هرمز ؟! قال صلوات اللَّه عليه : « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلنَّ المال حتى لا يقبله أحد » .

فقال عدي بعد ذلك : فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة ؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قد قالها [٢] .

وذروة اليقين أيضًا : ما فعله النبي ﷺ في مواقف من أعظمها موقف الحديبية حين قال : « إني رسول اللَّه ، ولن يضيعني اللَّه أبدًا » [٣] .

وقد تابعه الصديق ﷺ حين سلم لأمر اللَّه ورسوله استسلامًا ارتقى إلى درجة اليقين حين قال له عمر ﷺ : فَعَلَامَ نُعطي الذلة في ديننا ؟ فأجابه بقوله : « يا عمر ! الزم غَرْزه حيث كان ، فإنِّي أشهد أنَّه رسول اللَّه » [٤] .

وفي رواية : « يا ابن الخطاب ! إنه رسول اللَّه ، ولن يضيِّعه اللَّه أبدًا » [٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة ج ٤ ص ٢٨٨ - ٢٣٩ ، وأحمد : المسند ، ج ٥ ، ص ١٠٩ واللفظ له .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) ، ج ٢٢ ، ص ٣٢٠ ، وقال محقق السير للذهبي : إسناده قوي ج ٣ ص ١٦٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجزية ، باب حدثنا عبدان ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٥) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهد والسير باب غزوة الحديبية ج ١٢ ، ص ١٤١ .

وقد ضرب الصحابة ﷺ من اليقين في أمر اللَّه أروع الأمثال . وحسبنا أن يُنزل اللَّه تحريم الخمر والقوم مدمنون على شربها مدَّخرون لها ، مغالون في أثمانها ، فما يكاد الأمر ينزل ؛ حتى يسيل بها أزقَّة المدينة أنهارًا (١) .

وفي هذا يُروى عن أنس بن مالك ﷺ قال : « كنت أسقي أبا عبيدة وأبا طلحة وأبيَّ بن كعب من فضيخ (٢) زهو (٣) وتمر ، فجاءهم آتٍ فقال : إنَّ الخمر قد حرِّمت ، فقال أبو طلحة : قم يا أنس فأهرقها ، فأهرقتها » (٤) .

وينزل أمر اللَّه بالحجاب ، والنساء والرجال مختلطون متعارفون ، فما يكاد ذلك يبلغهم حتى تغدو نساؤهم كأنَّهنَّ الغربان (٥) .

فقد رُوِيَ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : « يرحم اللَّه نساء المهاجرات الأُول ؛ لما أنزل اللَّه : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] شققن مروطهن فاختمرن بها » (٦) .

« فهاتان عادتان إحداهما نفسية ، والأخرى اجتماعية ، وهما من أشد العادات إدمانًا ووطئًا وأشقها تغييرًا ، تذهبان دفعة واحدة وتُستأصلان من أعماق النفوس في لحظة واحدة ، وما ذلك إلا لليقين الذي ليس وراءه في الأمم يقين » (٧) .

ذلك اليقين الذي استحوذ على قلوبهم ، فكانوا أسرع استجابة ، وأبلغ تأثيرًا ، وأقدر على التخلص من عادات الجاهلية وتقاليدها وأعرافها ، حتى لو كانت العادة قد استقرت منذ قرون ، وصارت عرفًا مشروعًا وتقليدًا راسخًا !! .

* * *

(١) انظر سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤٣٦ .
(٢) نوع من الخمر يتخذ من البُسر – التمر – المفضوخ – أي المشدوخ – اللسان ، ج ٢ ، ص ١١٠٤ .
(٣) هو البُسْر ، وهو التمر قبل إرطابه ونضجه . العُكبري : المشوف المعلم ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة ، باب نَزَلَ تحريم الخمر ، وهي من البُسر والتمر ، ج ٦ ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ .
(٥) انظر سفر بن عبد الرحمن ظاهر الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٣٦ .
(٦) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب التفسير باب ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ج ٦ ، ص ١٣ .
(٧) سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٣٧ .

المبحث الثالث التربية بالأخلاق

الشجاعة

لقد عدَّ الإسلام الشجاعة من أكرم الخصال وأنبل الصفات ، ووظفها لإظهار الحق ، وطمس الباطل ، وقيدها بأوامر الشرع ؛ فلا تهور ولا شطط ، ولا ظلم ولا عدوان ؛ فهي منضبطة بعزيمة صادقة لإحقاق الحق ، وإرادة نافذة لضبط النفس وكفِّها عن شهواتها ونزواتها .

وقد تميز المسلمون بهذه الشجاعة النادرة ، وكانت شعارهم لتحرير الإنسان من العبودية لغير اللَّه ، والمساواة بين الناس ، وتكريم الإنسان أيًا كان لونه أو جنسه بمبادئ ومُثُل هذا الدين ، وأصبحوا في شجاعتهم مضرب الأمثال ، وأسوتهم في ذلك كلِّه رسول اللَّه ﷺ ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه يصف النبي ﷺ قال : كان النبي ﷺ أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس . ولقد فزع أهل المدينة ، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس ، وقال : « وجدناه بحرًا [١] » [٢] .

ويصف عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه شجاعة الرسول ﷺ في غزوة بدر ، قال : « لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول اللَّه ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا » [٣] .

وفي غزوة حُنين عندما انكشف المسلمون وانهزموا ، ثبت عليه الصلاة والسلام ، وفي ذلك يقول البراء بن عازب رضي الله عنه : « كنا واللَّه إذا أحمرَّ البأس نتَّقي به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به » [٤] .

---

(١) قال الأصمعي : يقال للفرس : بحر ؛ إذا كان واسع الجري ، أو لأن جريه لا ينفد كما لا ينفد البحر ، وهو الفرس البطيء . ابن حجر : الفتح ، ج ٥ ، ص ٢٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب الشجاعة في الحرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

(٣) أخرجه أحمد بلفظ آخر في المسند ، ج ١ ، ص ٨٦ ، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ، ج ٢، ص ٢٢٨ . وأبو الشيخ في : أخلاق النبي بإسناد صحيح ، ص ٥٧ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ، ج ٩ ، ص ١٢ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين ، ج ١٢ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

وقد تخرَّج من هذه المدرسة النبوية رجال أبطال خاضوا معارك فاصلة ضد المشركين في بدر وأُحد وحُنين وغيرها من المواقع ، فقدَّموا تضحيات جسيمة في سبيل نصرة دين اللَّه .

ومن هذه النماذج : ما حدث يوم أحد حينما أخذ رسول اللَّه ﷺ سيفًا فقال : « من يأخذ هذا مني ؟ » فبسطوا أيديهم ؛ كلُّ إنسان منهم يقول : أنا أنا ، قال : « فمن يأخذه بحقه ؟ » قال : فأحجم القوم ، فقال سِمَاك بن خرشة ؛ أبو دُجانة : أنا آخذه بحقِّه ، قال : فأخذه ففلق به هام المشركين [١] .

كما أبدى أنس بن النضر ﷺ في ذات الغزوة شجاعة منقطعة ؟ ؛ حيث وُجد في جسمه بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، حتى قالت أخته الرُّبَيِّع بنت النضر بأنها ما عرفته إلا ببنانه ، فنزلت هذه الآية ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

قال راوي الحديث أنس بن مالك : « فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه » [٢] .

وفي لفظ البخاري زيادة : « فلقي يوم أحد ، فهُزم الناس ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه .. فقتل ... » [٣] .

وروي من طريق ابن عباس ﵄ قال : جاء علي ﷺ بسيفه يوم أُحد قد انحنى ، فقال لفاطمة ﵂ : هاكي السيف حميدًا ، فإنَّها قد شفتني ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « لئن كنتَ أجدت الضرب بسيفك ، لقد أجاده سهل بن حنيف ، وأبو دُجانة ، وعاصم بن ثابت بن الأفلح ، والحارث بن الصمة » [٤] .

وفي غزوة مُؤتة حين اصطدم المسلمون بالروم ، كانت ملحمة عظيمة سجَّل فيها القادة الثلاثة - زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد اللَّه بن رواحة ﷺ - بطولات عظيمة ؛ فشاط زيد بن حارثة في رماح الروم فاستشهد ،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي دجانة ج ١٦ ص ٢٤ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ج ١٣ ص ٤٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ج ٥ ص ٣١ .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في السنن رقم ٢٨٥١ ج ٢ ص ٣٠٦ ، والحاكم في المستدرك وصححه ج ٣ ص ٢٤ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ج ٦ ص ١٢٣ .

وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، فعقر فرسه الشقراء ، وقاتل بالراية ، فقطعت يمينه ، فأمسكها بشماله فقطعت ، فاحتضن الراية حتى استشهد ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتردَّد يسيرًا ثم اندفع فقاتل حتى استشهد (١) .

على أن الشجاعة ليست إقدامًا وجرأة في القتال فحسب ، بل هناك أوصاف تتفرع عنها ، هي من مظاهرها كحبِّ النجدة ، وإغاثة الملهوف ، وارتفاع الهمَّة ، والسماحة ، والرحمة ، والصفح ، والرأفة ، والمروءة .

وفي آخر سورة التوبة حشد من هذه الصفات المتفرعة عن الشجاعة وُصف بها النبي ﷺ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

الكرم

لقد أقرَّ الإسلام الكرم ، وشجَّع الجود والسخاء ، وحثَّ على بذل المال لذوي القربى والمساكين ، وفي كل سبيل يعود على المسلمين بالخير والنفع . كما حثَّ على الإنفاق لتكون كلمة الله هي العليا ؛ فقرن بين الجهاد بالنفس وبذل الأموال في سبيل الله .

وكان النبي ﷺ قدوة المسلمين ؛ فكان عليه الصلاة والسلام أجود بالخير من الريح المرسلة (٢) ، وكان إذا سُئل شيئًا أعطاه ؛ لا يردُّ سائلًا (٣) ، ولقد انتقل إلى الرفيق الأعلى وما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا وليدًا ، وترك درعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير (٤) .

وكان بذل الصحابة ﷺ أيضًا مضرب الأمثال ؛ فلما قدم النبي ﷺ المدينة ، والماء الصالح للشرب قليل ؛ فليس هناك ما يُستعذب به إلا بئر رومة ، وكانت هذه البئر ليهودي يبيع ماءها بيعًا ، فلم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن (٥) ، فلفت النبي

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة ج ٣ ص ٤٣٣ - ٤٣٥ . ولم يسند ابن إسحاق قصة هذه الوقعة ، سوى عقر جعفر لفرسه ، وخبر تردُّد ابن رواحة ثم إقدامه ، ساقهما بإسناد حسن . أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ص ٤٦٨ .

(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) انظر البخاري : كتاب البيوع ، باب ذكر النسّاج ج ٣ ص ١٤ .

(٤) انظر أحمد : المسند ج ١ ص ٣٠٠ .

(٥) انظر الترمذي : السنن ج ٥ ص ٢٨٨ ، رقم ٣٧٨٣ ، وقال : حديث حسن . والبيهقي في السنن ، كتاب الوقف ج ٦ ص ١٦٨ ، وحسَّنه الألباني في إرواء الغليل ، رقم ١٥٩٤ .

ﷺ الأنظار إلى هذا المرفق الضروري فقال : « من يشتري بئر رومة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين » [١] ، فاشتراها عثمان ﷺ [٢] .

ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، جاء أبو طلحة الأنصاري ﷺ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! يقول الله تعالى في كتابه : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، وإن أحبَّ أموالي إلي بيرُحَاء - قال : - أي الراوي - وكانت حديقة كان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظل فيها ويشرب من مائها - فهي إلى الله وإلى رسوله ﷺ أرجو برَّه وذخره ، فضعها - أي رسول الله ﷺ - حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « بخ يا أبا طلحة ، ذلك مال رابح » [٣] .

ولما نزلت الآية الكريمة : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة ٢٤٥] ، قال أبو الدحداح ﷺ : يا رسول الله ! قد أقرضت ربي حائطي ، وفيه ستمائة نخلة ، فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالُها ، فنادى : يا أم الدحداح ! قالت : لبَّيك ، قال : اخرجي ، فقد أقرضته ربي [٤] .

وحين أخذ النبي ﷺ يتجهَّز لغزوة تبوك ، حثَّ على النفقة ، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله ، فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال ، رغم أن الظروف لم تكن مواتية لِمَا كان أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها [٥] .

وكان عثمان ﷺ أكثر المنفقين على جيش تبوك ؛ فقد جهَّز جيش العسرة ، حيث جاء بألف دينار في ثوبه ، فصبَّها في حجر النبي ﷺ ، فقال - عليه الصلاة والسلام - « ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا أبدًا ؟ » [٦] .

كما حمل أيضًا في هذه الغزوة على تسعمائة وأربعين بعيرًا ، ثم ستين

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المساقاة ، باب في الشرب ومن رأى صدقة الماء وَهِبَته ج ٣ ص ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٧٤ ، وابن سعد في الطبقات ج ١ ص ٥٠٦ .
(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الوصايا ، باب من تصدق إلى وكيله ج ٣ ص ١٩٢ .
(٤) قال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات ج ٩ ص ٣٢٤ .
(٥) انظر مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٥ ، وابن حجر : الفتح ، ج ٨ ص ١١١ .
(٦) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ، ج ١ ص ٥١٦ . وقال المحقق - وصي الله عباس - : إسناده صحيح . والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ج ٣ ص ١٠٢ .

فرسًا، فأتم بها الألف (١) .

ومن هذه الأمثلة يتبينَّ أن الصحابة ﷺ كانوا أسرع استجابة لداعي الحق في بذل أعزِّ ما يملكون ، وإنفاق الأموال الكثيرة ابتغاء مرضاة اللّٰه ، وبذل الصدقات والمعروف في سبيل اللّٰه احتسابًا وإيمانًا ، حتى كانوا نماذج سامقة وصالحة للاقتداء بها في كل عصر .

الوفاء

يعدُّ الوفاء من شيم وأخلاق العرب الأصيلة ؛ حيث إن الرجل منهم كان ينطق بالكلمة فتصبح عهدًا عليه أن يفي به ، وإلا عرَّض شرفه للإهانة والتجريح . فجاء الإسلام وألزم المؤمنين بالوفاء بالعهود والعقود ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة : ١] ، سواءً أكانت للأصدقاء أم للأعداء ؛ وذلك استجابة لأوامر اللّٰه ﷻ وتأسيًا بسيرة النبي ﷺ .

ومن أمثلة وفائه – عليه الصلاة والسلام – : موقفه يوم الحديبية عندما أتاه أبو بصير هاربًا من مكة ، وجاء رجلان من قومه يطلبان ردَّه حسب شروط الصلح ، فأبى النبي ﷺ إلا أن ينفذ الشروط ، فدعا أبا بصير فقال له : « يا أبا بصير ! إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت ، وإنا لا نغدر ، فالحق بقومك » ، قال : يا رسول اللّٰه ! تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ويعبثون بي ؟ . فأجابه النبي ﷺ بقوله : « اصبر يا أبا بصير ، فإن اللّٰه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومخرجًا » (٢) .

ومن وفائه أيضًا : موقفه – عليه الصلاة والسلام – من عثمان بن طلحة حاجب الكعبة في الجاهلية يوم الفتح الأعظم ، فلم أطمأن الناس وقضى النبي ﷺ طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ﷺ فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فدخلها وصلَّى فيها ، ثم خرج ، ثم جلس في المسجد ، فقام إليه علي ﷺ ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول اللّٰه ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى اللّٰه عليك ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : « أين عثمان بن طلحة ؟ » . فدعي له ، فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برٍّ ووفاء » (٣) .

---

(١) انظر أحمد في فضائل الصحابة ج ١ ص ٥١٦ ، وقال المحقق : رجاله ثقات .

(٢) رواه موسى بن عقبة في المغازي ص ٢٤٢ ، والبيهقي في السنن ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنَّف رقم ٩٠٧٣ ، ٩٠٧٤ ، ٩٠٧٥ ، ٩٠٧٦ ، ج ٥ ص ٨٣ – ٨٥ ، وذكره الحافظ في الفتح في سياق ولفظ مختلف من طريق ابن عائد وابن جريج ج ٨ ص ١٩ ، وقال الهيثمي =

وسار الصحابة ﷺ على نمط هذه الأخلاق الوفية ، ملتزمين بالعهود مع الأعداء قبل الأحبَّاء ، طاعة للَّه ﷻ ، وأسوة بنبيهم ﷺ .

ومثال ذلك : ما روى حذيفة بن اليمان ﷺ عن نفسه قال : « ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسيل فأخذنا كفار قريش ، قالوا : إنكم تريدون محمدًا ؟ فقلنا : ما نريده ، ما نريد إلَّا المدينة ، فأخذوا منَّا عهد اللَّه وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول اللَّه ﷺ ، فأخبرناه الخبر ، فقال : « انصرفا ، نفي لهم بعهدهم ، ونستعين اللَّه عليهم » [(١)] .

وخلاصة القول : لقد تأثر الصحابة ﷺ بالنبي ﷺ في مجال التربية - على مستوياتها المتعددة - تأثرًا بالغًا ، فاستمرت سيرة هذا الجيل الفريد امتدادًا لسيرته - عليه الصلاة والسلام - وهديه في الجهاد - بكل ضروبه - ففتحوا القلوب والعقول ، وفتحوا الآفاق والبلاد ، ونقلوا للناس هدي وخلق نبيهم ﷺ حيًّا ماثلًا ، فما انقضى عصرهم حتى أُنفقت كنوز كسرى وقيصر في سبيل اللَّه ، ودانت ملوك الأرض وجبابرتها للملَّة الإسلامية ، وأظهر اللَّه دينه على العالمين حتى دخلت فيه أو تحت سلطانه أمم الأرض المعمورة وقتئذ .

ولقد قصر نابليون حين وصف هذه المدَّة الهائلة بقوله : إن المسلمين فتحوا نصف العالم في نصف قرن ! فما كان النصف الآخر الذي بقي لم يفتح قط ، إنما كان حوشي وهامش الأرض التي إن لم تصلها جيوش الإسلام ، فقد غزتها ثقافته وحضارته عن طريق الرحالة والعلماء والتجار الذين جابوا مشارق الأرض ومغاربها [(٢)] .

كل ذلك عملوه وجاهدوه ﷺ ، لا على أنه مجرد نوافل وتطوعات ، ولا على أنه مهام هامشية تُقضى في أوقات الفراغ من الشواغل ، ولا على أنه وسيلة قطعية توصلهم للدرجات العُلى في الجنَّة ، بل كانوا يعملون ذلك كلَّه على أنَّه هو حقيقة

= في المجمع : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عبد اللَّه بن المؤمل ، وثقه ابن حبان وقال : يخطئ ، ووثَّقه ابن معين في رواية ، وضعفه جماعة ج ٣ ص ٢٨٥ . وقال العمري في السيرة الصحيحة : وردت في ذلك عدَّة أحاديث مرسلة ومنقطعة تقوى بمجموعها ج ٢ ص ٤٨٣ .

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الجهاد ، باب الوفاء بالعهد ج ١٢ ص ١٤٤ .

(٢) انظر : سفر بن عبد الرحمن ، ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٥٣ .

الإسلام ، وهو شعب الإيمان ، وهو أسنان ومفتاح الشهادتين ، وهو الطريق إلى الجنة إن سلم من الآفات والعوارض ؛ يعملون ذلك وقلوبهم وجلة ، مع خوفهم من التقصير ، وخوفهم من أن ترد عليهم أعمالهم ، وخوفهم من أن تعجل لهم حسناتهم ، كل ذلك حاضر في قلوبهم ، ماثل أمام أعينهم ، وذلك بفضل التربية النبوية المعطاءة المثمرة [١] .

* * *

(١) انظر : سفر بن عبد الرحمن ، ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٥٤ .






منهج النبي ﷺ في الدعوة

من خلال السيرة الصحيحة



الفترة المدنية



خصائص الفترة المدنية في مجال التخطيط

المبحث الأول : خطة مراحل تشريع الجهاد .

المبحث الثاني : خطة إدارة الصراع في مواجهة المشركين .

المبحث الثالث : البعد الإستراتيجي لخطة النبي ﷺ في مواجهة الروم البيزنطيين والتمهيد لفتح بلاد الشام .

المبحث الرابع : مراعاة الظروف المتغيرة في رسم الخطط الأمنية الاقتصادية .




تمهيد

من المعلوم أن سيرة النبي ﷺ في مكة ، ثم في المدينة ؛ كانت تسير وفق مخطط إلهي ، وكانت كل خطوة منها جزئية من منهج الحركة في هذا الدين .

ولهذا كانت الجماعة الأولى فذة في تركيبها ومنهجها ونموها وحركتها ؛ كل ذلك لأن عين اللَّه ترعاها ، ووحيه يربِّيها ويزكيها ويسدِّدها .

ولذا كانت المرحلية أو الانتقال من طور إلى طور هي السمة البارزة في السير الحركي للجماعة المسلمة ؛ من مرحلة بناء القاعدة إلى مرحلة تأسيس الدولة ، إلى مرحلة نشر الإسلام في ربوع الجزيرة .

على أن هذه الأطوار توازيها وتقابلها مراحل في تشريع الجهاد ، تتناسب مع نمو قوة المسلمين باطراد ، وتزايد حجمها وصلابة عودها ؛ وفق سنة التدرج ، حتى اشتدت وصارت صلبة متجذرة لا يمكن تفتيتها أو القضاء عليها .

وقد ضرب اللَّه ﷻ مثلًا لذلك في سورة الفتح : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح : ٢٩] الآية .

ويمكن الحديث عن هذه المراحل بصورة كلية ثم ننتقل بعد ذلك إلى التفاصيل والجزئيات في إطار مخطط مدروس يكشف النقاب عن الطريقة التي أدار بها النبي ﷺ الصراع ضد المشركين وأهل الكتاب في شبه جزيرة العرب وعلى مشارف بلاد الشام .

* * *

المرحلة الثانية

لقد سبق الحديث عن المرحلة الأولى من مراحل تشريع الجهاد ، وهي مرحلة « الإعداد » التي تميَّز بها العهد المكي ؛ وتتسم بكفِّ الأيدي والصبر وبناء القاعدة الصلبة التي تتحمل تكاليف ومشاق الجهاد في سبيل اللَّه .

ثم تلتها المرحلة الثانية التي تبدأ بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ وتمتاز بإباحة القتال من غير فرض ؛ لقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٣٩، ٤٠] .

ويلاحظ أن الإذن بالقتال في هذه المرحلة كان دفاعًا عن النفس ؛ ولذلك تمثلت طلائع حركة الجهاد الأولى في غزوات وسرايا مثل غزوة الأبواء وغزوة العشيرة (١) وسرية عبد اللَّه بن جحش (٢) وسرية حمزة بن عبد المطلب (٣) ، وقد استهدفت ثلاثة أمور :

١ - تهديد طرق تجارة قريش إلى الشام شمالًا واليمن جنوبًا في التعرض لقوافلها بغية إضعافها اقتصاديًّا .

٢ - عقد المحالفات وموادعة القبائل التي تقطن المنطقة لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش (٤) .

٣ - إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين ، ليعلموا أن نفوذ

---

(١) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة العشيرة ، ج ٥ ص ٢ ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، باب عدد غزوات النبي ج ١٢ ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر خليفة بن خياط : التاريخ ص ٦٣ . والبيهقي : السنن ج ٩ ص ١١ .

(٣) انظر موسى بن عقبة : المغازي ص ١١٨ . وخليفة : التاريخ ص ٦٢ .

(٤) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ص ٣٤٥ .

المسلمين لا يقتصر على السيادة في المدينة ، بل بوسعهم التحرك في الأطراف وما حولها من القبائل ، ومن ثَمَّ التأثير في مصالح المنطقة وعلاقاتها (١) .

المرحلة الثالثة

تتجلَّى في فرض القتال على المسلمين لمن يقاتلهم فقط ، لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ٩٠، ٩١] .

قال ابن تيمية رحمه الله بخصوص هذه الحالة : « ولم يُؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم ، بل قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ ﴾ [النساء : ٨٩] ، وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله ، وإن كانت الهدنة عقدًا جائزًا غير لازم » (٢) .

وقال في سياق آخر : « فَمن المعلوم من سيرة النبي ﷺ الظاهر علمه عند كلِّ من له علم بالسيرة : أنه ﷺ لما قدم المدينة لم يحارب أحدًا من أهل المدينة ، بل وادعهم ، حتى اليهود ، خصوصًا بطون الأوس والخزرج ؛ فإنَّه كان يسالمهم ويتألَّفهم بكل وجه .

وكان الناس إذ قدمها على طبقات : منهم المؤمن وهم الأكثرون ، ومنهم الباقي على دينه ، وهم متروك لا يُحارِب ولا يُحارَب ... حتى حلفاء الأنصار أقرهم النبي ﷺ على حلفهم » (٣) .

ويتمثل هدف الجهاد في هذه المرحلة في : رد اعتداء المعتدين على المسلمين دفاعًا عن العقيدة وعن النفس ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

---

(١) المرجع نفسه : ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح ج ١ ص ٧٣ .

(٣) ابن تيمية : الصارم المسلول على شاتم الرسول ، ص ٩٨ .

فعن أبي العالية رحمه الله في تفسير هذه الآية قال : « هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان الرسول ﷺ يقاتل من قاتله ويكفُّ عمَّن كفَّ عنه ، حتى نزلت سورة براءة » [1] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

أخرج ابن جرير الطبري رحمه الله بسنده إلى عروة بن الزبير : أن هذه الفتنة هي الفتنة الآخرة التي أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا بعدها إلى المدينة ، وخرج هو [2] .

وبعد ذلك أمر الله عز وجل المسلمين بقتال المشركين لصد عدوانهم ، وإزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا النداء الحق من غير عائق ، وحتى يروا نظام الإسلام مطبقًا ليعرفوا ما فيه من عدل وإصلاح لحياة البشر .

والفتنة أنواع

* **منها** : ما يمارسه الكفار من تعذيب المستضعفين من المؤمنين وتضييق الخناق عليهم ليرتدوا عن دينهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء : ٧٥] الآية [3] .

* **ومنها** : الأوضاع والأنظمة الكفرية وما ينتج عنها من فساد في شتى مجالات الحياة ؛ فإن هذه من شأنها أن تفتن المسلم عن دينه ، وبهذا فسر بعض السلف قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ، قالوا : إن الفتنة الشرك ونحوه [4] .

المرحلة الرابعة

وفيها قتال جميع الكفار من كل الأديان ابتداءً وإن لم يبدأوا بقتال ، حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

---

(١) ابن كثير : التفسير ج ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : ابن جرير الطبري : جامع البيان ج ١٣ ص ٥٣٩ ، الأثر ١٦٠٨٣ ، تحقيق محمود شاكر .

(٣) انظر محمد الأحمد : حديث القرآن عن الجهاد في سبيل الله ، ص ١١٠ .

(٤) المرجع نفسه ص ١١٠ .

وهذه المرحلة بدأت بعد انقضاء أربعة أشهر من حجِّ السنة التاسعة للهجرة ، وبعد انقضاء العهود المؤقتة [١] .

وقد توفي الرسول ﷺ والعمل على هذه المرحلة ، وعليها استقر حكم الجهاد ضد فارس والروم في عصر الخلفاء الراشدين .

ودليل هذا الأمر : قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] .

وقوله جل ذكره : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

قال ابن القيم رحمه الله : « فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة ، ثم آل حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا قسمين : محاربين ، وأهل ذمة » [٢] .

ومن أهداف الجهاد في هذه المرحلة

١ - كف الكفار عن صدهم من تحت ولايتهم عن استماع الحق ، وإقامتهم سدًّا منيعًا أمام دين اللَّه ؛ لئلا يدخله الناس ، فجاء الأمر من اللَّه عز وجل بمبادءة المشركين والكافرين بالقتال لتمكين العقيدة الإسلامية من الانتشار دون أي عقبات تضعها قوى الكفر والشرك إزاءها ، لتصبح كلمة اللَّه هي العليا في الأرض ، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا .

والهدف الذي يسعى المسلمون إلى تحقيقه في هذه المرحلة إذًا : هو حرية اعتناق الناس للإسلام في سائر أرجاء المعمورة ، وتكوين القوة العسكرية والسياسية اللازمة لدعم هذه الحرية ، وحماية المسلمين الجدد [٣] ، بكسر الحواجز التي تضعها الأنظمة الكافرة دون شعوبها كي لا تدخل في دين اللَّه .

---

(١) انظر ابن القيم : زاد المعاد ، ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ١٦٠ .

(٣) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ص ٣٣٩ .

٢ - **إرهاب الكفار وإذلالهم وإغاظتهم** ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٤] .

وقوله عز من قائل : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

٣ - **تأديب المتمردين والناكثين للعهود المنتهزين غِرة المسلمين وسماحة الإسلام وأهله** ؛ لقوله تعالى في حق نقض العهود والمواثيق : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] .

٤ - **حماية الدولة الإسلامية من غارات الكفار** ، ولأجل ذلك شُرع الرباط على الثغور لحماية أراضي المسلمين من المتربصين بها ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، ولقول النبي ﷺ : « رباط يوم في سبيل اللَّه خير من الدنيا وما عليها » ... الحديث [(١)] .

لكن هل هذه المرحلة ناسخة لما قبلها من المراحل أم لا ؟

هذا يُفرَّق فيه بين حال القوة وحال الاستضعاف : فمن كان ذا قوة ومنعة ودولة ؛ فحاله كالحال التي آلت إليها دولة رسول اللَّه ﷺ ؛ إذ تُعدُّ المراحل السابقة منسوخة في حقه ، ولا يجوز العمل بها البتة .

ومن كان في ضعف وذلٍّ ولا دولة ؛ فإن المراحل السابقة غير منسوخة في حقه ، بل يعمل بما يناسب ظرفه الذي يعيش فيه ، ويراعي سنة التدرج في الانتقال عبر المراحل المشار إليها آنفًا ، كما هو حال النبي ﷺ والمسلمين في دعوتهم .

وفي هذا الأمر يقول ابن تيمية رحمه الله : « ... فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف ، أو في وقت هو فيه مستضعف ؛ فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي اللَّه ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين ، أما أهل القوة ؛ فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين ، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » [(٢)] .

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب فضل رباط يوم في سبيل اللَّه ج ٣ ص ٢٢٤ .
(٢) ابن تيمية : الصارم المسلول ص ٢١٤ - ٢١٥ .

المبحث الثاني خطة إدارة الصراع في مواجهة المشركين

تتمثل خطة الردع الإسلامية في بناء القوة ، وفي التخطيط الذي يأخذ بالحسبان أشكالًا وصورًا متعددة من المواجهات والترتيبات ، التي تهدف لإرهاب العدو وشلِّ حركته وفاعليته جزئيًّا أو كليًّا ، حسب الظروف والإمكانات المتاحة .

وتتجلى إستراتيجية الإعداد وبناء القوة في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وقول النبي ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » [1] .

وتدلُّ إحصاءات معارك عصر النبوة على تطبيق نظرية الردع عمليًّا ؛ حيث تم توجيه عدد من السرايا والغزوات إلى مناطق مختلفة ، وحققت هذه العمليات أهدافها بأساليب ووسائل مختلفة ، تكشف عن عبقرية في التخطيط ، وكفاءة ممتازة في إدارة الصراع .

فمن هذه الغزوات والسرايا ما حقق هدفه بإظهار القوة ، ولم يقع فيها قتال بالمعنى المفهوم للقتال ، وإنما مجرد مناوشات أحيانًا ، أو سقوط بعض الضحايا لإيقاع الرهبة في قلب العدو .

ومنها : ما حقق أهدافه بالقتال لردع الخصم ، وشلِّ حركته ، وصدِّه عن التفكير في العدوان .

ومنها : ما حقق أهدافه بإجهاض تدابير العدوان ، لحرمان العدو من ميزة المفاجأة ، والمبادأة ، وحرية الحركة .

ومنها : ما حقق أهدافه بتأديب المعتدين ، وكسر شوكتهم لئلا يفكروا في العدوان مرة أخرى .

ومنها : ما حقق أهدافه بتهديد طرق تجارة العدو ، وحصاره اقتصاديًّا للضغط عليه قصد الاستسلام ، أو إضعاف طاقاته وقدراته المادية والبشرية .

ومنها : ما حقق أهدافه بانتزاع المبادرة من العدو ، لكسب القدروة الهجومية ،

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب قول النبي ﷺ نصرت بالرعب ج ٤ ص ١٢ .

وحصر الخصم في نطاق ضيق .

ومنها : ما حقق أهدافه بتجريد العدو من الحُلفاء ، لحرمانه من قوى يمكن أن تسانده ، وتشد له الدعم المادي والمعنوي .

الصورة الأولى : الردع بإظهار القوة

تجلت هذه الصورة في عدة غزوات مثل :

غزوة الأبواء : وتسمى كذلك غزوة وَدَّان : في الثاني عشر من صفر من سنة اثنتين للهجرة [١] .

وغزوة بُواط : في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة [٢] .

وغزوة ذو العُشَيْرة : في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة [٣] .

ولم يقع قتال في هذه الغزوات ، وإنما تمَّ إشعار القبائل المقيمة في محيط المدينة بأن نفوذ المسلمين لا يقتصر على المدينة فحسب ؛ بل بإمكانهم التغلغل في الأطراف ، ومن ثَمَّ التأثير في ميزان القوى بالمنطقة .

إجلاء بني قينقاع [٤] : لما انتصر المسلمون في غزوة بدر ، لم يُخْفِ بنو قينقاع غضبهم ونقمتهم ، بل بلغ بهم الأمر إلى حد المجاهرة بالعداء واستفزاز المسلمين [٥] .

ولما أظهروا صريح العداء ؛ خاف النبي ﷺ خيانتهم ، فحاصرهم خمس عشر ليلة حتى نزلوا على حكمه ، على أنه له أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية [٦] ثم أمر بجلائهم [٧] ، فلحقوا بأذرعات من بلاد الشام [٨] .

---

(١) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة العشيرة ، ج ٥ ص ٢ . وموسى بن عقبة ، المغازي ص ١١٩، وخليفة : التاريخ ص ٥٦ .

(٢) انظر مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الزهد ، باب حديث جابر الطويل ج ١٨ ص ١٣٨ ، وابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٣) انظر مسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب عدد غزوات النبي ﷺ ج ١٢ ص ١٩٥ .

(٤) ذكر الزهري أنه كان في شوال سنة ٢ هـ والطبري : التاريخ ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٥) انظر أبو داود : السنن ، كتاب الخراج ، رقم ٣٠٠١ ج ٣ ص ١٥٤ - ١٥٥ . وابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس . ابن حجر : الفتح ، ج ٧ ص ٣٣٢ .

(٦) انظر ابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٤٢٨ ، والطبري : التاريخ ج ٢ ص ٤٨١ . والبيهقي في الدلائل ج ٣ ص ١٧٤ .

(٧) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حديث بني النضير ج ٥ ص ٢٢ .

(٨) انظر الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٧٦ ، وابن سعد في الطبقات ج ٢ ص ٢٩ .

وفيهم نزل قول اللَّه تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران : ١٢، ١٣] (١) .

إجلاء بني النضير (٢) : يرجع سبب حصارهم إلى أن النبي ﷺ ذهب إليهم ليستعين بهم على دفع دية رجلين معاهدين قتلهما خطأً عمرو بن أمية الضمري في أعقاب حادثة بئر معونة ، فجلس النبي ﷺ إلى جدار بني النضير ، فهمُّوا بالغدر ؛ إذ تمالأ القوم على إلقاء حجارة عليه من أعلى الحصن لقتله ، فأخبره الوحي بذلك ، فانصرف عنهم مسرعًا إلى المدينة ، ثم أمر بحصارهم ، فنزلوا على الصلح بعد حصار دام ست ليال (٣) .

وقد ثبت بنص القرآن الكريم والحديث : أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخيلهم لحملهم على الاستسلام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٥] (٤) .

وتحت ضغط الحصار تقرَّر جلاؤهم عن ديارهم بموجب معاهدة تحقن دماءهم ، وتسمح لهم بحيازة ما تحمله إبلهم من المتاع والأموال ، باستثناء السلاح ، فيتركونه للمسلمين (٥) .

وفيهم نزلت سورة الحشر : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ [الحشر : ١- ٣] .

---

(١) انظر ابن كثير : التفسير ج ١ ص ٣٥٠ .

(٢) كان في ربيع الأول من سنة ٤ هـ . الواقدي : المغازي ج ١ ص ٣٦٣ ، وابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) انظر موسى بن عقبة : المغازي ص ٢١٠ ، وابن هشام : السيرة ج ٣ ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٤) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حديث بني النضير ، ج ٥ ص ٢٢ .

(٥) انظر عبد الرزاق : في المصنف ج ٥ ص ٣٥٨ - ٣٦١ ، وأبو داود في السنن رقم ٣٠٠٤ ، ج ٣ ص ١٥٧، والحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٤٨٣ .

وقد نتج عن إجلاء بني النضير : كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة ؛ حيث جدَّد يهود بني قريظة وثيقة المعاهدة مع المسلمين [١] ، ولم ينجز المنافقون وعدهم لبني النضير بالنصر [٢] ، وقوي كيان المسلمين بالإفادة من أراضيهم بإقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم على الأنصار [٣] .

حصار بني قريظة [٤] : وقع حصارهم عقب غزوة الأحزاب التي كانت في شوال سنة خمس للهجرة . ويرجع سبب هذه الغزوة إلى خفر بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ في وقت حرج وخطير بالنسبة للمسلمين الذين كانوا محاصرين من جيش الأحزاب في غزوة الخندق [٥] .

وقد أمر اللَّه تعالى نبيه بحصار بني قريظة بعد عودته من الخندق ووضعه السلاح ، فوثب فزعًا وعزم على أصحابه ، ألَّا يصلوا العصر إلا في بني قريظة [٦] ، وأخبرهم بأن اللَّه تعالى أرسل جبريل عليه السلام ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب [٧] .

ويروي أنس بن مالك رضي الله عنه - وهو شاهد عيان - : « كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم ، موكب جبريل حين سار رسول اللَّه ﷺ إلى بني قريظة » [٨] .

وقد حاصرهم النبي ﷺ خمسة وعشرين ليلة [٩] ، ولما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بقتل المقاتلة ، وسبي الذرية ، وأن تقسم أموالهم ، فقال النبي ﷺ : « قضيت فيهم بحكم اللَّه » [١٠] وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ

---

(١) انظر عبد الرزاق : المصنف ج ٥ ص ٣٦٠ .

(٢) الآيتان ١١ - ١٢ من سورة الحشر ، وانظر : تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٣) انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر ج ٢ ص ٥٠ - ٥١ ، وأكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ج ١ ص ٣١١ .

(٤) كان حصارهم في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة سنة ٥ هـ . الواقدي : المغازي ج ٢ ص ٤٩٦ ، وابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٧٤ .

(٥) انظر عبد الرزاق : المصنف ج ٥ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ، وأبو نعيم في الدلائل رقم ٤٣٦ ، ج ٢ ص ٦٤٦ - ٦٤٧ .

(٦) انظر البخاري : المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ج ٥ ص ٤٩ .

(٧) انظر موسى بن عقبة : المغازي ص ٢٢٣ ،وابن هشام : السيرة ، ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٨) أخرجه البخاري : كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، ج ٥ ص ٥٠ .

(٩) انظر أحمد : المسند ، ج ٢١ ص ٨١ - ٨٣ ، وقال الهيثمي في المجمع : رجاله ثقات ، ج ٦ ص ١٣٧ .

(١٠) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ج ٥ ص ٥٠ .

تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦، ٢٧] .

وقد جنح بعض المؤرخين المعاصرين إلى نفي الروايات التي لها علاقة بالعقوبة التي واجهتها بنو قريظة ، بزعمهم أنها تخدش المشاعر الإنسانية وتخدم الدعاية الصهيونية .

على أنَّ العقوبة بنصِّ القرآن والسنَّة ، ولم تكن شديدة إلَّا جزاءً للخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدروا بالمسلمين ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل ، وأموالهم للسلب ، ونساءهم وأبناءهم للسبي ، فعوقبوا بذلك جزاءً وفاقًا . ولازالت الأعراف الدولية إلى الوقت الحاضر تحكم بقتل الجواسيس والخونة المتواطئين مع الأعداء [١] .

غزوة ذات الرقاع : وبعد فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة كانت غزوة ذات الرقاع ، حيث اقترب المسلمون من جموع غطفان دون أن يقع قتال بينهم ، ولكن أخاف بعضهم بعضًا ، حتى صلى المسلمون صلاة الخوف في مكان يبعد عن المدينة بيومين يدعى نخلاً [٢] .

فتح مكة : وفي شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة خرج المسلمون بقيادة النبي ﷺ إلى مكة في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل [٣] .

وفي مرِّ الظهران عسكر المسلمون وعميت أخبارهم عن قريش ، فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء الخُزاعي يتحسَّسون الأخبار ، فالتقى بهم العبَّاس بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان وصاحباه يتناقشون بينهم في أمر الجيش المعسكر بمرِّ الظهران ، وقد ظنَّه بعضهم خُزاعة ، مما يدلُّ على نجاح المسلمين في كتمان خبر تقدُّمهم إلى مكة . فلمَّا أخبرهم العباس بأنَّه جيش المسلمين ، سألوه عن رأيه ، فطلب من أبي سفيان أن يمضي معه إلى معسكر المسلمين . وفي الطريق أطلعه العباس على قوة المسلمين ، حيث استعرض الجيش أمامه بأمر من الرسول ﷺ ، فأدرك أبو سفيان قوة المسلمين ، وأنه لا قبل لقريش بهم ، حتى إذا مرَّت به كتيبة المهاجين والأنصار ، لا يُرى منهم إلا العيون ،

---

(١) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع ، ج ٥ ص ٥١ .

(٣) انظر البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الفتح في رمضان ، ج ٥ ص ٩٠ ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ج ٣ ص ٤٣ - ٤٤ .

متلبّسين بالحديد ، قال : والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم لعظيم ، فقال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! إنها النبوة ، قال : نعم إذًا .

ومضى أبو سفيان إلى مكة ، فأخبر قريشًا بقوة المسلمين ، ونهاهم عن المقاومة (١) .

حصار الطائف : وبعد أن هزم المسلمون « هوازن » في موقعة حُنين اتجهوا في شوال سنة ثمان إلى الطائف حيث تحصّنت « ثقيف » ، فحاصروها بضع عشرة ليلة (٢) .

ويستشف من الروايات أن النبي ﷺ لم يقصد بحصار الطائف فتحها ، بل إظهار القوة وكسر شوكة « ثقيف » ، وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين ، وأنهم متى شاءوا دخلوها (٣) .

غزوة تبوك : وفي رجب من سنة تسع للهجرة خرج الرسول ﷺ إلى تبوك في جيش كثير العدد (٤) ، حدّدته بعض الروايات بثلاثين ألف مقاتل (٥) ، وهو أكبر جيش قاده النبي ﷺ في حياته .

وذكر ابن سعد أن هرقل جمع جموعًا من الروم وقبائل العرب الموالية لها ، وأن المسلمين علموا بخبرهم فخرجوا إلى تبوك (٦) .

ولكن الصحيح أنها استجابة طبيعية لفريضة الجهاد (٧) ؛ حيث نبّه على ذلك الحافظ ابن كثير بقوله : « فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم ؛ لأنهم أقرب الناس إليه ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم من الإسلام وأهله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣] » (٨) .

ولم يقع قتال مع الروم في هذه الغزوة ، بل انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع ج ٦ ص ١٧٦ ، وقال الحافظ في المطالب العالية : أخرجه إسحاق بن راهويه ، وهذا حديث صحيح ، رقم ٤٣٦٢ - ج ٤ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) انظر موسى بن عقبة في المغازي ، ص ٢٨٧ ، والطبري في التاريخ بإسناد حسن إلى عروة ، ج ٣ ص ٨٢ .

(٣) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف ، ج ٥ ص ١٠٢ .

(٤) انظر : البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك ج ٥ ص ١٣٠ .

(٥) انظر : الواقدي : المغازي ج ٣ ص ٩٩٦ ، وابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٣٧٧ ، وابن حجر : الفتح ج ٨ ص ١١٨ ، وعزاه إلى الحاكم في الإكليل .

(٦) انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ١٦٥ .

(٧) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ص ٥٢٢ .

(٨) ابن كثير : التفسير ج ٤ ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

جموع الروم والقبائل العربية المتنَصِّرة ، وإزاء إظهار المسلمين للقوة آثر حكام المدن الصلح ؛ فصالح النبي ﷺ أُكَيدَر بن عبد الملك الكندي ملك دومة الجندل على الجزية (١) ، كما وصلت إلى تبوك هدية ملك « أيلة » للنبي ﷺ وهي : بغلة بيضاء ، وبرد ، فصالحه على الجزية (٢) .

وتكشف صورة الردع بإظهار القوة عن عدة أهداف من بينها : إيقاع الرهبة في قلوب الأعداء ، وإشعارهم بأنَّ المسلمين قادرون على زجرهم ، وإخافتهم من عاقبة عدوانهم ، لتجريدهم من إرادة القتال .

الصورة الثانية : الردع بالقتال

وتتمثل في عدة غزوات :

غزوة بدر : في شهر رمضان من سنة اثنتين للهجرة ، بلغ إلى المسلمين خبر تحرك قافلة كبيرة لقريش عائدة من الشام فترصدوها ؛ حيث أرسل النبي ﷺ بسَبَس بن عمرو ؓ لاستطلاع أخبار هذه القافلة ، فلما رجع إليه بخبرها ؛ ندب أصحابه للخروج ، وتعجَّل بمن كان مستعدًا دون أن ينتظر من رغب في الخروج من سكان العوالي لئلا تفوتهم القافلة (٣) .

ولكن اللَّه ﷻ أراد أمرًا آخر ؛ وهو مواجهة جيش المشركين ليكون ذلك اليوم – يوم بدر – فرقانًا بين الحق والباطل : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٧] .

وبعد استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في أمر القتال (٤) ؛ توجَّه المسلمون إلى بدر (٥) .

وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان ، التقى الجيشان في ملحمة قتل فيها

(١) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ٢٩٨ ، وابن هشام : السيرة ج ٤ ص ١٨٢ .

(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجزية ، باب إذا وادع الإمام ملك القرية هل يكون ذلك لبقيتهم؟ ج ٤ ص ٦٤ .

(٣) انظر : مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، ج ١٣ ص ٤٥ . وابن هشام : السيرة ، بسند صحيح ، ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٤) من رواية ابن إسحاق بسند صحيح ، ابن كثير : السيرة النبوية ، ج ٢ ص ٣٩١ – ٣٩٣ ، وقال في البداية والنهاية : له شواهد من وجوه كثيرة .

(٥) موسى بن عقبة : المغازي ص ١٢٦ .

عدد من زعماء المشركين ، ولحقت بقريش الهزيمة ، حيث أصيب أربعون ومائة منهم ؛ سبعون أسيرًا ، وسبعون قتيلًا (١) .

وقد ثبت في القرآن الكريم والحديث الشريف أن اللَّه تعالى أمدَّ المسلمين بالملائكة في هذه الغزوة (٢) .

وأما عن حكمة اشتراك الملائكة في القتال ببدر ، مع أن جبريل وحده قادر على إهلاكهم بأمر اللَّه ﷻ : فيوضحها السبكي بقوله : وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه ، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش ؛ رعاية لصورة الأسباب وسنَّتها التي أجراها اللَّه تعالى في عباده ، واللَّه تعالى هو فاعل الجميع ، واللَّه أعلم (٣) .

وهذا يكشف عن طبيعة الإسلام في تحقيق أهدافه معتمدًا – بعد اللَّه ﷻ – على الجهد البشري ، وفي حدود السنن والقوانين الطبيعية والاجتماعية (٤) .

أما العوامل التي تفسر الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون في بدر فهي :

١ – العقيدة الراسخة : وتتجلى في إيمان قوي باللَّه ﷻ لا تزعزعه الخطوب والشدائد ؛ فهم مستعدُّون في سبيل عقيدتهم للتضحية بالغالي والنفيس . فعندما استشار النبي ﷺ أصحابه قُبيل التوجه إلى بدر ؛ قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول اللَّه ! امض لما أراك اللَّه ، فنحن معك ، واللَّه لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ؛ فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِمَاد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فقال له رسول اللَّه ﷺ خيرًا ودعا له (٥) .

أما خروج قريش : فلم يكن إلَّا رياءً وبطرًا لتسمع العرب بمسيرها ، وما ذلك إلا طيش وغرور وعصبية قبلية : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ

---

(١) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حدثني عبد اللَّه بن محمد الجعفي ج ٥ ص ١١ .

(٢) انظر الآيات ١٢٣ – ١٢٦ من آل عمران ، ٩ ، والآيات ١٠ ، ١٢ من الأنفال ، وصحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٢ ص ٨٥ – ٨٦ .

(٣) نقلًا عن الحافظ في الفتح ، ج ٧ ص ٣١٣ .

(٤) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٥) له أصل في الصحيح : البخاري : كتاب المغازي ، باب قول اللَّه تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ ج ٥ ، ص ٤ . ورواه ابن هشام في السيرة بسند صحيح ، حيث صرح ابن إسحاق بالسماع ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ، وقال الهيثمي : أخرجه الطبراني بسند حسن ، ج ٦ ، ص ٧٣ – ٧٤ .

ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

٢ – **المعنويات العالية** : لقد أثبتت كافة الحروب في حقب التاريخ المختلفة أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلَّ المقاتلون بالمعنويات العالية .

وقد كانت معنويات المسلمين في بدر عالية جدًّا ، لثقتهم الأكيدة بوعد اللَّه ونصره .

وكشف النبي ﷺ عن ذلك الموقف النفسي قبيل المعركة : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل معتجر بعمامته ، آخذ بعنان فرسه يقوده ؛ على ثناياه النقع ، أتاك نصر اللَّه وعدته » (١) .

وفي رواية أخرى : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب » (٢) .

٣ – **الشورى** : التزم النبي ﷺ بمبدأ التشاور مع أصحابه عندما أتاه خبر مسير قريش إلى المسلمين بعددها وعُدَّتها ؛ فاستشار من معه من أصحابه ، فتكلَّم المهاجرون وقالوا خيرًا ، لكنَّ النبي ﷺ كان يريد أن يعرف وجهة نظر الأنصار ، فوافقوا بدورهم على المضي مع الرسول ﷺ حيث أراد ، حتى قال قائلهم : « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلَّف منَّا رجل واحدًا » (٣) .

بينما ظهرت الخلافات في جيش المشركين ، حيث كان بعضهم يريد العودة دون قتال المسلمين حين علم بنجاة القافلة ، وأصر آخرون على القتال (٤) .

٤ – **الثقة المتبادلة** : كما كانت الثقة متبادلة بين القائد وجنده عندما صدَّر النبي ﷺ ثلاثمائة وبضع عشر من أصحابه لقتال جيش يزيد على الألف في كامل السلاح والعُدَّة .

وكانوا بدورهم واثقين بقائدهم بإدارة تلك المعركة ، وإن كانت تبدو الكفَّة في

---

(١) رواه موسى بن عقبة في المغازي ، ص ١٣٦ ، وابن كثير في السيرة ج ٢ ، ص ٤٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدرًا ، ج ٥ ، ص ١٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة بدر ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ ، وابن كثير : البداية والنهاية من رواية ابن إسحاق . قال : له شواهد من وجوه كثيرة ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ .

(٤) انظر : الزهري : المغازي ص ٦٤ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤، والهيثمي : كشف الأستار رقم ١٧٦١ ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

العدد والعدَّة غير متكافئة [١] .

٥ – **القابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح** : لقد كان قرار النبي ﷺ بالدخول في معركة بدر – رغم تضاعف قوة الأعداء على قوة المسلمين بما يزيد على ثلاثة أضعاف [٢] – دليلًا على شجاعة فائقة بعد تقدير سريع وحكيم للأمور [٣] .

٦ – **معرفة تضاريس أرض المعركة والسيطرة على مصادر المياه** : لقد كان من حسن حظ المسلمين أنهم كانوا على علم ودراية بتضاريس أرض بدر . وهذه المنطقة عبارة عن سهل بيضاوي الشكل ، يبلغ طوله حوالي ثمانية كيلو مترات ، وعرضه قرابة ستة كيلو مترات . وتحيط بالسهل بعض السلاسل الجبلية المرتفعة ، ويمر بالقرب منه وادي الصفراء .

ومن أهم المرتفعات المحيطة ببدر : كثيبان رمليان أحدهما : يعرف باسم العنفقل وكان بالعُدوة القصوى ، أما الآخر : فكان بالعُدوة الدنيا [٤] .

اختار المسلمون مكانًا لمعسكرهم بالعُدوة الدنيا ، وجاءت قريش ونزلوا بالعُدوة القصوى [٥] . وكان نزول المطر توفيقًا من اللَّه ﷻ[٦] ؛ إذا استغل النبي ﷺ فرصة تلبُّد رمال المنطقة التي نزل بها المسلمون بسبب المطر ، وزحف بجيشه ليحتل أدنى ماء من بدر ، بينما أعاقت لزوجة الأرض التي عسكر عليها المشركون حركتهم بعض الوقت [٧] .

وهنا جاء الحباب بن المنذر ﷺ ، وقد أدرك بثاقب بصره أهمية السيطرة على موارد المياه بالنسبة للمعركة ، فأشار على النبي ﷺ بأن يترك مياه بدر خلفه لئلَّا يستفيد منها المشركون ، فقبل النبي ﷺ مشورته وأمر بمصادر المياه فغورت ، وبنى

---

(١) انظر علي التركي : دروس موضوعية من السيرة ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٢) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب عدة أصحاب بدر ، ج ٥ ، ص ٥ ، وأحمد : المسند ج ١ ، ١١٧ ، وقال الهيثمي في المجمع : رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب ؛ وهو ثقة ج ٦ ، ص ٧٦ .

(٣) انظر علي التركي : دروس موضوعية من السيرة ص ١٠٥ .

(٤) انظر : طه الفرا : جغرافية موقعة بدر ، ص ١٠ .

(٥) انظر : الآية ٤٢ من سورة الأنفال .

(٦) انظر : الآية ١١ من سورة الأنفال .

(٧) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ١٣١ ، وابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٢٥٩ .

حوضًا على القليب الذي نزل عليه فمُلئ ماءً [١] .

ومن أهم نتائج هذه الغزوة

أ - تُعدُّ بدر بداية لعهد جديد ؛ فقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل ، وكانت فصلًا بين عهدين : عهد الصبر والمصابرة والتجمُّع والتحفُّز والانتظار ، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع [٢] .

ب - كما لَاحَ في الأفق واقع جديد تبدَّلت فيه الموازين ؛ فقد شاهد المسلمون من خلال الواقع العملي أن القوة المادية والعددية ليست هي عوامل النصر الحاسمة ، وإنما هناك عوامل أخرى غير منظورة هي : الإيمان ، والصبر ، والتقوى ، وهي التي تحدد سلفًا نتيجة المعركة وفقًا لسنَّة اللَّه في النصر .

ج - بل يمكن القول أنَّ بدرًا سجَّلت نصرًا مؤزرًا للإسلام وتوطيدًا لأركان دولته الناشئة في المدينة ؛ حيث استعلى المسلمون على اليهود وبقايا المشركين والمنافقين . وبالمقابل كانت هزيمة نكراء لمعاقل الشرك والوثنية في شبه جزيرة العرب ، وإيذانًا بنهاية عهديهما .

غزوة أُحد : وفي شوال من السنة الثالثة للهجرة وقعت معركة أُحد نتيجة هجوم شنَّته قريش على المدينة مستهدفة الثأر لقتلاها ببدر [٣] ، وإنقاذ طرق التجارة إلى الشام من هيمنة المسلمين ، واستعادة مكانتها عند العرب بعد أن زعزعتها موقعة بدر [٤] .

ولما علم المسلمون بقدوم جيش المشركين ، خرجوا لملاقاته بعد أن شاور النبي ﷺ أصحابه [٥] .

وخرج الجيش الإسلامي إلى ميدان أُحد ، واتخذ موقعه بموجب خطَّة محكمة ؛ حيث نظم الرسول ﷺ صفوف جيشه ، جاعلًا ظهورهم إلى جبل أُحد

---

(١) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ١٣١ ، وابن هشام : السيرة ، ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ١ ص ٣٠٢ .

(٢) انظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٥٢٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣ .

(٤) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٥) انظر : عبد الرزاق في المصنف ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ ، وأحمد في المسند ج ٣ ، ص ٣٥١ ، وقال الهيثمي : المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ج ٦ ، ص ١٠٧ .

ووجوههم تستقبل المدينة (١) ، وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبد اللَّه بن جُبير فوق جبل عَينين المقابل لأُحد ؛ لحماية جيش المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم ، وشدَّد الأمر بلزوم أماكنهم بقوه : « لا تبرحوا ؛ إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » (٢) .

وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش الذي تقدَّم وهو يواجه أُحد وظهره إلى المدينة (٣) .

وعندما احتدم القتال رجحت كفَّة المسلمين في البداية ، وأخذ المشركون يتراجعون إلى الخلف حين رأوا بأس المسلمين . وإلى ذلك تشير الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ (٤) [آل عمران : ١٥٢] وإلى هذا ذهب ابن عباس ﷺ في قوله : ما نصر اللَّه تبارك وتعالى كما نصر في يوم أُحد ، فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب اللَّه تبارك وتعالى ؛ إنَّ اللَّه ﷻ يقول في يوم أُحد : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] عني بهذا الرماة » (٥) .

إذ لمَّا رأى الرماة هزيمة المشركين قالوا لعبد اللَّه بن جبير : « الغنيمة ! أي قوم الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ فقال عبد اللَّه بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول اللَّه ﷺ ؟ قالوا : واللَّه لنأتينَّ الناس فلنصيبنَّ من الغنيمة » (٦) ، فانطلقوا يجمعون الغنائم .

وفي تلك اللحظة انتهز خالد بن الوليد - وكان على خيالة المشركين - الفرصة للالتفاف حول المسلمين ، وأحاطوا بهم من جهتين ، وكرَّ المسلمون منهزمين (٧) .

---

(١) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ١٨٥ ، وابن هشام : السيرة ج ٣ ، ص ١٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، ج ٥ ص ، ٢٩ .

(٣) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

(٤) الحس : القتل : ابن منظور : اللسان ، ج ١ ، ص ٦٣٥ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والحاكم في المستدرك ، ووافقه الذهبي على صحته ج ٢ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٦) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ج ٤ ص ٢٦ .

(٧) انظر البيهقي في الدلائل ج ٣ ص ٢٢٨ . وقال الحافظ في المطالب العالية : أخرجه إسحاق بن راهويه ، وهذا إسناد صحيح رقم ٤٣١٣ ، ج ٤ ص ٢١٧ .

وقد حكى القرآن الكريم خبر فرارهم والعفو عنهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

ويمكن القول بأنَّ ما أصاب المسلمين من بلاءٍ يوم أُحد كان درسًا سمَّاه القرآن الكريم ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ أصابت الأتباع لعدم تنفيذهم أوامر القائد بدقَّة .

قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

وحادث كهذا يعدُّ بتعبير العسكريين خسارة تكتيكية ، ولم يكن هزيمة إستراتيجية (١) .

غزوة خيبر : لعب يهود خيبر دورًا كبيرًا في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك ، ثم سعيهم الناجح في إقناع بني قريظة بنكث العهد الذي أبرموه مع المسلمين ، وتعاونهم مع الأحزاب في غزوة الخندق (٢) .

فلما ردَّ اللَّه ﷻ كيد الأحزاب عن المدينة ، اهتم النبي ﷺ بمعالجة الموقف في خيبر ؛ إذ صارت تشكِّل مصدر خطر كبير على المسلمين .

وكان صلح الحديبية الذي وقع سنة ستٍّ من الهجرة بين المسلمين وقريش قد أتاح الفرصة أمام المسلمين ليتفرَّغوا لفتح خيبر . وقد ذكر موسى بن عقبة - وهو إمام ثقة في المغازي - أن اللَّه ﷻ وعده إيَّاها وهو بالحديبية (٣) .

انطلق المسلمون إلى معاقل يهود بخيبر في مُحرَّم من السنة السابعة للهجرة (٤) . ولما نزل النبي ﷺ بأرضهم فاجأهم عند الغلس (٥) ، فأخذ أبو بكر ﷺ راية رسول اللَّه ﷺ ، فنهض وقاتل قتالاً شديدًا ثم رجع (٦) ، ثم سار عمر ﷺ إلى حصونهم

---

(١) انظر : محمود شيت خطاب : ومضات من نور المصطفى ، ص ٦٩ .

(٢) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ٢١٥ - ٢١٧ ، وابن كثير : البداية ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ٢٤٧ .

(٤) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ، ج ، ٤ ص ١٩٧ ، وابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

(٥) انظر : مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الجهاد ، باب غزوة خيبر ، ج ١٢ ، ص ١٦٥ .

(٦) انظر : الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ٣٧ . والبيهقي في الدلائل ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

فلم يفتح عليه [١] . فقال رسول اللَّه ﷺ : « لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح اللَّه على يديه ، يحبُّ اللَّه ورسوله ، ويحبُّه اللَّه ورسوله » [٢] .

فلما كان اليوم التالي ، دعا عليًّا ﷺ فدفع إليه اللواء ، وأوصاه أن يدعو خيبر إلى الإسلام ، وقال له : « فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمُر النَّعَم » [٣] ، مما يدلُّ على أن النبي ﷺ ما كان حريصًا على غنائم خيبر ، بل كان همُّه نشر العقيدة وإزاحة العقبات من طريقها [٤] .

ولم يستجب اليهود للدعوة ، وأخذت حصونهم بسبب الحصار والقتال تهوي الواحدة تلو الأخرى في أيدي المسلمين [٥] .

وهذا من خذلان اللَّه تعالى لهم ؛ إذ كان قتلاهم وهم يدافعون في حصون منيعة أكثر بكثير من شهداء المسلمين المهاجمين في ساحات مكشوفة ! [٦] .

وحاز المسلمون غنائم كثيرة في هذه الغزوة ، وهي التي ورد ذكرها في سورة الفتح : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح : ٢٠] ، يعني خيبر [٧] .

وقد أصابت الكآبة والحزن قريش حين بلغهم خبر انتصار المسلمين على يهود خيبر [٨] ، وكذلك كان لهذا الفتح صدًى مدويًا في أوساط القبائل العربية والقرى اليهودية التي أدهشها الخبر ، فجنحت إلى السلامة والموادعة ؛ حيث سارع أهل فَدَك في شمال خيبر إلى طلب الصلح ، فبعثوا إلى رسول اللَّه ﷺ يسألونه أن يحقن دماءهم ويخلون له الأموال ففعل [٩] .

---

(١) انظر : الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ج ٣ ص ٣٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ج ٥ ، ص ٧٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل علي ﷺ ، ج ١٥ ، ص ١٧٦ .

(٤) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٥) انظر : خليفة : التاريخ ، ص ٨٢ .

(٦) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٧) انظر : البيهقي في الدلائل ، ج ٤ ، ص ١٩٧ ، وابن القيم في زاد المعاد ، ج ٣ ، ص ٣١٧ .

(٨) انظر : أحمد : المسند بسند صحيح ، ج ٣ ، ص ١٣٩ ، والفسوي في المعرفة والتاريخ ج ، ١ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٩) انظر : خليفة : التاريخ ، ص ٨٣ ، ويشهد له حديث يحيى بن بكير في صحيح البخاري ، كتاب =

كما صالحه يهود تيماء وأقرَّهم على أموالهم [١] .

غزوة وادي القرى : وبعد فراغ النبي ﷺ من فتح حصون خيبر توجَّه إلى وادي القرى - وهي مجموعة من القرى بين خيبر وتيماء - فحاصرها بضع ليال [٢] . وعبَّأ أصحابه للقتال وصفَّهم ، ثم دعا يهود إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إنْ أسلموا ضمنوا أموالهم وحقنوا دماءهم ، لكنهم أبوا ، فقاتلهم واستسلموا . وفتحت بلادهم عنوة ، فغنم المسلمون منهم أموالًا كثيرة ، وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود ، وعاملهم النبي ﷺ عليها مثل خيبر [٣] .

غزوة مُؤتة : إن تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار في إخضاع القبائل العربية ، ولا سيما المتنصرة منها المرابطة على تخوم الشام ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

ولذلك كان لابد من إخضاع الكيانات العربية النصرانية الموالية للروم ، وبالتالي سبق الروم في الأخذ بزمام المبادأة ، والتحرك في المنطقة قبل قيامهم بعمل ضد الدولة الإسلامية الفتيَّة .

ففي جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة ، جهّز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ووجَّهه إلى الشام [٤] .

وهي أول مرة يحتك فيها المسلمون بمناطق تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافه موالية لها سياسيًّا . بل إنَّ معركة مؤتة هي أول وقعة يحارب فيها المسلمون الروم مباشرة

ويشير المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) إلى ناحية مهمة لم ترد في المصادر العربية ، وهي أن القائد البيزنطي عَلِم بخُطّة جيش مؤتة الإسلامي بواسطة رجل من قريش . ولعل هذه

= المغازي، باب غزوة خيبر ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

(١) انظر : الطبري : التاريخ ج ٣ ص ٩١ ، وابن كثير في البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٤١٢ .

(٢) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الأيمان والنذور ، باب هل يدخل في الأيمان والنذور الأرض والغنم والزرع ، ج ٧ ، ص ٢٣٥ ، ومالك : الموطأ باب ما جاء في الغلول ، رقم ١٧ ، ص ٢٥٨ .

(٣) انظر : ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، وابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ، ص ٣٥٥ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٢٧ ، والطبري : التاريخ ج ٣ ، ص ٣٦ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات إلى عروة ، ج ٦ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

إشارة إلى محاولة أخيرة من طرف قريش للكيد للمسلمين ، حيث علم القائد البيزنطي بعدد جيش المسلمين ووجهتهم ، واستعدَّ بجمع المقاتلين الموجودين في منطقة البادية (١) .

وعندما وصل الجيش الإسلامي إلى (مَعَان) ، بلغه أن هرقل قد نزل (مآب) من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من « لَخم » « وجُذام » « وبلي » « وبَهراء » مائة ألف ، فاندفع أمير الجيش زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب « الكرك » يسير بجنده ، فاصطدم بالروم هناك (٢) .

وكانت ملحمة مشهورة سجل فيها القادة الثلاثة – الذين عينهم النبي ﷺ بالترتيب وهم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد اللّه بن رواحة (٣) – بطولات عظيمة انتهت باستشهادهم (٤) .

واختار المسلمون بعد ذلك خالد بن الوليد ﷺ قائدًا لهم ، فانحاز بالمسلمين ، ونجح في الانسحاب من الميدان وفق خطَّة محكمة ؛ حيث عُدَّ انسحابه فتحًا عظيمًا ، لقول النبي ﷺ : « ... أخذ الراية سيف من سيوف اللّه حتى فتح اللّه عليهم » (٥) .

فقد تمكن خالد ﷺ من إنقاذ جيشه بخسائر طفيفة مع الإثخان في الروم وإصابتهم بقتلى وجرحى ، بينما لم يفقد المسلمون إلا عددًا قليلًا حدَّدته المصادر في ثلاثة عشر شهيدًا فقط (٦) .

غزوة حُنين : لما فتح المسلمون مكة وسقطت الزعامة القريشية ، حملت « هوازن » راية الشرك وتحرَّكت لمواجهة المسلمين ، وقد أرسل النبي ﷺ عبد اللّه بن أبي حَدْرد الأسلمي ﷺ للتعرف على نواياهم ، ثم عاد إلى المسلمين بخبرهم (٧) .

وفي شوال من سنة ثمان تحرَّك المسلمون باتجاه حُنين (٨) ، لكن « هوازن » سبقت

---

(١) Chronographia : Theophanes (الترجمة الإنجليزية الجديدة) ، ص ٣٦ .
(٢) انظر : ابن هشام : السيرة : ج ٣ ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٣ .
(٣) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، ج ٥ ، ص ٨٧ .
(٤) انظر : البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، ج ٥ ، ص ٨٧ ، وموسى بن عقبة : المغازي ص ٢٦٤ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ – ٤٣٣ .
(٥) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، ج ٥ ، ص ٨٧ .
(٦) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .
(٧) انظر : موسى بن عقبة في المغازي ، ص ٢٨٤ ، وابن هشام في السيرة ، ج ٤ ، ص ٦٨ .
(٨) انظر : ابن كثير : السيرة ، ج ٣ ، ص ٦١٠ . وابن حجر : الفتح ، ج ٨ ، ص ٢٧ .

المسلمين إلى وادي حُنين ، واختاروا مواقعهم ، وكمنوا في شعابه ومضايقه ، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين ورشقهم بالسهام أثناء تقدمهم في الوادي (١) .

وفي بداية القتال تراجعت طلائع هوازن أمام تقدم المسلمين تاركين بعض الغنائم التي أقبل الجند على جمعها ، ولكن « هوازن » استقبلتهم بالسهام (٢) . وأمام هول المفاجأة ودقة رماة « هوازن » (٣) ، انهزم المسلمون راجعين حتى لم يصمد مع النبي ﷺ إلا فئة قليلة (٤) .

وطفق النبي ﷺ يدعوهم للثبات ويقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » (٥) ، ثم أمر العباس - وكان جَهْوَرِيَ الصوت - فهتف بالناس للعودة وخصَّ الأنصار ، فتلاحقوا نحوه (٦) .

فبدأ المسلمون جولة جديدة مليئة بالشجاعة والدقة والعزيمة وحسن التوكل ، فكان النبي ﷺ يدعو ويسأل الله ﷻ النصر (٧) ، ولم يلبث أن جاء النصر : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٦] ، فانهزمت « هوازن » وفرُّوا من ميدان المعركة ، وتعقَّبهم المسلمون بعيدًا عن حُنين تاركين خلفهم كثيرًا من القتلى والأموال العظيمة (٨) .

ويظهر من النماذج السابقة لصورة الردع بالقتال أن العدو إذا لم يتخل عن التفكير في العدوان ، وسوَّلت له نفسه بالهجوم ، فإن المسلمين يوجهون إليه ضربة

---

(١) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ، ج ٥ ، ص ٩٨ ، والهيثمي : موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ، ص ٤١٧ .

(٢) انظر : البخاري : كتاب المغازي ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

(٣) انظر : مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين ج ، ١٢ ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٤) انظر : الحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٢ ص ١١٧ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة ، ج ٦ ص ١٨٠ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، ج ٥ ، ص ٩٩ .

(٦) انظر : مسلم (بشرح النووي) : كتاب الجهاد ، باب غزوة حنين ج ١٢ ، ص ١١٥ - ١١٦ . وعبد الرزاق في المصنف ، ج ٥ ، ص ٣٨٠ .

(٧) انظر : مسلم : (بشرح النووي) كتاب الجهاد ، باب غزوة خنين ، ج ١٢ ، ص ١٢٠ .

(٨) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ص ٢٨٥ ، وابن إسحاق في السيرة ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٧٩، وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

موجعة على النحو الذي يردعه ويمنعه من التفكير في العدوان مرة أخرى .

الصورة الثالثة : الردع بإجهاض تدابير العدوان

غزوة قَرْقَرَة الكَدَر : في منتصف المحرَّم على رأس ثلاثة وعشرين شهرًا من الهجرة (١) ، بلغ النبي ﷺ تجمع بني سُليم وغَطفَان على ماء يقال له : قرقرة الكدر ، يريدون المدينة ، فخرج في مائتي رجل فباغتهم ، وهربوا تاركين أنعامهم ، فأقام ثلاثة أيام بالمكان ثم عاد (٢) .

غزوة ذي أمر : ثم بلغه تجمع بني ثعلبة بن محارب من غطفان بقيادة دُعثور بن الحارث في « ذي أمر » بنجد ، فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين رجلًا لثنتين عشرة ليلة خلت من ربيع الأول في سنة ثلاث من الهجرة (٣) .

وفي رواية أخرى : فأقام طيلة شهر صفر بديارهم ، ثم عاد إلى المدينة (٤) .

غزوة بُحران : ثم بلغه تجمع بني سُليم ، فخرج في جمادى الأولى على رأس سبعة وعشرين شهرًا من الهجرة (٥) في ثلاثمائة رجل حتى بلغ « بحران » من ناحية الفرع على الطريق التجاري بين مكة والشام ، فوجدهم قد تفرَّقوا (٦) .

حملة حمراء الأسد : وبعد انتهاء غزوة أُحد ورحيل قريش ، جاءت الأخبار بأنَّ قريشًا تريد العودة لاستئصال المسلمين في المدينة (٧) ، فدعا النبي ﷺ أصحابه للخروج لإفشال هذه الخطَّة بتعقُّب قريش (٨) ، فأثنى القرآن على مبادرتهم بالخروج ، ونزل فيهم قول اللَّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٢] وكانت هذه الحملة في شوال من السنة الثالثة للهجرة (٩) .

---

(١) انظر : الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(٢) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٧٨ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .

(٣) انظر : الواقدي : المغازي ج ١ ص ١٩٣ ، وياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ . (٥) انظر : ابن سعد : الطبقات : ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٦) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٧٩ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

(٧) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٩٣ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة ، ج ٦ ، ص ١٢١ .

(٨) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ، ج ٥ ، ص ٣٨ .

(٩) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٥٢ ، وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ٤٨ .

ولاشك أن حملة حمراء الأسد حققت أهدافها المرسومة في ظرف دقيق ؛ بإظهار قدرة المسلمين وتصميمهم على إجهاض تدابير عدوان خصومهم رغم ما أصابهم في أُحد ، وإشعار اليهود والمنافقين بإنهم إذا كانوا قادرين على سرعة الحركة خارج المدينة لمواجهة كل طارئ ، فهم أقدر على مواجهة الأعداء داخل المدينة بكل حزم .

سرية أبي سلمة : وكان من نتائج غزو أحد أيضًا أن تجرَّأ الأعراب على المسلمين ، وظهر ذلك في التجمع الذي قام به بنو أسد بقيادة طُليحة بن خُويلد الأسدي وأخيه سلمة ، مستهدفين غزو المدينة في شهر محرَّم من السنة الرابعة للهجرة .

فتحرك المسلمون قبل أن يستفحل الأمر ؛ فبعث النبي ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد في مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار ، فلما انتهوا إليهم تفرقوا تاركين ماشيتهم بيد المسلمين من هول المفاجأة [١] .

سرية عبد اللَّه بن أُنيس : وفي الخامس من محرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة ، بلغ النبي ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد جموعه يريد غزو المدينة ، فأرسل إليه عبد اللَّه بن أنيس رضي الله عنه فقتله [٢] .

سرية عبد اللَّه بن رواحة : وبلغ النبيَّ ﷺ أن اليُسَير بن رِزام من يهود ، كان في خيبر يجمع غطفان لغزو رسول اللَّه ﷺ ، فبعث إليه عبد اللَّه بن رواحة رضي الله عنه في نفر من أصحابه ، في شوال من سنة ست للهجرة [٣] ، فاستدرجوه بالحيلة ثم قتلوه ومن معه من أصحابه [٤] .

غزوة بني المُصطلق : وبلغ النبي ﷺ أن الحارث بن ضرار يجمع بني المصطلق لحربه ، فأرسل عليه الصلاة والسلام بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه للاطلاع على أحوالهم ، فأظهر أنه جاء لعونهم وعرف نيَّتهم في الهجوم على المدينة ، فعاد وأخبر النبي ﷺ ، فندب عليه الصلاة والسلام الناس ، وخرج إليهم في شعبان من السنة الخامسة للهجرة ، وداهمهم عند ماء المريسيع وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم [٥] .

---

(١) انظر : ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٥٠ ، وابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٤٣ .

(٢) انظر : أبو داود : السنن ، باب صلاة الطالب ، رقم ١٢٤٩ ، ج ١ ص ١٨ ، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد ج ١ ص ٢٩٥ .

(٣) انظر : الواقدي : المغازي ج ٢ ص ٥٦٦ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٤ ص ٢٩٢ ، وابن سعد في الطبقات ج ٢ ص ٩٢ .

(٥) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب العتق ، باب من ملك من العرب رقيقًا ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

سرية ذات السلاسل : ولم تمض سوى أيام على عودة جيش المسلمين من مؤتة حتى جهَّز النبي ﷺ جيشًا بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل في جمادى الثانية من سنة ثمان للهجرة [١] ؛ والغرض من هذه السريَّة مداهمة قبيلة قُضاعة التي اشتركت في مُؤتة إلى جانب الروم ، وتجمَّعت تريد الدنو من المدينة ، فتوغَّل جيش المسلمين في ديارها فهربت وتفرقت [٢] ، وبذلك أعادت هذه الحملة الهيبة للمسلمين في هذه المنطقة .

ويكشف التحليل لأبعاد هذه الصورة عن :

أ - خروج المسلمين على الفور إلى مواضع القبائل التي تتجمع بهدف العدوان على المدينة لمهاجمتهم في عقر دارهم .

ب - عدم عودتهم مباشرة إلى المدينة ؛ بل كانوا يبقون في ديار تلك القبائل مُدَدًا متفاوتة لتحقيق الردع .

ج - كانت النتيجة النهائية : إجهاض تدابير العدوان ، وردع المدبرين لها حتى لا يعودوا إلى التفكير في العدوان مرة أخرى [٣] .

ومن الملاحظ : أن ما قرره النبي ﷺ في هذا الصدد يقترب منه ما أجمع عليه خبراء الإستراتيجية الحربية في هذا العصر حين يقولون : إن العقيدة العسكرية ذات الطابع الدفاعي البحت لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة في الردع ، إلا إذا توفرت لديها القدرة الهجومية ؛ لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد [٤] .

---

(١) انظر : ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٢) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي باب غزوة ذات السلاسل ، ج ٥ ص ١١٣ ، وابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ١٣١ .

(٣) انظر : محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه جزيرة العرب ونتائجه الإستراتيجية ص ٩٥ .

(٤) انظر : محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه جزيرة العرب ونتائجه الإستراتيجية ص ٩٦ .

الصورة الرابعة : الردع بتأديب المعتدين

غزوة سَفوان أو بدر الأولى : في أعقاب غزوة العشيرة – وكانت في جمادى الأولى على رأس ستة عشر شهرًا من الهجرة [١] – تعرض كُرْز بن جاب الفهري إلى أطراف المدينة ، ونهب بعض الإبل والمواشي ، فطارده النبي ﷺ إلى سفوان من نواحي بدر ، فسميت هذه الحملة بغزوة بدر الأولى ، وتسمى أيضًا بغزوة سفوان [٢] .

غزوة السَّوِيق : وفي الخامس من ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهرًا من الهجرة ، قام أبو سفيان بعمل انتقامي ضد المسلمين ، حيث قدم على رأس مائتي فارس من مكة ، ولجأوا إلى بني النضير ليلًا ، ثم أتو ناحية يقال لها « العُرَيض » ، فأحرقوا نخلًا وقتلوا رجلين ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، فخرج المسلمون يتعقبونهم فلم يدركوهم ، وعادوا بالسَّوِيق الذي طرحه المشركون للتخفيف من حملهم قصد النجاء ، فسميت تلك الغزوة بغزوة السَّوِيق [٣] .

غزوة بني لحيان : وعلى رأس ستة أشهر من حصار بني قريظة ، خرج النبي ﷺ إلى بني لحيان لتأديبهم طلبًا بثأر أصحاب الرجيع خُبيب بن عديٍّ وأصحابه ﷺ . وأظهر عليه الصلاة والسلام أنه يريد الشام ، ليصيب من القوم غرَّة ، لكنه وجدهم قد أخذوا حذرهم وتحصَّنوا في رؤوس الجبال ، فرجع إلى المدينة [٤] .

غزوة ذات القَرَد أو غزوة الغابة : وقعت هذه الغزوة قبل خيبر بثلاث ليال [٥] ، وذلك حين أغار عبد الرحمن بن عُيَينة بن حِصن الفزاري على نوق النبي ﷺ ، فأخذها وقتل راعيها ، فتبعه سلمة بن الأكوع بعد أن أنذر المسلمين ، فخرج النبي ﷺ فوجد سلمة ﷺ قد استنقذ النوق منهم واضطرهم للهرب ، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة حين انتهى إلى ماء ذي قَرَد مما يلي بلاد غطفان [٦] .

وتكشف هذه الصورة عن مواجهة أحداث الشغب التي قام بها الأعراب بهدف

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٩ .
(٢) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ ، وخليفة : التاريخ ، ص ٥٧ .
(٣) انظر موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٧٩ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ .
(٤) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٧٩ . وخليفة : التاريخ ، ص ٧٨ .
(٥ ، ٦) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذات القَرَد ، ج ٥ ، ص ٧١ .

السَّلب والنَّهب ؛ فكان خروج المسلمين إليهم قصد تأديبهم ، وإشعارهم بقدرة المسلمين على التحرُّك في أي وقت لوضع حدٍّ لتحرُّشهم ومغامراتهم ، ومناوأتهم للدعوة .

الصوررة الخامسة : الردع بتضييق الخناق على العدو اقتصاديًا

سرية حمزة وسرية عبيدة بن الحارث : تمثَّل ذلك في سرية حمزة إِلى سيف البحر في رمضان من السنة الأولى للهجرة (١) ، وسرية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ في شوال من نفس السنة (٢) .

وقد استهدفت هاتين السريتين تجارة قريش بالدرجة الأولى (٣) .

غزوة بُواط : ثم استمر المسلمون في حملاتهم باتجاه الطريق التجاري ، فكانت غزوة بواط في ربيع الأول من سنة اثنتين للهجرة ، حيث خرج النبي ﷺ في مائتين من أصحابه لاعتراض قافلة تجارية لقريش (٤) .

سرية عبد اللّه بن جحش : ولم يقتصر تعرض المسلمين لتجارة قريش مع الشام ، بل تعرضوا لطريق تجارتها مع اليمن أيضًا ؛ إذ بعث النبي ﷺ سريَّة عبد اللّه بن جحش إلى نخلة جنوب مكة في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة لرصد تجارة قريش ، فظفروا بقافلة تجارية لقريش وقتلوا قائدها ابن الحضرمي ، وأسروا اثنين من رجالها ، وعادوا أدراجهم إلى المدينة (٥) .

غزوة القَردة : وفي أعقاب غزوة بدر الكبرى ، حاولت قريش الإفادة من الطريق التجاري عبر نجد باتجاه العراق للإفلات من الحصار الاقتصادي الذي ضربه عليها المسلمون ، فخرج أبو سفيان في تجارة لقريش ، فأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه فصادف القافلة في ماء بنجد يسمى القَرَدة ، فاستولى عليها وقيمتها مائة ألف درهم (٦) .

---

(١) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١١٨ . وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١١٩ . وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١١٨ . وابن حجر الفتح ، ح ٧ ، ص ٢٨٠ .

(٤) انظر : مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الزهد ، باب حديث جابر الطويل ، ج ١٨ ، ص ١٣٨ . وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٥) انظر : أبو يعلى الموصلي في مسنده ، رقم ١٥٣٤ ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ، والطبراني في المعجم الكبير ، رقم ١٦٧٠ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، ج ٦ ، ص ١٩٨ .

(٦) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ . وابن سعد في الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

وكان ذلك في جمادى الثانية على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة [١] .

سرية سيف البحر أو الخَبَط : استثمر المسلمون ما أصاب الأحزاب في غزوة الخندق من خيبة وفشل ، فبادروا إلى تضييق الخناق على قريش اقتصاديًّا من جديد ، فأرسل النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجرَّاح في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار لرصد قافلة لقريش ، فمكثوا بساحل البحر نصف شهر ، فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط ، فسمِّيت كذلك سريَّة الخبط [٢] .

ومن الملاحظ : أن هذه السرايا بدأت بعد ثمانية أشهر من مقام النبي ﷺ بالمدينة ، وأن معظمها كان بعيد المدى على طريق التجارة إلى الشام بمحاذاة الساحل ، وعلى الطريق إلى العراق عبر نجد .

وقد حققت أهدافها بإيقاع الرهبة في نفوس قريش ، بإشعارهم أن المسلمين قادرون على رصد تجارتهم ، وتضييق الخناق عليها ، وإيصاد الطريق في وجهها ؛ حتى عبَّر عن ذلك أبو سفيان بن حرب حين أصاب الإجهاد اقتصاد مكة بقوله : « وكانت الحرب قد حصبتنا » [٣] .

وعبَّر عنه صفوان بن أُمَيَّة بقوله : « إن محمدًا وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ؛ فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء » [٤] .

وفي هذه الصورة دلالة على أن النبي ﷺ كان يعلم جيدًا أن تهديد طريق تجارة قريش هو ضربة خطيرة لاقتصادها .

ولا زالت حالة الحرب حتى الوقت الحاضر ترتكز على ضرب الطاقات البشرية والاقتصادية لإهدار قوة العدو أو القضاء عليه .

---

(١) انظر : الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ١٩٧ . وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣٦ .
(٢) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، ج ٥ ، ص ١١٣ .
(٣) انظر : ابن حجر : الفتح ، ج ١ ، ص ٣٤ .
(٤) الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

الصورة السادسة : الردع بانتزاع المبادرة من الأعداء

غزوة الخندق أو الأحزاب : : إن فشل قريش في هذه الغزوة التي حشدت لها أقصى ما تستطيع من عتاد وأعداد يرجع إلى إعانة اللّه ﷻ بتنفيذ المسلمين لخطة دفاع عن المدينة لم يعهدها العرب من قبل ؛ ولذلك عندما فوجئت قريش ومن معها من الأحزاب بالخندق قال قائلهم : « واللّه إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » [1] .

وكان سلمان الفارسي ﷺ هو الذي أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق [2] . وتمَّ حفره في المنطقة الشمالية ليربط بين طرفي « حرة واقم » « وحرَّة الوبرة » ، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة .

أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحرَّات التي يصعب على الإبل والمشاة السير فيها [3] .

وبعد إنجاز الحفر ، رتَّب النبي ﷺ جيشه ، فأسند ظهرهم إلى « جبل سَلْع » داخل المدينة ، ووجوههم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بين « الجُرْف » « والغابة » « ونُقمى » [4] .

وكان تفوُّق المشركين العددي كبيرًا ؛ حيث بلغوا عشرة آلاف مقاتل [5] . لكن معنوية الأحزاب انهارت لطول الحصار من ناحية ، ولهبوب العواصف الشديدة الباردة [6] التي اقتلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، ودفنت رحالهم من ناحية ثانية ، فنادى فيهم أبو سفيان بالرحيل [7] .

وقد رأى الرسول ﷺ بعد هذه الغزوة الفرصة سانحة لانتزاع المبادرة من أيدي أعدائه ، فكان ذلك نقطة تحوَّل بارزة في الصراع ، فعبَّر ﷺ عن الآثار الخطيرة

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٢) انظر : ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٦ . وابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ، وعزاه إلى أبي معشر السندي .

(٣) انظر : الزهري : المغازي ، ص ٧٦ . وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ . والطبري : جامع البيان ، ج ٢١ ، ص ١٣٠ .

(٥) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ .

(٦) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ، ج ٥ ، ص ٤٧ .

(٧) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٢٢١ . وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٧١ .

التي ترتبت على فشل الأحزاب في غزو المدينة رغم ما حشدوه من طاقاتهم وهو أقصى ما يستطيعون بقوله : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ؛ نحن نسير إليهم » (١) .

وتتجلَّى أبعاد هذه الصورة في أنَّ من يملك المبادرة أو الصفة الهجومية في الحرب يملك حرية التصرف ويحصر خصمه في نطاق ضيق ؛ مما يعينه على الانتصار عليه . وفي المعارك الدائرة بين المسلمين والمشركين في العهد المدني ، كان المشركون في بداية الأمر يملكون زمام المبادرة ؛ إذ طوال الفترة الواقعة بين الهجرة وغزوة الأحزاب كان المسلمون في حالة الدفاع عن النفس ، يتلقَّون هجمات أعدائهم ويواجهونهم بمعارك دفاعية أبرزها : غزوة بدر ، وغزوة أُحد ، وغزوة الأحزاب ، في سنة خمس للهجرة (٢) .

وبهذا القرار الخطير الذي اتخذه النبي ﷺ بعد غزوة الخندق ، تحوَّل المسلمون من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم على أثر هذه الغزوة التي تعدُّ حلقة من حلقات الصراع الحاسم بين المسلمين والمشركين .

ومن ثم تحوَّل ميزان القوة لصالح المسلمين ، مما يدلُّ على أن خطَّة الإستراتيجية الإسلامية اتخذت أبعادًا جديدة ؛ حيث انتقل مسرح الأحداث من المدينة وما حولها إلى مكة والطائف ثم مؤتة وتبوك بعيدًا عن عاصمة الدولة الإسلامية .

ولا شك أن ظروف هذا القرار الخطير تنحصر في العوامل التالية :

أ - لقد فشلت قريش رغم امتلاكها للمبادأة في تحقيق هدفها ؛ وهو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد .

ب - حتى في هذه الغزوة - الخندق - التي حشدت لها قريش كل ما أمكنها حشده باءت بالفشل .

ج - الذي يتصور هو أن قريشًا إزاء هذا الفشل سوف تضعف عزيمتها وتخور قواها ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى (٣) .

وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في رصد ملامح الضعف على خصمه ، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار السليم في الوقت المناسب تمامًا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ، ج ٥ ، ص ٤٨ .

(٢ ، ٣) انظر : محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه الجزيرة ، ص ٩٧ - ٩٨ .

لتوجيه الضربة القاضية لأعدائه : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[١] .

الصورة السابعة : الردع بتجريد العدو من الحلفاء

ليس من شك في أن تجريد العدو من الحلفاء يحرمه من قوى كان يمكن أن تسانده وتقوي عزيمته . ولهذا الغرض عقد النبي ﷺ الاتفاقيات والموادعات مع القبائل المجاورة لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش .

وهي خطوة مهمة يعتبر تحقيقها نجاحًا للمسلمين ؛ لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها ؛ إذ بينهم محالفات تاريخية سمَّاها القرآن الكريم « الإيلاف » ، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن .

ثم إنَّ هذه القبائل لها مصالح وثيقة مع قريش سادنة البيت الحرام ، حيث محجُّ العرب جميعًا . هذا علاوة عن عقيدة الشرك التي تجمع بين قريش وهذه القبائل واشتراك الجميع في معاداة الإسلام[٢] .

ولهذه العوامل ، فإن نجاح المسلمين في موادعة هذه القبائل وتحييدها يعدُّ إنجازًا كبيرًا في تلك المرحلة المبكرَة من الصراع .

موادعة بني ضمرة وبني مدلج : ومما يدل على أهمية هذا الرادع : أن النبي ﷺ وادع بني ضمرة في أول غزوة غزاها وهي غزوة الأبواء ، وكانت في صفر من سنة اثنتين للهجرة[٣] .

ثم غزا غزوة العشيرة في جمادي الأولى من نفس السنة ، فوادع بني مدلج في العشيرة من بطن ينبع[٤] .

موادعة جُهينة : وقبل ذلك حين توجَّه حمزة بن عبد المطلب في سرية إلى « سيف البحر » في رمضان من السنة الأولى للهجرة لقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز مجدي بن عمرو الجُهني بين الطرفين ، حيث كان

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٧٤ .

(٢) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٣) انظر : خليفة : التاريخ ، ص ٥٦ ، والفتح ، ج ٧ ، ص ٢٧٩ ، وعزاه إلى مغازي ابن إسحاق .

(٤) انظر : مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الجهاد والسير ، باب غزوات النبي ﷺ ، ج ١٢ ، ص ١٩٥ . وابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

موادعًا لقريش وللمسلمين(١) ، فمنع نشوب القتال بينهما بسبب حياده ، ولو لم يكن المسلمون قد وادعوه من قبل ، فربما ناصر قريشًا على المسلمين .

ويُفهم من هذا أن النبي ﷺ كان قد عقد حلفًا مع فرع من فروع جهينة في وقت مبكر من الفترة المدنية ، وربما في النصف الأول من السنة الأولى للهجرة ؛ لأن سرية حمزة - كما سبق ذكره - كانت في رمضان .

ومما يعضد هذا الاستنتاج : ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأمنك وتأمنا ، فأوثق لهم ، فأسلموا ... » (٢) .

كما أورد ابن سعد رواية عن علاقة النبي ﷺ مع فروع جهينة المختلفة جاء فيها : أن النبي ﷺ كتب لبني زُرعة وبني الدَّبعة من جُهينة أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وأن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل ، ولأهل باديتهم - مَنْ بَرَّ منهم واتقى - ما لحاضرتهم (٣) .

وقد ترتب على هذه الاتفاقات :

أ - كفالة حرية المسلمين في نشر الدعوة ؛ مما يشكل تهديدًا لحاضر المشركين ومستقبلهم .

ب - حرمان قريش من محالفة هذه القبائل والحصول على مساندتها ، سواءً بتأمين طرق التجارة ، أو بشدِّ أزرها بالعدوان على المسلمين بالمدينة ، أو تهديد طرق مواصلاتهم وتحركاتهم (٤) .

ويبدو ذلك واضحًا من كلام صفوان بن أمية حيث قال : « ... فما ندري كيف نصنع بأصحابه - أي النبي ﷺ - وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه » (٥) .

موادعة قريش : كما أن صلح الحديبية يرهن بتسلسل وقائعه وأحداثه على بعد

---

(١) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١١٨ . ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
(٢) أخرجه أحمد في المسند ، ج ١ ، ص ١٧٨ . وابن كثير في البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .
(٣) انظر : ابن سعد : الطبقات ، ح ١ ، ص ٢٧٠ .
(٤) انظر : محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه الجزيرة العربية ، ص ١٠٠ .
(٥) الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

نظر النبي ﷺ ؛ فقبوله لشروط المشركين على إجحافها وتعنُّتها انتظارًا إلى ما ينتج عنها ، دليل على نظرته الثاقبة وتقديره للأمور ؛ إذ إنَّ ما حدث بعد ذلك مثَّل أعظم نصر أحرزه المسلمون بلا قتال ، وسمَّاه الله ﷻ فتحًا مبينًا [١] ؛ فقد كان للمهادنة مع قريش آثار إستراتيجية بالغة الأهمية لصالح الدعوة في حاضرها ومستقبلها .

ومن هذه الآثار

أنَّ المنطقة التي تقع تحت نفوذ قريش في جنوب المدينة أصبحت بموجب هذه الموادعة منطقة آمنة بالنسبة للمسلمين بعد أن كانت قبل ذلك مصدر خطر كبير يهدد دعوتهم .

وقد سمح هذا الوضع الجديد بتأديب الأعراب المناوئين للدعوة [٢] ، والتفرغ للأعداء في المنطقة الشمالية ؛ وهم يهود خيبر آخر معاقل يهود التي استُغلت للتحريض على المسلمين في الخندق [٣] .

وبذلك جرَّد المسلمون قريشًا من حليف كان يشجعها ويشدُّ من أزرها ، ويساندها ماديًّا ومعنويًّا ، واتجهوا بعد ذلك نحو الخصم الأكبر : قريش ، وإلى هدفهم الرئيس : مكة .

---

(١) فعن أنس بن مالك ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال : الحديبية انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد ، باب غزوة الحديبية ، ج ٥ ، ص ٦٦ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد ، باب صلح الحديبية ، ج ١٢ ، ص ١٤١ .

(٢) عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ : سَمِعْتُ سَلَمَةَ بْنَ الأَكْوَعِ يَقُولُ : خَرَجْتُ قَبْلَ أَنْ يُؤَذَّنَ بالأولى ، وَكَانَتْ لِقاحُ رَسُولِ اللّه ﷺ تَرْعى بِذِي قَرَدٍ ، قَالَ : فَلَقِيَنِي غُلامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ عَوفٍ فَقَالَ : أُخِذَتْ لِقاحُ رَسُولِ اللّه ﷺ ، قُلْتُ : مَنْ أَخَذَها ؟ قَال : غَطَفانُ . قالَ : فصَرَخْتُ ثَلاثَ صَرَخاتٍ يا صَباحاه . قالَ : فَأَسْمَعْتُ ما بَيْنَ لابَتَي المَدِينةِ ، ثُمَّ انْدَفَعْتُ عَلى وَجْهِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ وَقَدْ أَخَذُوا يَسْتقُونَ منَ الماءِ فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ بِنَبْلي وَكُنْتُ رامِيًا وأَقُولُ :

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعْ ... الْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعْ

وَأَرْتَجِزُ حَتَّى اسْتَنْقَذْتُ اللقاحَ مِنْهُم ، وَاسْتَلَبْتُ مِنْهُمْ ثَلاثِينَ بُرْدَةً قالَ : وجاءَ النَّبيُّ ﷺ وَالنَّاسُ ، فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللّه قَدْ حَمَيْتُ الْقَومَ الْماءَ وَهُمْ عِطاشٌ فَابْعَثْ إِلَيهِمُ السَّاعةَ ، فقالَ ، « يَا ابْنَ الأَكْوَعِ مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ » قَالَ : ثُمَّ رَجَعْنا وَيُرْدِفُني رَسُولُ اللّه ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ ، انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب عكل وعُرَينة ، ج ٥ ، ص ٧٠ ، وباب ذات القرد ، ج ٥ ، ص ٧١ . وباب ذات الرقاع ، ج ٥ ، ص ٥١ .

(٣) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ج ٥ ، ص ٧٦ . وموسى بن عقبة المغازي ، ص ٢١٥ .

الصورة الثامنة : الردع باغتيال رموز الكفر

قَتلُ كعب بن الأشرف : وهو من زعماء يهود الذين غاظهم انتصار المسلمين في غزوة بدر ، وكان شاعرًا ، فأخذ يهجو النبي ﷺ ويحرِّض عليه كفار قريش [١] ، ويناصب الإسلام العداء ، ويتشبَّب بنساء المسلمين [٢] ؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بقتله ؛ لأنَّه صار محاربًا مهدور الدم لغدره ونقضه العهد وإظهار التعاطف مع أعداء المسلمين ، ورثاء قتلاهم في بدر وتأليبهم على الثأر [٣] .

وقد احتال عليه جماعة من الصحابة على رأسهم محمد بن مسلمة الأنصاري فقتلوه خديعة [٤] ؛ لأن « الحرب خدعة » [٥] .

(١) انظر : أبو داود في السنن ، باب الخراج والإمارة والفيء ، ج ٣ ، ص ٤٠٢ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٣) قَالَ عَمْرٌو : سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللّٰه ﷺ يقول : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللّٰه وَرَسُولَهُ ؟ » ، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مسلمَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللّٰه أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ قالَ : « نَعَمْ » قالَ : فَائْذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا قالَ : « قُلْ » فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ : إِنَّ هذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنا صَدَقَةً وإِنَّهُ قَدْ عَنَّانا وإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ ، قَالَ : وَأَيضًا واللّٰه لتَمِلُّنَّهُ قالَ : إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ فَلا نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ حَتّى نَنْظُرَ إلى أي شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنا وَسْقًا أو وَسْقَينِ .
وَحَدَّثَنا عَمْرٌو غيرَ مَرَّةٍ فَلَمْ يَذْكُرْ وَسْقًا أو وَسْقَينِ فَقُلْتُ لَهُ : فيه وَسْقًا أو وَسْقَينِ ؟ فَقَالَ : أرَى فِيهِ وَسْقًا أو وَسْقَينِ ، فَقَالَ : نَعَمْ . ارْهَنُوني ، قَالُوا : أي شَيْءٍ تَرِيدُ ؟ قَالَ : ارْهَنُونِي نِساءَكُم . قَالُوا : كَيفَ نُرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ ؟ قَالَ : فَارْهَنُوني أَبْنَاءَكُم ؟ قَالُوا : كَيفَ نَرْهَنُكَ أَبْناءَنَا فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ فَيُقَالُ : رُهِنَ بِوَسْقٍ أو وَسْقَينِ ؟ هذَا عارٌ عَلَينا ، وَلكِنَّا نَرْهَنُكَ اللأْمَةَ ، قَالَ سُفْيَانُ : يَعْنِي السِّلاحَ فَواعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ فَجاءَهُ لَيلًا وَمَعَهُ أَبُو نائِلَةَ وَهُوَ أَخُو كَعْبٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ فَدَعَاهُمْ إِلى الْحِصْنِ فَنَزَلَ إِلَيهِمْ فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : أَينَ تَخْرُجُ هذِهِ السَّاعَةَ ؟ فَقَالَ : إِنَّما هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَخِي أَبُو نائِلَةَ ، وَقَالَ غَيرُ عَمْرو : قَالَتْ : أَسْمَعُ صَوتًا كَأَنَّهُ يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ ، قَالَ : إِنَّما هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نائِلَةَ ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَو دُعِيَ إِلى طَعْنَةٍ بِلَيلٍ لأَجَابَ قالَ : وَيَدْخُلُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَينِ – قِيلَ لِسُفْيَانَ : سَمَّاهُمْ عَمْرٌو – قَالَ : سَمَّى بَعْضَهُمْ ، قَالَ عَمْرٌو : جاءَ مَعَهُ بِرَجُلَينِ ، وقَالَ غَيرُ عَمْرٍو : أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ وَالْحَارِثُ بْنُ أَوسٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ، قَالَ عَمْرٌو : جاءَ مَعَهُ بِرَجُلَينِ ، فَقَالَ : إِذَا ما جاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ فَإِذا رَأَيتُموني أَسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ فَدُونَكُم فَاضْرِبُوهُ – وَقَالَ مَرَّةً : ثُمَّ أُشِمُّكُمْ – فَنَزَلَ إِلَيهِمْ مُتَوَشِّحًا وَهْوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ ، فَقَالَ : مَا رَأَيتُ كَاليَومِ رِيحًا – أَي أَطْيَبَ – وَقَالَ غَيرُ عَمْرٍو : قَالَ : عِنْدِي أَعْطَرُ نِساءِ الْعَرَبِ وَأَكْمَلُ الْعَرَبِ ، قَالَ عَمْرٌو : فقالَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشَمَّ رَأْسَكَ ؟ قَالَ نَعَمْ : فَشَمَّهُ ، ثُمَّ أَشَمَّ أَصْحَابَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَتَأْذَنُ لي ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ . قالَ : دُونَكُمْ فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ أَتوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ . انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

(٤) انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب قتل كعب بن الأشرف ، ج ٥ ، ص ٢٥ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب الحرب خدعة ، ج ٤ ، ص ٢٤ .

قتل سلاَّم بن أبي الحُقَيق : كما وجَّه النبي ﷺ عبد اللّه بن عَتيك رضي الله عنه في نفر من الصحابة لاغتيال أبي رافع سلام بن أبي الحقيق ؛ لأنه كان يؤذي الرسول ﷺ ويُعين عليه ، وكان من مؤلِّبي الأحزاب على المسلمين في غزوة الخندق (١) .

وقد ساق الإمام البخاري قصته مفصلة ؛ حيث احتال عبد اللّه بن عتيك في الدخول إلى حصنه ، ومن ثم تسلَّل إلى مخدعه وقتله بين عياله (٢) ، مما يدل على رباطة جأشه وعلو همته واستعداده للتضحية من أجل عقيدته (٣) .

وقد استنبط الحافظ ابن حجر عددًا من الفوائد من قصة مقتل أبي رافع تصلح للاستدلال بها على الحكم بالنسبة للمعاهد الخائن ومنها :

أ - جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصرَّ على الكفر .

ب - قتل من أعان على الرسول ﷺ بيده أو ماله أو لسانه .

(١) عَن الْبَرَاءِ بْنِ عازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ رَهْطًا إلى أبي رَافِعٍ فَدَخَلَ عَلَيهِ عَبْدُ اللَّه بْنُ عَتِيكٍ بَيْتَهُ لَيلًا وَهْوَ نَائِمٌ فَقَتَلَهُ . انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب قتل أبي رافع ، ج ٥ ، ص ٢٦ ، وابن هشام في السيرة ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .

(٢) عَن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إلى أبي رَافِعٍ الْيَهُودِيِّ رِجَالًا مِن الأَنْصَارِ فَأَمَّرَ عَلَيهِم عَبْدَ اللَّه بْنَ عَتِيكٍ وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّه ﷺ وَيُعِينُ عَلَيهِ وَكَانَ في حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجازِ فَلَمَّا دَنَوا مِنْهُ وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرْحِهِمْ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّه لأَصْحَابِهِ : اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ وَمُتَلَطِّفٌ لِلْبَوَّابِ ، لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ الْبَابِ ، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوبِهِ كَأَنَّهُ يَقْضِي حاجَةً ، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ فَهَتَفَ بِهِ الْبَوَّابُ : يَا عَبْدَ اللَّه إنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ ، فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ الْبَابَ ، ثُمَّ عَلَّقَ الأَغَالِيقَ عَلَى وَتِدٍ ، قَالَ : فَقُمْتُ إِلَى الأَقَالِيدِ فَأَخَذْتُهَا فَفَتَحْتُ الْبَابَ ، وكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسْمَرُ عِنْدَهُ ، وَكَانَ في عَلَالِيَّ لَهُ ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدْتُ إِلَيهِ فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ داخِلٍ قُلْتُ : إن الْقَومَ نَذِرُوا بي لَم يَخْلُصُوا إلَيَّ حَتَّى أَقْتُلهُ ، فَانْتَهَيتُ إِلَيه فإذا هُوَ في بيتٍ مُظْلِمٍ وَسْطَ عِيالِهِ ، لا أَدْرِي أَينَ هُوَ مِنَ البيتِ . فَقُلْتُ : أبا رافِعٍ ، فَقَال : مَنْ هَذا ؟ فأَهْوَيتُ نَحْوَ الصَّوتِ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيفِ وَأَنا دَهِشٌ فما أَغْنيتُ شَيئًا ، وَصَاحَ فَخَرَجْتُ مِنَ البيتِ فَأَمْكُثُ غَيرَ بَعيدٍ ، ثُمَّ دَخلْتُ إليهِ فَقُلْتُ : ما هذا الصَّوتُ يا أبا رَافِعٍ ؟ فَقَالَ : لِأُمِّكَ الْوَيلُ إِنَّ رَجُلًا في البَيتِ ضَرَبَني قَبْلُ بِالسَّيفِ ، قَالَ : فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَثْخَنَتْهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ ، ثمَّ وَضَعْتُ ظُبَةَ السَّيفِ في بَطْنِهِ حَتَى أَخَذَ في ظَهْرِهِ ، فَعَرَفْتُ أني قَتَلْتُهُ ، فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الأَبوابَ بابًا بابًا حَتَّى انْتَهَيتُ إلى دَرَجَةٍ لَهُ فَوَضَعْتُ رِجْلي وَأَنا أَرى أَنِّي قَدِ انْتَهيتُ إلى الأَرضِ ، فَوَقَعْتُ في لَيلَةٍ مُقْمِرةٍ فَانْكَسَرتْ سَاقِي ، فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ ، فَقُلْتُ : لَا أَخْرُجُ الليلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَقَتَلْتُهُ ، فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ ، قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ ، فَقَالَ : أَنْعِي أبا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ ، فَانْطَلَقْتُ إلى أَصْحَابِي فَقُلْتُ : النَّجاء فَقَدْ قَتَلَ اللَّه أَبا رَافِعٍ ، فَانْتَهيتُ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فقال لي : « ابْسُطْ رِجْلَكَ » فَبَسَطْتُ رِجْلي فَمَسَحَهَا ، فَكَأَنَّها لَمْ أَشْتَكِهَا قَط . انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب قتل أبي رافع ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

(٣) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

ج - جواز التجسُّس على أهل الحرب وطلب غُرَّتهم وغفلتهم .

د - الأخذ بالشدَّة في محاربة المشركين .

ر - جواز إبهام القول للمصلحة (٤) .

الصورة التاسعة : ردع الأعداء الأخفياء

ومن أمثلة هذه الصورة : إحراق مسجد الضرار ، الذي بناه المنافقون بذي أوان ، فأتوا النبي ﷺ وهو يتجهَّز إلى « تبوك » وحدَّثوه كذبًا ونفاقًا أنهم بنوه لذي العلَّة والحاجة والليلة الشاتية ، لكن في حقيقة الأمر بنوه ليفرِّقوا بين المسلمين ضرارًا وكفرًا .

فلما عرف النبي ﷺ أمر هذا المسجد وحقيقة ما قصد به أمر بهدمه وتحريقه (٢) وفيه نزل قول اللّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٧] .

وهذه الفئة أو الطائفة من الناس بَلِيَّة المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام ، بينما هم في الواقع يخادعون الذين آمنوا ، ويسعون إلى الإفساد من الداخل بأساليب مشبوهة وطرق ملتوية ، ومن ثمَّ كان ضررهم أكبر وفتنتهم أشدُّ .

ولهذا قال اللّه جل ذكره في حقهم : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون : ٤] وحَصْرُ العداء فيهم مع وجود غيرهم هو من باب إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف (٣) ، فكانوا بذلك شرَّ أنواع الكفار .

ولخطورتهم على المجتمع الإسلامي ، هتك اللّه سبحانه أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وجلَّى لرسوله ﷺ كنههم ودخائلهم الملتوية ، حيث ورد ذكرهم في أكثر من ١٤٠ موضعًا في القرآن الكريم .

ولذلك كان النبي ﷺ شديد الاحتراز منهم ، يحسب حسابًا لتصرفاتهم وأقوالهم ؛ لأنه يعلم أن مصاب الإسلام بهم شديد ، فليس لهم من غاية سوى إثارة الفتنة ، وبثِّ الفرقة ، وإفساد ذات البين في المجتمع الإسلامي .

---

(١) انظر : ابن حجر : الفتح ، ج ٧ ، ص ٣٤٥ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(٣) انظر : ابن القيم : طريق الهجرتين ، ص ٤٠٢ .

المبحث الثالث البعد الإستراتيجي لخطة النبي ﷺ في مواجهة الروم البيزنطيين والتمهيد لفتح بلاد الشام

مما لا ريب فيه أن النشاط الحربي والسياسي والاقتصادي في العهد المدني كان مرتبطًا بالدعوة الإسلامية .

والدعوة منذ أيامها الأولى كانت واضحة المعالم بأنها دعوة عالمية ، غايتها إقامة حكم الله في كل الأرض .

وإن نظرة سريعة في القرآن المكي بشكل عام تؤكد ذلك بوضوح .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وقد باشر النبي ﷺ عمله في المجال العالمي مع مطلع السنة السابعة للهجرة حينما أرسل رسلًا يحملون كتبه إلى الملوك والأمراء [1] .

وجدير بالإشارة أن بلاد الشام كانت ضمن الإطار الحيوي للأمة الإسلامية الناشئة ، ولا بد من الربط بين الوجود الإسلامي القديم في الشام (مسرى الأنبياء ، المسجد الأقصى) وبين إيصال الدعوة إلى الناس في تلك البلاد .

على أن سياسة الرسول ﷺ بهذا الصدد كانت قائمة على فهم عميق لهذه العوامل الدينية والتاريخية ، مع تفهم واضح وواقعي للظروف السياسية والقبلية - كما سنرى - ونَهج سياسة حكيمة وخطّة ناجحة في تأمين طرق المواصلات إلى الشمال .

وقد كانت نقطة البدء في هذه الخطة هي إخضاع معاقل يهود في خيبر ، من منطلق

---

(١) عن أنس أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ ، وإِلَى النَّجَاشِي ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . ولَيسَ بِالنَّجَاشِي الَّذِي صَلَّى عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، ج ٥ ، ص ١٣٦ . ومسلم : الجامع الصحيح ، (بشرح النووي) ، كتاب الجهاد ، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار ، ج ١٢، ص ١١٢ .

وقوعها على إحدى الطرق المؤدية إلى بلاد الشام ، ولدور هؤلاء في حشد الأعراب - مثل : غطفان ، وبني فزارة - وقريش ضد المسلمين ، وكونهم مصدرًا مهمًا من مصادر الميرة والدعم الاقتصادي والسياسي لمشركي قريش وحلفائهم من الأعراب (١) .

ويضاف إلى خيبر ، صلح رسول اللّه ﷺ مع أهل فدك وأهل تيماء ، وفتحه لوادي القرى (٢) ، ما يدل على وضوح سياسته في إصراره بتأمين طريق الشام إستراتيجيًا وتجاريًا .

وتتضح أهمية هذه المراكز في الغزوات اللاحقة إلى الشمال .

ولا شك أن اهتمام النبي ﷺ يطريق الشام والواحات الشمالية يمكن أن يُفهم في ضوء التطورات الجديدة ، ليس فقط بسبب صلح الحديبية والتفرغ للمناطق الشمالية ، وإنما أيضًا فيما يتعلق بعودة الحكم البيزنطي إلى الشام بصورة خاصة ، حيث أصبح المسلمون في مواجهة البيزنطيين لأول مرة (٣) .

وعلى الرغم من انشغال النبي ﷺ بعمرة القضاء (٤) ، ومواجهة مشاكل بعض القبائل العربية التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر من بني مُرَّة، وبني فَزارة ، وبني القُشير (٥) ؛ فقد ظلت طريق الشام تشغل حيِّزًا مهمًّا في خطَّته عليه الصلاة السلام ؛ إذ حاول أن يوطِّد علاقاته بفروع من جُذام ، حيث أعطى كتابًا بالأمان لرهط رافعة بن زيد الجذامي الذي قدم عليه في هدنة الحديبية قبل خيبر (٦) ، واتصل بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان عاملاً لقيصر على عَمَّان من أرض البلقاء ، وإنه دخل في الإسلام وسجنه الروم (٧) .

---

(١) انظر موسى بن عقبة المغازي ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٥٤ . والواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ ، ٦٤٢ . وابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ .

(٢) انظر : موسى بن عقبة المغازي ، ص ١٧٩ ، وابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٩١ ، ٤٠٨ . وخليفة : التاريخ ، ص ٨٣ ، ٨٥ .

(٣) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة ، ص ٧ .

(٤) انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء ، ج ٥ ، ص ٨٤ - ٨٥ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة ، ج ٩، ص ١٠ .

(٥) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٢٤٥ . والواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٢٧ - ٧٣٠ ، وخليفة : التاريخ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٦) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ . والطبري : التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .

(٧) انظر : ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

ويبدو أن النبي ﷺ بدأ بمحاولة استطلاع الأوضاع في الشام بعد عودة السيطرة البيزنطية مباشرة [١] .

وعلى هذا الأساس يمكن فهم إرساله سريَّة بقيادة عمرو بن كعب الغفاري على رأس خمسة عشر فارسًا إلى « ذات أطلاح » في الشام [٢] .

والواقع أن خبر هذه السريَّة يدلُّ بوضوح على تتبُّع الرسول ﷺ لأخبار الروم في الشام ، حيث إن جيش فارس انسحب من الشام وسلَّم الإدارة للروم البيزنطيين في شهر حزيران (يونية) سنة ٦٢٩م الموافق شهر صفر سنة ٨ هـ ، بينما أرسلت سرية ذات أطلاح بعد ذلك مباشرة في شهر ربيع الأول سنة ٨ هـ .

ولم يكن إرسالها مجرد صدفة . وواضح أن هدفها لم يكن القتال ؛ لأن عدد أفرادها لم يتجاوز الخمسة عشر ، وإنما كان غرضها استطلاعيًّا [٣] .

ولا شك أن تزايد اهتمام الرسول ﷺ بالشام يتضح من إرساله جيش مؤتة بقيادة زيد بن حارثة على رأس ثلاثة آلاف مقاتل [٤] .

وتُعدُّ غزوة مؤتة أول وقعة يصطدم فيها المسلمون بالبيزنطيين مباشرة ؛ فقد كانت في جمادي الأولى سنة ٨ هـ [٥] - أي بعد ذات أطلاح بشهرين .

وينبغي إدراك أهمية هذه الغزوة من عدد الجيش ؛ فهذا أكبر جيش يُسَيِّره النبي ﷺ إلى أية جهة كانت حتى ذلك الوقت .

كما يبدو من هذه الغزوة تصميم المسلمين على مواجهة الروم وحلفائهم من متنصِّرة العرب بالشام . وقد كان من بين القبائل المحالفة للروم : بَهراء ، ووائل ، وَبكر ، ولَخم ، وجُذام ، وبُلَيّ [٦] .

وقد وصل جيش المسلمين إلى منطقة مَعَان من بلاد الشام [٧] ، ومعنى هذا :

---

(١) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ٧ .

(٢) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٢٦٣ . والواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ - ٧٥٣ ، وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ٧ .

(٤) انظر : الطبري : التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٠٧ . وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات إلى عروة ، ج ٦ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٢٦٤ . وخليفة : التاريخ ، ص ٨٦ .

(٦ ، ٧) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ .

أن القبائل في الطريق من المدينة إلى مؤتة كانت موادعة للمسلمين . كما أن عودته إلى المدينة تدلُّ بوضوح أن الطريق إلى بلاد الشام قد أصبحت مفتوحة أمام المسلمين [١] .

وتبدو أهمية مؤتة كأول معركة مهمة بين المسلمين من جهة ، والروم وحلفائهم من القبائل العربية في الشام من جهة ثانية ، فيما تذكره المصادر البيزنطية والأرمنية [٢] .

وقد أفاد المسلمون دروسًا وخبرة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل جهادهم معهم ؛ حيث تعرَّفوا على عددهم وعُدَّتهم ، وخططهم العسكرية ، وطبيعة الأرض التي وقع فيها القتال [٣] .

ويبدو أن النبي ﷺ أدرك بعد مؤتة ضرورة الحذر والتريُّث . ومن هنا وجَّه بعد ذلك مباشرة سريَّة بقيادة عمرو بن العاص ﷺ المعروف بحنكته وتأنيه . وقد وصلت هذه السرية إلى ذات السلاسل في أطراف الشام في جمادى الثانية سنة ٨ هـ [٤] .

على أن أهم غزوة قادها الرسول ﷺ علىالإطلاق كانت غزوة تبوك ، باتجاه الشام أيضًا :

فَمِنْ حيث العدد : بلغ الجيش - حسب ما ذكرته المصادر - قرابة ثلاثين ألفًا [٥] .

ومن حيث المدَّة : استغرقت هذه الغزوة قرابة شهرين (رجب وشعبان سنة ٩هـ) [٦] ، منها عشرون يومًا أقامها المسلمون في تبوك نفسها [٧] .

ولكن تبقى الأسئلة الرئيسة : لماذا هذه الغزوة بهذا الحجم الكبير ؟ ولماذا تبوك بالذات ؟ وهل كان هدفها غزو الروم فعلًا ؟ ولماذا أقام النبي ﷺ عشرين

---

(١) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ٧ .

(٢) ثيوفانس (Chronographia (Theophanes الترجمة الإنجليزية الجديدة ص ٣٦ . وسيبيوس الأرمني (Sebêos) : تاريخ هرقل (الترجمة الفرنسية) ، ص ٩٤ .

(٣) انظر : أكرم المري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٤) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٢٦٧ . وابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ ، وابن سعد الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٥) انظر : الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ٩٩٦ . وابن سعد الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ .

(٦) انظر : ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٦٩ . وابن سعد الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٧) فعن جابر بن عبد الله قال : أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة . انظر : عبد الرزاق : المصنف ، رقم ٤٣٣٥ . ج ٢ ، ص ٥٣٢ . وأحمد في المسند ج ٣ ، ص ٢٩٥ .

يومًا في تبوك نفسها وهي أطول مدة يقيمها جيش إسلامي في عهد الرسول ﷺ في موقع واحد ؟ .

لقد كان النبي ﷺ حريصًا على توجيه المسلمين إلى جبهة الشمال التي تُعدُّ في غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين لأسباب تاريخية ودينية كما أسلفنا .

يضاف إليها كون الشام موطنًا لقبائل عربية كثيرة تربطها بعرب الحجاز ونجد وتهامة صلات نسب ، وعلاقات تجارية وثقافية [١] .

ومن الناحية الاقتصادية والجغرافية : تظهر أهمية تبوك في كونها واحة كبيرة على طرف الشام ، وأهم محطة وراء خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى .

ومن الناحية الإستراتيجية : فهي تشكل مركزًا مهمًّا يمكن الاتصال منه بمراكز كثيرة في الشمال كما حصل فعلًا أثناء الغزوة [٢] .

ويبدو أن الإنجازات التي حققتها هذه الغزوة ضمن خطة النبي ﷺ العامة جمعت بين الدبلوماسية والنشاط الحربي ؛ فكانت تقوم بالدرجة الأولى على كسب القبائل العربية وتأمين طرق المواصلات دعويًّا وتجاريًّا .

وبصدد هذه السياسة سعى النبي ﷺ بصورة مستمرة لكسب قبائل قضاعة من « بُلَيّ » « وعُذرة » « وبَلقين » وغيرها على امتداد طريق الشام واتصل في هذه الغزوة بالذات ببطون وعشائر متعددة من هذه القبائل وغيرها كسعد وهُذيل وطيئ [٣] .

إلا أن أهم إنجازات غزوة تبوك تتمثل في إقامة علاقات وطيدة مع عدد من المراكز الإستراتيجية في جنوب الشام ومنحها كتب الصلح ، وهي : « دُومة الجندل » ، « وأيلة » « ومَقْنا » ، « وأَذْرِح » ؛ فقد بعث النبي ﷺ أثناء إقامته في تبوك خالد بن الوليد إلى أُكَيدَر بن عبد الملك صاحب دُومَة الجندل – وكان نصرانيًّا – فأخذه خالد أسيرًا [٤] ، فصالح المسلمين على حيازتهم للسلاح والخيل ،

---

(١) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩ .

(٣) انظر : الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ١٠١٧ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٧ .

(٤) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ٢٩٧ . وابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

ولهم أشجار النخيل التي معهم في المصر ، وموارد المياة الظاهرة مثل العيون [١] .

وفكرة نزع السلاح من مثل هذه المجموعة التي كانت على اتصال بالبيزنطيين – ولا يطمئن المسلمون إلى ولائها – تبدو مسألة طبيعية ؛ إذ كان من أهم الأهداف التي سعى النبي ﷺ لتنفيذها في زحفه لتبوك ، هو تأمين حدوده الشمالية ضد أي تحركات عدوانية من قبل الروم أو الدويلات الخاضعة لهم على الحدود .

وقد يكون نزع السلاح أحد الوسائل لتحقيق هذا الهدف [٢] . علمًا بأن دومة الجندل ستصبح قاعدة مهمة للانطلاق في المراحل التالية من فتح الشام .

أما أيلة ، فهي موقع مهم على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام في اتجاه العقبة [٣] ، وقد كاتب النبي ﷺ أهل أيلة يدعوهم إلى قبول الإسلام أو دفع الجزية ، فجاءه ملك أيلة يوحنا بن رؤبة متحدثًا باسم بلدته أيلة ، فكتب له الرسول ﷺ كتاب الصلح ؛ يدفع بموجبه أهل أيلة الجزية ، ويتعهد له المسلمون بالحماية [٤] .

وفي هذا إشارة واضحة إلى المسلمين هم سادة الموقف في المنطقة الممتدة حتى خليج العقبة [٥] .

ويظهر من كتاب الصلح مع أيلة التركيز على :

النواحي الدعوية : « فإني رسول الله بالحق » [٦] .

---

(١) انظر : أبو عبيد : الأموال ، ص ٢٠٨ . والبلاذري : فتوح البلدان ، ص ٨٠ . وابن حجر : تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، رقم ٢٣٠١ ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر : عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ ص ٢١٦ .

(٣) انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(٤) عن أبي حُمَيدِ الساعديِّ ﷺ قال : « غَزَونا معَ النبيِّ ﷺ غزوة تبُوكَ ، فلما جاءَ وادي القُرى إذ امرأة في حَديقةٍ لها ، فقال النبيُّ ﷺ لأصحابهِ : « اخرُصوا » ، وخَرَصَ رسولُ اللّه ﷺ عشرة أوسُقٍ ، فقال لها : « احصِي ما يخرُجُ منها » ، فلما أتينَا تَبوكَ قال : « أمَا إنَّها ستهبُّ اللَّيلةَ ريحٌ شديدةٌ ، فلا يقومَنَّ أحدٌ ، من كان مَعَهُ بَعيرٌ فلْيَعقِلْهُ ، فعقَلْناها ، وهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ ، فقام رجلٌ فألْقَتْهُ ، بجبلِ طيئ » . وأهدَى ملكُ أيلةَ للنبيِّ ﷺ بغلةً بيضاءَ ، وكساهُ بُرْدًا ، وكتبَ له ببحرِهم . فلما أتى وادي القُرىَ قال للمرأة : « كم جاءت حَديقتُكِ ؟ » قالت : عشرةَ أوسُقٍ خَرصَ رسولِ اللّه ﷺ ، فقال النبيُّ ﷺ : « إنِّي مُتعَجِّلٌ إلى المدينةِ ، فَمن أرادَ منكم أن يتعجَّل معي فلْيتعجَّل » . انظر : البخاري : الجامع الصحيح ، كتب الزكاة ، باب خرص التمر ، ج ٢ ، ص ١٣٢ . ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفضائل ، ج ١٥ ، ص ٤٣ – ٤٤ . وابن أبي شيبة ، المصنف في الأحاديث والآثار ، ج ١٤ ، ص ٤٥٠ .

(٥) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ١٠ .

(٦) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

والإستراتيجية : « فإن أردتم أن يأمن البحر والبر ، فأطع اللَّه ورسوله » [١] .

والاقتصادية : « ورسل رسوله أكرمهم ، واكسهم كسوة حسنة » [٢] .

وللإشارة ، فإن موقف الرسول ﷺ كان يتسم بالحلم والمعاملة الحرة الكريمة ، حتى يمكن وصف صلحه مع أيلة بأنه تحرير لها : « ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق اللَّه وحق رسوله » [٣] .

كم أن قول الرسول ﷺ ليوحنا بن رؤبة عندما انحنى له هذا الأخير : « ارفع رأسك » [٤] ، لهو قول ذو دلالة بالغة من الناحية الدينية ، ولا شك أن ذلك كان له أثر في نفوس نصارى العرب في الشام ، وفي موقفهم من العرب المسلمين فيما بعد إبَّان الفتوح .

ويتضح من شروط الصلح مع هذه المراكز وغيرها مثل : « أَذْرُح » « ومَقْنا » الحرص على الحصول على السلاح والكُراع والمال والعون فيما يتعلق بالمواصلات والأخبار [٥] ، وتأمين طرق المواصلات للمسلمين [٦] ، وكل هذه الأمور مهمة لمستقبل فتح الشام .

وستتضح عناصر هذه الخطة في الغزوات التالية ؛ ذلك أن النبي ﷺ بعد أن نظم شؤون المسلمين في شبه الجزيرة العربية ، رتَّب أعمال الصدقات ، وأوضح للناس أمور دينهم في حجة الوداع ، ووجهَّ همَّه بعد ذلك إلى إرسال جيش كبير إلى الشام مرة أخرى ، وهو الجيش المعروف بجيش أسامة [٧] .

---

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر : أبو عبيد : الأموال ، ص ٢١٢ . وابن حجر : المطالب العالية ، رقم ٢٦٣١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ . ومحمد حميد اللَّه مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ، رقم ٣٠ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٥) في هذا الشأن يذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أن بعض العرب قد ساعدوا جيشًا في أيام محمد ﷺ على الوصول إلى جنوب فلسطين ، كما أن هؤلاء العرب أيضًا ساعدوا جيوش أبي بكر بنفس الطريق . Chronographia (الترجمة الإنجليزية) ، ص ٣٦ .

(٦) انظر : أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ١٠ .

(٧) فعن عبد اللَّه بن عُمَر رضي الله عنهما قال : بعث النبي ﷺ بعثًا وأمرَّ عليه أسامة بن زيد ، فطعن الناس في إمارته ، فقال النبي ﷺ : « إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل . وايم اللَّه إن كان لخليقًا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده » . انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب =

وليس من قبيل المصادفة أن يصر النبي ﷺ على إنفاذ جيش أسامة وهو على فراش الموت ،وأن أبا بكر ﷺ لم يخالجه أدنى شك في وجوب إنفاذ ذلك الجيش إلى الشام رغم الأخطار التي سبَّبتها ردَّة بعض القبائل العربية (١) .

ومرجع ذلك : أن جيش أسامة ما هو إلا حلقة في سلسلة من الغزوات والسرايا الموجهة إلى الشام نتيجة خطَّة بعيدة المدى قائمة على فهم عميق للظروف الراهنة سواء كانت إقليمية (قبلية) أم دولية (بيزنطية) .

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ كان قد كتب إلى ملوك وأمراء عصره ، ومنهم هرقل ملك الروم الذي راسله مرتين ؛ المرة الأولى بعد الحديبية (٢) ، والثانية أثناء مقامه بتبوك (٣) .

ويشير المؤرخ سيبوس الأرمني - الذي عاش في النصف الأول من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي - إلى مراسلة الرسول ﷺ لهرقل ، ويضيف أن محمدًا ﷺ وأصحابه طلبوا من الروم التخلي عن أراضي العرب وميراث أبيهم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالشام (٤) .

ولا شك أن حادثة مؤتة تركت صداها عند البيزنطيين ؛ حيث شعروا بقوة

= فضائل الصحابة ، باب مناقب زيد بن حارثة ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، ج ١٥ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(١) انظر : سعيد بن منصور في السنن ، رقم ٢٨٩٠ ، ج ٢ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) فعن عتبة بن مسعود أن عبد اللَّه بن عباس أخبره ثم دعا بكتاب رسول اللَّه ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل ، فقرأَهُ ، فإذا فيه :
بسم اللَّه الرحمن الرحيم . مِنْ مُحمدٍ عبدِ اللَّه ورَسولهِ إلى هِرقْلَ عَظِيمِ الرُّوم . سَلامٌ على من اتَّبع الهُدَى ، أمّا بعدُ فإنِّي أدْعُوك بدعاية الإسْلام ، أَسْلم تَسْلَمْ يُؤتِكَ اللَّه أجْرَكَ مَرَّتين ، فإنْ توليت فإن عليكَ إثم الأرِيسِيين و ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . انظر : البخاري : كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا أبو اليمان ، ج ١ ، ص ٦ . ومسلم (بشرح النووي) في كتاب الجهاد والسير ، باب كُتاب النبي ﷺ إلى هرقل ، ج ١٢ ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر : طرف منه في الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب حدثنا أبو اليمان ، ج ١ ، ص ٧ . وهو عند أحمد في المسند ، ج ٣ ، ص ٤٤١ . وقال ابن كثير في السيرة : هذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به ، تفرَّد به الإمام أحمد . وأورده الهيثمي في موارد الظمآن بسند صحيح رقم ١٦٢٨ ، وقال في المجمع : رواه عبد اللَّه بن أحمد وأبو يعلى ورجال أبي يعلى ثقات ، ورجال عبد اللَّه بن أحمد كذلك ج ٨ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٤) انظر : سيبيوس : تاريخ هرقل (الترجمة الفرنسية) ص ٩٤ - ٩٥ .

المسلمين فعلًا منذ تلك الوقعة ، ومنذ غزوة تبوك بالذات وبعث أسامة ﷺ وليس منذ أيام أبي بكر ﷺ فقط ، وأنهم اعتبروا أن فتح الشام قد بدأ فعلًا أيام الرسول ﷺ [(١)] .

وهذا ما تؤيده الدراسة المتأنية للمصادر الإسلامية ، ولخطط الرسول ﷺ تجاه الشام بشكل عام ، مما ينبئ أن فتح الشام لم يبدأ صدفةً في عهد أبي بكر ﷺ ، إنما بدأ منذ أيام النبي ﷺ واكتمل بعد ذلك في عهد أبي بكر وعمر ﷺ .

وبهذا يتقرر أنَّ ما تربَّى عليه المسلمون من عالمية هذا الدين منذ العهد المكي ، لم يكن مجرد فكرة ، وإنما هو من سمات وخصائص هذه الدعوة ، لا بد من تحقيقها على أرض الواقع . ولم يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان العرب جميعًا قد دانوا بالإسلام ، وحتى وضعت الدعوة خطوات ثابتة ومدروسة في طريق التبليغ العالمي .

* * *

---

(١) انظر الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ١١ .

المبحث الرابع مراعاة الظروف المتغيرة في رسم الخطط الأمنية والاقتصادية

من سمات القيادة الناجحة : التمتع بالخبرة التنظيمية الناتجة عن التخطيط الدقيق ، والدراية بالتوقعات المستقبيلة ، والقدرة على قراءة المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية في ضوء المعرفة بالواقع .

ولا شك أن هذه المعطيات كانت متوفرة في شخص النبي ﷺ ؛ فحين قدم - عليه الصلاة والسلام - المدينة اقترح عليه الأنصار أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين ، لكنه طلب منهم أن يقوموا بإدارة بساتين نخيلهم ويحتفظوا بها لهم على أن يشركوا المهاجرين في الثمرة [1] .

والسبب - والله أعلم - في رفضه ﷺ هذا الاقتراح : هو أنه لا يريد شغل المهاجرين بالأرض والزرع ؛ لأن هناك مهمات جهادية تنتظرهم ، حيث تتابعت السرايا والغزوات بعد ذلك ، وكان قوامها من المهاجرين .

كما أن هذه السرايا والغزوات كانت لها عدة أبعاد إستراتيجية منها :

١ - وضع تجارة قريش هدفًا محددًا للتضييق عليها في أمر معاشها وإشعارها بأن الأمن لتجارتها لم يعد متيسرًا .

٢ - استطلاع المنطقة وما يجري فيها ، مما يؤدي إلى دراسة وافية للوضع السياسي والعسكري على مشارف المدينة .

٣ - أثر الصدى الإعلامي لهذه البعوث والحملات في عقد اتفاقيات الهدنة مع الجوار لضمان حرية الحركة ، وليصل إلى أسماع قريش بأن مهاجمة المدينة ليس أمرًا سهلًا وفي متناول أيديهم .

وبهذا يتبين عظمة الحكمة في تصرفات النبي ﷺ ومدى النظرة المستقبلية التي يقدر لها ما يناسبها ، وفي نطاق تخطيط محكم .

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال الأنصار : أقسم بيننا وبينهم النخل . قال : « لا » قال : « تكفوننا المؤونة ، وتشركونا في الثمر » قالوا : سمعنا وأطعنا . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب إخاء النبي ﷺ المهاجرين والأنصار جـ٤ صـ٢٢٣ ، كتاب الهبة ، باب فضل المنيحة جـ٣ ، صـ١٤٤ .

كما كانت خطة الرسول ﷺ في الحديبية تقوم على مواجهة الوضع بما يناسبه ؛ وهو المسالمة واجتناب القتال مع المشركين ، لقوله عندما اقترب من مياة الحديبية وبركت ناقته : « والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » [١] .

وقد بيَّن - عليه الصلاة والسلام - لقريش عن طريق رجال محايدين وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض ، أنه لم يأت لحرب أحد وإنما قصد زيارة البيت الحرام وتعظيمه [٢] .

وبذلك كسب المسلمون الموقف سياسيًّا وأمنيًّا سواءً دخلوا مكة ، وتحدثت العرب عن ذلك ، مما يعني زعزعة مكانة قريش وسقوط هيبتها من عيون العرب ، أو لم يدخلوا فتحدثت العرب عن صدِّ قريش لمن قصدوا تعظيم البيت الحرام ، بعد أن كانت تدَّعى هي أن المسلمين لا يحترمون المقدسات . وهما خياران كلاهما مُرٌّ بالنسبة لقريش .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

(٢) عن المِسْورِ بن مَخرمة ومروانَ - يُصدِّق كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبِهِ - قالا : « خَرَجَ رسولُ اللَّه ﷺ زمن الحُديبية حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : « إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » . فواللَّه ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيرًا لقُريشٍ وسارَ النبيُّ ﷺ ، حتى إذا كان بالثنية التي يُهبط عليهم منها بركت به راحلتُه ، فقال الناسُ : حل حل . فألحت ، فقالوا : خلأتِ القَصواء . خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : « ما خَلأَتِ القَصواء ، وما ذاك لها بِخُلُق . ولكن حَبَسها حابسُ الفيل » . ثمَّ قال : « والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خُطَّةً يعظِّمون فيها حُرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها . ثم زجرها فوثبت » . قال : فعدل عنهم حتَّى نزل بأقصى الحُديبية على ثمدٍ قليل الماء يَتَبَرَّضهُ الناسُ تبرُّضًا ، فلم يلبِّثه الناس حتَّى نزحوه ، وشُكِيَ إلى رسول اللَّه ﷺ العطشُ ، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فواللَّه ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه . فبينما هم كذلك ، إذ جاء بُدَيلُ بن وَرْقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة - وكانوا عيبة نُصح رسول اللَّه ﷺ من أهل تهامة - فقال : إني تركت كعب بن لُؤي وعامر بن لُؤيِ نزلوا أعدادَ مياة الحديبية ، ومعهم العوذ المطافيل ، وهم مُقاتِلوكَ وصادُّوكَ عن البيت . فقال رسول اللَّه ﷺ : « إنا لم نجئ لقتال أحدٍ ، ولكنَّا جئنا معتمرين ، وإنَّ قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا مادَدْتُهم مُدَّةً ويخَلُّوا بيني وبين الناس ، فإن أظهَرْ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دَخَل فيه الناس فعلوا . وإلَّا فقد جَمُّوا . وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن اللَّه أمره » . فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . قال : فانطلق حتى أتى قريشًا ، قال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولًا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول : قال : سمعته يقول كذا وكذا . فحدثهم بما قال النبي ﷺ . انظر : البخاري : كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد ، ج ٣ ، ص ١٧٩ .

وهناك أمر جدير بالوقوف عنده ، بعد أن فتح المسلمون خيبر وهو إبقاء يهود خيبر فيها ليعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها (١) .

وقد حقق ذلك للدولة الإسلامية مصالح عليا اقتصادية وعسكرية ؛ حيث تمت المحافظة على طاقات المسلمين الحربية ، ووُجِّهوا للجهاد الدائم من أجل توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام . ولم يتحولوا إلى الفلاحة التي تحتاج إلى استمرار العمل في استثمار الأرض ورعاية الزرع والنخل مما يستنفد طاقتهم وقوتهم (٢) .

كما تمت الإفادة من خبرة وطاقة المزارعين اليهود للحفاظ على مستوى الإنتاج الفلاحي في خيبر ؛ لأنهم على دراية بالأرض وزراعتها مما يوفر للمسلمين حصَّة كبيرة من الإنتاج يمكن الإفادة منها في تجهيز الجيوش والقيام بالنفقات الأخرى التي تحتاجها الدولة (٣) .

وخلاصة القول :إن تفصيلات خطط إدارة النبي ﷺ للصراع ضد الوثنيين وأهل الكتاب في شبة الجزيرة العربية وعلى مشارف بلاد الشام ، لتؤكد أن هذه القدرة البارعة في التخطيط ترجع إلى كفاءة القيادة وامتيازها وأهليتها لإدارة الصراع ، حيث جمعت كل الصفات التي تتطلبها تلك الكفاءة وذلك الامتياز ، والتي حباه اللّه ﷻ بها لترشيد وتوجيه الجماعة المسلمة إلى أحسن السبل للتمكين لدين اللّه في الأرض .

وهذه الصفات كما يقول العسكريون في أوثق مراجعهم العسكرية الحديث هي :

- القابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح .
- الشجاعة الشخصية .
- الإدارة القوية الثابتة .
- تحمُّل المسؤولية بلا تردُّد .

---

(١) فعن عبد اللّه ﷺ قال : أعطى النبي ﷺ خيبر اليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها . انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر ، ج ٥ ، ص ٨٤ . ومسلم في كتاب المساقاة ، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع ،ج ١٠ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) انظر : أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .

- معرفة مبادئ الحرب .
- نفسية لا تتبدَّل في حالة النصر والهزيمة .
- بُعْدُ النظر .
- معرفة نفسيات المرؤوسين وقابلياتهم .
- ثقة القائد بجنوده وثقتهم به .
- المحبة المتبادلة بينه وبين جنوده .
- شخصية قوية نافذة .

* * *

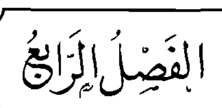



منهج النبي ﷺ في الدعوة
من خلال السيرة الصحيحة



الباب الثاني

الفترة المدنية



الفصل الرابع

خصائص الفترة المدنية في مجال التنظيم

المبحث الأول : التنظيمات الاجتماعية .

المبحث الثاني : التنظيمات الإدارية والسياسية .

المبحث الثالث : التنظيمات الحربية .

المبحث الرابع : التنظيمات المالية .

المبحث الخامس : التنظيمات العمرانية .






تمهيد

لئن كانت معجزة رسول الله ﷺ الكبرى في القرآن الكريم ، فإن المعجزة التاريخية لواقع العهد النبوي ذات دلالة قويَّة على أنه نبيٌّ مرسل ؛ إذ إن ما أرساه من أسس مدنية، وما سنَّة من نظم عمرانية ، في كتابة الرسائل ، وعقد المعاهدات ، وإنفاذ السفارات ، وبعث الجيوش ، ونظام القضاء ، وتولية الولاة ، وتنظيم موارد الدولة المالية ، والعناية بالصناعات والحرف ، وسائر ضروب المدنية التي تضبط أمور الناس ، وترقي حياتهم ، وتنهض بمستواهم ، وتأخذ بيدهم إلى النهج الحضاري القويم ؛ كل ذلك يقطع بأنه - عليه الصلاة والسلام - وهو أمي نشأ بين أمة أمية - ما كان له أن يأتي بهذه المدنية المنظمة المحكمة في إصلاح أحوال البشر ، وترقية مداركهم ، وضبط العلاقات بينهم ، وعمارة بلدانهم لولا أنه رسول من رب العالمين [١] .

والمطَّلع على التنظيم في العهد المدني في مجالاته المتعددة ، يجده بناءً محكمًا يتضمن علاقات إنسانية نموذجية تصل إلى حدِّ التفاني في أداء العمل مع الإتقان ، والجميع يسعى تحت سلطة ذات كفاءة وحزم وسداد إلى تحقيق « الهدف » بصدق وإخلاص [٢] .

ولا شك أن السرَّ في كفاءة هذا التنظيم ونجاحه يرجع أساسًا إلى أثر جوانب العقيدة في التنظيم . فالحافز العقدي يزكِّي الشعور الديني والوازع الأخلاقي اللذان يحثَّان على الإخلاص في العمل ، كما يثير ويحفز الجهاز الرقابي داخل الإنسان (أي الضمير) ، فيقوم بدوره في دفع العمل إلى درجة الإتقان [٣] .

* * *

(١) انظر : مناع القطان : النظام القضائي في العهد النبوي (بتصرف) ، ج ١ ، ص ٣٤٦ . ندوة النظم الإسلامية ، أبو ظبي ، صفر ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٤ م .
(٢) انظر فرناس البنا : التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية ج ١ ، ص ١٧٩ . ندوة النظم الإسلامية .
(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

المبحث الأول التنظيمات الإجتماعية

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لقد كان في أولويات الرسول ﷺ في مجال التنظيم : اهتمامه بالتنظيم الاجتماعي داخل الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة ؛ وذلك حتى يتحقق الترابط الاجتماعي والتعاون بين المسلمين ؛ فقام بالمؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار .

وفي هذا الشأن يقول أنس بن مالك ﷺ : « قد حالف رسول اللّه ﷺ بين قريش والأنصار في داري » [١] .

ورُوي من حديث الزبير ﷺ قال : « أنزل اللّه فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٥] ؛ وذلك أنّا معشر قريش لما قدمنا المدينة ولا مال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فخاويناهم ووارثناهم ، فآخى أبو بكر ﷺ خارجة بن زيد ، وآخى عمر ﷺ فلانًا ، وآخى عثمان بن عفان ﷺ رجلًا من بني زُريق بن سعد .. وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فواللّه يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري ، حتى أنزل اللّه تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثينا » [٢] .

وروي عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ قال : ورثة ، ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ، قال : كان المهاجرون لما قدموا على النبي ﷺ المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه ، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ نُسخت . ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الكفالة ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ج٣ ، ص ٥٧ . ومسلم (بشرح النووي) في كتاب فضائل الصحابة ، ج ١٦ ، ص ٨٢ .

(٢) ابن كثير : التفسير ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ . وإسناده حسن .

﴿ أَيْمَنُكُمْ ﴾ إلا النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصى له [١] .

وقد ترتب على هذا التشريع حقوقًا خاصة بين المتآخيين لتنظيم العلاقة بينهما ، وهي علاقة ليست محدودة بل مطلقة ، تشمل كل أوجه التنسيق والعون المادي والمعنوي .

فهي تأكيد للارتقاء بالرابطة الإيمانية فوق جميع الروابط الأخري بما فيها النسب ، ليتحقق في واقع الحياة العملي المعنى الذي يسعى إليه هذا الدين وهو :

١ - انصهار المسلمين في كتلة واحدة يتعاون أفرادها لخلق الإحساس بالتكيف والاندماج في الشخصية الجماعية .

٢ - توحيد الاتجاه نحو الهدف الواحد ، وذلك عن طريق توحيد الإحساس الاجتماعي بين أفراد المجتمع .

٣ - تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع الواحد ، خاصة وأن المهاجرين قد تركوا أموالهم وديارهم في مكة .

٤ - تعويض المهاجرين عاطفيًا من انقطاع ذويهم عنهم ؛ إذ سيجد كل فرد منهم أخًا في اللَّه أبرَّ وأرحم به من أخيه في الرحم [٢] .

تنظيم العلاقات بين سكان المدينة

لقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك صحيفة أوردتها المصادر [٣] ، واستهدفت هذه الصحيفة أو الوثيقة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق والواجبات .

وترجع أهمية هذه الوثيقة إلى اعتبارين :

أولهما : ما لها من أهمية خاصة في فهم طبيعة الدولة الإسلامية الأولى وكيف أدار النبي ﷺ شؤونها .

ثانيهما : القدوة المستفادة من سياسة النبي ﷺ وفائدتها البالغة في تنظيم أي

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح كتاب الكفالة ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ ج ٣ ، ص ٥٧ .

(٢) انظر فرناس البنا : التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية ، وقائع ندوة النظم الإسلامية ، أبو ظبي ، صفر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر طرق رواية الوثيقة في السيرة الصحيحة لأكرم العمري ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

دولة معاصرة على أساس إسلامي .

والراجح : أن الوثيقة في الأصل وثيقتان جمع المؤرخون بينهما ، إحداهما تتناول موادعة الرسول ﷺ لليهود ، والثانية تنظم علاقة المسلمين بعضهم ببعض وتحدد واجباتهم وحقوقهم [١] .

وتتضمن وثيقة موادعة اليهود البنود من رقم (٢٤) إلى رقم (٤٧) ، ولم تحصر المواطنة في الدولة الإسلامية في المسلمين وحدهم ، بل نصَّت على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطني الدولة ، وحدَّدت ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ؛ تضمَّن ذلك البنود من رقم (٢٥) إلى رقم (٣٦) [٢] .

ويدلُّ بندها الأول رقم (٢٤) على التزام اليهود بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة [٣] : « وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » [٤] .

وتناولت البنود من رقم (٢٥) إلى رقم (٣٥) تحديد العلاقة مع المتهوِّدين من الأوس والخزرج . وقد نسبتهم البنود إلى عشائرهم العربية ، وأقرَّت حلفهم مع المسلمين[٥] : « وإن يهود بني عوف أمَّة مع المؤمنين » [٦] .

وكفلت المادة رقم (٢٥) لليهود حريتهم الدينية [٧] : (لليهود دينهم [٨] وللمسلمين دينهم) .

كما حدَّدت مسؤولية الجرائم وحصرتها في مرتكبيها [٩] : (إلا من ظلم وأثم ؛ فإنه لا يوتغ [١٠] إلا نفسه وأهل بيته) [١١] .

---

(١) انظر أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ج ١ ، ص ٢٧٦ - ٢٨٥ .
(٢) انظر محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ص ٥٤ .
(٣) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .
(٤) انظر ابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ٢٢١ .
(٥) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .
(٦) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢١ .
(٧) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .
(٨) ابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ١٢١ .
(٩) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ١ ، ص ٢٩٠ .
(١٠) وتغ الرجل إذا هلك . ابن منظور : اللسان ، ج ٣ ، ص ٨٧٤ .
(١١) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

والمجرم يناله العقاب وإن كان من المتعاهدين ، جاء ذلك في البند رقم (٤٧) [١] .

وقد منع البند رقم (٤٣) اليهود من إجارة قريش أو نصرها : (وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها) [٢] ، وكان النبي ﷺ يستهدف من هذا التعرض لتجارة قريش التي تمرُّ غربيَّ المدينة في طريقها إلى الشام ، فلابد من أخذ هذا التعهد لئلا تؤدِّي إجارتهم لتجارة قريش إلى الخلاف بينهم وبين المسلمين [٣] .

كما منع البند رقم (٣٦) اليهود من الخروج من المدينة إلا بعد استئذان الرسول ﷺ . وهذا القيد على تحركاتهم ربما يستهدف كذلك منعهم من القيام بنشاط عسكري كالمشاركة في حروب القبائل خارج المدينة مما يؤثِّر في أمن المدينة الاقتصادي وسلمها الاجتماعي ، واليهود بصفتهم مواطنين في الدولة الإسلامية يجب أن يخضعوا لنظامها العام [٤] .

وتضمنت الوثيقة النبوية مبدأ شخصية العقوبة في المادة (٣٧ ب) : (وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم) [٥] ، وهو مبدأ جديد في ذلك الوقت الذي كانت العقوبة في صورة الانتقام من الجاني لا تقف فيه عند حدٍّ في نيلها من أقارب الجاني وأوليائه .

كما أنه يتصل بواحدة من أهم وظائف الدولة وسلطاتها وهي وظيفة إقرار القانون والنظام ، أو ما يطلق عليه (بالسلم المدني) ، وما كان لدولة أن تستحق هذا الاسم ما لم يكن قانونها محترمًا فوق أرضها ، وقضاؤها عادلًا في تقرير الحقوق لأصحابها [٦] .

كما أن المعاهدة امتدت بموجب البند رقم (٤٥) لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى ؛ إذ شرطت مادة هذا البند على كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر ، لكن المسلمين استثنوا قريشًا (إلا من حارب الدين) [٧] ؛

---

(١) انظر المصدر نفسه ج ٢ ، ص ١٢٣ . ومحمد حميد الله : الوثائق السياسية في العهد النبوي ص ٦٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .
(٣) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .
(٤) انظر المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩١ . (٥) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
(٦) انظر محمد سليم العوا : صحيفة المدينة ، وقائع ندوة النظم الإسلامية ، ج ١ ، ص ٦٨ .
(٧) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

لأنهم كانوا في حالة حرب معهم [١] .

كما اعتبرت منطقة المدينة حرمًا آمنًا بموجب البند رقم (٣٩) : (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة) [٢] ، أي لا يقتل صيدها ، ولا يقطع شجرها . وبذلك أجلت هذه المادة الأمن داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية [٣] .

أما الوثيقة التي كُتبت بين المهاجرين والأنصار ، فتشمل البنود من رقم (١) إلى رقم (٣٣) [٤] .

وتبدأ المادة رقم ١ : ببيان الأطراف المعنية بتنظيم العلاقة فيما بينها ، فهي (بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) [٥] .

ويقرر البند رقم (٢) : (أنهم أمة واحدة من دون الناس) [٦] .

وبذلك أحلت الوثيقة الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية ؛ فعبَّرت عن المسلمين بأنهم أمة من دون الناس .

فيجعل هذا النصُّ من المسلمين أمة تتَّحد أفكارها ومشاعرها في ظل رابطة العقيدة دون النظر إلى أصولهم القبلية والعرقية ، وهي ظاهرة يعرفها المجتمع العربي لأول مرة في تاريخه ، فلم ينتظم فيها الناس قبل الإسلام إلا على أساس من صلات القرابة والنسب [٧] .

وذكرت البنود من رقم (٣) إلى رقم (١١) الكيانات العشائرية ، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلة عددهم . أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائرهم للاستفادة منها في التكافل الاجتماعي ، فالإسلام جعل العقيدة هي الأصل الأول الذي يربط بين أتباعه ، لكنه اعترف بارتباطات أخرى تندرج تحت رابطة العقيدة وتخدم المجتمع ، وتساهم في بناء التكافل الاجتماعي بين أبنائه ، مثل : الارتباطات الخاصة

---

(١) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
(٣) انظر أكرم العمري : السيرة ج ١ ، ص ٢٩٢ .
(٤) انظر محمد حميد الله : الوثائق السياسية للعهد النبوي ، ص ٥٩ - ٦٠ .
(٥) أبو عبيد : الأموال ص ٢١٥ .
(٦) ابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ١١٩ .
(٧) انظر محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ص ٥٣ .

بين أفراد الأسرة الواحدة وما يترتب عليها من حقوق وواجبات على الآباء والأبناء والأمهات ، والارتباطات الخاصة بين أفراد العشيرة الواحدة ، وما يلزمهم من حقوق وواجبات ، كالتضامن في دفع الديات ، وفكاك الأسير ، وإعانة المحتاج منهم ، وما يترتب على أفراد المحلة الواحدة من حقوق وواجبات [١] ؛ إذ شدد الإسلام على حقوق الجار كما جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه » [٢] . وكذلك أبناء المدينة الواحدة ، فلا تخرج زكاة أموالهم عن محيطهم إلا بعد استيفاء حاجات أبنائها ؛ فقد رُوي عن طاووس قال : « كان في كتاب معاذ : من خرج من مخلاف إلى مخلاف ؛ فإن صدقته وعشره في مخلاف عشيرته » [٣] .

وهكذا رتَّب الإسلام على العشائر القيام بمهام التكافل الاجتماعي لسدِّ ثغرات كبيرة في المجتمع ، وما تبقَّى من حاجيات في مجال الضمان الاجتماعي تقوم الدولة بتأمينها [٤] .

كما أكَّدت الوثيقة في البند رقم (١٣) على المسؤولية الجماعية : « وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعةَ [٥] ظلم ، أو إثمًا ، أو عدوانًا ، أو فسادًا بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم » [٦] ؛ فاعتبرت هذه المادة سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن والنظام في مجتمع المدينة .

ولأنَّ الحدود على الجرائم مصدرها اللَّه تعالى ؛ فإنَّ السعي إلى تطبيقها واجب ديني على كافَّة المؤمنين ، مما يكسب الأحكام قدسية ويعطيها قوة ، ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تحدِّيها والخروج عليها ، كما هو الحال في ظل

---

(١) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .
(٢) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأدب ، باب الوصاة بالجار ، ج ٧ ، ص ٧٨ .
(٣) رواه الأثرم في سننه [نقلًا عن سيد سابق : فقه السنة ج ١ ، ص ٤٨] ، وله أصل في الصحيح من حديث معاذ ﷺ : « فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » . رواه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ج ٢ ، ص ١٠٨ .
(٤) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ١ ، ص ٢٩٤ .
(٥) أي ظلمًا ابن منظور : اللسان ، ج ١ ، ص ٩٧٨ .
(٦) ابن هشام : السيرة ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

القوانين الوضعية [١] .

وفي ختام بنود الوثيقة المتعلقة بالمهاجرين والأنصار ينص البند رقم (٢٣) على أن النبي ﷺ هو المرجع الوحيد في كلِّ خلاف يقع بين المسلمين في المدينة ؛ مما يعني أنه ﷺ هو الضابط والمنظم للعلاقات الاجتماعية في الدولة الناشئة [٢] .

التنظيم العشائري

من أهم النظم التي أوجدها النبي ﷺ في المدينة : تنظيم القبائل العربية اجتماعيًّا . وقد قامت تلك التنظيمات في أساسها على القبيلة باعتبارها وحدة اجتماعية فعَّالة في النشاط العام .

ويُقصد من عملية التنظيم العشائري : توزيع المهام والمسؤوليات على العشائر وتولِّي عدَّة أعمال ووظائف اجتماعية ؛ لإشراك أفراد المجتمع في المسؤولية وتربيتهم على الشعور بها ، وتعويدهم على الاضطلاع بأعبائها .

ومن أهم وظائف التنظيم العشائري : حصر القبائل بالحفاظ على انتماءاتها وأنسابها ، لقول النبي ﷺ : « تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » [٣] .

ومن وظائفه : التعرُّف على طبائع القبائل وأحوال أهلها ؛ فقد روي أن صعصعة ابن ناجية المجاشعي ﷺ دخل على رسول الله ﷺ فقال : « كيف علمك بمضر ؟ » قال : يا رسول الله ! أنا أعلم الناس بهم ؛ تميم هامتها وكاهلها الشديد الذي يوثق به ويُحمل عليه ، وكنانة وجهها الذي فيه السمع والبصر ، وقيس فرسانها ونجومها ، وأسد لسانها ، فقال النبي ﷺ : « صدقت » [٤] .

وقد جزأ الرسول ﷺ الولاية على القبيلة ، فكان يولِّي على العشيرة [٥] ؛ مما يوحي بالاعتقاد أن النبي ﷺ أراد بذلك تحديد المسؤوليات وحصرها في وحدات

---

(١) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٢) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ . والترمذي في السنن ، باب البر والصلة ، رقم ٢٠٤٥ ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

(٤) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٥) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٥٥٩ .

صغيرة لتسهل معرفة جميع أحوال القبائل وسائر شؤونها العامة والخاصة ، علاوة على أن تعدد الزعامات يخلق روح المنافسة المشروعة بين العشائر ، لاستباق صالح الأعمال والخيرات التي يعد نفعها - بلا ريب - على المجتمع كله (١) .

ولهذا الغرض ، كان على كل عشيرة في المدينة عريف أو سيِّد وهو دون رئيس أو زعيم القبيلة ؛ تختاره العشيرة من قبل نفسها أو يعيِّنه الرسول ﷺ .

فقد ذُكر أن النبي ﷺ سأل بني سلمة من الأنصار : « من سيِّدكم ؟ » فقالوا : جدُّ بن قيس على أنَّا نبجِّلُه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وأي داء أدوى من البخل ؟! بل سيدكم عمرو بن الجموح » (٢) .

وقد تطلَّب وجود المهام المتنوعة المناطة بالعشيرة ضرورة وجود العريف الذي تُوكل إليه مهمة رئاسة العشيرة لضمان تنفيذ تلك المهام .

وكان من مزايا التنظيم العشائري أيضًا : أنَّ باستطاعة السلطة أو الدولة أن تعرف جميع أفراد الشعيرة وتتصل بهم عن طريق عريفهم . وقد استُغلَّت تلك الميزة في دعوة القبائل إلى الإسلام ؛ حيث كان الرسول ﷺ يكتب لواحد من أبناء العشيرة - حين يقدم عليه بإسلامه - يُؤمِّره على قومه (٣) .

وقد أسلم على أيدي أولئك الأمراء كثير من البطون والعشائر (٤) .

وكان المسجد يلعب دورًا رئيسًا في توجيه حياة القبائل ؛ حيث كان لكلِّ بطن أو عشيرة مسجد ينسب إليها (٥) ، تؤدي فيه شعائر دينها (٦) ، ويجتمع فيه الناس لتدارس مسائل العلم (٧) .

---

(١) انظر عبد اللَّه عبد العزيز بن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ص ١٢٢ .

(٢) البخاري في الأدب المفرد [فضل اللَّه الصمد : ٣٩٥/١ / ح ٢٩٦] ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ، ص ١٢٥ ، رقم ٢٢٧ .

(٣) انظر خليفة : التاريخ ، ص ٩٨ - ٩٩ . والبخاري : التاريخ الكبير ج ٣ ص ٢٧٧ .

(٤) انظر ابن حجر : الإصابة ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٢٤ .

(٥) عن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء ، وأمدُها ثنية الوداع ، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق .. » انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الصلاة ، باب هل يقال : مسجد بني فلان ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، وأحمد : المسند ، ج ٦ ، ص ٣٧١ .

(٦) عن جابر قال : كان معاذ يصلي مع النبي ﷺ ثم يأتي قومه فيصلي بهم . انظر البخاري : كتاب الأذان ، باب إذا صلَّى ثم أمَّ قومًا ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٧) انظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ٢ ص ٨ .

ويعدُّ أمر جباية الصدقة وشؤون المعاقلة والديات من أجلِّ الوظائف الاجتماعية للتنظيم العشائري ؛ فالعشيرة هي المسؤولة عن جباية صدقتها ، وذلك عن طريق استعمال أحد أبنائها على ذلك [١] .

وفي هذا الأمر كتب رسول اللَّه ﷺ لخُزيمة بن عاصم بن قَطَن العُكْلي حين ولَّاه على صدقات قومه ، يذكِّره ألا يظلم أو يضيم أحدًا بقوله : « بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، من محمد رسول اللَّه إلى خزيمة بن عاصم : إني بعثتك ساعيًا على قومك فلا يُضاموا ولا يُظلموا » [٢] .

كما بعث عدي بن حاتم الطائي على صدقات قومه [٣] ، وكتب عليه الصلاة والسلام ، كتابًا لوائل بن حُجْر الحضرمي لما أراد الشخوص إلى بلاده جاء فيه : « بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، من محمد رسول اللَّه إلى المُهاجر بن أبي أُمَيَّة : إن وائلًا يستسعى ويترفَّل على الأقيال [٤] ، حيث كانوا من حضرموت » [٥] .

ويبدو أن استعمال أحد أبناء القبيلة يعدُّ أمرًا مفيدًا لها ولبيت مال المسلمين ؛ إذ إن الساعي في هذه الحالة يُفترض فيه معرفته لكل فرد في العشيرة ، مما يبعد إمكانية وقوع الحيف والظلم على الفقراء ، أو محاباة الأغنياء ، وذلك لانتفاء عامل الجهل ؛ لأن كل قوم أدرى بأنفسهم [٦] .

كما أنَّ القبيلة مُلزَمة عُرفًا برعاية أفرادها وتأمين حدِّ الكفاية لهم متأسية بحديث رسول اللَّه ﷺ : « ألا كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » [٧] . وقد ذُكر أن طلحة بن عبيد اللَّه ؓ كان لا يدع أحدًا من قبيلته تميم عائلًا إلا كفاه مؤنته ومؤنة عياله ، وزوَّج أياماهم ، وأخدم عائلهم ، وقضى دَين غارمهم [٨] .

---

(١) انظر الواقدي : المغازي ج ٣ ، ص ٩٧٣ ، وابن سعد الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، وابن حجر / الإصابة ، ج ١ ، ص ٢٥١ ، ٣٠١ ، ٣٥٥ ، و ج ٢ ، ص ٦٦ ، ٢٩٨ . ج ٣ ، ص ٢٧ ، ٤٠٠ ، ٦١٥ .

(٢) ابن حجر : الإصابة ج ١ ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٣) انظر ابن هشام : السيرة ج ٤ ، ص ٢٧١ .

(٤) مفرده : قَيْل ، وهو الملك . ابن منظور : اللسان ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

(٥) الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ج ١ ، ص ١٤ . وابن حجر : الإصابة ج ٣ ، ص ٤٤٥ ، ٥٩٢ .

(٦) انظر عبد اللَّه ابن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ص ١٩٦ .

(٧) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأحكام ، باب قول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ج ٨ ، ص ١٠٤ .

(٨) انظر ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٢٢١ .

وبهذا الأسلوب رتَّب الإسلام على الوحدات الاجتماعية الصغيرة تنظيم مهام التكافل الاجتماعي .

على أن إقرار الروابط العشائرية قُصد به الاستفادة منها اجتماعيًّا ؛ وبذلك حوَّل الإسلام وجهة الروابط القبلية ، واستفاد منها بتكييفها وفق أهدافه العليا (١) .

وبصفة عامة ، ظهرت أهمية النظام الاجتماعي الجديد في تأسيس علاقات اجتماعية جديدة وفريدة ، تقوم على روح الأمة بدل القبيلة ، والأخوة بدل الطبقية ، والشرع بدل العرف ، والعالمية بدل العصبية الإقليمية ؛ وهي مقاييس أسَّست منظومة اجتماعية متكاملة ضمنت تكريس قيم سياسية اجتماعية رفيعة وهي : العدل ، والمساواة ، والشورى ، والحرية .

* * *

(١) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

المبحث الثاني التنظيمات الإدارية والسياسية

دور المسجد في الإدارة

بدأ التنظيم الإداري والسياسي في الدولة الإسلامية عقب وصول رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة ؛ حيث بنى مسجده الشريف . ولم تقتصر وظيفة المسجد على كونه مكانًا لأداء الصلاة فحسب ، بل كان المسجد :

– **مجمعًا للشورى** ؛ يشاور فيه النبي ﷺ أصحابه وتُتخذ فيه الإجراءات المختلفة (١) .

– **مقرًّا للقيادة السياسية** ؛ تُتَّخذ فيه القرارات الخطيرة ، وتعقد فيه الألوية للقواد (٢) .

– **نُزلًا لاستقبال وفود القبائل ورسلهم إلى رسول اللَّه ﷺ** (٣) .

– **محكمة للقضاء بين المتخاصمين بما أنزل اللَّه ﷻ** (٤) .

– **مركزًا للإنعاش الاقتصادي** ؛ حيث أمر رسول اللَّه ﷺ أن ينشر المال الذي ورد من البحرين في المسجد (٥) .

---

(١) فعن عائشة في حديث طويل : قال : « ... فقام رسول اللَّه ﷺ من يومه فاستعذر من عبد اللَّه بن أبي ، وهو على المنبر فقال : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ... » انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب حديث الإفك ، ج ٥ ، ص ٥٧ – ٥٨ .

(٢) عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ بعث بعثًا وأمَّر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمارته ، فقام رسول اللَّه ﷺ فقال : « إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وايم اللَّه إن كان لخليقًا للإمارة ... » انظر البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد ، ج٥ ، ص١٤٥ ، ومسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ج١٥ ، ص١٦٩ .

(٣) « عن ابن عباس قال : قدم وفد عبد القيس فقالوا : يا رسول اللَّه إن هذا الحي من ربيعة ... » ، انظر البخاري كتاب فرض الخمس ، باب أداء الخمس من الدين ، ج ٤ ، ص ٤٤ ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام ، ج١ ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٤) عن سهل أخي بني ساعدة أن رجلًا من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله ؟ فتلاعنا في المسجد وأنا شاهد . انظر البخاري : كتاب الأحكام ، باب من قضى ولاعن في المسجد ، ج ٨ ، ص ١١٢ .

(٥) عن أنس رضي الله عنه قال : أُتي النبي ﷺ بمالٍ من البحرين فقال : « انثروه في المسجد » وكان أكثر مالٍ أُتي به رسول اللَّه ﷺ فخرج رسول اللَّه ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما =

وقد كان النظام يطبع أماكن الجلوس والاجتماع في المسجد ؛ إذ كان النبي ﷺ يتخذ مجلسه عند أسطوانة في المسجد تسمى « أسطوانة التوبة » (١) ، وهي الأسطوانة التي ربط أبو لبابة ﷺ نفسه بها ، وصارت تنسب إليه (٢) .

وكان في المسجد النبوي مجلس آخر عند أسطوانة أخرى ، هي « **أسطوانة القرعة** » . وقد عرف هذا المجلس بمجلس المهاجرين ، واستمر وجوده حتى عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، وكان النبي ﷺ يجتمع فيه بالمهاجرين ، ويحدثهم ويشاورهم في الشؤون العامة (٣) .

وفي المسجد النبوي أيضًا « **أسطوانة الوفود** » التي كان الرسول ﷺ يلقي عندها وفود القبائل والسفراء والمبعوثين (٤) ، حيث تُبحث العهود وأمور الجزية (٥) ، أو يتمُّ تقديم الولاء والطاعة (٦) ، وما إلى ذلك من أمور الدولة .

وفيه صُفَّة ، وهي ظل في موخرة المسجد يأوي إليها المساكين والغرباء الذين لا منازل لهم (٧) .

وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه . وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُفَّة (٨) . وكان أبو هريرة ﷺ عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين . فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى

= كان يرى أحدًا إلا أعطاه . انظر البخاري : كتاب الصلاة ، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد ، ج ١ ، ص ١٠٨ . [القنو : هو عِذْق التمر] .

(١) عن ابن عمر عن النبي ﷺ : أنه كان إذا اعتكف ؛ طرح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة » انظر ابن ماجه : السنن ، رقم ١٧٧٤ . وقال المحقق : قال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ، ج ١ ، ص ٥٦٤. والسمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٢) انظر الواقدي : المغازي ج ٢ ، ص ٥٠٧ . وابن هشام : السيرة ج ٣ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٣) انظر السمودي : وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ . (٤) انظر المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤٩ .

(٥) انظر البخاري : الجامع الصحيح كتاب المغازي ، باب قصة أهل نجران ، ج ٥ ، ص ١٢٠ . ومسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أبي عبيدة ، ج ١٥ ، ص ١٩٢ .

(٦) انظر أحاديث الوفود في الجامع الصحيح للبخاري من كتاب المغازي ، ج ٥ ، ص ١١٥ وما بعدها .

(٧) عن نافع قال : « أخبرني عبد اللّٰه بن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي ﷺ » . انظر البخاري : كتاب الصلاة ، باب نوم الرجال في المسجد ، ج ١ ، ص ١١٣ - ١١٤ ، وابن حجر الفتح : ج ١ ، ص ٥٣٥ .

(٨) عن طلحة قال : « أتيت المدينة وليس لي بها معرفة ، فنزلت في الصفة مع رجل ، فكان بيني وبينه كل يوم مد من تمر ... » انظر أحمد المسند : ج ٣ ، ص ٤٨٧ ، والسمهودي : وفاء الوفا : ج ١ ، ص ٤٥٦ .

أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة [١] .

الصحيفة والتنظيم السياسي للدولة الجديدة

وضع الرسول ﷺ اللبنة الأولى للتنظيم السياسي في الدولة الإسلامية فور وصوله إلى المدينة ؛ حيث وضع دستور المدينة المتمثل في « الصحيفة » ؛ وهي توضح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة .

ومن ضمن بنودها النص على عدَّة مواد منها :

المادة رقم (٣٦) : وهي تنص على أنه لا يخرج من المدينة أحد إلا بإذن محمد [٢] .

كما نصت الفقرة رقم (٤٢) على : أن ما وقع من حدث أو شجار يُخاف فساده بين أهل الصحيفة « فإن مردَّه إلى اللَّه ﷻ وإلى محمد رسول اللَّه ﷺ » [٣] وهي نصوص واضحة الدلالة في اعتراف المتعاقدين في هذه الصحيفة بإدارة النبي ﷺ للدولة الإسلامية .

وتقرر المادة رقم (١٧) : « إنَّ سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل اللَّه إلَّا على سواء وعدل بينهم » [٤] ، ويعني هذا أن مسؤولية إعلان الحرب والسلم لا يقررها الأفراد ،بل المرجع فيها هو النبي ﷺ ، فبإعلانه الحرب يصبح سائر المسلمين تلقائيًّا في حالة حرب مع عدوهم ، ولا يمكن لفرد منهم مهادنته ؛ لأنه مرتبط بالسياسية العامة للمؤمنين .

كما أن عبء الحرب يقع على الجميع ويلزمهم تناوب الخروج في السرايا والغزوات [٥] .

وتنص المادة رقم (١) والمادة رقم (١٦) على مبدأ الانضمام إلى المعاهدة بعد توقيعها .

ولعل وثيقة المدينة هي أول وثيقة في التاريخ تقرر مبدأ جواز الانضمام إلى

---

(١) انظر أبو نعيم : الحلية : ج ١ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٢) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ٢ ، ١٢٢ . (٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) ابن هشام السيرة : ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٥) انظر أكرم العمري السيرة الصحيحة : ج ١ ، ص ٢٩٧ .

المعاهدات بعد توقيعها ؛ ذلك المبدأ الذي أصبح من مُسلَّمات قواعد المعاهدات الدولية في العصر الحديث [١] ؛ فقد نصت فقراتها الأولى على أن نصوصها منطبقة على أطرافها الأصليين ، « ومن تبعهم فلحق بهم » ، « وأنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين » [٢] .

ويقرر نص المادة (٢١ ب) : « أنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ، ولا يحول دونه على مؤمن » [٣] ، مما يشير إلى أن المشركين من أهل المدينة دخلوا تحت حكم الدولة السياسي وخضعوا لأسس تنظيماتها الإدارية [٤] .

وعلى أساس ذلك تكونت الدولة الجديدة ، وأخذت تباشر مهامها التي شملت المجالات المختلفة : فأقامت العدل عن طريق القضاء ، ونظمت الدفاع وسياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول ﷺ بنفسه أو بواسطة قواد سراياه ، ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها ، وعقدت المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها أو التي اختارت طريق السلم إزاء دعوتها ، وأنفذت السفارات إلى العالم الخارجي ، فوضعت بذلك أساسًا للعلاقات الدولية [٥] .

---

(١) انظر محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية : ص ٥٦ - ٥٧ .
(٢) ابن هشام السيرة : ج ٢ ، ص ١٢١ ، ١٢٩ .
(٣) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ١٢١ .
(٤) انظر محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية : ص ٥٤ .
(٥) المرجع نفسه : ص ٥٨ - ٥٩ .

إدارة مركزية في المدينة

كانت جميع الأعمال والوظائف السياسية والإدارية محصورة في يد النبي ﷺ ؛ إذ فوَّض اللَّه تعالى إليه إدارة أمور السياسة العامة في تدبير شؤون الأمة ورعاية مصالحها ، وبعث الجيوش (١) ، وقسم الغنائم (٢) ، وعقد العهود (٣) ، وإبرام الصلح (٤) ، وتصريف الأموال ، وتوزيع الإقطاعات (٥) ، وإقامة الحدود (٦) ، وتولية القضاء والولاة (٧) ، وغير ذلك من شؤون الإمامة العظمى (٨) .

فكان له عليه الصلاة والسلام وظيفة : الرسول ، والنبي ، والحاكم ، والقاضي ، وقائد جيوش المسلمين .

وعلى هذا النحو ، اتسم أسلوب إدارة الرسول ﷺ بالمركزية ، إلَّا أنَّ هذا التركيز اقتضته عدَّة عوامل من بينها :

١ - ظروف نشأة الدولة الإسلامية ؛ حيث كان نطاق الدولة لا يتعدى المدينة . فكان تركيز السلطات في يد واحدة أمرًا طبيعيًّا نظرًا لصغر حجم الدولة الناشئة . والشاهد على ذلك أن الدولة ستتحول تدريجيًّا مع توسعها وضمها مناطق

---

(١) عن أبي عثمان أن رسول اللَّه ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل . انظر البخاري الجامع الصحيح كتاب المغازي باب غزوة ذات السلاسل : ج ٥ ، ص ١١٣ .

(٢) عن أنس قال : اعتمر النبي ﷺ من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . انظر البخاري كتاب الجهاد ، باب من قسم الغنيمة في غزوه وسفره : ج ٤ ، ٣٥ .

(٣) عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر بمنى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل : الأكبر : من أجل قول الناس : الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي ﷺ مشرك . انظر البخاري كتاب الجزية والموادعة ، باب كيف ينبذ إلى أهل العهد : ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٤) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء ... » انظر البخاري كتاب الصلح ، باب الصلح مع المشركين : ج ٣ ، ص ١٦٨ .

(٥) انظر أبو يوسف الخراج : ص ٦١ ، ويحيى بن آدم : الخراج ، ص ٧٨ .

(٦) انظر البخاري كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع : ج ٨ ، ص ١٣ .

(٧) عن أبي بردة قال : بعث رسول اللَّه ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال : وبعث كل واحد منهما على مخلاف ، قال : واليمن مخلافان ، ثم قال : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » فانطلق كل واحد منهما إلى عمله . انظر البخاري كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن : ج ٥ ، ص ١١٣ ، وأبو داود كتاب الأقضية : رقم ٣٥٩٢ : ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

(٨) انظر مناع القطان النظام القضائي في العهد النبوي : ج ١ ، ص ٣٤٧ .

جديدة إلى إدارة لا مركزية .

٢ - إن السلطة التوجيهية لرسول اللَّه ﷺ لعمل الدولة وموظفيها لها طبيعة خاصة ؛ فمدى الطاعة فيها يفوق طاعة المرؤوس لرئيسه ؛ لأن الاعتبار هنا أقوى من الاعتبار القانوني الذي يوجب على المرؤوس طاعة رئيسه ، فالأساس هنا هو التشريع الإلهي والأوامر الإلهية : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] . بل إنَّ طاعة الرسول ﷺ من طاعة اللَّه تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] [١] .

التحول إلى الإدارة اللا مركزية

منذ السنة التاسعة حيث شرعت وفود القبائل العربية تأتي معلنة دخولها في الإسلام ، بدأت الدولة الإسلامية تتجه نحو تحقيق اللا مركزية ؛ حيث كان الرسول ﷺ يعينّ على كل قبيلة يأتيه وفدها مسلمًا رجلًا منها ، وغالبًا ما يكون هو شيخها في الجاهلية مراعاة لتأليف قلوبهم على الإسلام .

وقد طبق عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ على أهل مَقنا ؛ حيث ورد في معاهدة النبي ﷺ معهم هذه العبارة : (وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم ...) [٢] .

ولما قبل أسَيْبِخْت [٣] - عامل كسرى على هَجر - الإسلام حين دعاه العلاء بن الحضرمي ﷺ إلى الدخول فيه ، أقرَّه النبي ﷺ على قومه ، وعينَّ مندوبه الأقرع مصدقًا ، أي عاملًا للصدقة في المنطقة ؛ **فقد ورد في نص الكتاب الموجه إليه** : « إلى أسيبخت بن عبد اللَّه صاحب هجر : بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، وإني قد شفعتك ، وصدقت رسولك الأقرع في قومك .. وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين ، وإني قد سميت قومك بني عبد اللَّه ، فمرهم بالصلاة ، وبأحسن العمل ، وأبشر » [٤] .

وكتب رسول اللَّه ﷺ إلى جَيْفَر وعَبْد ابنا الجُلَنْدي : « بسم اللَّه الرحمن

---

(١) انظر فرناس البنا : التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية : ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان ، ص ٨١ . ومحمد حميد اللَّه : الوثائق السياسية للعهد النبوي ، رقم ٣٣ ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٣) وورد كذلك بلفظ أسيحب . ابن حجر : الإصابة ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(٤) ابن سعد الطبقات : ج ١ ، ص ٢٧٥ . وأبو عبيد : الأموال ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

الرحيم ، السلام على من اتبع الهدى ، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجُلندي ، أما بعد : فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ؛ أسلما تسلما ، فإنِّي رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما » [١] .

وحين أرسلت ثقيف وفدًا عنها إلى النبي ﷺ بعد عودته من تبوك ، أعلنوا إسلامهم ، فأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص وهو منهم وأصغرهم سنًّا ؛ لحرصه على تعلُّم القرآن الكريم والتفقه في الدين [٢] .

وفي نطاق تشجيع اللا مركزية أيضًا ، راعى النبي ﷺ حين اتَّسعت رقعة الإسلام استخلاف أحد أصحابه إذا ما غاب عن المدينة ، أو إذا فتح بلدًا من البلدان ؛ فاستخلف ابن أم مكتوم ﷺ وغيره على المدينة [٣] ، واستخلف على مكة بعد فتحها عَتَّاب بن أُسَيد ﷺ ، وولَّى عمرو بن سعيد بن العاص على خيبر ووادي القرى وتيماء .. إلى غير ذلك [٤] .

ومن هديه ﷺ في عُمَّاله وولاته : أنه إذا وجه عاملًا إلى جهة من الجهات عهد إليه - إما مشافهة أو كتابة [٥] - أن يأمر الناس بالصلاة ، ويأخذ منهم زكاة أموالهم ، وأن يعدل فيهم [٦] ، ويفقههم في الدين ، ويعلمهم السنَّة ، ويلين لهم في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم [٧] .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ، ج ٣ ، ص ٦٩٣ . والقلقشندي : صبح الأعشى : ج ٦ ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ . وذكر الحافظ في الفتح بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد القارئ أنهما أسلما وأسلم معهما بشر كثير ؛ ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٢) انظر ابن سعد : الطبقات : ج ٥ ، ص ٥٠٨ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ورجال الصحيح غير حكيم بن حكيم بن عباد وقد وُثق : ج ٩ ، ص ٣٧١ .

(٣) انظر : خليفة : التاريخ : ص ٩٦ - ٩٧ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٩٧ .

(٥) كما فعل عليه الصلاة والسلام مع معاذ بن جبل ﷺ حين وجَّهه إلى اليمن ؛ فقد أوصاه مشافهة ، بينما كتب لعمرو بن حزم ﷺ كتابًا حين عيَّنه حاكمًا على بلحارث بن كعب باليمن ؛ انظر : البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ، ج ٥ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، وابن هشام السيرة : ج ٤ ، ص ٢٦٥ .

(٦) انظر البخاري كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ، ج ٥ ، ص ١٠٩ ، حيث قال لهما ﷺ : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » .

(٧) انظر ابن هشام : السيرة ج ٤ ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٥ .

التقسيمات الإدارية في العهد المدني

أما التقسيمات الإدارية في عهد الرسول ﷺ فقد ضمَّت عدة مدن وولايات، ومناطق للعشائر والقبائل، وكانت المدينة هي عاصمة الدولة ومركز الحكم، وكانت تخضع لسلطة الحكومة المركزية مباشرة.

فمن المدن

- **مكة**: وقد ولَّى عليها النبي ﷺ عتاب بن أسيد رضي الله عنه[١].
- **الطائف**: واستخلف عليه الصلاة والسلام عليها عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه[٢].

ومن الأقاليم

- **إقليم اليمن**: وقسَّمه إلى عمالات؛ فاستعمل على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص، وعلى كندة والصدف المهاجر بن أبي أمية، وعلى حضرموت زياد بن بيد الأنصاري، وعلى نجران أبا سفيان بن حرب، وعلى جُرَش وبحرها سعيد بن القشب الأزدي[٣]، وعلى الجند معاذ بن جبل، وعلى زُبيد ورِمَع وعدن والساحل أبا موسى الأشعري[٤].

كما عهد عليه الصلاة والسلام إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه بوظيفة أخرى، وهي قبض أموال الزكاة التي يجبيها العمال في أنحاء عمالاتهم[٥].

- **إقليم البحرين**: واستعمل - عليه الصلاة والسلام - العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه[٦].
- **إقليم عمان**: واستعمل - عليه الصلاة والسلام - عمرو بن العاص رضي الله عنه[٧].

أما القبائل والعشائر: فقد ولَّى عليه الصلاة والسلام سالم بن معتب رضي الله عنه على

---

(١) نقله الحافظ في الفتح عن ابن شبَّة في كتاب مكة، ج ٢، ص ٤٤٤.
(٢، ٣) انظر: خليفة: التاريخ: ص ٩٧.
(٤) عن أبي موسى رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أرض قومي، وعن سعيد بن عمرو: أن النبي ﷺ بعث معاذ إلى اليمن. أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ج ٥، ص ١٠٧، وخليفة التاريخ: ٩٧. (٥) انظر خليفة: التاريخ، ص ٩٧.
(٦) انظر المصدر نفسه، ص ٩٧، وأحمد المسند: ج ٤، ص ٣٢٧.
(٧) انظر خليفة التاريخ، ص ٩٧.

الأحلاف من ثقيف [(١)] ، وخالد بن الوليد ﵁ على بلحارث بن كعب باليمن [(٢)] ، وأرسل علي بن أبي طالب ﵁ إلى قبيلة همدان باليمن [(٣)] ، وبعث عدي بن حاتم ﵁ على طيئ وصدقاتها ، ومالك بن نويرة ﵁ على صدقات بني حنظلة ، والزبْرِقان بن بدر ﵁ وقيس بن عاصم ﵁ على صدقات بني سعد [(٤)] ، والضحاك ابن سفيان الكلابي ﵁ على صدقات بني كلاب ، وبُسر بن سفيان الكعبي ﵁ على صدقات بني كعب [(٥)] .

الرقابة الإدارية

إذا كانت الرقابة إحدى الدعائم الرئيسة التي يعتمد عليها التنظيم ؛ فقد وضع النبي ﷺ أُسس الرقابة على الحكام والولاة والعمال . وأخذت الرقابة النبوية صورة التوجيهات المسبقة قبل مباشرة المهام الموكلة إليهم .

والهدف من ذلك : جعل الرقابة الإدارية الذاتية خط الدفاع الأول في مواجهة الانحراف الإداري في شتى مظاهره وصوره من خلال تربية ضمير المسلم ؛ بحيث يصبح رقيبًا على نفسه وحارسًا على تعاليم الشريعة الإسلامية في كافة المجالات .

فقد روى ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ؛ فالإمام الذي على الناس راعٍ ومسؤول عن رعيته ... » الحديث [(٦)] .

وعن معقل بن يسار ﵁ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرم اللَّه عليه الجنة » [(٧)] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .

(٢) عن البراء ﵁ قال : « بعثنا رسول اللَّه ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن . قال : ثم بعث عليًا بعد ذلك مكانه » . انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ، ج ٥ ، ص ١١٠ ، وابن هشام السيرة : ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ، ج ٥ ، ص ١١٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٥ ، ص ١٠٤ .

(٤) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

(٥) انظر ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٦) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأحكام ، باب قوله اللَّه تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ج ٨ ، ص ١٠٤ .

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح ، ج ٨ ، ص ١٠٧ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

وأكَّد الرسول ﷺ على هذه الرقابة الذاتية بقوله : « الإحسان : أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [١] .

وعلاوة على هذا اهتم النظام الإسلامي في العهد المدني بالرقابة الإدارية التي يقوم بها الحاكم أو الإمام على مرؤوسيه من العمال والولاة ليتأكد من التزامهم بواجباتهم ؛ فلا استغلال للسلطة ، ولا إساءة لاستعمالها . ويدخل في هذا النطاق إلزام عامة الناس بتنفيذ القوانين واللوائح [٢] ؛ فشؤون الحكم لا تستقيم إلا بهذا النوع من الرقابة ، وإهماله يؤدي إلى انحلال الدولة وانهيارها .

ولذلك كان النبي ﷺ يحاسب العمال ، ويكشف عملهم ؛ فإذا وجد تصرُّفًا فيه خلل حاسب عليه ونهى عنه ؛ مثل ما رواه الإمام البخاري في باب محاسبة الإمام عماله ، عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ استعمل ابن اللُّتْبية على صدقات بني سُليم ، فلما جاء إلى رسول اللَّه ﷺ وحاسبه قال : هذا الذي لكم ، وهذه هدية أهديت لي ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « فهلا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا ؟! » ، ثم قام رسول اللَّه ﷺ فخطب الناس وحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد : فإني أستعمل رجلًا منكم على أمور مما ولَّاني اللَّه فيأتي أحدكم فيقول : هذا لكم ، وهذه هدية أهديت لي . فهلا جلس في بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا ؟! فواللَّه لا يأخذ أحدكم منها شيئًا - قال هشام : بغير حقه - إلا جاء اللَّه يحمله يوم القيامة ... » [٣] .

فهذه صورة من صور رقابة رسول اللَّه ﷺ على عماله ، تضمنت حكمًا شرعيًّا وإداريًّا ، هو محاسبة العمال ومراقبتهم ، وتحريم الهدايا الموجهة إليهم .

الإحصاء والاستفادة من الوسائل العصرية

ومن الوسائل التنظيمية التي تساعد على مراعاة كل المعطيات ، وتحديد مستوى الحركة وإتجاهها : وسيلة الإحصاء ؛ فهو ضرورة لتقدير أي موقف عسكري ، كما أنه ضرورة لمعرفة الوضع الاقتصادي والسكاني .

وبناءً على ذلك نجد أكثر من حديث يتناول طلب النبي ﷺ إحصاء عدد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٢) انظر فرناس البنا : التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٩١ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأحكام ، باب محاسبة الإمام عماله ، ج ٨ ، ص ١٢١ .

المسلمين ؛ فعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « اكتبوا - وفي رواية : احصوا - لي من تلفظ بالإسلام من الناس » ، فكتبنا له ألفًا وخمسمائة . وفي رواية : فوجدناهم خمسمائة . وفي رواية : ما بين ستمائة وسبعمائة [١] .

وطريق الجمع بين هذه الروايات : أن العمليات الإحصائية تجري بين وقت وآخر بسبب المتغيرات أو الظروف الطارئة [٢] .

وفي حديث آخر لابن عباس ﵄ قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللَّه ! إني كُتبت في غزوة كذا وكذا ... » الحديث [٣] ؛ مما يدلّ على مشروعية وضع دواوين الجند لإحصاء المنخرطين في سلك الجندية ، ولتمييز من يصلح للجندية ممن لا يصلح .

كما أن مراعاة النظام تقتضي إحصاء من يخرج للحرب وكتابة اسمه على سبيل التناوب ؛ باستثناء النفير العام الذي يتعيَّن فيه الخروج على كل أحد .

وهكذا فإنَّ إنشاء الدواوين في أول عهدها يعود فضله إلى رسول اللَّه ﷺ . أما ما قام به الخلفاء الراشدون من بعده ؛ فكان في مجال التطوير والتوسيع الذي يتفق مع حاجات العصر ومتطلباته .

أما كتابة الإنشاء : فقد استعمل الرسول ﷺ الكُتَّاب لكتابة رسائله داخل الجزيرة العربية وخارجها [٤] . وثبت أنه لما أراد أن يكتب إلى الروم قيل له : إنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختومًا ، فاتخذ خاتمًا من فضة ونقشه : محمد رسول اللَّه [٥] .

وهذا يدل على مرونة الإسلام في الإفادة من الأساليب والوسائل المعاصرة ما دامت لا تتعارض مع مبادئ الشريعة وروحها العامة [٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب كتابة الإمام الناس ، ج ٤ ، ص ٣٤ . ومسلم : كتاب الإيمان ، باب الاستسرار بالإيمان للخائف ، رقم ١٤٩ ، ج ١ ، ص ٤٥٦ .

(٢) انظر صالح الشامي : السيرة النبوية ص ٢٢٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب كتابة الإمام الناس ، ج ٤ ، ص ٣٤ .

(٤) عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد اللَّه بن حذافة السهمي ، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين .. » انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب كُتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، ج ٥ ، ص ١٣٦ ، وكتاب التفسير ، باب ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ج ٥ ، ص ١٦٧ ، وابن هشام السيرة : ج ٤ ، ص ٢٧٩ .

(٥) انظر البخاري : كتاب اللباس : باب اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء : ج ٧ ، ص ٥٣ .

(٦) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

المبحث الثالث التنظيمات الحربية

يعد التنظيم معلمًا بارزًا في أعمال الرسول ﷺ الحربية ؛ فكان عند خروجه لأية غزوة يرتب الجيش ترتيبًا متوازنًا ، حيث يجعل في كل مجنبة كفؤًا لها (١) ، وكان يعقد له الألوية والرايات (٢) ؛ لما تمثله هذه الألوية والرايات من رمز للقوة ، فثبات الراية يعني القوة والانتصار ، كما أن سقوطها يعني الهزيمة والاندحار .

فكان لكل عشيرة أو رهط - حسب كثرتهم - راية أو لواء ، أو راية ولواء ، أو راية وألوية (٣) . وكان يحمل كل راية أو أكثر زعيم أو عدة زعماء ، حسب عدد الرايات (٤) . وكان النبي ﷺ يشاور أفراد العشيرة فيمن يحمل رايتهم (٥) .

وكان عليه الصلاة والسلام يهيئ للحرب عدَّته ؛ فيتحصن بالدرع (٦) والخوذة ، ويتقلد السيف ، ويحمل الرمح والقوس ، ويتترس بالترس (٧) .

وكان إذا ظهر على قوم أقام بديارهم ثلاثة أيام ثم رجع (٨) . وكان إذا أراد أن

---

(١) انظر ابن القيم : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٢) عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال : كان عليٌ ﷺ تخلف عن النبي ﷺ في خيبر ، وكان به رمد . فقال : أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ فخرج عليٌ فلحق بالنبي ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها في صباحها ، فقال رسول الله ﷺ : « لأعطين الراية » - أو قال : « ليأخذن غدًا - رجل يحبه الله ورسوله ، يفتح الله عليه » فإذا نحن بعلي وما نرجوه . فقالوا : هذا على ، فأعطاه رسول الله ﷺ ففتح عليه . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما قيل في لواء النبي ﷺ ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٣) انظر الواقدي المغازي : ج ٢ ، ص ٩٩٦ ، ١٠٠٣ ، وابن سعد : الطبقات ج ٣ ، ص ١٦٩ . وخليفة التاريخ ، ص ٦٧ ، وابن حجر : الإصابة ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، ١٩٨ .

(٤) انظر الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ٥٨ ، وابن حجر الإصابة : ج ١ ، ص ٤٢٤ ، ج ٣ ، ص ٥٣١ . والنووي : تهذيب الأسماء والصفات ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٥) انظر ابن حجر : الإصابة ج ١ ، ص ٣٠٣ ، ج ٣ ، ص ٥٣١ .

(٦) عن السائب بن يزيد ، عن رجل قد سماه : أن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أحد بين درعين ، أو لبس درعين » انظر أبو داود : السنن رقم ٢٥٩٠ ، ج ٣ ، ص ٣١ - ٣٢ ، وسعيد بن منصور في السنن : رقم ٢٨٥٨ ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٧) انظر ابن القيم : زاد المعاد ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

(٨) عن أبي طلحة ﷺ عن النبي ﷺ : « أنه كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال » انظر البخاري كتاب الجهاد ، باب من غلب العدو وأقام على عرصتهم ثلاثًا ، ج ٤ ، ص ٣٥ .

يُغير انتظر ، فإن سمع في الحي مؤذنًا لم يغر ، وإلَّا فأغار [١] .

وكان ﷺ يرتب الصفوف [٢] ، ويعبئهم عند القتال بيده فيقول : « تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان » [٣] .

وكان عليه الصلاة والسلام يجعل لأصحابه شعارًا في الحرب يُعرفون به إذا تكلموا مثل : « أمِت .. أمِت » [٤] و « حم لا ينصرون » [٥] .

وكان ينهى عن النهب بقوله : « من انتهب نهبة فليس منا » [٦] .

وفي الصحيح عن عبد اللَّه بن يزيد الأنصاري : نهى النبي ﷺ عن النهبة والمثلة [٧] .

وكان عليه الصلاة والسلام إذا ظفر بعدوه أمر مناديًا فجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه اللَّه ﷻ من مصالح المسلمين ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم يقسم الباقي بالتسوية بين الجيش ؛ للفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه ، وللراجل سهم [٨] .

---

(١) عن أنس بن مالك : أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر ، فإن سمع أذانًا كف عنهم ، وإذا لم يسمع أذانًا ركب ... » انظر البخاري كتاب الأذان ، باب ما يحقن بالأذان من الدماء ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٢) عن البراء وسأله رجل : « أكنتم فررتم يا أبا عمارة يوم حنين ؟ قال : لا واللَّه ، ما ولى رسول اللَّه ﷺ ولكنه خرج شبَّان أصحابه وخفافهم حرًّا ليس بسلاح فأتوا قومًا رماة جَمْعَ هوازن وبني نصر ، ما يكاد يسقط لهم سهم ، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون ، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به ، فنزل واستنصر ، ثم قال : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ثم صف أصحابه . انظر البخاري كتاب الجهاد ، باب من صفَّ أصحابه عند الهزيمة ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ . وابن حجر الإصابة : ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٣) انظر ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ، ص ٩٨ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن رقم ٢٥٩٤ ، ج ٣ ، ص ٣٣ ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ . والدارمي في السنن بإسناد صحيح ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ، ج ٤ ، ص ٦٥ ، والترمذي في السنن ، كتاب الجهاد ، بسند حسن ، رقم ١٧٣٣ ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن ، كتاب الفتن ، رقم ٣٩٣٥ ، ج ٢ ، ص ١٢٩٨ .

(٧) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المظالم ، باب النُهبى بغير إذن صاحبه ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

(٨) عن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قسم في النفل : للفرس سهمين ، وللراجل سهم . انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب فرض الخمس من الدين ، ج ٤ ، ص ٤٤ ، ومسلم في الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد ، باب استحقاق القاتل سلب القتيل ، ج ١٢ ، ص ٥٩ ، وباب كيفية قسمة الغنيمة ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ، وابن القيم زاد المعاد : ج ٣ ، ص ١٠٠ .

وقد عرف الجيش الإسلامي في العهد المدني الرتب العسكرية :

القائد العام - وهو الرسول ﷺ - وأمراء التعبئة [١] ، والنقباء [٢] ، والعرفاء [٣] ، ثم الجنود .

كما عرف المسلمون القتال بنظام الصفوف ونظام الخميس .

أما الأول : فقد عمل به النبي ﷺ في كثير من معاركه مع أعدائه : في بدر ، وأحد ، والخندق ؛ حيث إن القتال صفًّا يدعو إلى الاستماتة في المعركة حتى يتم النصر أو الشهادة . بخلاف القتال بأسلوب الكرِّ والفر فهو مدعاة للهزيمة والفشل ، واللَّه سبحانه توعَّد الفارين الذين يولون دبرهم للمعركة بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ﴾ [الأنفال : ١٦] .

ولهذا أمر اللَّه ﷻ المؤمنين بالقتال صفًّا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

وأما نظام الخميس : فقد استعمله النبي ﷺ في حربه مع اليهود في غزوة خيبر ؛ حيث روي عن أنس بن مالك ﵁ قال : « صبحنا خيبر بكرة ، فخرج أهلها بالمساحي ، فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا : محمد واللَّه ، محمد والخميس . فقال النبي ﷺ : « اللَّه أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » [٤] .

وفي نظام الخميس كان الجيش يوزع على النحو الآتي :

- **المقدمة** : وهي التي تكون أمام الجيش وتكون في طليعة القلب ، ويكون فيها

---

(١) عن ابن عمر قال : كان النبي ﷺ تخرج له حربة في السفر فينصبها فيصلي إليها . انظر ابن ماجه السنن ، ج ٢ ، ص ٩٤١ ، وابن هشام السيرة : ج ٤ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) عن كعب بن مالك في حديث طويل قال فيه : « ... قال رسول اللَّه ﷺ : أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم ... » انظر الطبري التاريخ : ج ٣ ، ص ٣٦٣ ، وأحمد المسند : ج ٣ ، ص ٤٦٢ ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، ج ٢ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب قول اللَّه تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ؛ حيث قال النبي ﷺ للجيش في شأن هوازن : « إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ... » ج ٥ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، وابن قدامة : المغني ، ج ٦ ، ص ٤١٧ ، والخزاعي : الدلالات السمعية ، ص ٢٤٩ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ج ٥ ، ص ٧٣ .

الفرسان والرجَّالة ، ويكون معهم الراية والشعار ، ويُبدأ بهم القتال حيث يتقدم الرجال النشابة برشق الأعداء .

- **القلب** : وهو الذي يكون وسط الجيش ، ويشرف على جميع أجزائه ، ويكون قائد الجيش في هذا الجزء المهم وحماته من حوله ، ويكون مساعدًا لمجنبتيه ، ولا يتحرك إلا في اتباع عدوه إذا ولَّى ، أو لدفعه إذا أقبل .

- **الميمنة** : وهي التي تكون عن يمين القلب ، ومهمتهم أن يبدأوا بالحملة على ميسرة عدوهم ليغلبوهم على العسكر ، أو يزيلوهم عن مراكزهم ، ويكون أكثرهم من الفرسان .

- **الميسرة** : وهي التي تكون عن يسار القلب وعملهم أن يثبتوا في أماكنهم ويمنعوا الأعداء من الدخول عليهم ، وليس عليهم أن يحملوا أو يهاجموا إلا إذا اضطروا إلى ذلك اضطرارًا ملزمًا .

- **الساقة** : وهم الذين يكونون في مؤخرة الجيش ، ومعهم الأثقال والأحمال ، ويكون معهم الأسلاب ، كما أنه تقوم على كواهلهم مهمة حماية الجيش من الخلف حتى لا تتزعزع صفوفه الأمامية [١] .

كما أن الجيش الإسلامي في العهد المدني عرف الاستطلاع ؛ إذ كان النبي ﷺ يرسل الطلائع حول المدينة وحول المعسكرات التي كان جيشه يستقر فيها ؛ وذلك لتأمين مواقعهم ، وللتعرف على أخبار العدو [٢] .

أما الرماية : فكان مستوى المسلمين فيها ضعيفًا ، فشجعهم النبي ﷺ على تطوير كفاءاتهم القتالية ، وبلغ اهتمامه بتدريبهم على الرمي إلى حدٍّ أنه جعله أساس القوة وجوهرها ؛ فعن عقبة بن عامر الجهني ﷺ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ وهو على المنبر يقول : « ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ؛ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » [٣] .

---

(١) انظر الهرثمي : مختصر سياسية الحروب ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٢) عن جابر ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « من يأتيني بخبر القوم - يوم الأحزاب » انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب فضل الطليعة ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، ومسلم الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، ج ١٣ ، ص ٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ، ج ١٣ ، ص ٦٤ .

وكان عليه الصلاة والسلام ، يُحذِّر من الانقطاع عن التدريب على الرمي حتى لا ينخفض مستوى المسلمين القتالي ، إلى حدٍّ أنه اعتبر ذلك من المعاصي وجحود النعمة ؛ فقال ﷺ : « من ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنما هي نعمة جحدها » (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من علم الرمي ثم تركه فليس منا ، أو قد عصى » (٢) .

وكان ﷺ يشجع في أكثر من مناسبة المقاتلة المسلمين على التدريب على الرمي والطعن بالرمح ، فكان يقول : « علِّموا مقاتلتكم الرمي » (٣) .

كما كان عليه الصلاة والسلام يكرم المهرة من أصحابه ؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك ، فإني سمعته يقول يوم أحد : « يا سعد ! ارم فداك أبي وأمي » (٤) .

وقد برع المسلمون في الرماية نتيجة لهذه العناية الفائقة حتى استحقوا أن يُطلق على بعضهم « رماة الحدق » أي أن الرامي منهم كان إذا صوَّب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها (٥) .

هذه بعض الملامح العامة لتنظيمات المسلمين الحربية في العهد المدني نستعرض بعدها بعض الترتيبات العسكرية للغزوات الكبرى التي قادها النبي ﷺ بنفسه .

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن ، كتاب الجهاد ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، والنسائي في السنن كتاب الخيل ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ، ج ١٣ ، ص ٦٥ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند : ج ١ ، ص ٤٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ ، ج ٥ ، ص ٣٥ ، ومسلم في الجامع الصحيح ، كتاب الفضائل ، باب فضائل سعد بن أبي وقاص ، ج ١٥ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٥) انظر محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه الجزيرة ، ص ١٠٣ .

غزوة بدر

١ - وحدة الأمر أو القيادة الموحدة

ويقصد بها في علم التنظيم : توحيد وجهة التلقي للتعليمات من قبل رئيس واحد ، حرصًا على تحديد المسؤوليات ، وضمان التنسيق وتوحيد الجهود ، وعدم بعثرتها ، وفي المقابل فإن عدم مراعاة ذلك يسبب ارتباكًا سيئ الأثر في العمل وفي نفوس المرؤوسين نتيجة لتعدد مصادر التوجيه والتلقي (١) .

ووفقًا لهذا المفهوم ، فقد كان النبي ﷺ هو القائد العام في معركة بدر الكبرى ، وكان المسلمون يعملون يدًا واحدة تحت قيادته . وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم مثالًا رائعًا للضبط الحقيقي المتين .

ومعنى الضبط هنا : هو طاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة وعن طيب خاطر (٢) .

على أن النبي ﷺ كان يتحلى بصفات القائد المثالي بضبط الأعصاب في الشدائد (٣) ، وشجاعته النادرة في المواقف (٤) ، ومساواة نفسه مع أصحابه (٥) ، واستشارته لهم في كل عمل حاسم لم ينزل فيه وحي (٦) .

بينما نجد أن المشركين لم يكن لهم هدف موحد ولا قيادة موحدة قبل وخلال هذه المعركة ؛ حيث طغت الأنانية والروح الفردية على المصلحة الموحدة

---

(١) انظر سامي سلمان : التنظيم ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) انظر محمود شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٧٩ .

(٣) عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر أمر رسول اللَّه ﷺ فأخذ كفًّا من الحصباء فاستقبلنا به ، فرمانا بها وقال : « شاهت الوجوه » فانهزمنا . فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ . انظر الطبراني : المعجم الكبير ، رقم ٣١٢٨ . وقال الهيثمي في المجمع : سنده حسن ، ج ٦ ، ص ٨٤ . ويشهد له حديث مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين ، ج ١٢ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٤) انظر أحمد المسند ، وصحّحه أحمد شاكر ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٥) عن عبد اللَّه قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير . قال : وكان علي وأبو لبابة زميلي رسول اللَّه ﷺ . قال : « وكنا إذا كانت عقبته قلنا : اركب حتى نمشي ، فيقول : ما أنتما بأقوى مني ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » . انظر أحمد المسند : وحسنه أحمد شاكر ، ج ٦ ، ص ٣ . والحاكم في المستدرك ، وقال حديث صحيح ووافقه الذهبي ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٦) عن أنس : « أن رسول اللَّه ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان ... » انظر مسلم : كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ .

أثناء توجههم إلى بدر [١] .

٢ - وحدة الهدف

لكل عمل هدف رئيس ، وهذا الهدف كي يتحقق لابد من تعريفه بصورة واضحة ، ثم تقسيمه إلى أهداف فرعية ومرحلية يكون بينها وحدة واتساق توصل بمجموعها إلى تحقيق الهدف الرئيس [٢] .

وقد كان للمسلمين في بدر هدف معين ومحدد ورئيس : وهو نشر الإسلام حتى يكون الدين كله للَّه ، وتكون كلمة اللَّه هي العليا في الأرض . وقد التمسوا تأمين جميع الوسائل الضرورية الموصلة إلى هذه الغاية عبر أهداف جزئية ومرحلية أوصلتهم في النهاية إلى هدفهم المنشود [٣] .

٣ - استعمال الألوية والرايات

وقبل المسير إلى بدر ، بدأ النبي ﷺ بتنظيم جنده ؛ فأعطى اللواء - وكان أبيضًا - إلى مصعب بن عمير ﷺ ، وأعطى رايتين لعلي بن أبي طالب وسعد بن معاذ ﷺ [٤] .

٤ - التعبئة الجديدة

طبق الرسول ﷺ أثناء اقترابه من بدر تشكيلة لا تختلف عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء ، حيث كان للمسلمين مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة [٥] .

---

(١) انظر أبو داود : السنن ، كتاب الجهاد ، رقم ٢٦٦٥ ، ج ٣ ، ص ٥٢ وإسناده صحيح . والهيثمي : كشف الأستار ، رقم ١٧٦١ ، ج ٢ ، ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) انظر سامي سلمان : التنظيم ، ص ٣٥ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني : خطة الردع أثناء إدارة الصراع ضد المشركين وأهل الكتاب ، ص ٤٥٦ - ٤٦١ .

(٤) انظر ابن هشام السيرة : ج ٢ ، ص ٢٥١ ، وابن كثير البداية : ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٥) انظر محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص ٨٠ .

٥ - دوريات الاستطلاع

كما استفاد النبي ﷺ من دوريات الاستطلاع للحصول على المعلومات ؛ إذ أرسل بَسبس بن عمرو وعدي بن الزغباء رضي الله عنهما إلى بدر للتعرُّف على أخبار القافلة ، فرجعا إليه بخبرها [١] .

وفي هذا دليل آخر على الأخذ بالأسباب ، ومن ذلك التجسس على العدو وجمع أخباره [٢] .

٦ - أسلوب القتال

وأثناء المعركة قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف عملًا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] . بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر ، وهو أسلوب قديم لا يلائم الأوضاع المستجدة .

ولاشك أن نظام الصفوف يعطي القائد القدرة الفائقة للسيطرة على الجند ، ويقلِّل من خسائر المسلمين ، ويعوِّض عن قلة عددهم أمام المشركين . كما أن فيه مزية تأمين العمق للجيش ، حيث تبقى دائمًا بيد القائد قوة احتياطية في الخلف يعالج بها المواقف التي ليست في الحسبان [٣] .

٧ - غرفة العمليات

كما بُني للرسول ﷺ عريش أو قُبَّة كان يدير منها المعركة باقتراح من سعد بن معاذ رضي الله عنه [٤] .

وهو ما يشبه في العصر الحديث غرفة عمليات تدار منها المعركة ؛ وذلك لأهمية

---

(١) عن أنس بن مالك قال : بعث رسول الله ﷺ عينًا ينظر ما صنعت عير أبي سفيان ... » انظر مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، ج ١٣ ، ص ٤٤ ، وأبو داود في السنن ، كتاب الجهاد ، رقم ٢٦١٨ ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

(٢) انظر أكرم العمري السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

(٣) انظر محمود شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٨١ .

(٤) انظر الطبري التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ، والبيهقي : الدلائل ، ج ٣ ، ص ٤٤ . وعزاه الحافظ في الفتح إلى البخاري من طريق عفان عن وهيب في كتاب التفسير بقوله : « وهو في قبة » ، والمراد بها العريش الذي اتخذه الصحابة لجلوس النبي ﷺ فيه ج ٧ ، ص ٢٨٩ .

الحفاظ على القائد من جهة ، ولتمكين القائد من تنفيذ خطته على الوجه الأكمل من جهة ثانية . لكن النبي ﷺ جمع بين الأمرين ؛ حيث ثبت أنه شارك في المعركة ونزل إلى ساحة القتال (١) . وكان أيضًا يدير المعركة من العريش (٢) الذي أقيم له في تلٍّ مرتفع ليشرف على سير المعركة (٣) .

(١) انظر أحمد المسند : وصحَّحه أحمد شاكر ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بسند صحيح ص ٥٧ .
(٢) انظر ابن هشام السيرة : ج ٢ ، ص ٢٦٩ ، والبيهقي في الدلائل ، ج ٣ ، ص ٤٤ .
(٣) انظر ابن القيم : زاد المعاد : ج ٣ ، ص ١٧٥ .

غزوة أحد

١ - الألوية والرايات

في هذه الغزوة ارتفعت راية سوداء [١] وثلاثة ألوية ؛ لواء للمهاجرين يحمله مصعب بن عمير [٢] ، ولواء للأوس يحمله أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج يحمله الحباب بن المنذر [٣] .

٢ - عدم قبول انخراط صغار السن في الجندية

وفي موقع الشيخين حين عسكر جيش المسلمين ، استعرض النبي ﷺ صغار السنِّ الذين لا طاقة لهم بالقتال ، ممَّن هم دون سن الخامسة عشر ، فردَّهم سوى رافع بن خُديج فقد أجازه لمَّا قيل إنه رام . وبلغ عدد من ردهم من صغار السن أحد عشر صبيًا [٤] ، منهم عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما [٥] .

٣ - اتخاذ الجيش مواقعه بموجب خطة منظمة

ولما تقدم المسلمون إلى ميدان أحد ، نظم الرسول ﷺ صفوف جيشه جاعلًا ظهورهم إلى جبل أحد [٦] ، ووجوههم تستقبل القبلة ، وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبد اللَّه بن جبير [٧] فوق جبل عينين المقابل لأُحد ، لحماية المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم . وبذلك سيطر المسلمون على المواقع الإستراتيجية في المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش [٨] .

(١) انظر خليفة : التاريخ ، ص ٦٧ . وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة : بإسناد حسن إلى سعيد بن المسيب مرسلًا ، ومراسيله قوية ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

(٢) انظر : موسى بن عقبة : المغازي ، ص ١٨٦ .

(٣) انظر الواقدي : المغازي : ج ١ ، ص ٥٨ ، ٢١٥ .

(٤) انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ٧ .

(٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول اللَّه ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشر سنة فلم يجزني ، ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الشهادات ، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

(٦) انظر ابن هشام : السيرة ج ٣ ، ص ١٠ .

(٧) عن البراء رضي الله عنه قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة وأمَّرَ عليهم عبد اللَّه وقال : « لا تبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ... » انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، ج ٥ ، ص ٢١ .

(٨) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

غزوة الخندق

١ - تقسيم العمل في حفر الخندق

شرع المسلمون في حفر الخندق ، وكان طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه تسعة أذرع ، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة . وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعًا [١] .

وقد تولَّى المهاجرون الحفر من ناحية « حصن راتج » في الشرق إلى « حصن ذباب » ، والأنصار من « حصن ذباب » إلى « جبل بني عبيد » في الغرب [٢] .

٢ - وضع خطة منظمة للدفاع عن المدينة

لما أنجز المسلمون الخندق ، رتب النبي ﷺ جيشه ، فأسند ظهرهم إلى جبل سَلْع داخل المدينة [٣] ، ووجوههم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين ، الذين نزلوا بأعلى « وادي قناة » من تلقاء « الغابة » [٤] .

ووضع النبي ﷺ الأطفال والنساء في حصن بني حارثة ، وهو أقوى حصون المسلمين بالمدينة [٥] . وكان شعار المسلمين يوم الخندق « حم لا ينصرون » [٦] .

---

(١) عن عمرو بن عوف المزني : أن رسول اللّٰه ﷺ خط الخندق من أحمر السبختين طرف بني حارثة عام حزب الأحزاب حتى بلغ المداحج ، فقطع لكل عشرة أربعين ذراعًا ، واحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلًا قويًا ، فقال المهاجرون : سلمان منا . وقالت الأنصار : سلمان منا . فقال رسول اللّٰه ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » . انظر الطبري : جامع البيان ، ج ٢١ ، ص ٣٣ . وقال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد اللّٰه المزني ، وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه ، وبقية رجاله ثقات ، ج ٦ ، ص ١٣٠ .

(٢) انظر ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٣) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ .

(٤) انظر موسي بن عقبة : المغازي ، ص ٢١٦ .

(٥) عن رافع بن خديج قال : لم يكن حصن أحصن من حصن بني حارثة ، فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه ، وقال : « إن لم يكن أحد فألمعن بالسيف » قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، ج ٦ ، ص ١٣٣ .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن بسند حسن ، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٣٣ ، ج ٣ ، ص ١١٥ . وصححه الحاكم في المستدرك ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

٣ - تنظيم الدوريات

كما نُظمت الدوريات لحراسة المدينة ؛ فكان سلمة بن أسلم الأوسي يقود مائتي رجل ، وزيد بن حارث يقود ثلاثمائة رجل ، يحرسون المدينة ويظهرون التكبير ، لإشعار يهود بني قريظة بيقظتهم ووجودهم خوفًا منهم على النساء والأطفال في الحصون [١] .

(١) انظر ابن سعد الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، وأكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

غزوة مؤتة

١ - إعادة تنظيم الجيش بعد استشهاد القادة

بعد استشهاد القادة الثلاثة في ميدان المعركة في مؤتة ، اختار المسلمون قائدًا جديدًا هو خالد بن الوليد ، فأعاد تنظيم جيشه ، وبدَّل الميسرة بالميمنة ، وجعل قسمًا من الجيش يتقدمون من الخلف وكأنهم مدد جديد لإيهام الروم ، فمكَّنه هذا الانسحاب المنظم من الحفاظ على قواته ، ولم يفقد إلا اليسير من جنده ؛ حيث سمَّت المصادر ثلاثة عشر شهيدًا فقط [١] .

٢ - تسمية هذا الانسحاب المنظم فتحًا

لاشك أن التنظيم يلعب دورًا فعالًا في الحروب ؛ فالنصر لا يكون - بعد تأييد الله ﷻ - بكثرة الأعداد والعدد ، وإنما بحسن إدارة الحروب ووضع الإستراتيجيات المنظمة الناجحة .

ولذا اعتبر النبي ﷺ هذا الانسحاب المنظم الناجح فتحًا [٢] ، حيث تمكَّن خالد ابن الوليد ﷺ - بتوفيق من اللَّه ﷻ - من إنقاذ جيشه بخسائر طفيفة مع الإثخان في الروم وإصابتهم بقتلى وجرحى [٣] .

---

(١) انظر أكرم العمري : السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ .

(٢) عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم . فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه حتى فتح اللَّه عليهم » . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، ج ٥ ، ص ٨٧ .

(٣) انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، ج ٥ ، ص ٨٧ ، وأحمد في فضائل الصحابة ، ج ٢ ، ص ٨١٤ .

فتح مكة

١ - استعراض الجيش أمام أبي سفيان

لما أراد أبو سفيان أن ينصرف إلى مكة من « مرِّ الظهران » حيث عسكر المسلمون استعدادًا لدخول مكة ، أوعز النبي ﷺ إلى العباس ﷺ أن يحبسه عند مضيق الوادي لاستعراض الجيش الإسلامي بشكل منظم أمام عينيه ، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان ، فمرَّت غفار ، ثم جُهينة ، ثم سعد بن هُذيم ، ثم سُليم ...، ومع كل قبيلة رايتها . ثم مرت كتيبة رسول اللّه ﷺ الخضراء - لما غلب عليها من لبس الحديد - لا يرى منهم إلا العيون ، فيها المهاجرون والأنصار ، ويحمل راية المهاجرين الزبير بن العوام ، وراية الأنصار سعد ابن عبادة .

آنذاك قال أبو سفيان للعباس : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ، واللّه لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم لعظيم ، فردَّ عليه العباس : ويحك يا أبا سفيان ! إنها النبوة [١] .

٢ - تعيين أمراء التعبئة وتقسيم الجيش

وعندما قرر النبي ﷺ الزحف على مكة ، عيَّن أمراء التعبئة ، وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب ؛ فكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وأبو عبيدة على الرجالة ، وكانت راية رسول اللّه ﷺ سوداء ولواؤه أبيض [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح ، ج ٥ ، ص ٩٠ - ٩١ . وقال الحافظ في الطالب العالية : « أخرجه إسحاق بن راهوية ، وهذا حديث صحيح » ، رقم ٤٣٦٢ ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) انظر ابن ماجه : السنن رقم ٢٨١٨ ، ج ٢ ، ص ٩٤١ . وقال أكرم العمري : بإسناد حسن لذاته ، السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ .

غزوة حصار الطائف

- استعمال أسلحة جديدة

وفي حصار الطائف استعمل المسلمون أسلحة جديدة لم تكن لديهم من قبل ، وهي أسلحة الحصار ودكّ الحصون والأسوار مثل المجانيق والدبابات .

فقد ذُكر أن خالد بن سعيد بن العاص جاء بمنجنيق ودبابتين من جرش [١] ، فنصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ورماهم به [٢] ودخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها [٣] .

(١) انظر الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ ، والخزائي : تخريج الدلالات السمعية ، ص ٤٨٩ . وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة : أخرجه أبو داود في المراسيل بإسناد صحيح إلى مكحول ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ .
(٢) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .
(٣) انظر المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٨ . والخزاعي : تخريج الدلالات ص ٤٩٣ .

غزوة تبوك

١ - أهمية قوة الفرسان في التركيب التنظيمي للجيش

في هذه الغزوة زادت قوة الفرسان في التركيب التنظيمي للجيش الإسلامي حتى بلغت ثلث قوته ؛ فبعد أن كانت في أول معركة - وهي بدر - لا تكاد تذكر : فارس واحد (١) ، قفزت إلى عشرة آلاف فارس (٢) في جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل (٣) في آخر غزوة وتبوك .

والباحث المدقق يلاحظ أن الجيش الإسلامي قد لحق في هذا المجال بالعسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية ؛ إذ كانت كل منهما تقيم التركيب التنظيمي لجيشهما على أساس تشكيل القوة الضاربة الرئيسة من الفرسان (٤) .

٢ - توزيع الرايات والألوية في الجيش

وفي تبوك أعطي النبي ﷺ اللواء الأعظم للصديق رضي الله عنه ، والراية الكبرى للزبير رضي الله عنه ، وراية الأوس إلى أسيد بن حضير رضي الله عنه ولواء الخزرج إلى أبي دُجانة رضي الله عنه (٥) .

وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواءً وراية ؛ فكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يحمل راية بني مالك بن النجار ، وأبو زيد رضي الله عنه يحمل لواء بني عمرو بن عوف ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه يحمل راية بني مسلمة . كما اتخذت القبائل من العرب الرايات والألوية (٦) .

وهكذا احتل التنظيم حيزًا مهمًّا في عمليّات المسلمين الحربية ، الدفاعية منها والهجومية ، ولم يلق الرسول ﷺ ربه إلا وكان جيش الإسلام معدًّا لمواجهة

---

(١) انظر أحمد : المسند بترتيب الشيخ الساعاتي ، وقال المحقق : سنده صحيح ، ج ٢١ ، ص ٣٦ .
(٢) انظر الوقداي : المغازي ، ج ٣ ، ص ١٠٠٢ ، وابن حجر : الفتح ، ج ٨ ، ص ١١٨ .
(٣) انظر الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ٩٩ . وقال الحافظ في الفتح : « قاله الحاكم في الإكليل » ج ٨ ، ص ١١٨ .
(٤) انظر إرنست ديبوي وتريفور ديبوي : دائرة معارف التاريخ الحربي ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ . (نقلًا عن : محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه الجزيرة ، ص ١٠٢) .
(٥) انظر الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ٩٩٦ .
(٦) انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ٤١٦ (نقلًا عن أكرم العمري في السيرة الصحيحة ، ج ٢ ، ص ٥٣٢) .

القوتين العظمتين في عصره ، وهما فارس والروم ، حيث وقعت هذه المواجهة على الفور منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ .

وقد شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بملاحقتهم لعصرهم في هذا المجال ؛ إذ نُقل عن الإمبراطور البيزنطي « ليو » قوله : « إنَّ العرب أمهر الشعوب الأجنبية على الإطلاق في العمليات الحربية » [1] .

* * *

(١) نقلاً عن محمد جمال الدين محفوظ : إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه الجزيرة العربية ، ص ١٠٣ .

المبحث الرابع التنظيمات المالية

بعد الهجرة إلى المدينة ، كان الوحي ينزل على النبي ﷺ ضابطًا للمعاملات المالية بين المسلمين ، ومنظمًا لمواردهم المالية .

ويمكن تحديد ركائز النظام المالي الإسلامي - حسبما جاء في القرآن والسنة - في ثلاثة أوجه هي :

١ - موارد بيت المال : الزكاة ، الغنيمة ، الفيء ، الجزية ، العشور ، الثروات الطبيعية .

٢ - قواعد المعاملات .

٣ - الرقابة على السلوك (نظام الحسبة) .

جباية الأموال وصرفها

لقد كان من صلاحيات الوالي أو العامل في عصر النبوة أن يقوم بجمع الزكاة والجزية من الرعايا الذين يقطنون في منطقة حكمه [١] .

وأحيانًا كان الرسول ﷺ يرسل ساعيًا يختص بالنواحي المالية ليقوم بجمع مستحقات الدولة من الأموال ، ويدفعها إلى بيت مال المسلمين [٢] . وقد أطلق عليه اسم : المستوفي [٣] .

وكان الرسول ﷺ يفوض أحيانًا أحد العمال أن يتسلم الأموال ممن يليه من عمال الأقاليم [٤] . كما كان يعين عمالًا لجمع الزكاة [٥] .

(١) عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، فإن هم طاعوا لك بذلك ... فأخبرهم أن اللّه قد فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .. » انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ، ج ٥ ، ص ١٠٩ .

(٢) عن بريدة قال : « بعث النبي ﷺ عليًا إلى خالد لقبض الخمس ... » انظر البخاري : كتاب المغازي باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) انظر الكتاني : التراتيب الإدارية ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

(٤) انظر خليفة : التاريخ ، ص ٩٧ .

(٥) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٧١ ، وابن حجر : الإصابة ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ ، وخليفة : التاريخ ، ص ٩٨ .

وكان - عليه الصلاة والسلام - يشرف على إنفاق هذه الأموال في أوجهها الشرعية التي حددتها الآية رقم (٦٠) من سورة التوبة [١] .

كما كان يشرف على إدارة أوقاف المسلمين المالية : فحين طلب منه أبو طلحة الأنصاري ﷺ أن يضع حديقته (بيرحاء) حيث أراه اللّٰه ، قال له - عليه الصلاة والسلام - : « أرى أن تجعلها في الأقربين » [٢] .

وفي غزوة أحد أوصى مُخيريق الذي كان من علماء يهود بني النضير بأمواله للرسول ﷺ إن قُتل ، فقبلها النبي ﷺ [٣] .

أما كتابة مستحقات بيت المال : فقد كلَّف الرسول ﷺ الزبير بن العوام وجُهيم بن الصلت وحُذيفة بن اليمان بكتابة أموال الصدقات التي تجبى إلى خزينة المسلمين [٤] .

النقود وضبط المعاملات المالية

اهتم الرسول ﷺ بضبط وتنظيم المعاملات المالية ؛ فوضع قواعد مفصلة تحكم تبادل السلع في الأسواق :

منها : ما يوفر للمتبايعين المعلومات عن حقيقة السلع ودرجة جودتها [٥] .

ومنها : ما يُعين الناس على قياس الكميات والنقود بوضع المكاييل والأوزان [٦] .

---

(١) عن علي : أن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحنه ، فبلغها أن رسول اللّٰه ﷺ أتي بسبي ، فأتته تسأله خادمًا فلم توافقه ، فذكرت لعائشة ، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشة له ، فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم ، فقال : « على مكانكما حتى وجدت برد قدمه على صدري ، فقال : « ألا أدلكما على خير مما سألتماه ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا اللّٰه أربعًا وثلاثين ، واحمدا ثلاثًا وثلاثين ، وسبحا ثلاثًا وثلاثين ، فإن ذلك خير مما سألتماه » . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول اللّٰه ﷺ والمساكين وإيثار أهل الصفة والأرامل ، ج ٤ ، ص ٤٨ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، ج ٥ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) انظر ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، وابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٥٠١ ، وابن حجر : الإصابة ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، وابن حجر : الإصابة ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

(٥) عن أبي سعيد : أن رسول اللّٰه ﷺ نهى عن بيع المنابذة ، وهي طرح الرجل ثوبه بالبيت إلى رجل قبل أن يقلبه أو ينظر إليه . ونهى عن الملامسة ، والملامسة : لمس الثوب لا ينظر إليه . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب البيوع ، باب بيع الملامسة ، باب بيع المنابذة ، باب بيع المُخاصرة ، ج ٣ ، ص ٢٥ ، ٣٥ .

(٦) عن ابن عباس قال : قدم رسول اللّٰه ﷺ المدينة والناس يسلفون في الثمر العام والعامين .. فقال : « من سلف في تمر ، فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم » . انظر البخاري : كتاب السَّلَم ، باب السلم في وزن معلوم ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

ومنها : ما يبين دور النقود في ضبط وتسيير المعاملات التجارية [١] .

وكانت النقود في عهد الرسول ﷺ نقودًا معدنية ، وهي الدنانير الرومية والدراهم الفارسية . وقد أرشد النبي ﷺ إلى قياسها بالوزن بدلًا من العدد ؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا الذهب بالذهب ، ولا الورِق بالورِق ؛ إلا وزنًا بوزن ، مِثْلًا بمِثْل ، سواءً بسواء » [٢] .

وفي هذا حكمة بالغة ؛ لأن التلاعب في وزن النقود المعدنية كان يلجأ إليه بعض الأفراد والدول ، مما يجعل الوزن هو العامل الحاسم في قيمة النقود [٣] .

وأمر النبي ﷺ أن يكون السلف في كيل معلوم ووزن معلوم ؛ إذ لما قدم ﷺ المدينة وجدهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين ؛ أي يدفعون الثمن حالًا ويؤجلون استلام السلعة مقابل كيل غير معلوم ، فنهاهم عن ذلك ، ووجههم إلى ضبط الكيل والوزن ، وتحديد الأجل ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « من أسلف في شيء : ففي كيل معلوم ، ووزن معلوم ، إلى أجل معلوم » [٤] .

وثبت أن النبي ﷺ شجَّع المعاملات النقدية والصرف بدل المقايضة - وهي التبادل المباشر بين السلع - ويرجع ذلك - فيما يبدو - إلى أن قيمة المنتجات لا تجد مقياسها الحقيقي المبني على العدل إلا في الأسعار النقدية ، بوصفها معيارًا لتفسير التغيرات في أثمان السلع والخدمات ، وباعتبارها وحدة القياس المشتركة لتقييم جميع السلع ، بينما واجه الإنسان في المقايضة مشكلة اختيار السلعة القابلة لأن تكون وسيطًا للمبادلة ومقبولة من الجميع ، وتكون مقياسًا للسلع الأخرى ، بسبب تعدد الأطراف وتعدد السلع .

وفي هذا الصدد يروى أن هريرة رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ استعمل رجلًا على

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ استعمل رجلًا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب ، فقال رسول الله ﷺ : « أكل تمر خيبر هكذا ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بالثلاثة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعل ، بع الجمع بالدراهم ، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا » انظر البخاري كتاب البيوع ، باب إذا أراد بيع التمر بتمر خير منه ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب المساقاة ، باب الربا ، ج ١١ ، ص ١١ .

(٣) انظر معبد علي الجارحي : النظم المالية في الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب السَّلَم ، باب السلم في وزن معلوم ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

خيبر ، فجاءه بتمر جَنيب [١] ، فقال : « أكل تمر خيبر هكذا ؟ » قال : لا واللّه يا رسول اللّه ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بالثلاثة ، فقال : « لا تفعل ، بعِ الجمع [٢] بالدراهم ، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا » [٣] .

ويوضح حديث آخر دور التصارف وتبادل النقود بعضها ببعض من أجل تنظيم التجارة وتيسيرها ؛ حيث إن القصد من ذلك إتمام عمليات التبادل السلعي ، وهي الوظيفة الرئيسة التي جُعِلَتْ من أجلها النقود ، وبالتالي فإن تبادل العملة (الدينار والدرهم) بسعر يومها قبل أن يفترق البائعان سيسهل عمليات المبادلات التجارية .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « أتيت رسول اللّه ﷺ وهو في بيت حفصة ، قلت : يا رسول اللّه ! رويدك أسألك ، إني أبيع بالبقيع ، فأبيع بالدنانير وآخذ الدراهم ، وأبيع بالدراهم وآخذ الدنانير ، آخذ هذه من هذه ، وأعطي هذه من هذه ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « لا بأس أن تأخذ بسعر يومها ، ما لم تفترقا وبينكما شيء » [٤] .

نظام الحسبة

نظرًا لأن تطبيق قواعد العمل في الأسواق تحتاج إلى توجيه ورقابة واعية مستمرة ؛ فقد أنشأ النبي ﷺ وظيفة الحسبة للإشراف على الأسواق ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، ومحاربة الغش في البيوع ، والمحافظة على الآداب العامة .

وقد نُظِّم أمر السوق على عهد النبي ﷺ ، وحظي أمر الإشراف عليها باهتمام كبير ، وقام بهذه الوظيفة الرسول ﷺ بنفسه ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ مرَّ على صبرة طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللًا فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول اللّه ، قال : « أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ؟! من غش فليس مني » [٥] .

---

(١) هو نوع جيد من أنواع التمر . ابن منظور : اللسان ، ج ١ ، ص ٥١٠ .

(٢) التمر الرديء ، ابن منظور اللسان : ج ١ ، ص ٥٠١ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن ، كتاب البيوع ، رقم ٣٣٥٤ ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ ، والنسائي في السنن ، كتاب البيوع ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ .

(٥) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : من غشنا فليس منا ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد رسول الله ﷺ ، فبعث إليهم من يمنعوهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه إلى المكان المخصص لبيع الطعام [١] .

وفي حديث آخر : كان الذين يبيعون الطعام مجازفة [٢] يؤدبون في أن يبيعوه في مكانهم حتى يؤووه إلى رحالهم [٣] .

ونهى الرسول ﷺ عن تلقّي السلع قبل أن تجيء إلى السوق [٤] ؛ لما في ذلك من تغرير بالبائع الذي لا يعرف السعر [٥] .

ونهى كذلك أن يبيع حاضر لباد [٦] ، أي لا يكون له سمسارًا كما فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما [٧] ، وقصده من ذلك منع الغبن بين البائع والمشتري ، وحتى يعلم البائع بالسعر الحقيقي ، وهو ثمن المِثْل ، ويعلم المشتري بالسِّلعة [٨] .

هذا وقد شملت الحسبة في العهد المدني معاملات كثيرة غير هذه ومجالات متنوعة للعمل على مراقبة وتصويب الأقوال والأفعال والمقاصد والسلوك العام للإنسان المسلم ، في البيع والشراء والحرفة والصناعة والبناء والنقل واستخدام المرافق العامة ، وهي خصائص جعلتها تكتسب صفة « نظام » .

الملكية العامة للثروات الطبيعية

أما ملكية الثروات الطبيعية : كالعيون ، والأنهار ، والبحار ، والكلأ البري ، والغابات ، والمعادن ؛ فهي في الأصل ملك للأمة كما جاء في الحديث الشريف : « المسلمون شركاء في ثلاثة : الماء ، والنار ، والكلأ » [٩] ، وفي رواية : « ثلاثة

---

(١) انظر مسلم (بشرح النووي) : كتاب البيوع ، باب بطلان بيع المبيع قبل القبض ، ج ١٠ ، ص ١٦٩ .

(٢) المجازفة : بيع الشيء بغير كيل ولا وزن ولا عدد . انظر شرح النووي على صحيح مسلم ، ج ١٠ ، ص ١٦٩ .

(٣) عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « من ابتاع طعامًا فلا يبعه حتى يستوفيه » . انظر مسلم (بشرح النووي) : كتاب البيوع ، باب بطلان بيع المبيع قبل القبض ، ج ١٠ ، ص ١٧٠ .

(٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبع بعضكم على بيع بعض ، ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق » . انظر البخاري : كتاب البيوع ، باب النهي عن تلقي الركبان ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٥) انظر ابن تيمية : الحسبة ، ص ٣٦ .

(٦) عن أبي هريرة قال : نهى النبي ﷺ عن التلقي ، وأن يبيع حاضر لباد . انظر البخاري : كتاب البيوع ، باب النهي عن تلقي الركبان ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٧) انظر المصدر السابق .

(٨) انظر ابن القيم : الطرق الحكمية ، ص ٢٨٣ .

(٩) أخرجه أحمد في المسند : ج ٥ ، ص ٣٦٤ .

لا يمنعن : الماء ، والكلأ ، والنار » [١] . لكنها تؤول إلى الدولة لتنظيم استغلالها .

وضمانًا للمصالح العامة ، حمى الرسول ﷺ جهة البقيع بالمدينة ، ومساحتها ميل في ستة أميال - أي ستة أميال مربعة - لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار [٢] .

وأشار - عليه الصلاة والسلام - في وثيقة إقطاع همدان بعض مخاليف اليمن إلى المراعي ، فلم يعطهم أي حقٍّ في استغلال المراعي العامة استغلالًا خاصًّا كاستغلالهم للإقطاع الممنوح لهم ؛ حيث جاء في تلك الوثيقة : « لا يأكلون علافها ويرعون عَافِيهَا » [٣] .

ولما استقطع الأبيض بن حمَّال المأربي الرسول ﷺ ملح مأرب وأقطعه إيَّاه ، قال الأقرع بن حابس التميمي للرسول ﷺ : يا رسول اللَّه ! أتدري ما أقطعت له ؟ إنما أقطعت له الماء العد [٤] ؛ إني وردت هذا الملح في الجاهلية ، وهو بأرض ليس فيها غيره ، من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العد في الأرض . وحينئذ استقال الرسول ﷺ الأبيض في قطيعة الملح ، فقال الأبيض : قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة ، فقال النبي ﷺ : « هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العدِّ ، من ورده أخذه » [٥] .

ولاشك أنَ تدَخُّلَ الدولة في مراقبة وتسيير الثروات العامة يؤدي إلى إرساء نظم التوزيع الإسلامية ، فتتحصل مجموعة من المنافع الاجتماعية ؛ كتحقيق توزيع عادل للدخل والثروة ، وتكافؤ الفرص بين المسلمين ، وتشغيل أمثل للموارد ، ومحاربة الاحتكار ، وتشجيع المنافسة بين المنتجين ، وغيرها من المصالح العامة .

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الرهون ، ج ٢ ، ص ٨٢٦ . وقال المحقق في الزوائد : هذا إسناد صحيح .

(٢) انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٠١ .

(٣) انظر السهيلي : الروض الأنف ، ج ٧ ، ص ٤٢٥ .

(٤) أي الدائم الذي لا ينقطع ، ابن منظور اللسان : ج ٢ ، ص ٧٠٣ .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن ، رقم ٢٤٧٥ ، ج ٢ ، ص ٨٢٧ ، والماوردي في الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٧ ، وأبو يعلي في الأحكام السلطانية ص ٢٣٥ .

المبحث الخامس التنظيمات العمرانية

أذن الله ﷻ لنبيه ﷺ ببناء المسجد في موقع يتوسط المدينة ؛ فقد قال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : « هذا إن شاء الله المنزل » (١) . وفي رواية أخرى : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » (٢) .

وقد ساهم هذا الموقع في سهولة الاتصال بين أطراف المدينة ومركزها - وهو المسجد النبوي - ويَسَّر على جميع المسلمين مهمة الاتصال بالرسول ﷺ واللقاء في كل الأوقات ؛ فقد روي عن أنس بن مالك ﷺ قال : « كنّا نصلى العصر (أي في المسجد النبوي) ثم يذهب الذاهب منّا إلى قباء فيأتيهم والشمس مرتفعة » (٣) .

ولما كانت المدينة على هيئة الشكل المستطيل (٤) ، فإن تساوي الاتجاهات من مركز الشكل (المسجد) إلى أضلاعه سيساعد - بلا شك - على إيجاد توازن للتوسع المرتقب في خطط القبائل في المدينة . كما أنه سيجعل من عملية التوسع خارج المدينة نحو الشمال والغرب ، حيث وادي العقيق (٥) ، عملية نافعة اجتماعيًا واقتصاديًا . فهو من الناحية الاجتماعية سيخفف الضغط السكاني من قبل المهاجرين على خطط الأنصار كلما اتجهوا لسكنى تلك الجهات ، كما أنه سيعمل على ازدهارها عمرانيًا وزراعيًا ؛ وذلك بالعمل على إحياء معظم تلك الأراضي البور القابلة للخصوبة والزراعة (٦) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٢) موسى بن عقبة ، المغازي ، ص ١١٣ ، وابن هشام السيرة : ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الصلاة ، باب وقت العصر ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) بناءً على ما ذكره العلماء بأن حرم المدينة ما بين جبليها عير إلى ثور من الجنوب إلى الشمال ، وما بين لابتيها ، أي حرتيها الشرقية والغربية . انظر ابن حجر : الفتح ، ج ٤ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٥) في الصحيح عن ابن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول بوادي العقيق : « أتاني الليلة آت فقال : صل في هذا الوادي المبارك » البخاري ، كتاب الحج ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٦) انظر عبد الله بن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ، ص ١٦٨ .

وهكذا أتيح للمدينة أن خططها الرسول ﷺ وعمَّر أطرافها ثم أعطاها نظمها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ، وأصبح المسجد نقطة البداية لخطط المهاجرين والأنصار التي أطافت به من جميع الجهات .

فقد جاء في رواية عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة : أن النبي ﷺ خطَّ الدور بالمدينة [١] .

وقال ياقوت في (معجم البلدان) : « لما قدم النبي ﷺ مهاجرًا إلى المدينة أقطع الناس الدور والرِّباع » [٢] .

ثم طفق يعدد من تلك الدور التي اختطها رسول اللَّه ﷺ [٣] .

ومن بين من أُقطعوا الدور : أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه ؛ حيث أقطعه النبي ﷺ داره التي يقال لها دار معاوية [٤] .

وقال ابن سعد : « لما أقطع النبي ﷺ الدور بالمدينة خط لعثمان بن عفان داره اليوم ، ويقال : إن الخوخة التي في دار عثمان اليوم وِجَاه باب النبي ﷺ الذي كان المصطفى ﷺ يخرج منه إذا دخل دار عثمان [٥] .

ولم يقتصر خط الدور على المدينة وحدها ، بل شمل أيضًا مكة ؛ إذ كان من بين من أقطعهم الرسول ﷺ : عتبة بن فرقد ، وكتب له بذلك كتابًا جاء فيه : « بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى النبي ﷺ عتبة بن فرقد ، أعطاه موضع دار بمكة ، يبنيها مما يلي المروة ، وكتب معاوية » [٦] .

وفي هذه الروايات إشارة واضحة إلى أن النبي ﷺ أقطع الدور في المدينة ومكة ، وحدد موقعها كما هو الحال في داره ودار عثمان ودار عتبة ، وراعى تقارب الدور ، ولم يخلط أضدادًا متباينة متنافرة .

بل حتى القبائل من المهاجرين اختط لها - عليه الصلاة والسلام - محال

(١) انظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٧١٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، (المدينة) ج ٥ ، ص ٨٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٦ .

(٤) انظر المقريزي : إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، ج ٥ ، ص ١٠٤٥ - ١٠٤٦ (نقلًا عن إبراهيم طرفان : النظام الإقطاعي الإسلامي ص ٢٣) .

(٥) ابن سعد الطبقات : ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٦) ابن سعد الطبقات : ج ١ ، ص ٢٨٥ .

نزولها ؛ إذ نزل – على سبيل المثال – « بنو غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر القطيعة التي قطع لهم النبي ﷺ ، وهي ما بين دار كثير بن الصَّلت التي تعرف بدار الحجارة بالسوق ، إلى زقاق ابن حبين ، إلى دار أبي سبرة التي صارت لخالد مولي عبيد اللّه بن عيسى بن موسى إلى منازل آل الماجشون بن أبي سلمة » (١) .

وهكذا في إشراف النبي – عليه الصلاة والسلام – بشخصه على اختطاط الدور ومحال نزول القبائل ما يدل على أن السلطة التوجيهية والإدارية كانت تتمثل فيه ؛ مما يعطي الأمر بُعدًا مدنيًا وتنظيميًا بحق (٢) .

وإذا كان الرسول ﷺ يحب النظام حتى في نصب الأخبية في السفر ، فمن باب أولى وأحرى أن يحب ذلك في محال الاستيطان والبناء المشيد .

فقد أخرج أبو داود في سننه : أن النبي ﷺ بعث أن يُنادى في معسكره أن من ضيَّق منزلًا ، أو قطع طريقًا فلا جهاد له ، وذلك لـمَّا ضيَّق الناس المنازل وقطعوا الطرق (٣) .

ولا غرابة إذًا أن يكون التنظيم العمراني في أماكن الإقامة الدائمة يصدر عن خطة شاملة ترى أبعاد الكل بأجزائه ؛ يتبينَّ ذلك في المدينة من اختطاط الطرق ومصارف المياه ، والحفاظ على التوازن بين الأحياء والحارات ، حتى لا تخلى جهة على حساب جهة أخرى .

وفي هذا الباب يروى أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم فينزلوا قريبًا من النبي ﷺ ، فكره رسول اللّه ﷺ أن يُعَرُّوا المدينة فقال : « ألا تحتسبون آثاركم ؟! » (٤) .

يعني حضَّهم على البقاء في موقعهم من المدينة الذي اختار لهم ، فلا ينتقلوا إلى جوار المسجد فيتركوه خاليًا .

والطريف في الأمر : أن المدينة كانت على زمان الرسول ﷺ مدينة تحارب ويحاربها ما حولها من البلاد والقبائل ، كما حدث في غزوة أُحد والأحزاب ، ممَّا

---

(١) ابن شبة تاريخ المدينة : ج ١ ، ص ٢٦٠ . وللتنبية ، لمَّا أرَّخ ابن شبَّة للمدينة تاريخًا عمرانيًا وسياسيًا ، أسهب في ذكر المعلومات المتصلة بخطط المدينة ودورها ورباعها ومزارعها ومنازل القبائل فيها .

(٢) انظر جعفر ميرغني أحمد : مباحث في تاريخ المدينة على أيام النبي ﷺ ؛ بحث قدم للندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة ص ١٣ .

(٣) انظر أبو داود : السنن ، رقم ٢٦٢٩ ، ج ٣ ، ص ٤١ .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الأذان ، باب احتساب الآثار ج ١ ، ص ١٦٠ .

يستدعي إقامة حصن حولها لحمايتها ، إلا أنَّ النبي ﷺ لم يفعل ذلك ؛ لأنه أراد للمدينة أن تتوسع توسعًا مطردًا ، وكان الحصن مما يحدُّ رقعة المدن ، بل يجعل ما بداخله أكثر انتماءً إلى الحياة العمرانية مما بخارجه ، فلم يسوِّر - عليه الصلاة والسلام - مدينته على عادة المدن القديمة ، فكانت بذلك أشبه بالمدن الحديثة [١] .

وقد تنبأ النبي ﷺ بأن تمتد المساكن إلى أميال ، وذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عنه ﷺ قال : « تبلغ المساكن إهاب أو يهاب » .

وسئل راوي الحديث عن أبي هريرة ﷺ : فكم ذلك من المدينة قال : كذا وكذا ميلًا [٢] .

وهناك وظيفة أخرى في المدينة لا تقوم الحياة ولا يتم الاستقرار إلا بها : وهي تحدد السوق . وقد حدَّد النبي ﷺ موضع السوق [٣] ، لعلمه أن الاستقرار لا يقوم إلا به ، فهو مصدر التكسب والتجارة والحرف وحركة الأموال والناس .

وقد كان اختيار المسلمين لموضع سوقهم اختيارًا موفقًا دل على عمق تجربتهم التجارية وفهمهم لأمور البيع والشراء ؛ إذ كان واقعًا في جهة هي بمثابة المدخل الرئيسي للمدينة ، سواء من جهة الشام أو اليمن أو مكة وديار سائر القبائل المجاورة ، مما مكَّنهم من تلقِّي التجار والوفود حال وصولهم ، موفرين عليهم مشقة الالتفاف بروحلهم المحمّلة حول بيوت المدينة [٤] .

وكانت السلع والبضائع معروضة بشكل منظم في سوق المدينة ؛ إذ كان لبعضها مكان خاص بها ؛ فللبزازين - وهم بائعوا الثياب [٥] - مكان معروف بهم في السوق [٦] . وكان للخيل قسم خاص من السوق يعرف ببقيع الخيل [٧] . وكذلك

(١) جعفر ميرغني أحمد : مباحث في تاريخ المدينة ص ٨ .

(٢) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفتن ، باب في سكنى المدينة وعمارتها ، رقم ٢٩٠٣ ، ج ١٧ ، ص ٣٠ .

(٣) عن أبي أسيد أن رسول اللّه ﷺ ذهب إلى سوق النبيط ، فنظر إليه فقال : « ليس هذا لكم بسوق » ثم ذهب إلى سوق فنظر إليه فقال : « ليس هذا لكم بسوق » ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه ثم قال : « هذا سوقكم ، فلا يُنتقَصَنَّ ، ولا يُضْرَبنَّ عليه خراج » . انظر ابن ماجه : السنن ، كتاب التجارات : رقم ٢٢٣٣ ، ج ٢ ، ص ٧٥١ .

(٤) انظر عبد اللّه بن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ، ص ٢٠٩ .

(٥) ابن منظور لسان العرب ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٦) انظر الكتاني : التراتيب الإدارية ، ج ٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٧) انظر السمهودي : وفاء الوفا ج ٢ ، ص ٧٥٤ .

الإبل [١] ، والبقر والغنم [٢] .

أما ما يتعلق بنظام بناء المساكن : فإن تصميم الدور أخذ شكله من الأحاديث التي تنظم علاقة أفراد الأسرة فيما بينهم ، وعلاقتهم بسواهم من أصدقاء وضيوف ، وهي في مظانها من القرآن الكريم وكتب السنة .

ومثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور : ٢٧] ، وقوله جل ذكره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النور : ٥٨] .

ويدخل في هذا

- ما روي عن النبي ﷺ في أمر الاستئذان بالنسبة لداخل الدار من خارجها [٣] .
- وبالنسبة لسكانها كلٌّ على الآخر في موقعه الخاص به ، حتى ليستأذن المرء على أمه وأبيه [٤] .
- وما روي من التفرقة بين الأطفال في المضاجع في سنٍّ خاصة [٥] .
- وما كان من أمر الحجاب [٦] ؛ ممَّا يكيِّف تصميم السكن وفق أوصاف

---

(١) انظر المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٥٤ ، وابن حجر : الإصابة : ج ١ ، ص ٥١ .

(٢) ابن حجر الإصابة ، ج ١ ، ص ٤٨٣ ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٣) عن أنس ﷺ : أن رسول الله ﷺ كان إذا سلم سلم ثلاثًا ، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا . انظر البخاري الجامع الصحيح ، كتاب الاستئذان ، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا ، ج ٧ ، ص ١٣٠ .

(٤) انظر ابن كثير : التفسير ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

(٥) عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال النبي ﷺ : « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » انظر أبو داود : السنن ، كتاب الصلاة ، ج ١ ، ص ١٣٣ ، وأحمد في المسند ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٦) عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ : أحجب نساءك . قالت : فلم يفعل ، كان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلًا إلى ليل قبل المناصع ، خرجت سودة بنت زمعة وكانت امرأة طويلة فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس ، فقال : عرفتك يا سودة - حرصًا على أن ينزل الحجاب - قالت : فأنزل الله ﷻ آية الحجاب . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الاستئذان ، باب آية الحجاب ، ج ٧ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

خاصة ليتلاءم مع هذه المتطلبات ، ومع القيم التي يؤمن بها المجتمع المسلم .

أما بالنسبة لشبكة الطرق والبلاط وشبكة تصريف المياه : فقد عرفت المدينة في العهد المدني هذه المرافق ؛ إذ روي من طريق أبي هريرة ﷺ قال : « قضى النبي ﷺ إذا تشاجروا في الطريق الميتاء بسبعة أذرع » [١] .

وفي رواية أخرى : « اجعلوا الطريق سبعة أذرع » [٢] .

وفي قوله : « إذا اختلفتم » دلالة على أن الأذرع السبع هي الحدُّ الأدنى الذي يحكم به الحاكم حين يتشاح الناس ويختلفون .

ويبدو أن العلَّة التي من أجلها جعل أدنى الطريق سبعة أذرع ليست إلا المسافة المريحة ؛ لأن يمر ذاهب وآيب من غير مزاحمة ، كما يحتمل أن يذهب ويجيء البعير المحمل والحمار عليه النهايتان [٣] .

علمًا بأن الأذرع السبع في قياس المدن القديمة طريق واسع ومريح ؛ إذ تعادل في النظام المتري ٣,٧٨ متر ، بمقدار ٥٤ سنتمترًا للذراع الواحدة [٤] .

وفي شأن البلاط وتصريف المياه : ذكر السمهودي رحمه الله أنه أقيم من زمان النبي ﷺ حول المسجد بلاط [٥] له أسراب ثلاثة تصب فيها مياه المطر ؛ فواحد بالمصلى عند دار إبراهيم بن هشام ، والآخر على باب الزوراء عند دار العباس بن عبد المطلب ، ثم يخرج ذلك الماء إلى ربيع في الجبانة عند الحطابين ، وآخر عند دار أنس بن مالك في بني جديلة عند دار بنت الحارث [٦] .

كما أُثر عن النبي ﷺ باعتباره ممثلًا للسلطة في المجتمع الإسلامي توجيهات تمثل لوائح ونظم للصحة يمكن تصنيفها إلى ما يلي [٧] :

أ – **أوامر ونواهي تتعلق بالصحة الوقائية** ؛ كالنهي عن البول في الماء الراكد ، وفي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم ، باب إذا اختلفوا في الطريق ، ج ٣ ،ص ١٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن ، أبواب الأحكام ، رقم ١٣٦٦ ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

(٣) هي الخشبة التي توضع معترضة على ظهره يعلق عليها الأحمال . ابن منظور : لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٧٣٤ .

(٤) انظر جعفر ميرغني أحمد : مباحث في تاريخ المدينة ، ص ١٦ . انظر فالترهنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري .

(٥) هو الموضع المفروش بالحجارة . ابن منظور : اللسان ، ج ١ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(٦) انظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٧٣٦ .

(٧) انظر جعفر ميرغني : مباحث في تاريخ المدينة ، ص ٢١ .

الظلال والطرقات التي يرتادها الناس [١] .

وكالأمر بقتل الكلاب إلَّا ما استثني من كلب صيد أو ماشية أو زرع [٢] ، والأمر بغسل الإناء إذا ولغ فيه الكلب [٣] .

ب - توجيهات ونصائح طبية ؛ مثل :

- تنظيم أوقات النوم [٤] .
- والاقتصاد في الأكل [٥] .
- والاغتسال والنظافة [٦] . وهي تتعلق أيضًا بالوقاية الصحية .

جـ - أوامر ونواهي وتوجيهات تتعلق بأحوال المرضى مثل :

- الحجر على البلد الذي يقع به الطاعون [٧] .
- والدعوة إلى التداوي في طلب العلاج ، مثل حديث : « ما أنزل اللَّه داءً إلا أنزل له شفاءً » [٨] ، وحديث : « تداووا يا عباد اللَّه ، فإن اللَّه لم يضع داءً إلا

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه » . انظر البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الوضوء ، باب الماء الدائم ، ج ١ ، ص ٦٥ ، وأحمد في المسند (بترتيب الشيخ الساعاتي) ج ١ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) انظر مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب المساقاة ، باب الأمر بقتل الكلاب .. إلا لزرع أو صيد أو ماشية ، ج ١٠ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٣) انظر البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الوضوء ، باب إذا شرب الكلب في إناء أحدكم ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٤) سُئلت عائشة ﷺ كيف صلاة النبي ﷺ بالليل ؟ قالت : كان ينام أوله ، ويقوم آخره فيصلي ، ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذن المؤذن وثب ، فإن كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج . انظر البخاري : كتاب التهجد ، باب إذا نام أول الليل وأحيا آخره ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٥) عن ابن عمر ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ : « إن المؤمن يأكل في معي واحد ، وإن الكافر - أو المنافق - يأكل في سبعة أمعاء » . انظر البخاري : كتاب الأطعمة ، باب المؤمن يأكل من معي واحد ، ج ٦ ، ص ٢٠٠ .

(٦) عن نعيم المجمر قال : رقيت مع أبي هريرة على ظهر المسجد فتوضأ فقال : إني سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » . انظر البخاري : كتاب الوضوء ، باب فضل الوضوء ، ج ١ ، ص ٤٣ ، وابن ماجه في السنن ، كتاب الطهارة ، رقم ٢٨٠ ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(٧) عن إبراهيم بن سعد قال : سمعت أسامة بن زيد يحدث سعدًا عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا منها » . انظر البخاري : كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاهون ، ج ٧ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٨) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب ما أنزل اللَّه داء إلا أنزل له شفاء ، ج ٧ ، ص ١٢ .

وضع له شفاءً إلا داءً واحدًا الهرم » [(١)] ، مما يدعو إلى مواصلة البحث العلمي ، وتطوير أساليب العلاج ، ومعرفة أنواع الأدواء والأدوية .

د - أوامر ونواهي وتوجيهات تتعلق بحماية البيئة ورعاية النبات والحيوان [(٢)] :

حيث روي من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « المدينة حرم من كذا إلى كذا ، لا يقطع شجرها ... » [(٣)] الحديث .

فكان لذلك أثر في الحفاظ على الثروة النباتية في المدينة ومنع تربتها من الانجراف .

ولأهمية هذه الثروة حثَّ الرسول ﷺ على الزراعة بقوله : « ما من مسلم يغرس غرسًا ، أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ؛ إلا كان له به صدقة » [(٤)] .

فزرع أهل المدينة أنواعًا مختلفة من أشجار الفواكه والحبوب والخضراوات ، حتى عادت المدينة نسجًا أخضر من داخلها ومن حولها [(٥)] .

كما جعل النبي ﷺ المدينة وما حولها حرمًا آمنًا للحيوان ؛ حيث روى عن أبي هريرة ﷺ أنه كان يقول : لو رأيت الضباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها ؛ قال رسول اللَّه ﷺ : « ما بين لابتيها حرام » [(٦)] .

هذا علاوة على الأحاديث التي تدعو إلى المحافظة على النوع من الانقراض ، والرفق بالحيوان ؛ إذ نهى النبي ﷺ عن أكل الحمر الأهلية [(٧)] .

ومن أسباب هذا النهي : ما روي عن ابن عباس ﵄ من أن النبي ﷺ نهي عنها لأجل أنها كانت حمولة الناس [(٨)] .

---

(١) قال الحافظ في الفتح : « أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم » ، ج ١٠ ، ص ١٣٥ .

(٢) انظر جعفر ميرغني أحمد : مباحث في تاريخ المدينة ، ص ٢٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب فضائل المدينة ، باب حرم المدينة ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة ، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

(٥) انظر ابن سعد الطبقات : ج ١ ، ص ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٤٠٨ ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، وأحمد المسند : ج ٥ ، ص ٣٣٧ ، والترمذي السنن ، كتاب الأطعمة ، رقم ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٩ ، وتتضمن هذه الأحاديث بعض الأطعمة التي كان أهل المدينة يقومون بزراعتها ، والبلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٧ ، وابن حجر : الإصابة : ج ١ ، ص ٧١ .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة ، باب لابتي المدينة ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٧) عن ابن عمر ﵄ قال : أن رسول اللَّه ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية . انظر البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ج ٥ ، ص ٧٩ ، ومسلم : كتاب الصيد ، باب تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية ، ج ١٣ ، ص ٩٣ .

(٨) انظر مسلم : الجامع الصحيح (بشرح النووي) كتاب الصيد ، باب تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية ، ج ١٣ ، ص ٩٣ .

ومما يدخل في باب الرفق بالحيوان : حديث المرأة التي عذبت في أن سجنت هرَّة وجوَّعتها حتى ماتت [1] .

وحديث الرجل الذي سقى الكلب العطشان فغفر اللَّه له ، فقال الصحابة على أثر ذلك مستفهمين : يا رسول اللَّه ! وإن لنا في البهائم لأجرًا ؟ فقال : « في كل ذات كبد رطبة أجر » [2] .

وهكذا ، فإن تصريف الشؤون المختلفة في العهد المدني لم يكن تخبطًا عشوائيًا ، وإنما وفق خطط مرسومة وإجراءات تتسم بالنظام والدقة ، فيما يتعلق باقتطاع دور المدينة ومدَّ شوارعها وشبكة مصارف مياهها ، ومواقع مسجدها وسوقها ومصلَّاها ، وسنّ التوجيهات لحماية بيئتها ، والحفاظ على ثروتها النباتية والحيوانية ، وفي باب الرعاية الصحية ، وسائر ما يعكس التألق الحضاري في أبهى صوره ومظاهره ؛ تألقًا يجمع بين القيم والأخلاق الإسلامية ، وبين تنظيم شؤون المدينة في كافة المجالات ، مما يعكس أجمل وأرقى نظام حضاري عرفته البشرية .

وخلاصة القول

لقد خلف لنا التنظيم بكافة أشكاله في المرحلة المدنية جملة من المبادئ المهمة ، والقواعد الكلية ، والضوابط ، التي يمكن من خلالها تأسيس مدارس إسلامية في مختلف التنظيمات ، ذات خصائص مستقلة ، تقوم على منهج عقدي له طبيعته ومميزاته وشموليته التي تحقق تفوُّقه على نظائره من مدارس التنظيم الغربية المعاصرة ، كالمدرسة العلمية ، والمدرسة السلوكية ، وغيرها .

على أن ما يتميز به النظام الإسلامي من مرونة وقدرة على الاستجابة السريعة ، والملاءمة لكل ما قد يحدث من متغيرات في مجال الأساليب والوسائل والأدوات ، وما أتيح له من اجتهاد واتصال بين الفكر والتطبيق ، سيجعل - بحول اللَّه - المسلمين قادرين على التصدي للتحديات الحضارية التي تواجههم في هذا العصر .

---

(١) عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال : « عذبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » . انظر البخاري : كتاب الأنبياء ، باب حدثنا أبو اليمان ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب رحمة الناس بالبهائم ، ج ٧ ، ص ٧٧ .






الخاتمة




الخاتمة

إن المتأمل لمصادر التشريع الوضعي في كثير من بلاد المسلمين يلاحظ أن التشريع المطلق هو المصدر الأساس فيها على حين أن قواعد وأحكام الشريعة الإسلامية لا تعدو أن تكون مصادر قانونية هامشية واحتياطية تأتي في الدرجة الثالثة بعد العرف المستمد من عادات وتقاليد متغيرة للمجتمعات ، ويُلجأ إليه في أحيان أخرى للاستئناس .

فالعرف عند هؤلاء يعلو على الشريعة الإسلامية ، وقد يلغي بعض أحكامها ! والقانون يعلو على العرف ، وقد يلغيه ، والدستور يعلو على القانون وقد يلغيه ، والسلطة التي وضعت الدستور سواء كانت مَلِكًا ، أم رئيسًا ، أم مجلسًا تشريعيًّا ، هي التي تملك أن تلغي الدستور .

بل إنَّ الأمر - لديهم - أشد ؛ إذ ليس الدستور والقانون والعرف هي وحدها المصادر المقدمة على الكتاب والسنة فقط ، بل التشريع الفرعي بما فيه قواعد المرور ، وقوانين الباعة المتجولين ، وقوانين الأغذية ، ولوائح المحلات الطبية وغيرها [1] !! .

وقد انتقل هؤلاء من التشريع المطلق إلى الإقرار الصريح بحق التشريع لغير اللَّه ، بحيث إن نصوص الشريعة لا تكتسب صفة القانون عند العلمانيين لو أرادوا العمل بها إلا بصدورها عمن يملك حق التشريع عندهم تعبيرًا عن إرادته سواءً كان سلطة عليا أم مجلسًا تشريعيًّا . وهذا فقط هو الذي يعطيها صفة القانون .

أما صدورها عن اللَّه ﷻ : فلا يعطيها صفة القانون لأنه - في زعمهم - ليس مصدرًا للسلطات .

ومثال ذلك : تحريم الخمر ، هو حكم قطعي ضروري في الشريعة الإسلامية ، يتوسل الدعاة والعلماء الطيبون إلى السلطة الحاكمة أن تقرَّه لكي يصبح تشريعًا ملزمًا ، فإن تكرَّمت السلطة وقبلت الطلب عرضته على المجلس التشريعي الذي مُنح بحكم الدستور صلاحية التشريع المطلق ليبدي رأيه بالموافقة أو عدمها !! ثم في المجلس تدور معركة الأصوات بين المؤيدين والمعارضين الذين يعترضون بكل ثقة وبكل جرأة ؛ لأنهم يمارسون عملهم الدستوري وسلطتهم المشروعة !! وعلى أحسن الافتراضات إذا حصل القرار على الأغلبية ؛ فإنه يصبح - هنا فقط - حكمًا ملزمًا ويُدرج ضمن مواد

(١) انظر عبد المجيد الشاذلي : حدّ الإسلام وحقيقة الإيمان ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

التشريع الوضعي على أنه فقرة من فقراته . ومع ذلك يظل حق السلطة التشريعية في نقض وإلغاء هذه المادة وهذا القانون متى شاءت محفوظًا بحكم الدستور (١) .

ومع تقدير أن دولةً ما طبّقت أحكام الشريعة ؛ كجلد شارب الخمر مثلًا ، فهذا الحكم لم يكتسب صفة القانون والإلزام والتنفيذ لصدوره من اللَّه ﷻ ؛ بل لصدوره عن السلطة التشريعية الرسمية التي أقرته بعد عرضه عليها ، لأن اللَّه جل وعلا في زعمهم ليس من حقه التشريع ، وليس لحكمه صفة الإلزام ، فأي افتئات على مقام الألوهية أشنع من هذا !! (٢) .

وهل الكفر باللَّه لفظًا أو عملًا أو كتابةً ينبغي أن يصدر من ناس أسماؤهم نصرانية أو يهودية حتى تتحرك العواطف ؟ أما إذا صدر عبر قوانين مكتوبة عن أشخاص يحملون أسماء إسلامية فالأمر يختلف ، مع أنه من الناحية الشرعية لا يختلف الحكم المترتب على التلفظ عن الحكم المترتب على الكتابة .

وفي مجال القضاء ذي الصلة المباشرة بالتشريع : يُلاحظ أن معظم البلدان الإسلامية لا تتحاكم إلى شرع اللَّه إلا في مسائل الأحوال الشخصية أو بعضها ، ومن يطبق الحدود الشرعية منها لا يفعل ذلك غالبًا إلا لضبط الأمن ؛ إذ تُنفِّذ حدود الزنا والسرقة والقتل عادة على الضعفاء ، أمَّا عِلية القوم فلم نسمع أنه أقيم حدٌّ شرعي على أحد منهم ، رغم ما يعرف عن فريق من هؤلاء من خلاعة ومجون ، واختلاس الأموال العامة ، وهدر دماء الأبرياء من الناس !

ثم إن الأحكام الوضعية في مجال القضاء محروسة بالضمانات الدستورية ، ومحمية بسلطة الجيش والشرطة والمخابرات التي تسهر على تنفيذها ، وتضع كل محتج أو رافض لها محل المساءلة والعزل والعقوبة الرادعة .

ولماذا نذهب بعيدًا ؟ وقد حدث بالفعل أن حكم قاضٍ في دولة عربية بالجلد في جريمة سكر متأولًا هذه المادة من الدستور .

فماذا كانت النتيجة ؟

لقد أُبطل حكمه وأقصي عن القضاء ، وكان مما ذكره رئيس محكمة الاستئناف في حيثيات بطلان هذا الحكم ما يلي :

(١) انظر سفر عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ، ص ٤٢٣ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥ .

« ... إنَّ مُصْدِر هذا القانون لم يعرف شيئًا من علم العقاب ؛ فقد شدد المشرع الوضعي في العقوبة وجعلها ستة أشهر حماية للمجتمع ، وهذا أحفظ من مجرد الجلد ثمانين جلدة »[1] .

فهذا المفتري يرى أن التشريع الوضعي أحفظ لأمن المجتمع من الشريعة الإسلامية ، وكأنه يقول أن اللَّه ﷻ - تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا - لا يعرف شيئًا من علم العقاب عندما اكتفى بمجرد الجلد على السكر !!

وعلى العموم ، فإن الفساد المستشري في جميع المجالات والمرافق الحيوية في كثير من بلدان المسلمين على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإداري والأمني والثقافي والإعلامي هو فساد مُقنَّن ومدعوم من السلطات العليا ، ويحميه القانون والمخابرات وقوة الجيش والشرطة ، كما أنه فساد في بنية وتركيبة هذه الدول ، متغلغل في طبيعة الأنظمة المتبعة فيها ، بل أكثر من ذلك إنه فساد في الهدف والغاية .

وإزاء هذا الواقع الرهيب ، ولمواجهة المبدِّلين الذين أقصوا الشريعة الإسلامية وحصروها في بعض شؤون الأحوال الشخصية ، واستحلُّوا ما حرم اللَّه ، وانتهكوا حرمات الإسلام ، فإن الإصلاح الحقيقي لا يكمن في تغيير بعض بنود الدستور ، أو الالتقاء مع أعداء الدين في منتصف الطريق ، وإنما يتجلَّى الإصلاح الحقيقي في : استخدام ما يناسب من الوسائل الشرعية لكل مرحلة من مراحل الإصلاح اللازمة لتحقيق السيادة لشريعة اللَّه تعالى .

إن الأمر برمَّته يحتاج لعمل دعوي تجديدي شامل يأخذ بالحسبان أسس المنهج النبوي في الدعوة وهي : المعرفة ، والتربية ، والتخطيط ، والتنظيم ، ويستفيد من جميع طاقات العاملين في حقل الدعوة - ما كان في بوتقة التنظيم وما كان خارج بوتقته - ويوظفها توظيفًا موجهًا ومبرمجًا .

ووفق هذه الأسس وخصائصها وتصوراتها تتجدد معالم الدين في المسلمين .

على أن تعدد الجماعات الإسلامية يعتبر ظاهرة طبيعية لمفردات الواقع الإسلامي ، وبالتالي فإن هذا التعدد لا ينبغي أن يقف عائقًا حقيقيًا يحول دون الوصول إلى الهدف المنشود بدافع الحزبية والأنانية والهوى ، بل يمكن اعتبار أن

(١) انظر أحكام إسلامية إدانة للقوانين الوضعية لمحمود غراب ، نقلًا عن محمد محمد بدري : لماذا نرفض العلمانية ؟ ص ٥١ .

كل منها يسدُّ فجوة من الفجوات ، ويغلق بابًا من الأبواب التي يتدفَّق منها الفساد ويتحدَّر من خلالها الشر (١) .

وإن المطلوب هو ترشيد عقدي وعملي لهذه الجماعات بحيث يتضح أمامها حقيقة الواقع بكافة أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسلوكية وغيرها .. لأجل أن تنظر إليها من الناحية التقويمية والدعوية من خلال المنظار المرجعي لأهل السنة والجماعة ، وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الشرعية (٢) .

والخلاصة : أنه يتضح من المنهاج النبوي في الدعوة إلى اللَّه أن هناك مرحلتين يجب أن تتحكما في سير الدعوة وهما :

المرحلة المكية ، والمرحلة المدنية ؛ لكن ليس من حيث المدة الزمنية التي استغرقتها تلكما المرحلتان في عصر النبوة ، وإنما من حيث طبيعة المنهج والحركة .

فالمرحلة الأولى : هي مرحلة « التربية » وغرس مفاهيم الإيمان في النفوس بأبعاده القلبية والقولية والعملية ، والعناية خاصة بأعمال القلوب وما يترتب عليها من رسوخ القدم في الإيمان ، وصدق العزيمة ، والإخلاص ، والشجاعة في الحق ، والصبر على الطاعات ، وعن المعاصي ، وعلى أذى الخلق ، والتزود بالتقوى ، والزهد في حطام الدنيا ، والتحصُّن بمكارم الأخلاق ، والحرص على ما عند اللَّه في الآخرة ، مما يجعل الجماعة المسلمة تحمل عبء الواقع الثقيل صابرة محتسبة .

ويوازي ذلك في مجال « المعرفة » بلورة الفكر المنهجي للمنتمين للعمل الإسلامي بعيدًا عن العشوائية والارتجال ، وبعيدًا عن تقديس الأشخاص أو العبودية لحزب أو جماعة ؛ بترشيد الشباب بمناهج علمية مُؤَصَّلة ، تقودهم إلى فهم واعٍ وموضوعي بأصول الإسلام العقائدية وقواعده الكلية وضوابط شريعته ، وتقدم لهم أيضًا رؤية واضحة وناضجة لواقع الأمة الإسلامية بخلفياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسبل النهوض بها .

وهكذا في نسق منهجي متكامل تكون الأصول العقائدية ممثلة فيه بندًا من بنوده الرئيسة .

---

(١) انظر عبد الغني الرحال : المسلمون وسراب الديموقراطية ، ص ١٥ .

(٢) انظر عبد الغني الرحال : المسلمون وسراب الديموقراطية ، ص ١٥ - ١٦ .

كما ينبغي الإحاطة والدراية بأصول أخرى تضبط سلوكنا ، وتحكم حركتنا أثناء تعاملنا مع الواقع وحقائق الأشياء وهي :

- أصول النظر والاستدلال .
- ومناهج البحث والاستقراء .
- وأصول فقه الواقع .
- والحركة الإيجابية الواعية خلال هذا الواقع .
- وحدود المفاسد والمصالح المعتبرة فيه .
- وأصول النظر إلى المخالف .
- ومنهج التعامل معه .
- والأصول التي تحكم علاقات بعضنا مع بعض .
- والأصول التي تحكم علاقاتنا مع عالم الأسباب من حولنا والعلل الكونية التي جعلها اللّه ﷻ سننًا مطردة صارمة مؤدية إلى معلولاتها [1] .

والنجاح الحقيقي الذي تشرئب له الأعناق ، وتتطلع له الأفئدة ، مستحيل بدون بذل غاية الجهد ، لتأصيل العقلية المسلمة تأصيلًا علميًّا متكاملًا لترتفع بهمومها وتطلعاتها إلى مستوى المرحلة التي تعيشها الأمة بوضع « خطط » علمية مدروسة وإستراتيجيات ثابتة محكمة تستشرف فيها آفاق المستقبل ، وتحدد من خلالها ما تريد أن تعمله ؟ وما الذي يجب تنفيذه ؟ وأين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ وعن طريق من؟ وما هي البدائل المتاحة ؟ .

على أن التخطيط للدعوة يبدأ من منطلقات إستراتيجية إحكامية بعيدة المدى عن طريق القياديين ومفكري الأمة ومنظريها .

ثم يأتي دور « التنفيذ السليم » لضمان تنفيذ الخطط بالشكل المطلوب ؛ إذ تكمن أهميته في تحديد مهام وواجبات كل فرد ، وذلك ببيان علاقة كل فرد مع الآخرين ، وتحديد موقعه في خريطة العمل ، وتوزيع المسؤوليات والعلاقات لمستويات الأفراد المختلفة ؛ كل ذلك من أجل إيجاد تنسيق بشري يساهم فيه كل

---

(١) لمزيد من التوسع في معالم وضوابط هذا المنهج ، انظر : أهل السنة والجماعة (الانطلاقة الكبرى) لمحمد ابن عبد الهادي المصري .

فرد لإنجاح مسيرة العمل الإسلامي [١] .

كما أن انطلاق أهل السنة والجماعة لاستيعاب لغة العصر وعلومه وثقافته وامتلاك أسباب القوة المادية لكسب موقع قدم في مجالات العمل الاجتماعي والخيري ، مما يسمح بالتفاعل مع نسيج الأمة الاجتماعي والاقتصادي وكسب قلوب الناس لمصلحة الدعوة ، والاستفادة من وسائل التكنولوجيا المعاصرة في ميادين البحث والتخطيط والإحصاء والإدارة ، واستخدام أجهزة الكمبيوتر في العلوم الشرعية بتحليل نُظُمها ووضع برامج لمعالجتها ، لتحصيل المعلومات بصورة شاملة ، واستعمال شبكة الإنترنت للوصول إلى المعلومات الشاملة ونشر الدعوة ، كل ذلك ما زال فريضة شرعية قبل أن يكون واجبًا عقليًا ، أو حتميةً تاريخية .

وكذلك يجب على المهتمين بأمر الدعوة من أهل السنة قبل غيرهم أن يتوافقوا مع سنن اللَّه الكونية ويستوعبوها استيعابًا حقيقيًا ؛ بامتلاك منهج للتفكير يستند إلى وعي صحيح بأحداث الماضي ، ووعي جيِّد لظروف الحاضر حتى يتمكنوا من امتلاك رؤية واضحة لكيفية عمل سنن اللَّه تعالى في الأنفس والآفاق ، بدلًا من إهمال هذه السنن وإهدار طاقتهم ووقتهم .

وشعار هذه المرحلة الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] . إنها مرحلة التربية والبناء ؛ وهذا يعني الإعداد لمسيرة ربما قد تستغرق وقتًا طويلًا من عمر الدعوة إعدادًا شاملًا قبل أن يكتب لها التمكين في الأرض ، لضخامة الانحراف من جهة ، ولأنَّ المطلوب أن تربِّي القاعدة المؤمنة الواعية المجاهدة ذات الحجم المعقول من جهة ثانية ، والتي يحتاج الأمر لبنائها ارتياد الطريق الطويل الشاق الذي يأخذ وقتًا ليس باليسير .

وبعد استفراغ الجهد في بناء المعرفة ، والتربية ، والتخطيط ، والإعداد المنظم ، مما يساهم في امتلاك القوة أو جانب منها انطلاقًا من قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم

---

(٢) انظر نبيل الفيصل : أهمية مبادئ الإدارة في الدعوة ، ص ٣٧ - ٣٨ .

مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة تحكيم الشريعة ، وشعارها قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] ، وهي تتويج لمشروع وعمل طموح ودؤوب ، تلتقي فيها العقيدة والشريعة ، قوامه الإيمان والتوحيد والعمل الصالح : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور: ٥٥] .

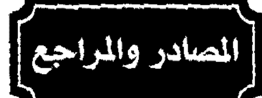
وفي كل الأحوال : فإنّ هذا العمل الدعوي التجديدي الشامل ينبغي أن يكون منضبطًا بأصول وضوابط المنهاج النبوي في كافة مراحل تطوره المتتابعة ، وخاضعًا للدراسات الشرعية المستفيضة .

وأخيرًا : إنَّ إحياء الأمة من سباتها العميق والدفع بها إلى مكانها الطبيعي في مقدمة الركب لتقود البشرية مرة أخرى بأمر من اللّٰه ﷻ لن يتحقق من خلال جهود أفراد أو تجمعات صغيرة أو كبيرة ، وإنما يحتاج الأمر إلى جهود وتضحيات كل هذه التجمعات والجماعات والأفراد المخلصين لهذا الدين ، الملتزمين بالإطار العام لأهل السنة والجماعة : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

* * *




منهج النبي ﷺ في الدعوة
من خلال السيرة الصحيحة


المصادر والمراجع




المصادر والمراجع العربية

- **القرآن الكريم .**

١ - ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (المتوفى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، بيروت : دار الفكر .

٢ - أحمد إبراهيم علي : **في السيرة النبوية : قراءة لجوانب الحذر والحماية** ، كتاب الأمة ، العدد ٥٤ ، رجب ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

٣ - أحمد جعفر ميرغني : **مباحث في تاريخ المدينة على أيام النبي ﷺ** ، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٤ - الأحمد ، محمد : **حديث القرآن عن الجهاد في سبيل الله** ، مجلة السنَّة ، عدد ٣٣ ، صفر ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

٥ - أحمد ، مهدي رزق : **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية** ، دارسة تحليلية ، الناشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

٦ - ابن إدريس ، عبد اللَّه بن عبد العزيز : **مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ** ، الناشر : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٧ - ابن إسحاق ، أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني (المتوفى ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) : **سيرة ابن إسحاق المسماة ، المبتدأ أو المبعث والمغازي** ، تحقيق محمد حميد اللَّه ، نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب ، الرباط ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٨ - الأعظمي : مصطفى : **دراسات في الحديث النبوي** ، الرياض : ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م .

٩ - الألباني ، ناصر الدين : **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل** ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .

١٠ - **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .

١١ - **صحيح الجامع الصغير وزيادته** ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٣ ،

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

١٢ - البخاري (الإمام) ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (المتوفى ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م) : **الأدب المفرد** ، راجعه وعني بتصحيحه محمد هشام البرهاني ، الناشر : وزارة العدل والشؤون الإسلامية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

١٣ - **التاريخ الكبير** ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٤ - **الجامع الصحيح** ، إستانبول : مؤسسة إليف أوفست ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٥ - بدران ، عبد القادر ، **تهذيب تاريخ ابن عساكر** ، بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٦ - بدري ، محمد محمد : **الصفوة والأمة** ، مجلة البيان ، عدد ١٠٩ ، رمضان ١٤١٧ هـ / يناير - فبراير ١٩٩٧ م .

١٧ - **لماذا نرفض العلمانية ؟** عدد ٤٥ ، جمادى الأولى ١٤١٢ هـ / نوفمبر ١٩٩١ م .

١٨ - البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) : **تقييد العلم** ، تحقيق يوسف العش ، دمشق : دار إحياء السنة النبوية ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

١٩ - **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** ، تحقيق محمد رأفت سعيد ، الكويت : مكتبة الفلاح ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

٢٠ - **الفقيه والمتفقه** ، طبعة القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٢١ - **الكفاية في علم الرواية** ، القاهرة : دار الكتب الحديثة .

٢٢ - بكار ، عبد الكريم : **من أجل انطلاقة حضارية شاملة** ، الرياض : دار المسلم للنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

٢٣ - البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى البغدادي (المتوفى ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) : **أنساب الأشراف** ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة : دار المعارف .

٢٤ - **فتوح البلدان** ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت : مؤسسة المعارف ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

٢٥ - البنا ، فرناس عبد الباسط : **التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية** ، (عهد

الرسول ﷺ) وقائع ندوة النظم الإسلامية ، أبو ظبي ، ١٨ - ٢٠ صفر ، ١٤٠٥ هـ / ١١ - ١٣ نوفمبر ١٩٨٤ م .

٢٦ - البيهقي ، أبو الحسن علي بن زيد (المتوفى ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) : **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** ، تحقيق عبد المعطي قلعجي ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٢٧ - **السنن الكبرى** ، بيروت : دار المعرفة .

٢٨ - **شعب الإيمان** ، تحقيق محمد السعيد زغلول ، بيروت : دار الكتب العلمية .

٢٩ - التركي ، علي : **دروس موضوعية في السيرة** ، مجلة السنَّة عدد ٢٧ ، جمادى الثانية ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، عدد ٢٨ ، رجب ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م .

٣٠ - الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة (المتوفى ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ، **السنن** ، بيروت : دار الفكر ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٣١ - التهامي ، عبد اللَّه : **الوسائل وأحكامها في الشريعة الإسلامية** ، مجلة البيان ، عدد ١٠٦ ، جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ / أكتوبر ١٩٩٦ م .

٣٢ - ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (المتوفى ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧م) : **جامع الرسائل** ، تحقيق محمد رشاد سالم ، مطبعة المدني ، القاهرة .

٣٣ - **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** ، مطابع المجد التجارية .

٣٤ - **الحسبة في الإسلام** ، تحقيق محمد النجار ، الرياض ، المؤسسة السعيدية .

٣٥ - **الصارم المسلول على شاتم الرسول** ﷺ ، بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م .

٣٦ - **العبودية** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٣٧ - الجارحي ، معبد علي : **النظم المالية في الإسلام** ، ندوة النظم الإسلامية ، أبو ظبي ، ١٨ - ٢٠ صفر ١٤٠٥ هـ / ١١ - ١٣ نوفمبر ١٩٨٤م .

٣٨ - الجعدي ، عمر بن علي بن سمرة (المتوفى ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م) ، **طبقات فقهاء اليمن** ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .

٣٩ - الجليل ، عبد العزيز ناصر : **إن ربك حكيم عليم** ، الرسالة الرابعة ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

٤٠ - **قل هو نبأ عظيم** ، الرسالة التاسعة ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ،

١٤١١ هـ / ١٩٩٦ م .

٤١ - **متى نصر الله ؟** الرسالة الخامسة ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م .

٤٢ - **وكونوا مع الصادقين** ، الرسالة السادسة ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

٤٣ - الجهشياري ، أبو عبد اللَّه محمد بن عبدوس بن عبد اللَّه (المتوفى ٣٣١هـ/ ٩٤٢ م) : **الوزراء والكتاب** ، مصطفى السقا وآخرون ، القاهرة : شركة مصطفى البابي الحلبي ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

٤٤ - الحاكم النيسابوري ، أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن حمدويه (المتوفى ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) : **المستدرك على الصحيحين** ، بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٤٥ - ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) : **الإصابة في تمييز الصحابة** ، بيروت : دار الكتاب العربي .

٤٦ - **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير** ، تحقيق حسن عباس ، جدَّة مؤسسة قرطبة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

٤٧ - **تهذيب التهذيب** ، حيدر آباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م .

٤٨ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز وآخرين ، نشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية .

٤٩ - **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، الكويت : إدارة الشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م .

٥٠ - حسنة ، عمر عبيد ، **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي** ، كتاب الأمة ، إصدار رئاسة المحاكم الشرعية في قطر ، عدد ٨ محرم ، ١٤٠٥ هـ / أكتوبر ١٩٨٥ م .

٥١ - حميد اللَّه ، محمد ، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** ، بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

٥٢ - الحميدي ، أبو بكر عبد اللَّه بن الزبير (المتوفى ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م) ، **المسند** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، القاهرة : مكتبة المتنبي .

٥٣ - ابن حنبل ، أحمد بن محمد أبو عبد اللّه (المتوفى ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) ، **فضائل الصحابة** ، تحقيق وصي اللّه بن محمد عباس ، بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٥٤ - **المسند** (طبعة بيروت : دار الفكر ، طبعة القاهرة : دار الشهاب ، بترتيب الشيخ الساعاتي ، الطبعة المحققة ، تحقيق أحمد شاكر ، القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م) .

٥٥ - الحوالي ، سفر بن عبد الرحمن ، **ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي المعاصر** ، رسالة جامعية نوقشت بجامعة أم القرى في مكة بتاريخ ١١/٢/١٤٠٧هـ ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، رقم ٨٧٩ .

٥٦ - الخزاعي التلمساني ، أبو الحسن علي بن محمد (المتوفى ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧م) ، **تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول اللّه ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية** ، تحقيق محمد أحمد أبو سلامة ، نشر وزارة الأوقاف المصرية ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

٥٧ - خطاب ، محمود شيت : **الرسول القائد** ، بغداد : دار مكتبة الحياة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

٥٨ - **ومضات من نور المصطفى** ، بيروت : دار الفكر .

٥٩ - الخطابي ، أبو سليمان حمد بن حمد البستي (المتوفى ٣٨٨ هـ / ٩٩٨م) : **أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري** ، تحقيق محمد بن سعد آل سعود ، مكة : مركز إحياء التراث العلمي ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م

٦٠ - **غريب الحديث** ، تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، من منشورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى في مكة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٦١ - الخطيب ، محب الدين ، **من إلهامات الهجرة** ، مجلة البيان ، عدد ٢٠، محرم ١٤١٠ هـ / أغسطس ١٩٨٩ م .

٦٢ - خليفة العصفري ، أبو عمرو خليفة بن خياط البصري (المتوفى ٢٤٠هـ/ ٨٥٤ م) ، **التاريخ** ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٦٣ - الدارقطني ، علي بن عمر (المتوفى ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) ، **السنن** ، تحقيق عبد اللّه هاشم يماني ، القاهرة : دار المحامي للطباعة ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦ م .

٦٤ - الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (المتوفى ٢٥٥ هـ / ٨٦٨م) ، **السنن** ، بيروت : دار الكتب العلمية .

٦٥ - أبو داود السجستاني ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق (المتوفى ٢٧٥هـ / ٨٨٨ م) : - **السنن** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت : دار الفكر .

٦٦ - الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (المتوفى ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) ، **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وآخرين ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

٦٧ - الرامهرمزي : **المحدث الفاصل بين الراوي والواعي** ، تحقيق محمد عجاج الخطيب ، بيروت : دار الفكر ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٦٨ - الرحال ، عبد الغني : **الإسلاميون وسراب الديمقراطية** ، دارسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية ، الرياض : دار المؤتمن للنشر والتوزيع .

٦٩ - رضا ، رشيد : **تفسير المنار** ، بيروت : دار المعرفة .

٧٠ - الريمي ، عبد المجيد : **حوار مع عبد المجيد الريمي عن هموم الدعوة** ، مجلة البيان عدد ١٠٤ ربيع الآخر ١٤١٧ هـ / أغسطس - سبتمبر ١٩٩٦ م .

٧١ - الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (المتوفى ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م) ، **الفائق في غريب الحديث** ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : دار المعرفة .

٧٢ - الزهري ، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب (المتوفى ١٢٤ هـ / ٧٤١م) : **المغازي النبوية** ، تحقيق سهيل زكار ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

٧٣ - زين العابدين ، محمد سرور : **دراسات في السيرة النبوية** ، مناقشة شبهات المتحالفين مع العلمانيين والمرتدين ، مجلة السنة ، عدد ٧ ، ربيع الثاني ١٤١١ هـ / نوفمبر ١٩٩٠ م .

٧٤ - ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري (المتوفى ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) : **الطبقات الكبرى** ، بيروت : دار صادر .

٧٥ - سلمان ، سامي : **التنظيم** ، مجلة البيان ، عدد ٣١ ، محرم ١٤١١هـ /

أغسطس ١٩٩٠ م .

٧٦ - السلمي ، محمد بن صامل : **كيف نفسر التاريخ ؟** مجلة البيان ، عدد ٥٠ شوال ١٤١٢ هـ / إبريل ١٩٩٢ م .

٧٧ - **منهج كتابة التاريخ الإسلامي** ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .

٧٨ - السلومي ، عبد العزيز : **ديوان الجند** ، مكة المكرمة : مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

٧٩ - السمهودي ، علي بن عبد الله (المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

٨٠ - ابن سيد الناس ، أبو الفتح محمد بن محمد (المتوفى ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م) : **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** ، بيروت : دار الفكر ، ودار الآفاق ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٨١ - السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : **الإتقان في علوم القرآن** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

٨٢ - الشاذلي ، عبد المجيد : **حد الإسلام وحقيقة الإيمان** ، مكة المكرمة : مطبعة الصفا (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

٨٣ - الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (المتوفى ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م) : **الاعتصام** ، نشر المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .

٨٤ - **الموافقات في أصول الشريعة** ، تحقيق عبد الله دراز ، القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى .

٨٥ - الشامي صالح أحمد : **السيرة النبوية ، تربية أمة وبناء دولة** ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

٨٦ - **من معين السيرة** ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

٨٧ - ابن شبَّة ، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (المتوفى ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) : **تاريخ المدينة المنورة** ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، جدة : دار

الأصفهاني للطباعة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

٨٨ - الشبول ، أحمد : **علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة** ، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٨٩ - ابن أبي شيبة ، عبد اللّٰه بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (المتوفى ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) : **المصنف في الحديث والآثار** ، تحقيق عبد الخالق الأفغاني ، بومباي - الهند - : الدار السلفية ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

٩٠ - الشيخ ، عبد العزيز : **الوهم الجماهيري** ، مجلة السنة ، عدد ٢٧ . جمادى الثانية ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ م .

٩١ - أبو الشيخ (الحافظ) ، عبد اللّٰه بن محمد بن جعفر (المتوفى ٣٦٩ هـ / ٩٧٩م) : **أخلاق النبي ﷺ وآدابه** ، تحقيق مرسي محمد أحمد ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٩٢ - الصقار ، سامي : **لمحات عن نشوء الحركة العلمية في الحجاز في صدر الإسلام** ، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، جامعة الملك سعود كلية الآداب ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٩٣ - الصنعاني ، أبو بكر عبد الرزاق بن همام (المتوفى ٢١١ هـ / ٨٢٦ م) : **المصنف** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م .

٩٤ - الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد اللّٰه (المتوفى ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م) : **أدب الكتاب** ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، مكة المكرمة : دار الباز .

٩٥ - الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (المتوفى ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) : **المعجم الكبير** ، بغداد : الدار العربية للطباعة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

٩٦ - الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد (المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٢م) : **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة : دار المعارف ، ط ٤ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

٩٧ - **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، القاهرة : مطبعة وشركة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

٩٨ – الطيار مساعد : **مصادر التفسير (التفسير بالسنة)** ، مجلة البيان ، عدد ٩٦ ، شعبان ١٤١٦هـ / يناير ١٩٩٦ م ، عدد ٩٨ ، شوال ١٤١٦ هـ / فبراير – مارس ١٩٩٦ م .

٩٩ – ابن أبي عاصم : أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم (المتوفى ٢٨٧هـ / ٩٠٠ م) : **السنة** ، تحقيق ناصر الدين الألباني ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

١٠٠ – عبد الباقي ، محمد فؤاد : **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

١٠١ – ابن عبد البر القرطبي ، أبو عمر يوسف بن عمر النميري (المتوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠ م) : **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، بيروت : دار الكتاب العربي .

١٠٢ – **جامع بيان العلم وفضله** ، (بدون إشارة إلى مكان الطباعة) .

١٠٣ – ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (المتوفى ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) : **العقد الفريد** ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٩٣ م .

١٠٤ – أبو عبيد : القاسم بن سلام (المتوفى ٢٢٤ هـ) : **الأموال** ، تحقيق محمد خليل هراس ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ م .

١٠٥ – ابن عتيق ، حمد بن علي : **سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك** ، الرياض : الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء .

١٠٦ – العجلي ، أحمد بن عبد الله بن صالح (المتوفى ٢٦١ هـ / ٨٧٤م) : **تاريخ الثقات** ، تحقيق عبد المعطي قلعجي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٠٧ – عرجون ، محمد الصادق إبراهيم : **محمد رسول الله ﷺ** ، دمشق : دار القلم ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٠٨ – ابن عقبة ، موسى بن عقبة بن أبي عياش المدني (المتوفى ١٤١ هـ / ٧٥٨ م) : **المغازي** ، تحقيق محمد باقشيس أبو مالك ، من منشورات كلية الآداب بأغادير ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

١٠٩ – العكبري ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، (المتوفى ٦١٦ هـ /

١٢١٩م) : **المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم** ، تحقيق ياسين السواس ، الناشر : مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

١١٠ - علاقي ، مدني عبد القادر : **الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية** ، جدة : مطبوعات تهامة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

١١١ - العلياني ، علي بن نفيع : **أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه** ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١١٢ - العمري ، أكرم : **بحوث في تاريخ السنة المشرفة** ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

١١٣ - **السيرة النبوية الصحيحة** ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

١١٤ - العوا ، محمد سليم : **في النظام السياسي للدولة الإسلامية** ، القاهرة : المكتب المصري الحديث ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١١٥ - الغزالي ، محمد : **فقه السيرة** ، دمشق : دار القلم ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

١١٦ - الفاسي ، محمد بن أحمد المكي (المتوفى ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) : **العقد الثمين** ، تحقيق فؤاد سيد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .

١١٧ - فايز ، أحمد : **طريق الدعوة في ظلال القرآن** ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .

١١٨ - الفرَّا ، طه : **جغرافية موقعة بدر** ، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، الرياض : جامعة الملك سعود كلية الآداب ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

١١٩ - الفيصل ، نبيل بن جعفر : **أهمية مبادئ الإدارة في فن الدعوة** ، مجلة البيان ، عدد ٩٦ ، شعبان ١٤١٦ هـ / يناير ١٩٩٦ م .

١٢٠ - **الخطة والتخطيط ، لماذا ؟ وكيف ؟** ، الخُبر - المملكة العربية السعودية - : مطابع التسهيلات ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

١٢١ - قاسم ، عون الشريف : **نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ** ، دراسة في وثائق العهد النبوي ، القاهرة : دار الكتاب المصري ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

١٢٢ - القرشي ، يحيى بن آدم (المتوفى ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) : **كتاب**

الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت : دار المعرفة .
١٢٣ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (المتوفى ٦٧١ هـ / ١٤١٨ م) : **أحكام القرآن**، بيروت : دار إحياء التراث العربي .
١٢٤ - قريبي، إبراهيم : **مرويات غزوة حنين وحصار الطائف**، الناشر : الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
١٢٥ - القطان، مناع : **النظام القضائي في العهد النبوي**، ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي، ١٨ - ٢٠ صفر ١٤٠٥ هـ / ١٢ - ١٣ نوفمبر ١٩٨٤ م .
١٢٦ - قطب، سيد : **في ظلال القرآن**، القاهرة : دار الشروق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .
١٢٧ - **معالم في الطريق**، بيروت : دار الشروق، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
١٢٨ - قطب، محمد : **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، الناشر : المجموعة الإعلامية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ،
١٢٩ - **واقعنا المعاصر**، جدة : مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
١٣٠ - القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري (المتوفى ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) : **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
١٣١ - ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (المتوفى ٧٥١هـ / ١٣٥٠ م) : **طريق الهجرتين**، **بيروت** : دار الكتب العلمية، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
١٣٢ - **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
١٣٣ - **الطرق الحكمية**، تحقيق بهيج غزاوي، بيروت : دار إحياء العلوم .
١٣٤ - **مدارج السالكين**، القاهرة : دار الحديث .
١٣٥ - **مفتاح دار السعادة**، الناشر : إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض .
١٣٦ - الكتاني، عبد الحي : **التراتيب الإدارية**، بيروت : دار الكتاب العربي .
١٣٧ - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (المتوفى ٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م) : **البداية والنهاية في التاريخ**، بيروت : دار الفكر .

١٣٨ - **تفسير القرآن العظيم** ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

١٣٩ - **السيرة النبوية** ، بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

١٤٠ - ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن أبي النصر محمد بن السائب (المتوفى ٢٠٤هـ/ ٨١٩ م) : **جمهرة النسب** ، تحقيق ناجي الحسن ، بيروت : مكتبة النهضة العربية .

١٤١ - الكلوذاني ، أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن (المتوفى ١١١٦م) ، **التمهيد في أصول الفقه** ، تحقيق مفيد محمد أبو عمشة ، الناشر : مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

١٤٢ - اللالكائي ، أبو القاسم هبة اللّٰه بن الحسن (المتوفى ٤٢٨ هـ / ١٠٢٧م) : **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم** ، تحقيق أحمد سعد حمدان ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع .

١٤٣ - ابن ماجه ، أبو عبد اللّٰه محمد بن يزيد القزويني (المتوفى ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م) : **السنن** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت : دار الفكر .

١٤٤ - مالك (الإمام) ، أبو عبد اللّٰه مالك بن أنس المدني (المتوفى ١٧٩هـ/ ٧٩٥ م) : **الموطأ** ، تحقيق سعيد اللحام ، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩ م .

١٤٥ - الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (المتوفى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : **الأحكام السلطانية** ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٤٦ - المحب الطبري ، أبو العباس أحمد بن عبد اللّٰه (المتوفى ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م) : **الرياض النضرة في مناقب العشرة** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٤٧ - محفوظ ، محمد جمال الدين : **إدارة الرسول ﷺ للصراع في شبه جزيرة العرب ونتائجه الإستراتيجية** ، مجلة الدارة ، عدد ٢ ، السنة ١٤ ، الرياض .

١٤٨ - مسلم (الإمام) ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى ٢٦١هـ/ ٨٧٤ م) : **الجامع الصحيح (بشرح النووي)** ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م . وطبعة أخرى : تحقيق عصام الصبابطي وآخرين ، القاهرة : دار الحديث ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

١٤٩ - المصري ، أمين : **المسؤولية** ، الكويت : دار الأرقم ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

١٥٠ - المصري ، محمد عبد الهادي : **أهل السنة والجماعة (معالم الانطلاقة الكبرى)** ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

١٥١ - ابن منصور ، سعيد بن منصور (المتوفى ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م) : **السنن** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٥٢ - ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم (المتوفى ٧١١ هـ / ١٣١١م) ، **لسان العرب** ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ، بيروت : دار لسان العرب .

١٥٣ - الناصر ، محمد : **أخلاق العرب في الجاهلية والإسلام** ، مجلة البيان ، عدد ٢٤ ، جمادى الثانية ١٤١٠ هـ / يناير ١٩٩٠ م .

١٥٤ - النجم ، عمر بن فهد (المتوفى ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) : **إتحاف الورى بأخبار أم القرى** ، تحقيق فهيم شلتوت ، نشره مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

١٥٥ - النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب (المتوفى ٣٠٣هـ / ٩١٥ م) : **السنن** ، بيروت دار الكتب العلمية .

١٥٦ - أبو نعيم الأصبهاني ، أحمد بن عبد اللّٰه بن أحمد (المتوفى ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) : **حلية الأولياء** ، بيروت : دار الفكر .

١٥٧ - **دلائل النبوة** ، تحقيق محمد رواس قلعجي ، وعبد البر عباس ، دمشق : دار ابن كثير ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

١٥٨ - النووي ، يحيى بن شرف بن مري الحوراني (المتوفى ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) : **تهذيب الأسماء والصفات** ، مكة المكرمة ، دار الباز للنشر .

١٥٩ - الهرثمي ، أبو سعيد الشعراني (المتوفى بعد ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م) : **مختصر سياسة الحروب** ، تحقيق عبد الرءوف عون ، القاهرة : المؤسسة المصرية للتأليف .

١٦٠ - ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (المتوفى ٢١٨ هـ / ٨٣٣م) : **سيرة النبي ﷺ** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر : رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض .

١٦١ - الهلابي ، عبد العزيز : **الحركة الثقافية في الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين** ، الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ،

١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

١٦٢ - هنتس ، فالتر : **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمه من الألمانية إلى العربية كامل العسيلي ، عمان : الجامعة الأردنية، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

١٦٣ - الهيثمي ، نور الدين علي بن أبي بكر (المتوفى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م) : **كشف الأستار عن زوائد البزار** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٦٤ - **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، بيروت : دار الفكر ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

١٦٥ - **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان** ، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٦٦ - الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر السهمي المدني (المتوفى ٢٠٧هـ / ٨٢٢ م) : **المغازي** ، تحقيق مارسدن جونس ، بيروت : عالم الكتب .

١٦٧ - ياقوت الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨ م) : **معجم البلدان** ، بيروت : دار الكتاب العربي .

١٦٨ - أبو يعلى الفراء ، محمد بن الحسين الحنبلي (المتوفى ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م) : **الأحكام السلطانية** ، تحقيق محمد حامد الفقي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٩٣ م .

١٦٩ - أبو يعلى الموصلي ، أحمد بن علي بن المثنى (المتوفى ٣٠٧ هـ / ٩١٩م) ، **المسند** ، تحقيق حسين سليم أسد ، دمشق : دار المأمون للتراث ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

١٧٠ - أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (المتوفى ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) : **كتاب الخراج** ، بيروت : دار المعرفة .

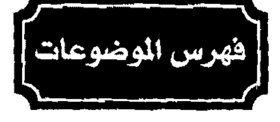
المصادر والمراجع الأجنبية

• Sebeos : Hiatair d"Heraclius (Traduction Fran-caise par F. macler, Paris, 1904).

• Theophanes : Chronographia (English trans-lation by H. Turtledore, Philadelphia, 1982) .

مَنهج النبي ﷺ في الدعوة

من خلال السيرة الصحيحة








فهرس الموضوعات

الفصل الرابع

خصائص الفترة المكية في مجال التنظيم

الباب الثاني

الفترة المدنية

الفصل الأول

خصائص الفترة المدنية في مجال المعرفة

الفصل الثاني

خصائص الفترة المدنية في مجال التربية

الفَصْلُ الثَّالِثُ

خصائص الفترة المدنية في مجال التخطيط

الفَصْلُ الرَّابِعُ

خصائص الفترة المدنية في مجال التنظيم

رقم الإيداع
2002/8430
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-066-3

المؤلف في سطور

- هو . أ .د . محمد أمحزون أستاذ التاريخ الإسلامي الوسيط بكلية الآداب جامعة المولى إسماعيل .

حصل على البكالوريوس من جامعة الملك سعود سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ثم حصل على الماجستير من نفس الجامعة سنة (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ثم الدكتوراة من جامعة محمد الأول بوجدة بالمغرب سنة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) .

- عمل أستاذًا زائرًا في جامعة الإمارات العربية بمدينة العين سنة (١٩٩٧م) . كما عمل أستاذًا زائرًا في جامعة الشارقة سنة (١٩٩٩م) .

قام بتأليف الكثير من الأعمال منها :

تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين (مجلدان) .

المدينة المنورة في رحلة العياشي (دراسة وتحقيق) .

أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين (دراسة وتحقيق) .

تاريخ العلاقات الشيوعية الصهيونية .

منهج دراسة التاريخ الإسلامي .

تاريخ بلدة خنيفرة (تحقيق) .

- له العديد من الأبحاث المنشورة منها :

الحركة العلمية في الحجاز في العصر الأموي ، مجلة البيان اللندنية ، الأعداد ٥٥، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٦ ، / سبتمبر ١٩٩٢م ، أكتوبر ١٩٩٢م ، مارس ١٩٩٣م ، أغسطس ١٩٩٣م .

عبد اللّه بن سبأ في ميزان البحث العلمي . البيان ، عدد ٨٠ ، عدد ٨١ / أكتوبر ١٩٩٦م ، نوفمبر ١٩٩٤م .

ابن سبأ في كتابات المعاصرين . البيان ، عدد ٣١ / أغسطس ١٩٩٠م .

مقاصد الهجرة وأهدافها . البيان ، عدد ١١٣ / مايو ١٩٩٧ .

منهج الطبري في تاريخه . البيان ، عدد ٥٤ / أغسطس ١٩٩٢م .

البعد الإستراتيجي للخطة النبوية في مواجهة الروم والتمهيد لفتح بلاد الشام ، البيان عدد ١٥١ / يونيو ٢٠٠٠م .

- كما شارك في العديد من الندوات والأبحاث العلمية ، وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه .

- زار الكثير من المكتبات العالمية منها : المكتبة الوطنية في باريس ، ومكتبة المتحف البريطاني في لندن ، ومكتبة جامعة كيبك في مونتريال ، ومكتبة الأسكوريال وغيرها .

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع سويًا مسيرتنا إلى الأمام ويعود النفع على القارئ والدار .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** ....

الدولة : .... المدينة : .... حي : .... شارع : ....

ص.ب : .... تليفون : .... فاكس : ....

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

□ أثناء زيارة المكتبة □ ترشيح من صديق □ مقرر □ إعلان □ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟

□ رخيص □ معقول □ مرتفع (لطفًا وضح لِمَ) ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على العنوان التالي

ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ مطبعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مما لا شك فيه أن المنهج النبوي في الدعوة هو المنهج الذي ارتضاه اللّه عز وجل لرسوله ﷺ في دعوته منذ البعثة النبوية حتى التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، هذا المنهج الذي أقل ما يوصف به أنه شامل متكامل يستقصي جميع قضايا الدعوة علمًا وعملًا وفكرًا وسلوكًا وعقيدة وشريعة، يتعامل مع الواقع بالمعرفة العميقة والفحص الدقيق من أجل إصدار الحكم الصحيح.

ويعد هذا المنهج هو الإطار الوحيد الذي لا يستطيع أي داعية يبتغي النجاة في الدنيا والآخرة أن يخرج عليه؛ فالسيرة النبوية هي التطبيق العملي لمنهج النبي ﷺ؛ لأن بلورة أسس ومعالم هذا المنهج لا تكون إلا من خلال معرفة وقائع السيرة وأحداثها.

وقد جاء هذا الكتاب ليوضح بالدراسة والتحليل منهج النبي ﷺ في بناء أسس الدولة من خلال عرض السيرة النبوية الصحيحة في مرحلتيها المكية والمدنية، في أسلوب جديد رائع يتميز بالعرض التحليلي الذي نتلمس فيه عبق التاريخ وروح المعاصرة، وهو يوضح كيف غرس النبي ﷺ مفاهيم الإيمان في النفوس وتأصيل الفكر الإسلامي في المسلمين بعيدًا عن تقديس الأشخاص، وذلك من خلال مناهج علمية مؤهلة تقودهم إلى فهم واعٍ وموضوعي مسدد بالوحي، قوامه الوسطية والاعتدال، يستطيع من خلاله كل مسلم الصمود أمام الإغراءات والتحديات، كما يقدم رؤية واضحة وناضجة لواقع الأمة الإسلامية السياسي والاقتصادي والاجتماعي وسبل النهوض بها.

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٥٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

